التيسير في التفسير

الجزء الثالث

الأعراف - يوسف

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسيني

رضوان الله عليه

تحقيق

عبدالله بن حمود العزي　　محمد بدر الدين الحوثي

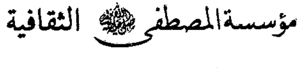


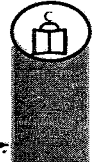
مؤسسة المصطفى صلى الله عليه وآله الثقافية

التيسير في التفسير
تأليف العالم الربّاني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه
تحقيق: السيد/ عبدالله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي
الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

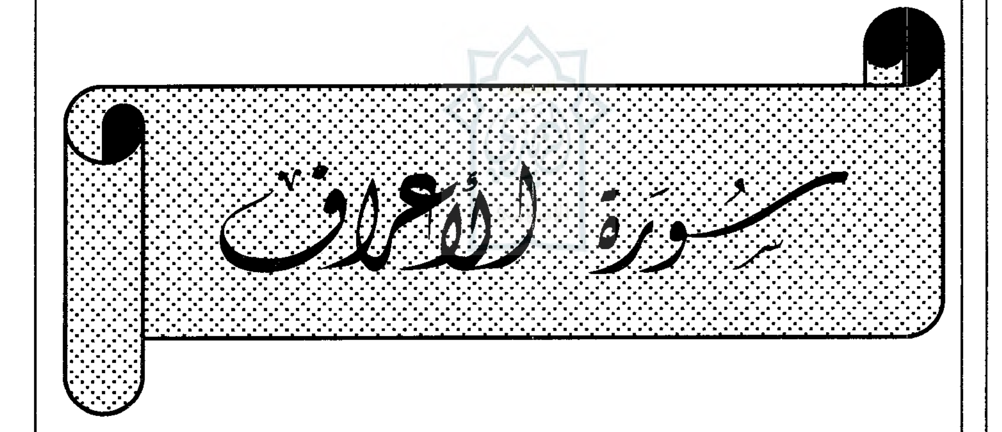
قياس القطع: (١٦,٥×٢٤)
عدد المجلدات: (٧)
الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية
إخراج وتنسيق/ علي بن حمود العزي
رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٣٢٥/٢٠١٣م)



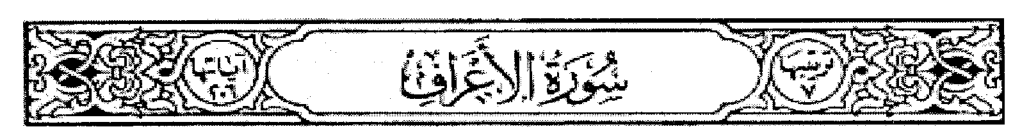




اليمن ـــ صعدة
جوال: (٠٠٩٦٧٧١١٣٧٧٢٧٦٢) ـ (٠٠٩٦٧-٧٣٧٩٩٢٧٧٧) ـ (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩)
بريد: almostafa.ye@gmail.com ـ hbhbhd@gmail.com


سورة الأعراف





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن

ابتداء تفسير (سورة الأعراف)

قال الشرفي في (المصابيح): «سورة الأعراف مائتان وست آيات مكية غير ثماني آيات: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي..﴾ إلى ﴿..وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ فإنها مدنية» انتهى.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓصٓ﴾ تقدم في تفسير (الفاتحة) تفسير البسملة، وتقدم في أول تفسير (سورة البقرة) في الكلام في الحروف المذكورة في أوائل السور، ولا إشكال أنها عبارة عن معانيها المعروفة المعبر عنها في (ألف، باء، تاء، ثاء.. إلخ) التسعة والعشرين اسماً للحروف التي يتركب منها الكلم، فألف للحرف الأول من (أنا) ومن (أمر) ومن غيرهما، والحرف الثاني من (رأى) ومن (نأى) وغيرهما وما في سائر الكلام منه سواء في أول الكلمة أو أثنائها أو آخرها.

وهكذا (اللام) اسم للحرف الثاني في (لفظ الجلالة) وفي (إله) وفي (علم) وما هو منه في سائر الكلمات، سواء في أولها أو أثنائها أو آخرها، وهكذا الكلام في (ميم) وفي (صاد) فالكل أسماء لحروف تستعمل في تركيب الكلام، فهذا لا إشكال فيه، إنما الإشكال في الغرض المقصود الذي لأجله ذكرت في أوائل السور، فقيل: أُعلِم به العرب أنه ـ أي القرآن ـ مركب من حروف كلامهم في سياق التعجيز بسورة من مثله تأكيداً للتعجيز.

دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ

قلت: يحتمل أن هذا من جملة الغرض فيها، ويحتمل مع ذلك أنها ذكرت إعلاماً للعرب أنه أوحي إلى رسول الله ﷺ كلاماً مؤلفاً من الحروف المعروفة ليدل بذلك على أنه وحي حقيقة نفس الكلام المؤلف من الحروف لا مجرد المعاني، وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿حم * عسق * كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ..﴾ [الشورى:١-٣].

وقيل: ذكرت الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها للقسم بها؛ لأنها في بعض السور تقترن بذكر مقسم به مثل: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف:١-٢] فأقسم الله بها كما أقسم بغيرها من ما يجتمع فيه أنه آية ونعمة، مثل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾.

وقيل: ذكرت الحروف المذكورة وفيها سرّ لمعان يُطْلِع الله عليها من هداه لها.

﴿٢﴾ ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي ذلك أو هذا كتاب أوحي إليك أي هذا القرآن أنزله الله كتاباً يكتب ليحفظ وتتناقله الأمم وتتوارثه الأجيال، محفوظاً بالكتابة في المصاحف ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ بل عليك أن ينشرح له صدرك، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء:٦٥] والحرج: الضيق.

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالإنذار بالقرآن من أهم مقاصد إنزاله إلى رسول الله ﷺ لشدة حاجة الناس إليه بسبب غلبة الجهل وكثرة الشرك على اختلاف المشركين فيه، وكثرة الباطل في الجاهلية وعند أهل الكتاب ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ من الغفلة للمؤمنين الذين تنفعهم الذكرى.

﴿٣﴾ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ خطاب للمنذَرين وللرسول ﷺ وللمؤمنين وهو أمر باتباع القرآن، أو هو عام له ولسائر الوحي من الله.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تنبيه على وجوب اتباعه على العباد؛ لأنه من مالكهم؛ ولأنه حق وصواب، لأنه من الله، ولأنه رحمة للعالمين من ربهم الرحيم بهم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ من دونه يحولون بينكم وبينه ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مَن تتولونهم وتحبونهم فلا يحملكم توليهم على اتباعهم وترك ما أنزل الله.

وقلت: يحولون بينكم وبينه؛ لأن معنى ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أن تتبعوهم من قبل أن تتبعوا القرآن؛ لأن معنى من دونه بينكم وبينه، فكان المعنى: لا تجعلوا الأولياء أسبق إلى اتباعكم لهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت:٢٥] ومنه إتباع الآباء وترك القرآن من أجل اتباعهم، ومنه اتباع قوانينَ وضعها البشر برأيهم غير مستندين إلى القرآن.

﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤثرون اتباع آيات الله على إتباع من تحبون لتذكركم حق الله عليكم، وأنكم في الآخرة ترجعون إليه فيجزيكم بما قدمتم، وأن من خالف أمر الله يتعرض لعذاب عاجل وآجل.

(٤) ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أهلكناها بسبب كفرهم بما أنزل الله ومعصيته وإيثارهم اتباع أولياءهم على اتباع ما أنزل الله ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا﴾ أي بيَّتهم في الليل ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ في حال قيلولتهم في النهار.

قال في (الصحاح): «القائلة: الظهيرة، يقال: أتانا عند القائلة، وقد يكون بمعنى القيلولة، وهي: النوم في الظهيرة، يقال: قال، يقيل، قيلولة..» انتهى المراد، وفي (مفردات الراغب): «قِلتُ قيلولةً: نمت وسط النهار» انتهى المراد.

إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ

فمعنى ﴿قَآئِلُونَ﴾ نائمون في الظهيرة وسط النهار، وعطف ﴿فَجَآءَهَا﴾ على ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ لجريه مجرى التفصيل الذي يعطف بالفاء على الإجمال كما تقول خطب فقال كذا.

﴿٥﴾ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لم يدَّعوا أن الله لم يرسل إليهم منذراً، أو يدَّعوا أنه لم يمكنهم القبول من النذير، أو يدَّعوا أن النذير لم يأت بحجة تدل على صدقه، أو أن النذير كان مجنوناً أو كذاباً مجرباً في الكذب؛ ولذلك أعرضوا ولم ينظروا في دليل صدقه، بل لم يجدوا أي حجة وأي دعوى سوى الاعتراف بأن السبب لهذا العذاب المهلك من عند أنفسهم وهو الظلم بالإعراض عن النذير، وإيثار الهوى، وإيثار اتباع الأولياء على اتباع أمر الله ربهم، وهكذا نجد الناس إذا جاءت المصائب من الجدب أو تسليط الظلمة ليهلكوهم قالوا ذنوب الناس وإعراضهم عن طاعة الله ولم يقف حال المعرضين عن ما أنزل الله إلى اتباع أوليائهم على العذاب العاجل وحده، بل لابد من العقاب الآجل وهو أشد وأبقى.

﴿٦﴾ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الم تأتكم رسل؟ ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥] ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هل بلغتم الرسالة كما أمرتم؟ و﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ﴾؟ وهذا السؤال سؤال حساب لا سؤال تعرف، فهو سبحانه أعلم بما قدموا كلهم.

﴿٧﴾ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ نقص عليهم في الآخرة سيرتهم في الدنيا، وما قدموا، وما أخروا، وما أسروا، وما أعلنوا بعلمٍ ما فيه

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ

تظننٌ، بل العلم الذي هو شأن الرقيب عليهم الشهيد على كل ما عملوا، وهو مع ذلك ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام:٧٣] ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩] ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧] وكما قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] وغير ذلك، فلا يقال له: غائب، ويُجتنَب التعبير عنه سبحانه بالغائب.

﴿٨﴾ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ تقدير مقادير الأعمال ليكون الجزاء تابعاً في مقداره لمقدار العمل على التحقيق، بلا تساهل ولا مجازفة ولا إهمال لشيء من الأعمال ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧] فهذا العدل هو الحق، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: العدل» انتهى.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ كانت له حسنات مقبولة نافعة ثقل بها ميزانه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون الظافرون بالنجاة والسعادة الدائمة.

﴿٩﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ لم يكن له من العمل الصالح ما يثقل به ميزانه؛ لأن أعماله أحبطتها سيئاته، فكانت ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور:٣٩] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ وما أعظمها من مصيبة أن حياتهم الآخرة ليست لهم، ولم يبق لهم من أنفسهم أي فائدة وإنما يبقون ليعذبوا.

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فكما خسروا أعمالهم خسروا أنفسهم وسبب ذلك كله أنهم كانوا في الدنيا بآيات الله جل جلاله يظلمون، والظلم بآيات الله يكون التكذيب بها، ويكون الاستهزاء بها، ويكون الاستخفاف بها، لأنه كله ظلم متعلق بآيات الله.

مَكَّنَّـٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟

وهذه الآيات كما ترى ليس فيها ذكر لموازنةٍ بين الحسنات والسيئات، بل ظاهرها أن الموزون هو الحسنات فقط، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٨] فهو كذلك لايفيد الموازنة بين الحسنات والسيئات، إنما يفيد اعتبار السيئة في الجزاء وإن صغرت، ولو لم تكن إلا مثقال ذرة فلن تهمل ولن يغفل عنها، ولن تنسى بل يجدها محضرة في كتابه وفي جزائه، فأما الموازنة بين الحسنات والسيئات فلم تذكر.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿مَكَّنَّـٰكُمْ﴾ أيها الناس في الأرض لتنتفعوا بها وتعيشوا فيها والتمكين للبشر في الأرض تقويتهم على الانتفاع بمنافعها، وجعلها لهم قراراً، وإعدادها لانتفاعهم بها.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ قال الراغب: «العيش: الحياة المختصة بالحيوان ـ ثم قال ـ: ويشتق منه المعيشة لما يَتَعَيَّش منه» انتهى، وقال الشرفي في (المصابيح): «﴿مَعَـٰيِشَ﴾ جمع معيشة ما يعاش به من المطاعم والمشارب أو ما يتصل به إلى ذلك» انتهى. وعبارة (لسان العرب): «معايش: ما يَعيشون به، ويحتمل: أن يكون الوصلة إلى ما يعيشون به» انتهى.

قلت: (الباء) للآلة في قوله: ما يعيشون به، فقد دخلت الوصلة في جملة الآلة، فالأولى أنه عام لما يعيشون به أساساً ولما يتوصلون به إلى ما يعيشون به، فبيّن الله نعمته على الناس، ثم بين أن شكرهم قليل وهو حث على الشكر.

إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ

﴿١١﴾ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ أيها الناس أي خلقنا هذا النوع من الحيوانات والمراد ابتدأنا خلقهم بخلق أولهم وهو آدم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠] وخلق الإنسان إيجاده مقدّراً، وتصويره تحصيل صورته مثلاً: جَعْل عينين، ولساناً وشفتين، وجعْل الإنسان منتصباً على رجليه، يعمل بيديه..وغير ذلك، فهذه نِعَم عظيمة وتكريم للإنسان بما فضله به على سائر الحيوانات.

﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ وهذا تكريم عظيم للإنسان والنعمة على الوالد نعمة على الولد، وهذا سجود تكريم ليس سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تصريح بمفهوم الإستثناء، لأنه ينبني عليه الكلام الآتي.

﴿١٢﴾ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ هذا سؤال عن الباعث على المعصية، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ تحقيق للمعصية بأنه أمره بالسجود، فلم يسجد حين أمره، وقد علم سبحانه ما منعه، ولكن سأله ليجيب بذكر ما منعه، وأمرُه بالسجود هو في ضمن قوله تعالى للملائكة: ﴿اسْجُدُوا﴾ وهو يدل على: أنه قد كان بعبادته الماضية في السماء صار من الملائكة، وإن كان أصله من النار كسائر الجن؛ ولذلك دخل في عموم أمر الملائكة، ولا مانع أن يكون اسم الملك ليس مفهومه نسب معيّن بل حالة من العبادة والكرامة بسببها مع الكون في السماء مقر العبادة الخالصة ومقرّ الملائكة كما يسمى الرسول رسولاً سواء كان رسولاً إلى الناس أو رسولاً إلى النبي من الله، أي أن اسم الملك إنما هو صفة لا اسم جنس مخصوص، وفي الآية دلالة على أن صيغة: افعل تسمى أمراً، وأنها تفيد الوجوب من حيث هي أمر.

فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَسۡجُدَ﴾قيل فيه: (لا) صلة في الكلام للتأكيد، وقال بعض المفسرين: «والظاهر أن (مَنَعَ) مضمَّن معنى حَمَل أودعى، والمعنى: ما حملك أو دعاك على أن لا تسجد مانعاً لك» انتهى.

قلت: ومن هذا قول الراغب، أي ما حملك، وحصلت به الدلالة على أن السؤال ليس سؤالاً عن عذر مانع من السجود، بل هو سؤال عن الباعث على المعصية الذي حمله عليها، وعلى هذا فـ(لا) نافيه، وصح ذلك لتضمين (مَنَعَ) حَمَلَ، ومثل هذا التضمين مشكل؛ لأنه لا يستقيم إلا مع حذف مفعول منع، وتضمين الفعل ضد معناه وهو بعيد، وأقرب منه جعل (لا) صلةً للكلام يحسّنها أن أصلها النفي، وأن المقصود بالسؤال عن المانع من السجود السؤالُ عن الحامل على تركه، فحَسُنَ جعل الكلام في صورة النفي ملاحظةً للمعنى المذكور ـ والله أعلم.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ هذا ذكر الباعث على المعصية، وأنه كونه في دعواه خير من آدم التي احتج لتصحيحها بأن ربه خلقه من نار وخلق آدم من طين، وهذا ليس مبرراً للمعصية؛ لأن عليه امتثال أمر المالك المنعم، وأن يسلِّم لحكم الله لأنه الحق، فامتناعه عين الباطل و الإنقياد للكبر، وليس له أن يجادل أحكم الحاكمين الذي لا يظلم أحداً ولا يأمر بالباطل؛ ولهذا ترك الردّ عليه؛ لأنه لم يأت بحجة إلا مجرد التعبير عن استكباره؛ لأن أصله من النار ولا يلزم منه أنه خير من آدم؛ لأن آدم شرف بروحه المخصوص، والتسوية التي اختص بها، وإعداد فطرته للعلم الغزير.

﴿١٣﴾ ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ كانت عقوبة عاجلة طرده من مكان شريف رفيع أو مكانة شريفة رفيعة،

وقد أبهم هنا، وفي سائر مواقع القصة فلنبهم ما أبهم، ولا نقل هو السماء التي هي محل العبادة، ولا الجنة ولا الرئاسة، فذلك أمر زائد على التفسير؛ لعدم الدليل عليه، وإن كان ذكر الهبوط يوحي بأنه في السماء جملة من دون تعيين لمقر الملائكة، وكان الظن أنه مقر الملائكة؛ لأنه مظنة التنـزيه عن إبليس من حيث أنه محل العبادة بمنـزلة المسجد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨] فلا نجزم بذلك جزماً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ يدل على أنه لا يصلح للبقاء فيها في حال تكبره، وليس من شأنه إلا أن يُطرَد عنها فرتب عليه طرده عنها بقوله ـ عزّ وجل ـ : ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ والصاغر: الذي يستحق المنـزلة الدنيئة السافلة الحقيرة، فهذا حكم من تكبر عن الحق كما أن من تواضع لأمر الله رفعه الله.

(١٤ ـ ١٥) ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ﴾ في الحياة هذه ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ يعني بعث آدم وذريته أو كافة المخلوقين، وذلك يوم القيامة حين ارتفاع التكليف ومجيء وقت الجزاء ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ إلى نهاية وقت التكليف وهو يوم الوقت المعلوم الذي اقتضت حكمة الله إنظاره إليه ابتلاءً للعباد واختباراً يظهر فيه من يطيع الله ومن يطيع عدو الله وعدوه، فأما بعد ارتفاع التكليف فلا وعد له بالإنظار إلى يوم يبعثون.

وفي التعبير بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ إشارة إلى أن إنظاره كان مقدَّراً من قبل سؤاله، فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ خبر عن أنه منظر من قبل، لا أنه أحدث له الإنظار إجابة لدعائه، لأنه لو كان إجابة كان إنشاء لا يؤكد بـ(إنّ) ولكنه أكده بـ(إن) لئلا يتوهم عدو الله أن الإنظار إجابة لدعائه لم يكن مكتوباً له من قبل، ونظيره لو قال رجل: اعطني هذا القلم، فقلتَ: إنه لك، لأنه إنما نسيه عندك من قبل.

أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

﴿١٦﴾ ﴿قَالَ﴾ الشيطان ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي لآدم وذريته ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأصدَّهم عنه، وقوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ يعني بما سببت لغوايتي؛ لأنك أمرتني بالسجود وأنا لا أسجد له؛ لأنه عليَّ أمر ثقيل كالمستحيل، فقد أغويتني به أي سببت لغوايتي ومعصيتي لك، وعُدُولي عن طريق الرشد، فبسبب ذلك أُقسم لأنتقمن منهم؛ لأن غوايتي كانت من أجلهم ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ لإغوائهم ﴿صِرَاطَكَ﴾ أي اعترضهم في سلوكهم على دينك لأصدهم عنه، فصراط الله: هو دينه الذي ارتضاه لعباده، شبهه بالطريق يَقعُد عليه ليصد المارة عن سلوكه ويحولهم إلى الغواية والمشي في غير طريق هداية.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾ لمحاولة إغوائهم من كل جهة، فإذا أتيت الإنسان من جهة فلم يرض أتيته من جهة ثانية وهكذا، بل وإذا كان يوافق حين آتيه من بعض الجهات ومن الجهة أو الجهات الأخرى أتيته منها، فالحاصل أنه يأتيه من كل جهة من الجهات الأربع سواء أطاعه في بعضها أم عصاه.

وهذا تمثيل لاحتيال الشيطان لإغواء الإنسان من أي جهة يجدها مدخلاً على الإنسان كالتخويف من الفقر في المستقبل والتخويف من الفقر على من يخلفه من أولاده والتثقيل للطاعة والتثبيط عنها والدعوة إلى الزيادة والغلو والدعوة إلى بدعة يزينها له ديناً، والدعوة إلى الفواحش والظلم وتزينها.

مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ لأني أستطيع إغواءهم إلا عبادك منهم المخلصين، وفي قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ احتمالان:

أحدهما: أنه يفوِّت عليهم فضيلةَ الشكر ويلحق بهم عارَ الكفر فيوقعهم في مثل ما وقع فيه من الخسة والدناءة وسقوط المنزلة ويفوت عليهم ثواب الشكر وفائدته العاجلة.

واحتمال: أن عدو الله بجهالته وقلة معرفته بالله أراد أنه يفوّت عليه شكر عباده، بمعنى أنه غرض لله تعالى، فوّته عليه جهلاً منه أن الله غني عن العالمين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧] وكأن هذه المحاورة وقعت قبل خروجه عن مكانه الذي طرد منه بعد أمره بأن يخرج، فلذلك أعيد الأمر بالخروج إهانة له وتأكيداً لطرده.

﴿١٨﴾ ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿مَذْءُومًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: معيب مرجوم ﴿مَّدْحُورًا﴾ فيه معناه: مبعداً» انتهى، وفي (الصحاح): «الذام: العيب يهمز ولا يهمز» انتهى المراد، وفي (الصحاح): «الدحر: الطرد والإبعاد» انتهى.

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من آدم وولده ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ أي من الجن ومن ذريّة آدم، دخل الجن في خطاب إبليس لأنه منهم، و(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ بيان ما ملئت منه، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ..﴾ إلى آخرها جواب القسم سادّ مسد جواب الشرط، فهو كقوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ..﴾ [الإسراء:٦٣] وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] والمراد من تبعه ولم يتب.

ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تحقيق لعموم الثقلين الجن والإنس إنه يملأها منهم، وفي هذا دلالة على أنه غني عنهم لا يبالي بغوايتهم ولا بمصيرهم في جنهم، وأن إبليس ومن تبعه هم الخاسرون ﴿وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩].

﴿١٩﴾ ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ هي جنةٌ فيها نعمة لآدم وزوجه لعلها في الأرض وهي معروفة عند آدم، فالتعريف لأنها معهودة عند آدم.

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ تعبير عن كثرة المأكول وأنه موجود حيث شاءا أن يأكلا ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وهي أيضاً معهودة لآدم فصحت الإشارة إليها كقوله ﷺ: «من أكل من هذه البقلة» يعني الثوم، فيحتمل أن الإشارة إلى جنس كما في الحديث، وقد فسرت بشجرة البُرّ، ويحتمل أن الإشارة إلى عَين.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بمعصية ربكما وكل معصية لله فهي ظلم؛ لأن معصية المالك المنعم حيف وجور؛ لأن الطاعة حق على العبد المنعَم عليه.

﴿٢٠﴾ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قال الشرفي رحمه الله: «قال في (البرهان: الوسوسة فهو إخفاء الصوت بالدعاء، يقال: وسوس لـه إذا أوهمه النصيحة ووسوس إليه إذا ألقى إليه المعنى» انتهى المراد.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ وسوس لهما من أجل أن يكشف لهما ما سُتر عنهما ﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ من عيوبهما التي تسوءهما، أو من عوراتهما.

وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

﴿وَقَالَ﴾ في وسوسته ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ﴾ كراهة ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إذا أكلتما منها، والملائكة ملوك يتصرفون في العالم تصرف الملِك، وهذا ترغيب في أن يكونا مَلكين وقد أسجد الله لآدم ملائكته فمرجعه إلى الترغيب في المُلك، كقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ [طه:١٢٠] ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون، ولا يبالي أن يكذب بدعوى أن الملائكة ملوك، وبدعوى أن من المخلوقين خالدين لا يموتون أبداً، فقد أوهمهما أن النهي عن أكلهما من الشجرة ليس لمصلحتهما.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ معناه: حلف لهما» انتهى، ومثله في الصحاح وغيره.

﴿٢٢﴾ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (دلاهما): أوقعهما في الخطر أي في المعصية، وفي شعر معاوية في مولاه حريث:

ودلّاه عمروٌ والحوادث جمة　　وقد يهلك الإنسان من لا يحاذر

و لعل أصله التدلية في الحبل في البئر أو نحوه، والغرور كلامه الذي غرهما به.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا وَطَفِقَا سَوْءَٰتُهُمَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: فجعلا يخصفان الورق بعضه إلى بعض ينظمانه» انتهى، وخصف الورق عليهما، الأقرب: أنه استعداد للخروج من الجنة، بسبب أن لباسهما نزع عنهما، ليضطرّا إلى

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا

العمل لتحصيل اللباس كما يعملان لتحصيل الأكل والفراش والمسكن، فكان استعمال الورق لباساً أول ضعف الحال.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وفي هذا تذكير لهما بأنهما قد زلاّ من جهة أنفسهما لاغترارهما بغرور الشيطان، لا من عدم التحذير من الله.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي تابا إلى الله واعترفا بالخطيئة، ويترجح أن هذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه أي تلقنها، أي هداه لها فاهتدى لها وقالها فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، ويظهر: أن هذا كان قبل نبوءة آدم، وأنهما كانا في أول أمرهما لمّا تشرع لهما شريعة إنما نهيا عن الأكل من الشجرة، وكان ذلك لطفاً لهما، ليشتد حذرهما من الشيطان حتى ينجوا من النار، ويدخلا جنة الخلد؛ لأن التحذير من الشيطان لم يكن كافياً لهما وحده حتى جرّبا كيده وذاقا مرارة الإغترار بغروره، ورُبَّ ضارة نافعة.

فإن قيل: لا يخلو إما أنهما عند نهيهما عن الشجرة قد كانا بلغا حدّ التكليف أولم يكونا بلغا حد التكليف، إن لم يكونا بلغا حد التكليف فكيف كانت معصية وتوبة؟ وإن كانا بلغا حد التكليف فكيف لم يكلفا بشريعة؟

والجواب: أنهما بلغا حداً يصح فيه تكليفهما باجتناب الشجرة، ولا يلزم منه أنهما بلغا حداً يصح في الحكمة والرحمة تكليفهما فيه بشريعة كاملة، أي أنهما كانا حديثي سن، قد حصل لهما بعض الصلاحية للتكليف، وعلى هذا تكون قصة الشجرة قبل تعليم آدم الأسماء وتعليمه بعد خروجه من الجنة، واصطفاؤه بعدما وجد له بنون.

تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ظاهر الأمر بالهبوط لآدم وزوجه والشيطان والعدواة بين الشيطان وآدم وزوجه، ولعل الشيطان أهبط أوّلاً من السماء فصار إلى آدم وزوجه لإغوائهما، ولا مانع من أنه كان في الجنة إذا كانت نعمتها لآدم وزوجه وليس فيها لإبليس مثل ما لهما من اللذات، بل ولا مانع أن يكون له فيها متاع؛ لأنه ممهل كما في الأرض، وهذا يستقيم على أن الإهباط الأول من السماء وأنها المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ كأن الخطاب لهم، والحكم لهم ولذرياتهم، مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والدليل على هذا قوله تعالى:

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يحتمل تخرجون من بطنها، ويحتمل تخرجون منها جملة إلى الجنة والنار وهذا أقرب، وهذا خطاب لآدم وذريته وما بعده خطاب لبنيه والخطاب الأول لآدم شمل ذريته بالتغليب وما بعده لبني آدم الذين وجدوا عند نزوله، ومن بعدهم يدخل في عمومه حين يوجد.

﴿٢٦﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ خطاب لبني آدم الذين كانوا موجودين في عهد آدم عند نزول هذا الخطاب، ثم من بعدهم حين وجدوا، فقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ من مقول القول في الآية التي قبلها يذكر نعمة الله عليهم باللباس، ففيه فائدتان:

الأولى: مواراة السوءات أي ستر العورات، وهو تكريم للإنسان وتفضيل لـه على غيره من الحيوانات، وقـد نبـه علـى حاجتـه إليـه بقولـه: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل:٨١].

الفائدة الثانية: قوله تعـالى: ﴿وَرِيشًا﴾ فاللبـاس للإنسـان بمنـزلة الـريش للطـائر؛ لأن الإنسـان في الغالـب ظـاهر الجلـد لا يغطيـه شـعر كغـيره مـن الحيوانات الأرضية، ولا ريش كالطيور، فجعل الله لـه اللبـاس قائمـاً مقـام الريش للطائر ومقام الشعر لغيره مـن الحيوانـات الأرضـية الظـاهرة، ولعلـه خص الريش بالذكر لإغنائه في الدلالة على حاجة الإنسـان إليـه ونعمـة الله به؛ ولأن الإنسان إن شاء لبس ثوباً واحداً فكان لـه خفة الـريش، وإن شـاء ضاعف اللباس فكان لـه وفرة الريش ونفعه في الدفء - والله أعلم.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ وأنزلنـا علـيكم لبـاس التقـوى بإرسـال الرسل وإنزال الكتـب وهـدايتكم للتقـوى إن اهتـديتم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي لبـاس التقـوى ﴿خَيْرٌ﴾ لأنـه سـتر يسـتر صـاحبه عـن معايـب الأعمـال ورذائـل الأخلاق، وهو شرف لصاحبه ووقاية نافعة في الدنيا والآخرة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فالآية في اللباس الذي أنزله من القطن وغيره وهَدَى الإنسان لغزله ونسجه والتستر به واللـبس لـه لحاجتـه إليه لظهور جلده، ومخالفته في ذلـك للحيوانـات الأرضـية الظـاهرة والطيـور، فهذه دليل على علم الله تعالى وقدرتـه حيـث خلـق الإنسـان مخالفـاً في ذلـك، وحيث جعل اللباس لـه ليقوم مقام الريش والشعر، والآية في الهدايـة إلى لبـاس التقوى حيث ميز الإنسان عن سائر الحيوانات بالعقل، وميّـزه في قـدرة العمـل،

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ

وجعل له الهداية والتعليم الذي امتاز به عن السباع والبهائم، والذي لولاه لكان في أسوء حالة من التظالم وسوء الحال في التناسل والتربية وغير ذلك، حيث لا يكون له مع زيادة قدرته وفهمه وازعاً يحمله على العدل والإحسان، وينظم له معاملته فيما بينه على ما تستقيم به معيشته وتكافله وتعاونه وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أي بني آدم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، لظهور إعراض أكثرهم فكفى توجيه الخطاب لمن يستمع وينتفع، أو لأن أكثرهم لم يكن قد وجد، وفي هذه الآية الكريمة ردّ على من يترك اللباس تهاوناً به وكفراً، ومن يتركه في حال الطواف إمّا تديُّنا لئلاً يجب عليه التصدق به في اعتقاده لأنه طاف فيه.

﴿٢٧﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة تحذير من الشيطان وإشارة إلى وسيلة النجاة من سلطانه، فالتحذير:

أولاً: بالدعوة لهم إلى أن يعتبروا بأبويهم حيث أغواهما الشيطان حتى أخرجهما من الجنة أي سبّبَ بإغوائه لهما لخروجهما من الجنة، تأديباً لهما وكون غوايتهما نهاية للبقاء فيها، لقوله تعالى: **﴿فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى..﴾** [آية:١١٧] إلى آخر الآيات من (سورة طه).

وقوله تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ كقوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ﴾ أي أنه سبب بإغوائهما لإخراجهما في حال نزع اللباس عنهما بسببه أي بسبب إغوائه، ففيه بيان شدة عدواته حيث أغواهما ليخرجهما ولينزع عنهما لباسهما ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ بإخراجهما ونزع لباسهما ﴿سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ فيعلما أنهما ضعيفان في إرادتهما، ضعيفان في حزمهما، ضعيفان في حذرهما من عدوهما بحيث استطاع إخراجهما من الجنة، ونزع لباسهما الذي كان لهما في الجنة، ومغادرتهما محل الرفاهية إلى مسكن الشقاء بتوقف تحصيل حاجاتهم على العمل لتحصيلها، ففي هذا عبرة لبنيهما ليحذروا أشد مما أوقعهما فيه أن يدخلهم عذاب السعير، وهي الفتنة العظمى.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ سائر شياطين الجن، وفي (مفردات الراغب): «والقبيل: جمع قبيلة، وهي الجماعة المجتمعة التي يقبل بعضها على بعض» انتهى.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تنبيه على أنهم يحاولون إغواء الإنسان وهو لا يشعر بهم؛ لأنه لا يراهم، ولذلك فالإنسان يحتاج إلى الحذر منهم في كل حال.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا الجعل هو ترك الشياطين يغوون الذين لا يؤمنون، بلا صارف من لطف الله ولا معونة على دفع إغوائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل:١٠٠] وهو ما نعبر عنه بالخذلان، وهذه الولاية هي أكبر المصائب من حيث أن الله تعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٤].

فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ

وأما الإشارة إلى وسيلة النجاة من سلطانه، ففي قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فأفهم أن من يؤمن ينجو من تسلط الشيطان عليه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ..﴾ الآية [النحل:٩٩-١٠٠].

﴿٢٨﴾ ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ عطف هذه الآية إما على الآية التي قبلها، بمعنى أن الله حذَّر بني آدم من الشيطان ولم يحذر أكثرهم بل ينسبون ما أوقعهم فيه إلى الله انقياداً للشيطان، وإما على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهي من صلة الموصول، والأول أظهر؛ لأن المتمردين على الله المكذبين بآياته المجادلين فيها المصرين على ذلك يخذلون، وإن لم يقولوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ردّ الله سبحانه قولهم، وبيّن كذبهم عليه بأن الله لا يأمر بالفحشاء، أمر بقول ذلك رسولَه، وأن ينكر عليهم قولهم على الله ما لا يعلمون، وفيها دلالة على أنه لا يجوز القول على الله بغير علم لا في القطعيات ولا الظنيات، فينبغي التحرز في الفتوى وفي الحكم بأن يقول الحاكم أو المفتي: «الذي أرى» أو نحو هذا.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ في (الصحاح): «القِسط ـ بالكسر ـ العدل» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب) قال: «وهو من المصادر الموصوف بها

ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا

كعدل، يقال: ميزان قِسط، قال: وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء:٤٧] أي ذوات القسط» انتهى، وفي (المصابيح): ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل.

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أمر الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ﴾ وحسُنَ عطف الأمر على الخبر، لأن الخبر يفيد الأمر، فكأنه قيل: أقسطوا وأقيموا وجوهكم، أو أن الأمر في المعنى محكي عن الله؛ لأن الرسول ﷺ إنما يأمر بذلك لأن الله يأمر به، فكأنه قيل: أمر ربي بالقسط، وبإقامة وجوهكم، وإقامة الوجوه: التوجُّه بها لله وحده كما أمر.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني توجهوا حيث كنتم إلى الكعبة في الصلاة، واجعلوا سجودكم خالصاً لله دون ما سواه من الأصنام والأوثان» انتهى.

فجعل ﴿مَسْجِدٍ﴾ مصدراً، أي عند كل سجود، ويحتمل: أن المراد توجهوا لعبادة الله وحده عند إتيان كل مسجد، وهذا أقرب لإبقاء معنى المسجد على معناه المعروف في الشرع، وفيه فائدة: وجوب استحضار النية عند التوجه إلى المسجد للعبادة، ووجوب الصلاة في المسجد.

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي ادعوا ربي مخلصين له العبادة كلها من الدعاء وغيره ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما خلقكم أول مرة ﴿تَعُودُونَ﴾ في الآخرة، فأنتم محتاجون إلى إخلاص الدين لله؛ لأنكم تعودون إليه فيجزيكم بما قدمتم.

﴿٣٠﴾ ﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ ﴿هَدَىٰ﴾ لأنهم لم يستحقوا الخذلان فهداهم، وفريقاً استحقوا الخذلان وأن يتركوا وشأنهم ضالين عن سبيل الحق.

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فحق عليهم أن يضلوا؛ لأن ضلالهم نتيجة حتمية لاتخاذهم الشياطين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ [الحج:٤] ولاكتفائهم بأن يحسبوا أنهم مهتدون مع نزول القرآن بالحق الواضح والدليل القاطع الهادي لمن اتبعه ومجيء الرسل قبله بالبيانات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦].

والراجح في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا..﴾ ﴿وَفَرِيقًا﴾ أن نصب فريقاً على الحال، والثاني معطوف عليه، فالمعنى: تعودون يوم القيامة فريقين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ أي تعودون فريقين، ليجزي كل فريق بما يستحق.

والراجح أن قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ تذكير بالدليل على قدرته تعالى، سواء كان المراد ﴿بَدَأَكُمْ﴾ خلقكم أول مرة، وهو أظهر، أم كان المراد: كما بدأ خلقكم، فكل ذلك من دلائل قدرته تعالى على إعادتهم، فالإنذار بالعودة وإثبات قدرة الله عليها هو من أهم مقاصد القرآن، وذلك يكفي في التشبيه بالبدءِ، ولا دليل على أن المراد به: أنه بدأكم فريقين، فكما بدأكم فريقين تعودون فريقين، بل هو ضعيف؛ لأنه يخرج التشبيه عن الإحتجاج المألوف في القرآن في مواضع عديدة إلى ذكر المناظرة بين حالهم في البدء وحالهم في الإعادة، وذلك ضعيف؛ لأنهم في حال البدء كانوا غير مكلفين فضلاً عن كونهم فريقين ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ ﴿وَفَرِيقًا..﴾ ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وإذا ظهر ضعف هذا عند تفسير البدء بمعناه الحقيقي، فلا ملجئ لحمله على المجاز ليتسنى التشبيه المذكور كما يريدون.

تُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ

فأما قول من قال بذلك: لو كان المراد إثبات قدرته تعالى على الإعادة لكان المناسب أن يقال: يعيدكم؟!

فالجواب: أنّا لا ندعي أن الكلام مسوق لذلك حتى يلزم ما ذكرت، وإنما السياق سياق الحث على الإخلاص، لأنا عائدون إلى الله، وذكر الحجة على العودة بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ لتأكيد الحث على الإخلاص، فهو عارض فلا يلزم أن يقال: يعيدكم؛ لأن التحذير من العودة هو الذي سيق له الكلام - والله أعلم.

﴿٣١﴾ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قد تقدم أن اللباس للإنسان كالريش للطائر، وأنه قائم مقام الريش، فالأقرب أن المراد بالزينة: اللباس، وهو أهم الزينة من حيث أن ستر العورة أهم من غيره من الزينة، ويناسب هذا ذكر المسجد؛ لأنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، فقرينة الحال تساعد على تعيين اللباس للطواف وللصلاة في أي مسجد، بقرينة التعميم لكل مسجد، وليس خاصاً بالصلاة، بل ظاهره: أخذ اللباس عند إتيان المسجد، وهو ظاهرة حسنة للمسلمين في مجتمعهم؛ ولذا شرع لهم التجمل في الجمعة، والأقرب: أن الأمر للوجوب؛ بقرينة ذكر المسجد، ولو كان للإباحة ما كان خاصاً بالمسجد.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ فيمكن أن المراد به: استحلال ما أحله الله واجتناب تحريمه، كما فعلت الجاهلية من تحريم بعضه كما مر في (سورة الأنعام) فيكون الأمر هنا كالأمر في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ

مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [آية:١١٨] وقرن به ذكر الشرب للتنبيه على أنهما سواء، فكما لا يحرم شرب الماء لا يحرم الطعام، وهذا إذا لم يكن مانع كالصيام المشروع.

وختم الكلام بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ كما ختم في (سورة الأنعام) في الإحتجاج على المشركين : ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [آية:١٤١] وذلك للنهي عن إنفاق الرزق في الوجه المحرم فيدخل في العموم دخولاً أوّليّاً، ويحتمل: أن الأمر بالأكل والشرب للإباحة، لبيان بطلان تحريم الجاهلية لبعض المأكول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ نهي عام لكل إسراف، سواء بإتلاف المال ونحوه، أي كل نافع في غير فائدة يصلح إتلافه لها، أو بإنفاقه في محرم كالمعاونة على الإثم والعدوان، أو في مضرة راجحة على لذته، فيدخل إكثار الأكل بحيث يضر الأكل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ دليل على تحريم كل عمل ذكر الله أنه لا يحب أهله ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠] ﴿لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:٥٧] ﴿لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨].

﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ وهذا احتجاج على أهل الجاهلية، الذين حرموا بعض ذلك، كما مر في (سورة الأنعام) وهو يؤكد ما فسرتُ به الآية التي قبل هذه.

وقد روي: أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالكعبة عراة، فروي: أنهم كانوا يتحرجون من لبس الثياب في الطواف لأجل أنها ثياب يذنبون فيها، وروي: أنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا طافوا في الثياب وجب عليهم أن يتصدقوا بها، وكل ذلك تحريم لزينة الله التي أخرجها لعباده.

وسؤالهم ﴿مَنْ حَرَّمَ﴾؟ تنبيه على أن الحرام إنما هو ما حرم الله، أما ما لم يحرمه فليس حراماً، فعليهم أن ينظروا فيما حرمته الجاهلية، فإذا لم يصح أن الله حرمه فتحريمه باطل، وهكذا في الطيبات من الرزق من الأنعام والحرث وغيرها مما ينتفع به الإنسان وهو سليم من أسباب الخبث، وما حرمه الله ففيه سبب خبث.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يامحمد ﴿هِىَ﴾ أي الطيبات من الرزق أو الزينة والطيبات من الرزق ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في وقت الإيمان النافع ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لا كما هي في الدنيا محفوفة بالمكاره، فالله أخرجها في الدنيا لعباده البر والفاجر؛ لأن الدنيا عرض حاضر يأكل فيها البَرُّ والفاجر، والآخرة وعد الله المؤمنين فيها بالرزق الخالص عن المكدرات والمتاعب وسائر ماحفت به أرزاق الدنيا من المكاره؛ وهذا لأن معنى خلوصها: أنه لا يخالطها مكروه، وليس معناه: أنها خاصة لهم، فمعنى ﴿خَالِصَةً﴾ غير معنى خاصة، وفائدة قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قطع طمع الكفار في نفع إيمانهم يوم القيامة، والمقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة، بما يدل على أن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ كذلك التفصيل لهذه الآية أو الآيات ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ أي نبيّنها بتفصيلها، حتى يعلمها من هو مستعد للعلم بسلامة قلبه من الخذلان والغفلة والإعراض والإنشغال بالدنيا، ومستعد بالنية الصالحة والتفهم.

بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا

﴿٣٣﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ حصر إضافي أي لم يحرم الله طيبات الرزق والزينة، إنما ﴿حَرَّمَ﴾ هذه التي كانت في الجاهلية وهي خبائث، و﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الزنا، واللواط، وما أشبههما في القبح والرذالة.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دفع لتوهم أن المحرم إنما هو ما ظهر منها ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ كالخمر، والكذب، وكتمان الشهادة، والربا، وسائر الذنوب التي لا تعد في العُرف من الفواحش، ولا من التعدي على الناس في ظاهرها ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ التعدي على الناس والظلم لهم ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قيد واقعي أو لدفع توهم أن التسلط بالحق بغيٌ محرم ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وهذا قيد واقعي ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قد مر تفسيره قريباً.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ كهذه الأمة التي بعث فيها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فكفروا به ﴿أَجَلٌ﴾ محدود يمتعون بخلاقهم، ويتقلبون في البلاد مُمَهَّلين ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ ذهبوا بذهاب ريحهم وإدبار دنياهم، وبطل اجتماعهم وقوّتهم الذي كانوا به أمّةً، فهؤلاء المشركون المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أم القرى وما حولها لهم أجل يذهب فيه اجتماعهم وقوتهم حتى لا يكونوا أمة، وهذا إنذار لهم إما بهلاكهم أو ذلتهم وتفرقهم أيادي سبأ، وهذا قريب من قوله تعالى في أول السورة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا..﴾ الآية، وقد ذهبت تلك الأمة، وذهب ملك بني أمية وبني العباس وغيرهم من الدول.

يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عن أجلهم ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ولعل أصل المعنى: لا يسبق ذهابهم أجلهم ولا يتأخر عنه، وزيدت (السين) لإفادة: أن حالهم غير قابلة للتقديم ولا للتأخير، فلا يتقدمون ولا يقدُمُهم غيرهم، ولا يتأخرون ولا يؤخرهم غيرهم ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطوف على جملة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ والساعة: عبارة عن المدة القصيرة غير محددة، خلاف الساعة في عرف هذا الزمان.

﴿٣٥﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يظهر: أنه هذه التوصيات الأربع المبدوءة بقوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾ وقعت لهم بعد خروج أبيهم وأمهم من الجنة في أول زمان بني آدم، فحكاها الله تعالى من قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿يَابَنِي آدَمَ..﴾ ﴿يَابَنِي آدَمَ..﴾ ﴿يَابَنِي آدَمَ..﴾ ﴿يَابَنِي آدَمَ..﴾ فكلها من مقول القول في ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ وما وقع خلالها من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عارض في خلال الحكاية للتوصيات المتقدمة لبني آدم في أول عهدهم ـ وبالله التوفيق.

والتوصية في هذه الآية قريبة من التوصية في (سورة البقرة): ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية:٣٨] وفي (سورة طه): ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ [آية:١٢٣].

أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ

وجاءت التوصيات الأربع في (سورة الأعراف) محكية للرد على أهل الجاهلية بما قد وصى به بني آدم جملة في أول عهدهم، وهذا الخطاب لبني آدم لا بد أنه وقع بعد وجودهم، فهو غير التوصية المذكورة عند هبوط آدم وزوجه من الجنة، وإن أشبهته في هذا الخطاب الرابع.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ أي إن يأتكم، و(ما) بعد (إن) تقوية وصلة للكلام، وقوله: ﴿يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ لحقته (نون التوكيد) فلم يجزم، وهذه وصية لبني آدم من أول جيل منهم، ليستعدوا للإيمان بالرسل، والعمل بما جاءوا به وهو التقوى والإصلاح؛ لأن التقوى: اجتناب المعاصي، والإصلاح: إصلاح العمل، وإصلاح ما ينبغي إصلاحه، ومنه ما سبق إفساده ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فيها.

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي تأتي بها الرسل ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ أنفوا وترفعوا عن الإيمان بها وعن قبولها لأي سبب من كبر أو حسد أو تعصب لما خلفه الآباء أو غير ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فهم أهل الخوف والحزن والعذاب والخسران، وهذا إنذار ليؤمنوا بالرسل؛ لأن الإيمان بهم صلاح الفرد من الناس والمجتمع إذا اتبعوهم، فقد أكمل الله الحجة على بني آدم بتوصياته.

﴿٣٧﴾ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ وهو يوصيهم بالتقوى، واجتناب التكذيب من عهد آدم عليه السلام، وتأتيهم الرسل

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟

بالآيات من ربهم فلا أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ لأنه أساء إلى ربه، وأطاع عدو الله الشيطان، وحاول الإفساد في الأرض بالكذب على الله، أو التكذيب بآياته.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ينالهم نصيبهم مما كتب الله لهم من العمر والزرق وغير ذلك في هذه الحياة التي هي دار اختبار، فلا تمنع معصيته من نيل ما كتب له ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾ ملائكة الموت يتوفونهم بتوفي أنفسهم ﴿قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هل ينصروكم أو يدفعون عنكم؟!

﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ لنعم الله، أو مكذبين لرسل الله، وقولهم: ﴿ضَلُّوا۟﴾ أي ضاعوا ﴿عَنَّا﴾ فلم يدفعوا عنا، اعتراف مع اعتراف، أي اعتراف بما كانوا عليه من الشرك، واعتراف بأنهم لم ينفعوهم ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالإقرار أنهم كانوا في الدنيا كافرين، وقولهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يحتمل: أنه عند الموت، وهو الظاهر لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ..﴾ [الأعراف:٣٧] ويحتمل: أنه يوم القيامة.

أما قوله تعالى:

﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ فهو يوم القيامة، فهنا قد طويت المدة ما بين الموت والبعث، حتى كأن

ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى

ساعة الموت مقترنة بالأمر بدخولهم النار، وهذا طي مناسب لأن المدة بينها تمضي، فإذا بعثوا لم تكن في نظرهم إلا قليلاً، وقد مر مثله في (سورة الأنعام).

وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ يدل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ..﴾ الكفار المتأخرون، والمراد بقوله: ﴿خَلَتْ﴾ مضت، فالكل في النار.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أختها التابعة لها أو المتبوعة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟﴾ تتابعوا وتلاحقوا واجتمعوا في جنهم ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ التابعون ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ وهم المتبوعون ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ فقد اغتاظ التابعون من المتبوعين، حين رأوا أنهم سببوا لدخولهم النار، وانقلبوا أعداء يطلبون من الله أن يضاعف عذابهم بالنار، بأن يجعل عليهم عذاباً من النار مع ما هم فيه مثل ما هم فيه.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ فقد وفاهم الله ما يستحقون من تضعيف عذابهم، فللمتبوعين ضعف بسبب سعيهم في فساد التابعين، وللتابعين ضعف لإيثارهم طاعة أعداء الله على طاعة ربهم الخالق الرازق، وهو يدعوهم إلى رحمته، ويحذرهم من الشيطان، ومن أسباب الهلاك فعصوه، فعذابهم على المعصية كامل، وتضعيفه بكونه طاعة للمتبوعين ـ والله أعلم.

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ بتخفيف عذابكم وسلامتكم من تضعيفه؛ لأن لكل ضعفاً، فكل فريق يحاول الشر

سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

للفريق الآخر، المتبوعون حاولوا إغاظة التابعين، كما طلب التابعون تضعيف عذاب المتبوعين وهذه العداوات والحسرات والغيظ نوع من عذابهم.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ (آياتنا) المعجزات الدالة على صدق الرسول ﷺ وآيات القرآن حيث قالوا: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك:٩] ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ ترفعوا عن الإيمان بها، وطلبوا العلو بذلك ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ تعبير عن غضب الله تعالى عليهم، فلا تفتح أبواب السماء لقبول أعمالهم، ولا لصعود أرواحهم، وهذا في الدنيا حين السماء باقية بأبوابها.

فأما في الآخرة فقد قال الله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ:١٩] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ [الأنبياء:١٠٤] وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] وهذه السماء هي المعهودة التي ينصرف إليها الخطاب، فأما سماوات الآخرة فلو كانت المراد لنكرت، فقيل: (لا تفتح لهم أبواب سماء).

﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ دلالة على تعذر دخولهم الجنة، كما يتعذر دخول الجمل ـ وهو أكبر الدواب المعروفة عند العرب ـ في سم الإبرة التي يخاط بها، وهي تسمى خياطاً وسَمُّها: ثُقْبُها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بحجبهم عن السماء، وحرمانهم الجنة، فهو جزاء لكل مجرم غير خاص بالمكذبين المستكبرين منهم، وفيه تعليل لحرمانهم بإجرامهم، وهذه خسارة عظمى ولعنة دائمة.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ

﴿٤١﴾ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿مِهَادٌ﴾ جمر ولهب تحتهم، سمي مهاداً باسم الفراش الذي يمهد للنائم مثلاً، وهو تهكم بهم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ جمع غاشية، مثل: جوارٍ جمع جارية، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليل بظلمهم، من حيث دل على أن النار جزاء كل ظالم؛ وذلك لأنهم كلهم مجرمون، وكلهم ظالمون وإن اختلفت جرائمهم وتفاوت ظلمهم من شرك، أو قتل نفس بغير حق، أو كفر، أو ربا، أو يمين فاجرة، أو شهادة زور، أو نميمة.. أو غير ذلك، فكل جرائمهم ظلم؛ لأنها حيف وعدول عن العدل والإنصاف؛ لأنها إساءة إلى رب العالمين المالك المنعم، فهي ظلم وجور ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر:١٦-١٧] وقال تعالى في (آية الطلاق): ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

﴿٤٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ السليمات من المفسدات ومن المحبطات.

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ جملة معترضة من *فوائدها*: الدلالة على أن المقصود بالصالحات ليس عاماً للواجب وغيره، بل ما كلفوا به وهو الواجب.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا

ومن *فوائدها*: دفع توهم أن الإنسان لا يستطع العمل للجنة بأن ذلك في وسعه، ولو لم يكن في وسعه ما كلفه الله، فالعمل للجنة في وسع الإنسان.

ومن *فوائدها*: الدلالة على بطلان القول بالجبر؛ لأن من معناه: أن الكفار الذي يموتون على الكفر ويصيرون في النار لم يكونوا يستطيعون الإيمان والعمل الصالح، فضلاً عن أن ذلك كان في وسعهم.

وكذلك من معنى (الجبر): أنهم لم يكونوا يستطيعون ترك المعاصي والتكذيب بآيات الله وأسباب الخذلان، فإما أن يقول المجبرة: أنهم لم يكونوا مكلفين، وذلك خلاف المعلوم من الدين ضرورة، ومن المعلوم ضرورة أن الله لا يعذبهم بما لم يكونوا يستطيعون تركه، ولا بترك ما لم يكونوا يستطيعون فعله، ومن المعلوم من الدين أن الكفار معذبون كما في هذه الآيات في هذه السورة وغيرها، فدل ذلك على بطلان الجبر.

﴿٤٣﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قال في (المصابيح): «الغل: هو الحقد» انتهى المراد، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «والغِلُّ: العداوة، قال: وغَلّ يَغِلّ إذا صار ذا غِلّ أي ضِغْن» انتهى المراد.

وفي (الصحاح): «والغِل: الغِشّ والحقد أيضاً» انتهى المراد، وإزالة ما في صدورهم من غل، هي من صرف كل مؤذٍ ومؤلِمٍ عنهم؛ لأن الحقد يؤذي صاحبه، والسلامة منه راحة له ولجلسائه وخدَمِه ومجاوريه ومزاوريه.

وهل يدل هذا على أنه كان في صدورهم غل قبل دخول الجنة؟!

الجواب: ظاهر كلمة النزع أنه كان فيها، ولعل تفسيره بالحقد أولى من تفسيره بالعداوة، وهو الذي في (البرهان) و(الصحاح) فلا يلزم منه إرادة الضرر إن أمكن بخلاف العداوة، وقد وصف خيار المتقين بكظم الغيظ، وهو يستلزم الحقد، ولا يتعين في الآية الكريمة أن الغل بين أصحاب الجنة نُزِع من صدورهم بعد أن دخلوها، بل قد يكون مقارناً لدخولهم الجنة.

فإن صح أن يكون بينهم في الدنيا غل فهو داخل في العموم، والأقرب: أنه لا يكون بين المؤمنين الصادقين في إيمانهم؛ لأن الحب في الله يغلب أسباب الحقد؛ ولحديث: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وفي ذلك لذة للبصر وسرور للنفس، وجري الأنهار من تحتهم لا يختص بحال كونهم في القصور؛ لأنها تجري من تحتهم إذا تجولوا في الجنة تحت الأشجار ـ والله أعلم.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ في الجنة هذا القول لرغبتهم في الشكر ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج:٢٤] لم ينشغلوا بهذه النعمة الحاضرة عن ذكر النعمة التي أدت إليها وهي الهدى الذي هو أعظم النعم، ولم ينشغلوا عن ذكر المنعم، وسمى الله أهل الهدى: الذين أنعم عليهم في (سورة الفاتحة).

وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ تحقيق للنعمة بشدة حاجتهم إليها؛ لأن الإنسان يغتر بالعاجلة، ويغفل عن الآخرة، فقالوا: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ أي لم يكن من شأننا أن نهتدي ولا مناسباً لحالنا، كقول الشيطان: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ [الحجر:٣٣] ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا

ثم قالوا: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي هذا مصداق ما جاءت به الرسل من الوعد، وذاك مصداق ما جاءت به من الوعيد.

﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذه نعمة من نعم الجنة أن نادهم المنادي بصوت رفيع، بما معناه: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا تكريم لهم، وبيان: أن عملهم في الدنيا كان يستحق الثواب، وحكايته في القرآن ترغيب للمكلفين في العمل للجنة.

﴿٤٤﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ فأهل الجنة قد هدوا إلى صراط الحميد، فأرادوا أن يعترف أهل النار بصدق وعده؛ لأن أكثرهم كانوا مكذبين، وقد علموا حين صاروا في موقف الحساب بالنار لأهلها، والكرامة لأولياء الله، وعلموا أن أهل الجنة قد صاروا فيها، فبان لهم صدق الوعد والوعيد؛ ولذلك سألهم أهل الجنة: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؟ ولم يقولوا: ما وعدكم؛ لأن المقصود إقرارهم بصدق الوعد للفريقين، بدلاً من تكذيب المكذبين بهما في الدنيا.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، كأنه يريد أن يُسمِع الفريقين: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ولعل هذا النداء ترتَّب على قول أهل النار: ﴿نَعَمْ﴾ لئلا يطمعوا في نفع هذا الإقرار، و﴿لَّعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ الطرد من رحمته، والبقاء في عذابه.

عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا

﴿٤٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿يَصُدُّونَ﴾ يستعمل بمعنى: يعرضون، ومصدره الصُّدود، ويستعمل تارة بمعنى: صد الغير عن سبيل الله، أي منعه واستعمال المضارع؛ لأنه حكاية الماضي لاستحضاره ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ أي سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ بذمها، وادعاء العيوب فيها ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ فحكم الكفر باق لم يخرجهم منه قولهم: ﴿نَعَمۡ﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿وَبَيۡنَهُمَا﴾ بين أهل الجنة وأهل النار ﴿حِجَابٌ﴾ فهم لا يتراءون إلا إذا اطلع من أهل الجنة مطلع ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ أعراف الحجاب: أي أعاليه، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «هو سور بين الجنة والنار، والأعراف: كل موضع مرتفع مشرف» انتهى.

﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡ﴾ كلاً من أهل الجنة وأهل النار من قبل أن يدخلوهما يعرفونهم ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ وسيماهم: علاماتهم، وهي بالنسبة إلى كونهم من أهل الجنة أو أهل النار، بياض الوجوه وسوادها ونحو ذلك.

أما السيما التي تعرفهم بالأشخاص، فهي ما كان موجوداً في الدنيا وجاء بعضه في الآخرة يتميز به الشخص والرجال هؤلاء من الناس؛ لأنه المعنى الحقيقي، والراجح: أنهم من السابقين أو أنهم السابقون سبقوا إلى دخول الجنة، واطلعوا على السور ينظرون إلى من بقي في المحشر ومن دخل النار.

﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ عرفوا أنهم من أصحاب الجنة، فنادوهم يبشرونهم: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي لا خوف عليكم ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ والنداء في حال أن المبشَّرين الذين ناداهم أصحاب

لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ

الأعراف نادَوْهُم قبل أن يدخلوها ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ في دخولها لم يكن تأخير دخولها إلا لانتظار الإذن لهم.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أي أبصار هؤلاء الطامعين في دخول الجنة ﴿تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي إلى جهتهم ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا يدل على عظم ذلك الموقف، حيث يُشاهَد أهل النار قبل أن يدخلوها قد تبين عليهم سوء الحال، واسودت وجوههم، وخشعت أبصارهم، وانحلَّت قواهم من الخوف، فحق لمن رآهم أن يتعوذ بالله من أن يجعله معهم، والدليل على أن الضمير في ﴿قَالُواْ رَبَّنَا﴾ لأصحاب الجنة الطامعين، قوله تعالى بعد هذا:

﴿٤٨﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ فجدد ذكر ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ لما تخلل كلام في غيرهم، وبان بذلك أن بقية الكلام الماضي في أصحاب الجنة استطراد، وموعظة لنا بعد تمام ذكر نداء أصحاب الأعراف لهم، ثم انتقل أصحاب الأعراف لنداء رجال من أصحاب النار ﴿يَعۡرِفُونَهُم﴾ بعلامات شخصية تميزهم ويعرفون بها من هم.

﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ ما دفع عنكم جمعكم للمال والرجال في الدنيا، وما استمر منكم في الدنيا من استكباركم عن الحق، واعتقادكم أنكم فوق أن تقبلوه، فقد انكشف غلطكم فيه ولم يدفع عنكم العذاب.

عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ

﴿٤٩﴾ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ أي من قول أصحاب الأعراف أنهم يقولون لرجال من أصحاب النار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنون الذين قد ظهرت لهم سيما أهل الجنة ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ في الدنيا أنهم ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ وهذا سؤال تقرير يلفتون به أنظار المستكبرين إلى المؤمنين المستضعفين.

ثم يوجه أصحاب الأعراف الخطاب إلى المؤمنين الذين أقسم المستكبرون لا ينالهم الله برحمة، فيقول أصحاب الأعراف لهؤلاء المؤمنين: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ فقد أذن الله بدخولكم الجنة ونجاتكم من النار، فأول الآية خطاب من أصحاب الأعراف لرجال كانوا في الدنيا مستكبرين قد عرفوهم، وآخرها خطاب للمستضعفين المذكورين، والمستكبرون يسمعون قولهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وهذا بيان لخطأ المستكبرين وكرامة المستضعفين فقد رفعهم الله، وأذل وأخزى المستكبرين، والخطابان هنا مثل الخطابين في قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف:٢٩].

﴿٥٠﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بلوغ النداء بينهم بإذن الله، ونحن نجد في الدنيا وسائل الإعلام تبلغ الكلام من بعيد، طلبوا الإفاضة عليهم من الماء؛ لعلمهم بتوفره لأهل الجنة وسهولة إفاضته عليهم من ناحية كثرته، وطلبوا أحد الأمرين لاستبعادهم أن يعطوهما معاً

ٱلدُّنۡيَا ۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى

وقالوا: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ أي من المأكولات مثلاً، توصُّلاً إلى إعطائهم على أنه منهم يعطونهم كما يعطى السائل في الدنيا.

فأجابوهم بما يناسب حال المؤمنين الذين لا يرضون ما لا يرضي الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي فلن نفيض عليكم واحداً منهما، وهذا التحريم معناه: المنع، لا التكليف الشرعي.

﴿٥١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ أصل الدين: معاملة العبد لربه بالطاعة والعبادة، وهؤلاء اتخذوا ما هو في الأصل طاعة أو ما أصله طاعة اتخذوه لهواً ولعباً؛ لأنهم يفعلونه لمجرد أنه عادة يتلهّون بها وليلعبوا.

فمثلاً: يطوفون بالبيت لا للتقرب إلى الله ولا لطاعته؛ ولكن لأنه عادة جرى عليها الناس في ذلك البلد، ويصلُّون عند البيت بالمكاء والتصدية للّعب بهما، ولعل كثيراً ممن يصلون اليوم ويصومون لاحقون بهؤلاء لجهلهم بالله وبدينه، فيفعلون ذلك لأنه عادة الناس فيصلون بلا تعلم لشروط الصلاة وفروضها، ولا إحضار ذهن لنية أو لخشوع، ولا قصد للتقرب إلى الله، ولا لامتثال أمره ولا يُتمُّونها، فهي مجرد لهو يلهون به ثم ينصرفون إلى دنياهم، وكذلك يصوم مع الناس لينام النهار ويسهر الليل على اللهو واللعب.

ولقد بلغني عن بعض أهل البلدان: أنهم يحيون ليالي شهر رمضان بالرقص والغناء، وبلغني عن بعضهم: أنهم يتخذون الملاهي في الإحتفالات الدينية، وقد جاء في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أخاف عليكم بيع الحُكم، واستخفافاً بالدم، وأن تتخذوا القرآن مزامير» رواه في (صحيفة الإمام الرضا).

وفي اتخاذ القرآن مزامير رواية أخرى في (أمالي المرشد بالله) وهو من مدلول الآية؛ لأن استماع القرآن في الأصل دين، فإذا اتخذوه لمجرد التلذذ بالصوت دون التفات إلى المعنى فقد اتخذوه مزامير، لأن المزامير صوت بلا معنى، فهذا من اتخاذ الدين لهوا ولعباً.

أما قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فإنهم اغتروا بها؛ لأنها عاجلة طال أملهم فيها، فاشتغلوا بها عن الإعداد للآخرة ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ لا نجيب لهم دعوة، ولا نقضي لهم حاجة، ونتركهم كالمنسيين في نار جنهم وعذابها، جزاء ومبادلة لنسيانهم ﴿يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو حين يعذبون في جهنم لم يستعدوا له في الدنيا حتى ينجوا من عذاب ذلك اليوم.

﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكما كانوا بآياتنا يجحدون، واعلم: أن هذه الآية إن كانت من الحكاية لجواب أصحاب الجنة على أصحاب النار فيشكل عليه تحويل الكلام، كأنه يقوله الله لقوله: ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وإن كانت ابتداء من كلام الله بعد حكاية كلام أهل الجنة، فلم يكن في أولها دلالة على ذلك.

ولحل الإشكال نقول: يحتمل أنها حكاية عن أهل الجنة، وصح تحويل الضمير من الغيبة إلى ضمير القائل الحاكي؛ لأن الحاكي له هو الذي ينساهم، وهو الذي جحدوا بآياته أي كذبوا بها وهم يعلمون أنها حق، فهو من باب قول الشاعر:

إني امرؤ صرعي عليك حرام

أو أنها ـ أعني هذه الآية ـ ليست حكاية، بل هي من الله جاءت مربوطة بالحكاية عن أهل الجنة وصفاً للكافرين المذكورين في كلام أهل الجنة، وهذا أرجح، فلا هي حكاية ولا هي ابتداء بتقدير (مبتدأ).

وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ

ونظيرها في (سورة طه): ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ [آية:٥٢-٥٤] وفي (سورة الزخرف): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [آية:٩-١٣].

﴿٥٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿جِئۡنَٰهُم﴾ جئنا أصحاب النار بكتاب، وهذا يدل على أنها قد جاءتهم الكتب من أول أمة كذبت، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:٢١٣].

وقوله تعالى: ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾ أي بيَّنَّا دلالته بواسطة تفصيله وسلامته من التعقيد وتداخل الكلام الذي يصعب معه فهم المعنى، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ يفيد تحقيق التفصيل؛ لأن الله فصله وهو يعلم كيف يكون مفهوماً لعلمه بأفهامهم وبطريقة جعل الكلام مفهماً لهم، ويحتمل ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ على علمٍ يستفاد منه ويفيده القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ..﴾ إلى قوله: ﴿..عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] والإحتمال الأول أرجح؛ لأن الثاني يكفي عنه في المقام قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ فالكتاب هدى إلى طريق النجاة والسعادة بالجنة، فلو آمنوا به واتبعوه نجوا من النار، وتسمية القرآن ﴿هُدٗى﴾ ظاهرة؛ لأنه بيان لطريق الجنة أو لسبيل الله، فلا نحتاج إلى تقدير ذي هدى، وكذلك قوله ﴿رَحۡمَةٗ﴾ لأنه كتسمية الجنة رحمة الله.

فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ

﴿٥٣﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾ ما يؤول إليه ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي ينتظرون، أي ما ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمره من وقوع ما وعد به ليؤمنوا به أو تخلفه فيعلموا أنه لم يكن حقاً.

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ وهو ما وعد به من الحشر والحساب والجزاء وهو تأويله الحق الذي كان لا بد من وقوعه ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي لم يؤمنوا به وتركوه كالمنسي ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وذلك يوم جاء ما وعد الله به وهو يوم القيامة، فقد غلطوا على أنفسهم في انتظاره ليؤمنوا؛ لأن الإيمان يوم القيامة لا ينفعهم ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ وهذه حالة سيئة فقد جاء وعد الله وحضر العذاب ولم يجدوا إلا هذا السؤال حين لا يعلمون شفعاء ولا شفعاء ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الحالة التي كنا عليها في الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي نعمل الطاعة ونؤمن وهيهات ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فما أعيدوا إلا للحساب والجزاء ونحوه لا لمصلحة لهم في الحياة، فحياتهم ليست لهم إنما هي للجزاء ونحوه، ففاتهم كل خير.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿ضَلَّ عَنْهُم﴾ ضاع عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟﴾ في الدنيا يفترونه من دعاويهم: أن شركاءهم سينصرونهم، أو أن الملائكة سيشفعون لهم أو أنبياءهم.. أو غير ذلك، وما أشبهه من الأماني التي انكشفت خداعاً لأنفسهم وغروراً، ولما كان في هذه الآية إشارة إلى المشركين والمكذبين، جاء بعدها الإحتجاج عليهم، فقال تعالى:

ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ إن مالككم الله، فأنتم عباده وحده، فعليكم أن تعبدوه وحده، وتتركوا الشرك، وتتركوا التكذيب بآيات الله، لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعبدوا الله، وتؤمنوا بالآخرة لتستعدوا لها، ثم بين قدرته تعالى ليعلموا أنه قادر على كل شيء، فهو الذي يُرجَى منه فائدة العبادة، وتخشى منه العقوبة؛ وليعلموا أنه قادر على إحيائهم بعد الموت، وبين لهم أن الملك له وحده، ليعلموا أنهم في الآخرة يرجعون إليه وحده، فقال سبحانه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الظاهر: أنها مقادير هذه الأيام المعهودة، وتأويلها بأيام أطول بكثير يبطل تحديد المدة بأيام ويحولها إلى التحديد بأعوام وليس بعيداً في قدرة الله، وإن كان العالم من بعد ذلك يتطور شيئاً فشيئاً، فذلك لا يدل على أنه كذلك من ابتداء خلقه، وفيه رد على من يدعي أنه وجد بالتفاعل بين العناصر التي هي: التراب، والهواء، والماء، والنار؛ لأن التفاعل لا يكون منها تلقائياً، بل تحتاج إلى من يجعلها بحيث تتفاعل، ويدبر لها أسباب التحول إلى أرض وسماء، وإلا احتمل أن يطفي الماء النار، أو يبدد الهواء التراب، أو يبقى كل واحد في مكان من الفضاء وحده، وليس إحراق النار الماء بأولى من إطفاء النار بالماء إذا لم يكن فاعل يدبر طريقة ينتج عنها أحد الأمرين دون الآخر.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فله الملك والتصرف والولاية على ما خلق، فهو الذي يتصرف فيه، ويدبر أمره من يوم خلقه، فالملك له وحده لا يشاركه فيه شيء من خلقه؛ ولذلك فله الأمر وحده كما له الخلق وحده.

فمعنى ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ تولّى أمور الخلق، ونفذ ما يشاء من التصرف فيها ولها، ولذلك عقبه بذكر بعض التصرف، فقال سبحانه: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل:١] فالليل المفعول الأول كما أصله: غشي الليل النهار، فلما دخلت عليه (همزة التعدية) وصار رباعياً كان مضارعه (يُغشِي) وصار الليل مفعولاً أوّلاً، فهذا تصرف عظيم بخلق الشمس، وتحديد النسبة بينها وبين الأرض، وتقدير الدورة الأرضية، فمن يقدر على ذلك إلا الله القادر على كل شيء، الذي يتصرف في العالم كيف يشاء.

وغشيانه: وقوعه عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ﴾ [لقمان:٣٢] في رأي العين، بدليل قوله تعالى: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ مسرعاً حريصاً على غشيانه، فهو في رأي العين قد لحق النهار يدفعه إلى جهة المغرب، وقد قيل: إن قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يحتمل: أن الليل يغشي النهار، ويحتمل: أن النهار يغشي الليل، وهو عندي بعيد؛ لأن الليل أولى بأن يجعل غاشياً كما أن النهار كاشف يظهر الشيء فلا يعد غاشياً، قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس:٣-٤].

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ وخلق﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ﴾ في جريها على نظام محدود، كما سخرها دائبة مستمرة على ذلك بأمره، والأمر الحقيقي ينسب إلى المأمور الذي يفهم ويعقل، أما الجماد فأمره أمر تدبير وتسخير بقدرة الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ..﴾ [يس:٨٢] وهو تمثيل لسهولة كل شيء في قدرته تعالى، وتسخير الشمس والقمر والنجوم هو من تدبير شؤون العالم والتصرف فيه، وفي هذا دلالة ظاهرة: على أن الشمس والقمر والنجوم غير السموات.

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه؛ لأن المشركين كانوا غافلين عن ذلك فأشركوا به ما لا يخلق ولا ينفع ولا يضر وليس له في ملك الله أي مشاركة، وإذا كان الخلق والأمر لله وحده كما يفيده تقديم الخبر له فهو ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المستحق أن يعبدوه، فهذه الآية تؤكد في آخرها ما بُدأت به، وآخرها بعد ذكر خلق السموات والأرض وتفصيل بعض التصرف في شؤون العالم يشبه ذكر النتيجة بعد تمام الدليل.

فصل في معنى (العرش)

لا إشكال أن معنى ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ منسوباً إلى الله غير معنى استواء المخلوق على سرير؛ لأن مشابهة الخالق للمخلوق محال، فكذا ما يستلزم المشابهة، واللسان العربي يستعمل الكلامَ في معنى حقيقي تفهمه العرب ويتبادر إلى أذهانها، أو معنى مجازي إن صرفت قرينة عن إرادة المعنى الحقيقي، ولا إشكال أن تعذر المعنى الحقيقي في كلام الحكيم أكبر قرينة على أنه غير مقصود، فما بقي إلا المجازي؛ لأن القرآن نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] والمعنى الذي ذكرته، وهو تولي أمور العالم والتصرف فيه تصرف الملك في مملكته هو أوفق للسياق، فقد حصلت القرينة الصارفة والمناسبة، وذلك أن العرب تعبر عن الملك بالعرش، كقول الشاعر:

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

وهو الظاهر في قول الله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥] فقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ تعبير عن علو الشأن، ليس معناه: دَرَج مثل درج الدار، وقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي ذو الملك، ووصف ملكه بالعظم، وعظم الملك أعظم من عظم عرش مصنوع كالسرير.

فأما من قال: الاستواء معلوم؟

فيقال له: هل أردت اللفظ؟ فهذا لا نزاع فيه، أم أردت المعنى؟ فما هو إن كان معلوماً؟

فإن قال: معلوم أنه استوى.

قلنا: ما معنى استوى؟

فإن قال: لا نعلم، فقد أقر أنه غير معلوم، وإلا فماله لا يزيد على لفظ استوى، ولا يفسره بكلمة أخرى.

فإن قال: استواء يليق بجلاله.

قلنا: قد ثبت أنه لا يليق بجلاله الإستواء المعروف في العربية، الذي هو مفهوم الإستواء، فمن أين لكم أنه استواء كما زعمتم؟! لأن الكلام ليس فيه إلا المعنى الذي تفهمه العرب، وهي لا تفهم ما ذكرتم ولا تفهمونه أنتم؛ لأنكم لا تريدون بقولكم: «استواء يليق بجلاله» معنى مفهوماً؛ يعبر عنه بالاستواء، إنما تأتون باللفظ لمعنى مجهول جملة وتفصيلاً.

وقولكم: «يليق بجلاله» إنما هو تعبير عن كونه غير المعنى الحقيقي في لغة العرب، وذلك لا يفهم معناه لا جملة ولا تفصيلا، وأنتم تقولون: «وجه يليق بجلاله» و«يد تليق بجلاله» فقولكم: «يليق بجلاله» لا يميز شيئاً عن شيء من المعاني التي تدعونها، وحمل الكلام على المعنى الذي ذكرناه حَمل على معنى مفهوم، وليس لكم أن تعارضوه؛ لأنكم لا تدرون ما هو الإستواء الذي يليق بجلاله، فما يدريكم لعل ما ذكرناه هو الإستواء الذي يليق بجلاله.

فأما دعواكم: أن إثباتكم للمعنى المجهول للإستواء، مثل إثبات علم الله وقدرته، فهي مغالطة؛ لأنا أثبتنا معنى العلم والقدرة في اللغة، وإنما نفينا مشابهته للمخلوق بكون القدرة معنى في جسم، والعلم معنى في جسم،

ودعواكم: أن معناهما في اللغة هو العَرَض القائم في الجسم دعوى باطلة، فإن مفهومهما لا يلتفت فيه إلا إلى إثبات ضد الجهل وإثبات ضد العجز من غير النظر إلى ما هو.

والحاصل: أن العلم والقدرة قد فهم معناهما المعروف عند العرب جملة فأما الإستواء فلم نفهم ما تدعون لا جملةً ولا تفصيلا، فليس معنى عربياً، وقد جعلتم لهذه الكلمة وضعاً جديداً، وكذلك للوجه واليد بلا دليل، وهو تحكم باطل، ولو كان معناه مجهولاً ما صح الإحتجاج لإثبات الربوبية لله في هذه الآية المبدوءة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ..﴾المختومة بقوله تعالى: ﴿..أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] وكذلك الإحتجاج في (سورة يونس): ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [آية:٣] فكيف صح الإحتجاج بالمعنى المجهول جملة وتفصيلا، فهذا احتجاج واضح، ولذا ختمه بقوله: ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «عن القاسم بن إبراهيم عليه السلام: أما العرش والكرسي، فإنهما ملك الله وسلطانه، كما أن العرش والكرسي مقعد كل ملك ومكانه، وليس يتوهم مَن آمن بالله أنما ذكره الله سبحانه من كرسيه وعرشه ككراسي خلقه وعروشهم التي تكون مقاعدَ لهم في ملكهم» انتهى المراد.

وللقاسم عليه السلام في (مجموعه) (كتاب العرش والكرسي) وهو كتاب مفيد في الموضوع فليطالَع، وقد حقق الله في هذه الآية الكريمة ربوبيته وقدرته، وأن له الخلق والأمر، ثم قال كالتفريع على ذلك:

لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ

﴿٥٥﴾ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أمرنا بالدعاء أن ندعو ربنا الذي خلقنا ورزقنا، ففيه فوائد:

الأولى: أنه عبادة لـه، وللعبادة خلقنا.

الثانية: أنه سميع الدعاء القادر على إجابته، وقد أنعم علينا ابتداءً قبل أن ندعوه، فهو بكرمه يجيب الدعاء.

والثالثة: أنه قد وعد بالإجابة، فالدعاء مفتاح خير لنا، ووقاية لنا من الشرور.

وقوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا﴾ بمعنى تذللاً، كقوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا**﴾ [الأنعام:٤٣] وقد يكون التضرع برفع الأصوات بالدعاء على وجه التذلل كما في الاستسقاء والحج.

وقوله: ﴿وَخُفْيَةً﴾ بحيث لا يسمعه الغير؛ لأنه لا يخفى عليه، وقد روي أن موسى عليه السلام قال: «يا رب أقريب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك، قال يا موسى: أنا جليس من ذكرني» أو كما قال، والحديث في (صحيفة الإمام الرضا) وقال تعالى: ﴿**سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ..**﴾ [الرعد:١٠] الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهم الذين يدعون غير الله، كما يرشد إليه السياق من حيث أن السياق في الرد على المشركين، ولا إشكال أن الشرك بالدعاء لغير الله اعتداء.

﴿٥٦﴾ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ ﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمحاربة الدين، ونصرة الباطل، والجدال في آيات الله، وإضلال عباد الله .

ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ

﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ بالرسل والكتب وأسباب الهدى والعدل والإحسان في عباد الله، ومن الإفساد في الأرض: السعي في التفريق بين المسلمين، وإلقاء العدواة والبغضاء بينهم، والمدارس التي تحول الطلاب إلى الباطل، وكذلك إفشاء أسباب الفساد بدعوى مشاركة المرأة للرجل، أو غير ذلك.

﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿وَٱدۡعُوهُ﴾ وادعوا ربكم ﴿خَوۡفًا﴾ بطلب النجاة من عذابه ومن كل شر ﴿وَطَمَعًا﴾ بطلب الجنة وكلِّ حاجة ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ بالإجابة للدعاء والإثابة على العبادة الخالصة بالدعاء وغيره ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المؤمنين المخلصين، وقد فسر ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في أول (سورة لقمان) بما فسر به (المتقين) في أول (سورة البقرة) وفسر به (المؤمنين) في أول (سورة النمل) فكلها تتضمن إقامة الصلاة، والإنفاق، والإيقان بالآخرة، والجهاد في سبيل الله.

﴿٥٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ وربكم الذي يرسل الرياح مبشـرات ﴿بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ أي قبل المطر الذي هو رحمته لعباده وقرئ ﴿نشرا﴾ بالنون أي محييات للأرض بتسبيبها للمطر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ﴿أَقَلَّتۡ﴾ أي الرياح رفعت في الجو ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء الذي فيها ﴿سُقۡنَٰهُ﴾ من حيث أقلَّته حتى يبلغ فوق البلد الميت من الجدب وإبطاء المطر، فقد يبست فيه المراعي وانقطع إنبات الزرع ونحوه، فهو في ضعف حاله وانقطاع إنباته كالميت الهامد.

نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لتأكلوا منها، فهذا التدبير دليل على الله وقدرته ورحمته بعباده ونعمته، وهذا بيان واضح نافع لمن تدبر ليعرف ربه فهي حركات مدبرة لنهاية مطلوبة للعباد نافعة، إرسال الرياح بعد سكونها ثم سوق السحاب بمائها تحفظه حتى تصل على البلد الميت فترسله، فينزل بالبلد الميت فيحييه، ويخرج به من كل الثمرات التي يحتاجها عباد الله، وذلك دليل على الله الرازق لعباده؛ لأنه تدبير مدبر عليم قدير كريم رحيم.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما أخرجنا بالأرض بعد موتها من كل الثمرات وكان البلد قبل ذلك كأنه لا يصلح لإخراج الثمرات؛ لاستمرار يباسه وطول مدة إجدابه، فلما نزل به المطر أحياه وأنبت وأثمر، وذلك التدبير والصنع دليل على قدرة الله تعالى على إخراج الموتى من قبورهم، وأن استبعاد الكفار له إنما هو كاستبعاد القانطين لنبات الأرض قبل أن ينزل المطر.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بهذا التدبير بإرسال الرياح، ثم سوق السحاب لبلد ميت، ثم إنزال الماء به، ثم إخراج أنواع الثمرات، أي فعلنا ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قدرتنا على إخراج الموتى، فهي آية ونعمة جعلناها للأمرين.

﴿٥٨﴾ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الذي طاب لأهله لصلاح تربته؛ لأنه يتيسر فيه رزقهم ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ صالحاً أو قوياً بإذن ربه الذي صنع تربته وأعدها لذلك.

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ على أهله بضعف تربته ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ قال الراغب: «وناقة نكداء: طفيفة الدَّر، صعبة الحلب» انتهى، وعلى هذا يكون المعنى: قليل النبات لا يحصل إلا بصعوبة إذا كان صفة للبلد.

وفي (لسان العرب): «ونكِد الرجُلُ: قلّل العطاء، أو لم يعطِ البتة» انتهى، وهذا يصلح وصفاً للبلد، وقال في (لسان العرب): «النكد: الشؤم واللؤم، نكِد نكداً فهو نكِد..» إلخ، فالبلد القليل النبات مشؤوم؛ لأن أهله يتعبون في خدمة الحرث وفائدته قليلة.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي كما فصّلنا الآيات في هذا السياق من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ..﴾ إلى قوله: ﴿..نَكِدًا﴾ سنتنا نفصل الآيات في سائر القرآن الكريم وغيره، أو في الكون وما فيه من أثر التدبير والدلالة على ربكم.

والآية في المخالفة بين التربة، بجعل طبع هذه هو الصلاح للإنبات، وطبع هذه قلة الصلاح والحاجة إلى عناء أهلها، هي اختلاف طبع التربتين الذي لا يكون إلا من فاعل أصلح طبع تربةٍ نعمةً لأهلها، وأضعف طبع تربة لتبين نعمته في غيرها وابتلاء لأهلها، ولو كانت آثار طبع واحد لاتفقت في الصلاح أو في الضعف؛ لأن ما تنتجه الورشة الواحدة يكون سواء، أما الصانع فيخالف بين مصنوعاته كيف يشاء، كما خالف بين القطع المتجاورات من الأرض، وخالف بين الشجر التي تسقى بماء واحد ويختلف ثمرها في الجودة، وخالف بين ألوان الناس والدواب والأنعام، وإن كان ذلك بسبب طبائع مختلفة، فهو الذي خالف بين الطبائع، ولا بد أن ينتهي اختلافها إلى فاعل مختار.

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي

وقوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ دليل على أن الآيات نعم تستوجب شكر الناس؛ لأنها سبب للعلم النافع لمن تفكر.

﴿٥٩﴾ ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ هذا ابتداء القصص بالحق الذي يبيِّن هداية الله لعباده، وإرساله للرسل إليهم بآياته منذرين لهم ومحذرين من عذاب الآخرة وداعين إلى عبادة الله وحده، واجتناب الشرك والفساد في الأرض، ويبين عاقبة المكذبين لهم.

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ بدأ بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ للدلالة على عطفه عليهم ونصحه لهم فدعاهم إلى عبادة الله التي لها خلقوا، وذكرهم بأن الله لا شريك له، ليتركوا الشرك الذي هو الظلم العظيم، ثم خوفهم بعذاب الله لينظروا حتى يعلموا أنه يدعوهم إلى الحق، ويجتنبوا أسباب عذاب الله الذي يكون في ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ وبيَّن لهم نصحه بأنه يخافه عليهم.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي في عدول عن طريق الصواب وغواية عنه ﴿ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بيِّنٌ واضح لا خفاء فيه و﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ جماعة اجتمعوا على أمر، ويقال: هم كبار القوم وهو الأقرب هنا، وإن كانت الجماعة تسمى ملأً، وقالوا عناداً: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ مؤكدين دعواهم أنهم يرونه في غواية بيِّنة، جراءةً منهم على الكذب، وحرصاً على إبطال قول نبيهم؛ ولعل الباعث لهم كراهة أن يكون له الرئاسة في قومهم، ولهذا قالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون:٢٤].

ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ

﴿٦١﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ واحدة، أي ليس بي أيُّ ضلال، ليس الباعث لي على دعوتكم وإبلاغكم أني لكم نذير مبين أي ضلالة، ولكني رسول إليكم ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي هو ربكم المالك لكم، والذي هو أولى بكم وهو المالك للعالمين كلهم.

﴿٦٢﴾ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ خبر ثانٍ لـ(لكن) أي أبلغكم ما أرسلني به ربي المالك لي، الذي لا بد لي من طاعته، وهي رسالات متعددة أريد تبليغها كلها ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ كما هو شأن الرسول من رب العالمين الذي أرسله رحمة لهم، أن يتحرى لهم الخير مخلصاً في ذلك ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأنتم محتاجون إلى استماع كلامي واتباعي لأنقذكم من ظلمات الجهل.

﴿٦٣﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ معطوف على تضليلهم له والسؤال لإنكار العجب، كيف عجبوا لذلك وهو خير جاءهم من ربهم ﴿ذِكْرٌ﴾ يذكرهم من غفلتهم، وهم غافلون في أشد الحاجة إلى الذكر، وهذا الذكر ولعله (الكتاب) الذي أنزله على رسوله، أنزله ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ منهم معروف لديهم لاينكرونه، جاءهم هذا الذكر من ربهم منزلاً على رجل منهم لأمر مهم في أشد الأهمية، وهو إنذارهم عذاباً شديداً دائماً.

فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن

﴿وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وليتقوا هذا العذاب، ولعلهم إذا جاءهم ذكر من ربهم يرحمون، يرحمهم الله بتوفيقه وألطافه إذا لم يعاندوا حتى ينجوا من النار ويفوزوا برحمة الله العظمى في جنات النعيم، فالرحمة الكاملة: هي السلامة من العذاب والفوز بالجنة، والمراد: الرحمة بالتوفيق المؤدي إلى الرحمة الكاملة، فعجبهم من الذكر والرسول لهذا الغرض المهم، عجب منكر معيب عليهم.

﴿٦٤﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوه في كل ما قال لهم: من أنه ما لهم من إله غير الله، وأن عليهم أن يعبدوا الله وحده، وأنه نذير لهم، وأنه جاءهم بذكر من ربهم لينذرهم وليتقوا ولعلهم يرحمون، واستمروا على تكذيبه حتى جاءهم العذاب ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الذين معه في الدين والإيمان شاركوه في ذلك وصاحبوه عليه، فهذه هي معيتهم للرسول، ولا يستحق هذا الاسم منافق ولا فاسق و﴿ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة، وهي آية لتدبير نجاتهم في قوة أخشابها ومساميرها وإتقان صنعها حتى صارت ضامنة لنجاتهم من الغرق وهي تجري بهم في موج كالجبال.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ لا يبصرون ببصائرهم، وهذا إنذار للمكذبين من بعدهم والتكذيب بالآيات جحد كونها آيات، مع دعوى أن نسبتها إلى الله كذب.

﴿٦٥﴾ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ كما قال نوح لقومه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، وقد اتخذتم من دونه آلهة وتركتم إخلاص العبادة لله.

قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ﴿سَفَاهَةٍ﴾ خفة عقل وعتاهة، بحيث لا ينبغي لنا أن نصغي لقولك ولا نلتفت لكلامك ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في قولك: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وإنذارك لنا بقولك: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يردعه قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ واكتفى بالجواب المحكم، الذي هو الحق الذي يدل على رجاحة عقله والذي هو مهمته.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ التي أرسلني بها إليكم وأمرني أن أبلغكم إياها، فأنا أمتثل أمر ربي ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فأنا أدعوكم إلى ما فيه الخير لكم، وأخلص لكم الإرشاد إلى ما فيه الخير لكم، وأنا ﴿أَمِينٌ﴾ في ذلك؛ لأن الله اختارني لذلك.

﴿٦٩﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ إنكار لعجبهم من أنهم في أمس الحاجة إلى النذير، وربهم المالك لهم لا يريد أن يهملهم بلا نذير.

بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض ﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ﴾ على قوم نوح ﴿فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ زيادة واسعة في كمال أبدانكم وقوتكم. قال في (الصحاح): «البسطة: السعة» انتهى، فبيّن لهم: أنها نعمة عليهم يجب أن يشكروا الله عليها، ولكنهم جعلوها داعية لهم إلى الكفر، حيث قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ تذكروا نعم الله لتشكروه ولا تكفروه، أو ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟﴾ كناية عن الأمر بالشكر ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بالخير وتنجون من العذاب إذا شكرتم نعم الله عليكم.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ حولوا دعوته لهم إلى معنى يتعصبون له، وهو ترك ما كان يعبد آباؤهم، فانشغلوا بالتعصب لآبائهم، بحيث طلبوا تعجيل العذاب إن كان صادقاً، وهي وسيلة شيطانية لرفض الحق، والتعصب للباطل ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فإذا جاءهم العذاب، فقد نال الشيطان مراده منهم ليكونوا من أصحاب السعير، والرسول جاءهم منذراً يدعوهم إلى النجاة من العذاب.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ عقوبة عاجلة من ربكم؛ لتمردكم بعد وضوح الحق، وإصراركم على الباطل، فقد خذلتم وغضب ربكم عليكم، فأرسل عليكم الشياطين تؤزكم أزاً، حتى صرتم إلى حد من الغواية والعمى في مكان بعيد من الحق.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى﴾؟! سؤال إنكار، يعيب عليهم جدالهم في ما يعبدون من دون الله، وهي مجرد ﴿أَسْمَآءٍ﴾ سموها هم وآباؤهم؛ لأنهم يرون حجراً أو تمثالاً فيسمونه إلهاً، فليس لـه مزية على سائر الأحجار والتماثيل المصنوعة إلا مجرد تسميتهم لـه إلهاً بلا حجة، وإنما هي تسمية اختلقوها من أنفسهم؛ ولهذا جعلها مجرد أسماء سموها هم وآباؤهم، بدون أي حجة من الله تسلطهم على التسمية ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ما استعجلتم به ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لـه؛ لأنكم قد صرتم بحيث يتوقع نزوله عليكم.

﴿٧٢﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ كان المقـدم في (قصـة نـوح) و(قصة هو) ذكر نجاتهما ومن معهما، وذلك إرشـاد إلى النجـاة في اتبـاع مـا أنزل إلينا من ربنا وترك الأولياء من دونـه، وقولـه تعـالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي بوسيلة لنجاتهم دبَّرها لهم، كإخراجهم من بلد قومهم قبل نزول العذاب.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ أي أهلكناهم بسبب تكذيبهم بآياتنا، والدابر: العقب أي الذرية، فأهلكهم بحيث لم يبق لهم عقب، وذلك لأن العذاب عمهم ولم يُبق كبيراً ولا صغيراً. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهو يفيد: أنهم لو كانوا يؤمنون في بقية أعمارهم لما أهلكهم، ولكنه تعالى علم أنهم لن يؤمنوا لو أبقاهم، فإهلاكهم لمجموع الأمرين: التكذيب، وكونهم لن يؤمنوا.

ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ

ومثلها في (سورة يونس) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [آية:١٣].

قال في (المصابيح): «وأما عاد فهم قومٌ كانوا باليمن بـ(الأحقاف) قال ابن إسحاق: والأحقاف: الرمل الذي بين عمان إلى حضرموت».

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي اعبدوا الله وحده، وهو يفيد: أن عبادتهم لو كانت لله مع شركائهم ما كانت مقبولة فهي كلا عبادة، إنما العبادة لله ما كان له خالصاً.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ بينة تدل على صدق رسولكم، وأن ما جاءكم به حق، وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ بيان للبينة أنها هي ناقة الله، وقوله: ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي جعلها الله لكم لتكون لكم آية، فهي لكم من حيث هي آية لا لتركبوها ولا لتأكلوها.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ اتركوها ترتع ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ لا تعترضوها ولا تمنعوها؛ لأنها ناقة الله، والأرض لله، وهو المالك للأرض له حكمه فيها، فعليكم أن تتركوها تأكل في أرض الله، وهذا ابتلاء لهم، ولعله بمطالبتهم كانت هذه الآية العظيمة، الناقة التي تشرب ماءهم في يوم ولهم يوم ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ يعم الضرب والجرح والقتل والضرَّ كلَّه، وهذا إنذار لهم بالعذاب الأليم إن مسّوها بسوء.

وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ

﴿٧٤﴾ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ اذكروا نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض تنتفعون بمنافعها من بعد عاد ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جعل لكم في الأرض مباءة أو مباءات أي مواضع سكنى.

قال في (لسان العرب): «والتبوُّء: أن يُعلِم الرجلُ الرجلَ على المكان إذا أعجبه لينزله، وقيل: تبوّأه أصلحه وهيّأه، وقيل: تبوّء فلان منزلاً إذا نظر إلى أسهل ما يُرى وأشدِّه استواء وأمكنِه لمبيته فاتخذه، وتبوأ: نزل وأقام والمعنيان قريبان» انتهى.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ من السهول ما تبنى منه القصور بجعله طيناً متيناً، وبناء القصر منه، أو بجعله لبناً ثم يبنى، ومنها ما يجعل آجراً يوقد عليه في النار فيصير قوياً خفيفاً، وهو أصلح لأعالي القصور، ولذلك اختاره عدو الله، فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص:٣٨].

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ نحت الجبال: تسويتها بآلات تجعل فيها التجاويف الكبيرة التي تصلح للسكنى، وذلك بالضرب بالفؤوس أو نحوها، حتى تأخذ بطون الجبال وتصير الجبال بيوتاً، وقد شاهدنا من هذه البيوت في بلاد (صعدة) حكى الشرفي في (المصابيح): «أن ثموداً عُمّروا أعماراً طوالاً، حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم، فينهدم في حياته فنحتوا البيوت من الجبال» انتهى.

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نِعَمَ الله، والمراد: اشكروا نعم الله ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تفسدوا فساداً ينتشر في الأرض، و(العثيّ) الفساد وأخذ انتشاره في الأرض من نسبته إليها، وقوله ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة.

ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل بعض من كل، يفهم منه: أن الذين استضعفوا لم يكونوا آمنوا كلهم، ولكن آمن بعضهم، فقال لهم الملأ الذين استكبروا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مجادلة منهم للمؤمنين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ﴾ بالآية التي أرسل بها تدل على أنه مرسل من ربه ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ بأنها آية من الله تدل على صدقه.

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهذا نهاية العناد أن يكفروا بالآية العظمى التي هي الناقة، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): في الناقة آيتان: أحدهما: أنها خرجت من صخرة ملينا [ملساء ـ ظ] تمخضت بها كما تمخض المرأة، ثم انفلقت على الصفة التي طلبوها، والثاني: كان لها شرب يوم تشرب فيه ماء الوادي كله، وتسقيهم اللبن بدله، ولهم شرب يوم يخصهم لهم ما فيه» انتهى.

﴿٧٧﴾ ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ كفراً بها ومحاربة لدين الله ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ قال في (لسان العرب): «عتا، يعتو، عتواً، وعِتِيّاً: استكبر وجاوز الحد، ثم قال ـ وأظنه حاكياً عن الأزهري ـ: والعاتي الشديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لا يقبل موعظة» انتهى.

دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ

وهذا المعنى عندي أحسن في تفسير (العتو) أي شدة الإمتناع والإصرار فهو يقارب عتو الـهَرَم، وعتو الريح التي أهلكت عاداً، فعتو ثمود: شدة امتناعهم عن أمر ربهم، بحيث أنهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [القصص:٩٦-٩٧].

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كفراً منهم بقوله: ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكفراً برسالته.

﴿٧٨﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ زلزلة الأرض وكانت شديدة فأهلكتهم، وكان سبب الرجفة صيحة لعلها صيحة ملك شديدة رجفت منها الأرض رجفة شديدة، فأهلكتهم الصيحة بواسطة الرجفة، أو كانت الرجفة نفسها صيحة لقوة صوتها، والأول أقرب عندي، إلا أن يكون صوت الرجفة أهلكهم ـ والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ تصوير لحالهم في الصباح الذي كان وقت الخروج والحركة والإقبال على الأعمال ﴿جَٰثِمِينَ﴾ لسقوطهم هلكى على الأرض كالقاعدين، يقال: جثم الطائر إذا قعد ولطيءَ بالأرض، وفي (لسان العرب): «الجاثم: القاعد مكانه لا يبرح ـ ثم قال ـ : وقال أبو العباس: أي أصابهم البلاء فبركوا فيها، والبارك: الجاثم على رجليه» انتهى.

وقوله: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ أي في بلدهم، بدليل قوله تعالى في (سورة هود): ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [آية:٦٧] يقال للبلد: دار، ألا ترى أنهم يقولون: دار حرب، ودار هجرة، قال الراغب: «ثم تسمى البلدة داراً..» إلخ.

أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

﴿٧٩﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ نبيهم ﴿عَنْهُمْ﴾ لعله غاب عنهم في الثلاثة الأيام بعد ما قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥] ثم عاد إليهم بعد هلاكهم لينظر كيف هلكوا فتولى عنهم ﴿وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى﴾ أبلغتكم أني رسول من الله لأنذركم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم آلُ جهداً في طلب صلاحكم ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾:

فبيّن بذلك: أنها لم تبقَ لهم حجة، وأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم؛ لأنهم أهملوا عقولهم وجدّوا في اتباع أهوائهم إلى حدّ أنهم لا يحبون الناصحين؛ لأنهم يدعونهم إلى خلاف ما تهواه أنفسهم، وكلامه معهم في صورة الخطاب لهم لأنه أبلغ في موعظة السامع، أو هو كخطاب الرسول ﷺ لأهل القليب الذين قتلوا في بدر.

﴿٨٠-٨١﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ أي ولقد أرسلنا لوطاً وأغنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ عن قوله إلى قومه ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي أذكر إذ قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ سؤال توبيخ وإنكار عليهم ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ دلالة على سبقهم في الخبث والفجور حيث ابتدعوا فاحشة لم يسبقوا إليها.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ هذا تفسير للفاحشة المذكورة، ومعنى تأتون الرجال إتيان الرجال في أدبارهم ﴿شَهْوَةً﴾ لزيادة إيضاح المعنى، وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي بينكم وبين النساء، أي

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ

تجعلون ذلك أقرب من إتيان النساء، وهو يفيد: أنهم لا يصلون إلى النساء، كقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء:١٦٦] وذلك مخالفة للفطرة، والنساء زيادة في الحجة عليهم.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال الراغب: «السرف: تجاوز الحدّ في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر» انتهى، والمعنى ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون في الباطل الحدَّ المعهود من غيركم، أو متجاوزون الحق إلى الباطل في هذا الأمر وغيره.

﴿٨٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فقولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ قام مقام الجواب، ولم يجيبوا كما أجاب قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح، فجعل قول قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُم..﴾ إلى آخره جواباً على طريق المشاكلة، لوضعه موضع الجواب وجعله بدله.

وقولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ أي أخرجوا لوطاً وآله، وقولهم: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ جعلوها قريتهم كأنها لهم وحدهم، لعدم اعتبارهم مشاركة لوط وآله، استخفافاً بحقهم، وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعليل لإخراجهم، والمعنى: أنهم يتنزهون عن قذارة اللواط.

قال في (الكشاف): «وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشُّطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهد» انتهى.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾

---

(٨٣) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿وَأَهْلَهُ﴾ لأنهم كانوا مؤمنين ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ وكانت مسلمة، لكنها خانت نبي الله فـ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الماضين الهالكين.

(٨٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي مطراً غير المعهود وهو الحجارة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ففيهم عبرة لمن يعتبر لينجو من الهلاك الذي يسببه الإجرام.

(٨٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على أن لا إله إلا هو وأني رسول منه، وأن عليكم أن تعبدوه.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أمرهم أن يوفوا الكيل؛ لأن المطفف قد ينقص في الكيل وإن كان المكيال وافياً، وفي موضع آخر ذكر الله أنه أمرهم أن يوفوا المكيال؛ لأن المطفف ينقص بواسطة نقص المكيال، وذلك يدل على أن شعيباً عليه السلام أمرهم: أن يوفوا المكيال ويوفوا الكيل، وأمرهم: أن يوفوا الميزان؛ لأن التطفيف في الوزن قد لا يتهيأ إلا بالنقص في الميزان، بجعله مائلاً أو بنقص ما يوزن عليه؛ لأن المشتري يراقب استواء الميزان مراقبة تبعّد التطفيف بغير نقص الميزان.

تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ

وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم ما هو لهم، أو لا تظلموهم شيئاً من أشيائهم وهو يعم الأموال وغير الأموال، قال الراغب: «البخس: نقص الشيء على سبيل الظلم» انتهى.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ بعد إصلاح الأرض بمرافقها وأموالها وطرقها ومساكنها ومياهها، ونحو ذلك من إصلاح منافع الأرض، فالإفساد فيها تغيير صلاحها، بمثل: إغوار الماء، وقطع الطريق، وحرق المحتطب والمرعى والزرع، وقطع الأشجار المثمرة بالفواكه.. ونحو ذلك، وتخريب الدور، وإفساد الهواء بالدخان أو غيره، ويدخل في ذلك بالأولى إبطال التربة وإماتتها بالقنابل الذريّة وغيرها من وسائل الفساد.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّـهَ..﴾ إلى ﴿..إِصْلَاحِهَا﴾ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم؛ لأن صلاح المجتمع بانتشار العدل، وعدم الغش والخيانة، والإفساد في منافع الناس، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن قبلتم مني، وذلك يتوقف على إيمانكم بالله، ورسله، و اليوم الآخر.

﴿٨٦﴾ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الصراط: الطريق الواضح، والقعود به الجلوس فيه لانتظار من يمر فيه من المؤمنين، أو من يخافون أن يؤمن بشعيب، وقوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي توعدون بالقتل أو غيره مما يُخاف للتحذير من الإيمان أو من الإستمرار عليه.

وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تمنعون عن دين الله ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بالله ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تبغون سبيل الله عوجاً، بذكر الشبه والتغرير، لتجعلوا في سبيل الله عوجاً، وتنسبون إلى دين الله أنه غير مستقيم على الصواب، مثل ما يقول المحاولون في إفساد المسلمين: أن الدين يؤخر الناس عن التقدم والحضارة، ويبقيهم في الضعف والجمود والجهل بأسباب القوة، فيجعلون سبب ضعف المسلمين هو الإسلام، وهذا باطل، فإن سبب ضعفهم التفرق والتنازع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

وقوله: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ معطوف على ﴿تُوعِدُونَ﴾ و﴿تَصُدُّونَ﴾ فمعنى ذلك: تقولون لمن آمن، أو تخشون أن يؤمن شبهاً لتغووهم عن سبيل الله بالقدح في استقامة سبيل الله وكونها صواباً، وذلك كله في حال قعودكم بكل صراط.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ فاشكروا هذه النعمة، أو الدعوة إلى ذكرها، كنايةٌ عن الدعوة إلى شكرها وهو أقرب، والكثرة نعمة عظيمة؛ لأنها قوة يستطاع بها غلبة العدو، والدفاع عن الأنفس والأموال والدين ودفع المفسدين، ولكن الخلاف والتنازع يفوّت هذه الفائدة، والمسؤول عن ذلك المفسدون لذات البين.

﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فاعتبروا بمن قبلكم من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط؛ لتنجوا من العذاب الذي سببه الإفساد.

﴿٨٧﴾ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ من آيات الله ووحيه ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا

اصبروا على انتظار حكم الله بيننا، ولا تعجلوا على الشر، فإن الله ﴿خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ وانتظار حكمه يكفيكم؛ لأن الله خير الحاكمين، فحيث كل فريق يدعي أنه على حق، فعليه أن يرضى بحكم الله؛ لأن الله خير الحاكمين، ولن يكون حكمه ضد المحقِّ من الفريقين، فهذا أصلح من عجلة الكفار على التعدي على المؤمنين وعلى الرسول؛ لأن ذلك يؤدي إلى تعجيل عذابهم، وفي التأني السلامة لكنهم أبوا.

﴿٨٨﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لم يقبلوا نصح نبيهم بأن يصبروا، وهددوه ومن معه بإخراجهم من قريتهم إن لم يعودوا في ملتهم، ولم يكترث نبيُّهم بالوعيد بإخراجهم له من قريتهم فلم يجب فيه، وأجاب عن قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾..

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾؟! أي أنعود في ملتكم ولو كنا كارهين، ثم قال: ﴿٨٩﴾ ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ لأنا إن عدنا في ملتكم قلنا على الله ما تقولون من إثبات الشركاء لله، وغير ذلك من كذبكم على الله، وقد علمنا حين هدانا الله ونجانا من ملتكم، أنَّ ما تقولونه على الله كذب، فلو رجعنا في ملتكم كنا قد تعمدنا الكذب على الله.

لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى

وليس في هذا إثبات: أن شعيباً كان مشركاً؛ لأن قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ فيه حرف الشرط فهو فرض وتقدير، لا يلزم منه أنه كان عليه، بل هو في حقه متوقف على فرض أنه كان فيه، ففرض العود فرض لما يتوقف عليه العود، أي فرض لما يتوقف عليه كون الدخول في ملتهم عوداً فيها، وكأنه ترك الجدال في أنه كان معهم؛ لأن المهم بيان أن ما هم عليه باطل يجب تركه، سواء كان معهم أو لم يكن.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما يليق بحالنا ولا يناسب ما نحن فيه من اليقين بالحق وكراهة ما أنتم عليه من الباطل، فهو شبه المستحيل منا، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ لأن الهدى والصلاح ليس ذاتياً لنا، إنما هو بلطف الله وعصمته، وهو أعلم بحالنا في المستقبل، يعلم إن كنا نتغير ونستحق الخذلان في المستقبل، أو أنا نثبت على دينه بعصمته ولطفه.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فلن نترك دينه لوعيدكم؛ لأنا في طاعتنا له وكلنا أمرنا إليه ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ ربنا احكم ﴿بَيْنَنَا﴾ وافصل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ سواء لنا أو علينا، وأنت خير الحاكمين؛ لأنك لا تحيف ولا تخطئ، وفي قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في جوابه على قومه دلالة على أنه واثق أنه على الحق، وأن الحكم من الله بالحق هو له لا عليه.

﴿٩٠-٩٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ كبراءُ الكفار من قوم شعيب: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يقولون لأصحابهم أو لقومهم تثبيطاً

وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ

وصداً عن الحق، فلم يكفهم إصرارهم على الكفر، بل أضافوا إليه إصرارهم على الصد عن سبيل الله، كأنهم لم يسمعوا نصيحة نبيهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ أخذتهم الرجفة كلُّهم الذين استكبروا، والذين استضعفوا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ كأن لم يسكنوا في قريتهم، حيث هلكوا كلهم كبيرهم وصغيرهم، قال الراغب: «وغنيَ في مكان كذا، إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ معناه: لم ينزلوا فيها ولم يعيشوا» ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لا مَن اتبعه كما زعموا.

﴿٩٣﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿ءَاسَىٰ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أحزن وأتوجع» انتهى، وقد مر تفسير مثلها، وفي هذه زيادة جمع رسالة رسالات، ولعل السبب: أنه بلغ أكثر؛ لأن بعض قومه قد كانوا آمنوا فكان قد بلغهم كل ما أرسل به.

﴿٩٤﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ﴿أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أصبناهم بالبأساء والضراء بحيث غلبتهم البأساء والضراء، وسيطرت عليهم، ولم يستطيعوا التخلص من البأساء والضراء، والبأساء مثل: الجدب، والجوع، والفقر الشديد، والضراء مثل: الأمراض.

بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ تعريضاً لهم على التضرع إلى الله والتذلل له، إذا أذلهم الفقر والضر وذهبت سكرة النعمة، وهو تأديب لهم كما يؤدب الصبيَّ أبوه ولكن لم يتضرعوا.

﴿٩٥﴾ ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ مكان السيئة مكان ما كان يسوؤهم من البأساء والضراء جعلنا بدله الحسنة الرزق والعافية ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ قال في (لسان العرب): «وفي التنزيل: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي كثروا، وعفا النبت والشعر وغيره يعفوا فهو عافٍ: كثر وطال..» إلخ، وفي (الصحاح): «وعفا الشعر والنبت وغيرهما: كثر، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي كثروا» انتهى، وفي هذا دلالة على طول مدة الخير.

﴿وَّقَالُوا۟﴾ لطول مدة الخير ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ لم يعتبروا البأساء تأديباً ليتضرعوا، ولا الخير نعمة ليشكروا، بل جعلوا ذلك مجرّد عادة من عادات الدهر بزعمهم جاءت فيهم كما مسّت آباءهم ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه الهلاك حين بغتهم وهذا عذاب عاجل بتكذيبهم لرسلهم وعصيانهم لربهم، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بآيات الله وآمنوا بالله ورسله واليوم الآخر ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾

أسباب العذاب أي أطاعوا الله واجتنبوا العصيان وتابوا إلى الله مما مضى منهم من المعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال بعض المفسرين ـ ونعم ما قال ـ : «فيه استعارة بالكناية، فقد شبهت البركات بمجاري تجري منها عليهم كل ما يتمتعون به من نعم الله لكنها سُدَّت دونهم، فلا يجري عليهم منها شيء، لكنهم لو آمنوا واتقوا لفتحها الله سبحانه، فجرى عليهم منها بركات السماء من الأمطار والثلوج والحرّ والبَرْد وغير ذلك، كل في موقعه وبالمقدار النافع منه وبركات الأرض من النبات والفواكه والأمن وغيرها، ففي الكلام استعارة المجاري للبركات، ثم ذكر بعض لوازمه وآثاره، وهو الفتح للمستعار له» انتهى.

قلت: وفيه فائدتان:

الأولى: سهولة ذلك، حتى كأن البركات موجودة إذا فتحت فاضت على العباد؛ لأن إنزالها ليس فيه أي عسر على الله؛ لأنه على كل شيء قدير.

الثانية: أن إفاضة البركات على العباد هي الأصل، ففيض البركات عليهم كالطبيعي، كما أن من طبع الماء أن يفيض إذا فتح، وإنما تسد عليهم لذنوبهم إذا اقتضت الحكمة تأديبهم بالبأساء والضراء، ففي ذلك تنبيه على كرم الله، وإرادة الخير واليسر لعباده لولا أنهم يظلمون أنفسهم.

ويؤكد ما ذكره من الإستعارة قول (صاحب لسان العرب): والفَتْح: الماء المفتَّح إلى الأرض ليسقى به، والفَتْح: الماء الجاري على وجه الأرض عن أبي حنيفة، الأزهريُّ: والفَتح: النهر، وجاء في الحديث: «ما سقى فَتْحاً وماسقي بالفَتْح ففيه العشر» انتهى المراد.

بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ

﴿وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤٢] وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يفيد أن سبب الأخذ معاصيهم كلها التي استمروا يكسبونها.

﴿٩٧﴾ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ بعد أهل القرى الماضين ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ ﴿بَيَـٰتًا﴾ أي أن نبيّتهم بالعذاب بياتاً، والبيات: الهجوم على العدو لقتلهم في الليل، فيأتيهم ﴿بَأْسُنَا﴾ كالرجفة والصيحة ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ وفي ذلك شدة الفزع إذا أيقظتهم المصيبة النازلة بهم.

﴿٩٨﴾ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿ضُحًى﴾ أول النهار حين تشرق الشمس وتبياض وقتَ خروجهم من بيوتهم، وأخذهم في أفعالهم من أعمال الدنيا ولهوهم، وسمى ذلك لعباً لانقطاع فائدته كاللعب فائدته وقته، فإذا انتهى ذهبت لذته، وفي التعبير باللعب دلالة على أنهم مستحقون للعذاب القاطع للذات المبطل للأعمال، فاشتغالهم بدنياهم في حال أن قد تعرضوا لعذاب الله اشتغال بما لا فائدة له، وتلهٍّ بما لا ثمرة له إذا تعقبه الهلاك انكشف أنه كاللعب، لأنه كان ينبغي لهم بدلاً منه أن يتلافوا أنفسهم بالإيمان والتوبة إلى الله، فكان اشتغالهم بدنياهم ولهوهم كالإشتغال باللعب.

﴿٩٩﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ استدراجه لهم، أي أفأمن أهل القرى ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ وقد تعرضوا لغضبه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾

أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ

الذين عاقبتهم الخسران المبين؛ لغفلتهم عن الله وإعراضهم عن هداه حتى نسوا أو جهلوا أنهم متعرضون لبطشه بالتمرد عليه والإصرار على الباطل.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أفلا يجعلهم مهتدين كونهم معرضين لعذاب الله كالأولين ﴿لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا مَن قبلهم، والسؤال بمعنى النفي، فالذين ﴿يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ كيف لا يعتبرون بهم، وقد بيَّن لهم إهلاك من قبلهم، أن لو يشاء الله لأهلكهم كما أهلك من قبلهم.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ معطوف على ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ لأنه بمعنى: قد هدي لهم، أي بيّن لهم، ونطبع على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ بياناً يهديهم لِما فيه نجاتهم، لأنهم قد خذلوا؛ بتمردهم.

﴿١٠١﴾ ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ القاطعة للعذر ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ فما كانوا ليؤمنوا، أي ما كان يناسب حالهم أن يؤمنوا، فهو نفي مؤكد مثل: ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ﴾ [الحجر:٣٣] لأنهم قد ﴿كَذَّبُوا﴾ بالآيات ﴿مِن قَبْلُ﴾ فما كانوا ليؤمنوا بها من بعد؛ لأنهم قد خذلوا من أجل التكذيب بها، فما كانوا مع خذلانهم ليؤمنوا بما كذبوا من الرسل، والآيات البينات من قبل.

لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ

والراجح: أن هنا إيجازاً، وأن المعنى: فكذبوا الرسل بعدما رأوا الآيات البينات، وأصروا على ذلك واستمروا، ولم ينتفعوا بعد ذلك بإنذار ولا موعظة ولا نصيحة ليؤمنوا؛ لأنهم قد كذبوا الرسل من قبل فخذلوا، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل.

قلت: هنا إيجاز لأن قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُ﴾ يدل على أنهم قد كذبوا من قبل وذلك يستلزم أنهم أصروا على التكذيب حتى خذلوا فما كانوا ليؤمنوا.. إلخ.

﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي منعهم من الإيمان وباعدهم عنه ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فهو أي الطبع يكون بسبب تكذيبهم ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من بعد ما جاءتهم البينات فتبين لهم الحق، فتمردوا وكفروا فاستحقوا الخذلان، وإرسال الشياطين عليهم، حتى تصير قلوبهم كالمختوم عليها، لا يدخلها الإيمان أبداً.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٍ ۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ فأكثرهم يكونون قد عاهدوا عند إصابتهم بالضراء وخوفهم الهلاك بذنوبهم ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢] ثم نكثوا وأضاعوا العهد كأن لم يكن ﴿وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ فجّاراً خبثة، يتركون الحق تعمداً وتمرداً، و يتعمدون الباطل خبثاً وفجوراً.

﴿١٠٣﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم﴾ من بعد الرسل المذكورين سابقاً وأممهم ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أصحابه الذين هم معه في الباطل والظلم وزراء ومعينون ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فاستهزءوا بها وكذبوا بها.

يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أنا دمرناهم أجمعين، فصاروا عبرة لمن بعدهم من الأمم، وكانوا مفسدين بالشرك، والظلم لبني إسرائيل، والتكذيب بآيات الله.. وغير ذلك.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أي مرسل إليك من مالك الخلق أجمعين، كان يقال لملوك مصر: الفراعنة، كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة، فكأنه قال: يا ملك مصر» انتهى المراد.

وقد تضمن قوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ حجة على فرعون، وهي أنه عبد لمرسل موسى، فعليه أن يمتثل أمره، ويتبع رسوله، وأن بني إسرائيل عباد الله، فعليه أن يرسلهم لموسى، وأن مرسله رب العالمين، فهو مالك الملك وله الحكم فيهم لا لغيره.

﴿١٠٥﴾ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على قراءة نافع ﴿حقيق عليّ﴾ بإدخال (على) على (ياء المتكلم) أي: واجب علي أن لا أقول على الله إلا الحق، وعلى قراءة غيره: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ بدون (ياء المتكلم) ذكر فيه (صاحب الكشاف) وجوهاً: أحدها: أن ضمّن (حقيق) معنى حريص فعدي تعديته، وهذا أقرب الوجوه عندي، فمعناه: إني حقيق وجدير بأن لا أقول على الله إلا الحق؛ لأنه أرسلني رب العالمين، وهو لا يرسل من يقول غير الحق، وإني حريص على ذلك.

قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على أني رسول رب العالمين وأني حقيق أن لا أقول على الله إلا الحق ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَـٰٓءِيلَ﴾ ليتخلصوا من ظلمك ويهتدوا باتباع الرسول.

﴿١٠٦-١٠٨﴾ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ فأظهرها لنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ وهذا دليل على آية عظمى، وهي أن الله صرفه عن قتله فتشاغل بطلب الآية والجدال بالباطل. ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: وهو الذكر من الحيّات» انتهى.

وفي (المصابيح): «والثعبان: الحية الضخم الذكر في قول جمع ـ كذا ـ أهل اللغة» انتهى، ومعنى ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّن واضح أنه ثعبان ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ تعجبهم بجمالها، وفي التعبير بالنزع إشارة لضيق الثوب الذي أخرجها منه، كقوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص:٣٢].

﴿١٠٩-١١٠﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر ماهر فيه، أي قالوا: إن موسى إنما جاء بتخييل لا حقيقة له، فلا ثعبان، ولا بياض ليده، بعد ما تبين لهم الثعبان الذي لا شك فيه، والبياض الذي رآه الناظرون، ولكنهم خافوا أن يتحرر بنو إسرائيل ويكونوا قوة ضدهم، فتآمروا في مدافعة الآية البينة، فقالوا:

ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ يقول ذلك بعضهم، وهذا مما يحقق الآية العظمى، التي هي صرف الله لهم عن قتله؛ لأنه لو كان ساحرا كما زعموا يريد ما زعموا لكان قتله أيسر وأنفع من كل رأي للتخلص منه، ولكن الصارف عن قتله أمر رباني لأجله لجأوا إلى الجدال، وقرروا: أن الرأي أن يعارضوا الآيات بالسحر، وذلك وإن كان مظنة أن يظهر الفرق بينه وبين الآية البينة، فهو عندهم يكون مجالاً للجدل ومجالاً لدعوى أن سحرهم قد غلب الآية، أو على الأقل دعوى التشابه بينه وبين ما جاء به موسى، ودعوى أن الكل سحر، جدالاً ومدافعة بالباطل تطويلاً لمدة المدافعة للحق، وظنوا أنهم في ذلك قد أصابوا الرأي الآخر فاتجهوا إلى فرعون.

﴿١١١-١١٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أخرهما ولا تقتلهما وهذه للجدال في الآية العظمى الواضحة الجلية التي هي صرفهم عن قتل موسى، وقد دل عليها بقوله: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ [الدخان:٢٠] فلا إرجاء منه، بل هو ملجأ إلى تأخيرهما وترك قتلهما، وليس تركه لقتلهما من أجل قولهم: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ وقد عرفوا ذلك، ولكن أرادوا التغطية على الحق والتغرير على أتباعهم ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يحشرون إليك السحرة من كل مدينة ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ بالسحر ماهر فيه، ومضى على هذا الرأي، فأرسل ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ للسحرة.

﴿١١٣-١١٤﴾ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ لموسى وهارون، وهذا عرض عليه ليعِدَهم الأجر، أو هو استفهام ﴿قَالَ نَعَمۡ﴾ إن لكم لأجراً ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ تصيرون وزراء، أو نحو الوزراء.

ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ

﴿١١٥﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما أعددت للمغالبة ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ لما أعددنا، وظاهر الحصر: أنهم يظنون أنهم إن ألقوا لم يلق موسى، ولا ينافي هذا قولهم: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه:٦٥] لأنهم في ظاهر كلامهم يعرضون عليه أن يبدأ أو يبدءوا بالإلقاء، وهنا زيادة أنهم إذا بدأوا عجز موسى عن الإلقاء، تأثراً بسحرهم أو انبهاراً منه.

﴿١١٦﴾ ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ ما أنتم ملقون ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ فخيل إليهم أن حبالهم وعصيهم تسعى، فالسحر: تأثير في أعين الناس بوسيلة يعرفها السحرة، والتأثير في الأعين هو وسيلة التخييل ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ قال في (الكشاف) في تفسير ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: «وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتهم» انتهى.

قلنا: لما كانت الرهبة وقعت بحيلة السحر، جعل السحر استدعاء للرهبة، ففائدة (سين الطلب): أن لا يوهم الكلام أنهم أرهبوا الناس بمواجهة بنار أو سلاح أو نحو ذلك، وإنما حيلة أوقعت الخوف في القلوب ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ولعله عظم لكثرتهم مع شدة عنايتهم.

﴿١١٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (فإذا): هي دليل المفاجأة بسرعة التلقف لما يأفكون، فالعصا أخذت ما يأفكون كأنها جذبته إليها وأبطلته، و﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ هو السحر الذي سحروا به الأعين؛ لأنه إفك من حيث هو تخييل خلاف الحقيقة، وتزوير بتخييل قلب حقيقة حبالهم وعصيهم.

هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَن

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ ثبت في الأرض واستقر ورسخ وانتصر ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من السحر الذي طالت مدة عنايتهم به والإعداد للمغالبة به ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ غلب فرعون وقومه ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ ببطلان كيدهم وسقوط حجتهم وافتضاح عنادهم، و(الصَغَار): الذلة.

﴿١٢٠-١٢٢﴾ ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ لله خرُّوا سجداً، كأنهم ألقوا على الأرض لسرعة هويهم إلى الأرض، مبالغة في الخضوع لرب العالمين ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تصريح بإيمانهم بالله الذي هو مالكهم ومالك العالمين كلهم، فطاعته واجبة عليهم كلهم، ولا طاعة لمن كفر به، وقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لزيادة التحقيق وللإيمان بموسى وهارون، حيث جاء سبب الإيمان على يديهما.

﴿١٢٣-١٢٤﴾ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ ﴿ءَامَنتُم﴾؟! إنكار منه عليهم لأنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم، بناء على أن الأمر له وقد ضل وتاه عن الحق؛ لأن الأمر لله وحده والحكم له؛ ولهذا ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه:٧٢].

ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

وقولـه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أراد بـه عـدوُّ الله أن السحرة اتفقوا هم وموسى على أن يغلبهم ليبطل أمر فرعون ويستولي موسى على المدينة فجعلوا سحرهم ضعيفاً بحيث يغلبه موسى، وكذب عدو الله لقد ﴿جَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ولكن غلبه أمر الله الغالب على أمره.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ما يصيبكم بسبب مكركم، وإيمانكم قبل أن آذن لكم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ من خلاف اليد من جانب، والرجل من الجانب الآخر، كاليد اليمنى والرجل اليسرى، والصَّلب: تعليقهم في النخل، وهذا مما يدل على الآية الأولى التي هي صرفه عن قتل موسى وهارون، فقد كان إيمان السحرة بهما من أعظم ما يبعثه على قتلهما قبل وعيده للسحرة ولو بدعواه المكر الذي ادعاه.

﴿١٢٥﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فرجوعنا إليه وهو راضٍ عنا هو الذي نرغب فيه، ولانبالي بفراق الحياة الدنيا؛ لأنه لابد منه ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧].

﴿١٢٦﴾ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ لا دعوى لك علينا ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا﴾ هذا منهم تكذيب لفرعون في دعواه المكر، وبيان أن السبب هو إيمانهم لا غيره ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ لتثبت على الإيمان ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ لك وجوهنا وأنفسنا لا نشرك بك أحداً، وهذا الثبات منهم على الإيمان مع الوعيد دليل على صدق إيمانهم، وكذب فرعون في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ..﴾ وقد كان ينبغي لقومه أن يؤمنوا بموسى وهارون؛ لوضوح الحجة وتبيّن الحق، ولكن أهملوا عقولهم.

وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ

﴿١٢٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقد بطلت حيلة السحر، ولم يبق وسيلة لإبطال أمره قبل أن يميل الناس معه، إلا أن تبطش به وبقومه، وهذا يؤخذ منه: أن الذين آمنوا بعد السحر قد صاروا من قومه، وانضموا إليه، خلاف ما يروى: أن فرعون فعل ما أوعدهم؛ ولأنه لو كان يفعله لكان الفعل يغني عن التهديد، ولبادر جلاوزته لأخذهم حين سجدوا.

وقولهم: ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرادوا أن انتشار الإيمان بموسى فساد في الأرض تبريراً لقتل موسى وقومه ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ ﴿يَذَرَكَ﴾ يتركك فلا يطيعك في أمر ولا يتبعك في طريقة ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ ويذر آلهتك يتركها، وهذا منهم إثارة لحميته ليقتل موسى، وهذا يدل على أن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] ليس عن اعتقاد إنما هو افتراء، ولا حاجة إلى تنزيهه عن المناقضة، على أنه لا يبعد أن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] إنما قاله على طريق المشاكلة لقول موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف:٤٦] وأراد إلزام قومه طاعته، مقابل دعوة موسى إلى طاعة رب العالمين، فهو مشاكلة تقديرية.

قال الشرفي في (المصابيح) في عبادة فرعون لآلهته: «وهذا يؤيد قول القاسم عليه السلام: أنه لم يدعِ أنه ربٌّ خلّاق ولا إله رزّاق، وإنما أراد ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] أي مليككم الأعلى» انتهى.

قلت: أما قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨] فهو يعني: أن عليهم أن يعبدوه بطاعته، وأنه مالك لهم، ولا مانع من أن ينقض كلامه

لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ

حيث يقول ذلك ويتخذ آلهة، أو أنه جعل آلهته فوقه وهو من تحتهم إله قومه في زعمه وطغيانه الجنوني.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ هذا جوابه على ملائه، يدل على عجزه عن قتل موسى، وإنما عبر به عن قهره لموسى وقومه دعوى يدعيها، وقد عجز عن إبطال دعوة موسى، وعجز عن قتله فلم يحصل مطلوبهم.

﴿١٢٨﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا درس من موسى لقومه، يعلمهم فيه أسباب النصر، فأمرهم أن يستعينوا بالله، أي يسببوا لمعونة الله لهم ويتوصلوا إليها؛ لأنه الغالب على أمره، و﴿ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فإذا أراد نصرهم على أعدائهم وأورثهم الأرض، وهذا ليثبتوا معه على مقاومة فرعون، ولا يتأثروا من وعيده مع قوته.

ثم بين لهم وسيلة الإستعانة، فقال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فدلهم على تقوى الله؛ لأن ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] وقد أمرهم أن يصبروا على مقاومة فرعون بالحجة، وعلى الثبات مع موسى؛ لأنهم لو ضعفوا لوعيد فرعون وإرجافه عليهم فتركوا موسى وتفرقوا عنه، أو رجعوا إلى فرعون لفاتهم النصر، وأيضاً الإستعانة بالله لا تتم إلا مع الصبر؛ لأنه لابد من الصبر على تقوى الله، وأيضاً الصبر على مقاومة العدو هو من الإستعانة بالله؛ لأن الله ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] وأيضاً الصبر على مقاومة العدو في الله صبر على نصر دين الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ﴾ [الحج:٤٠].

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ

﴿١٢٩﴾ ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ عجلوا على الفرج من شدتهم، وأرادوا أن يكون الفرج على يدي موسى عاجلاً من دون مجاهدة ولا مصابرة، فهم يشكون إلى موسى تأخر الفرج، وكأنهم قد أحسوا بخيبة أمل، وقد كانت الحال تستدعي أن يتركوا خائفين راجين، ليلجأوا إلى الله ويصبروا ولا يستغنوا عن ذلك لو أخبرهم أن الفرج قريب، وأن الله يغرق آل فرعون قريباً.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿عَسَىٰ﴾ أي يقرب أن يهلك ربُّكم عدوَّكم، فهذا تشجيع لهم؛ لأنهم قد علموا أنه رسول من الله غالب بالحجة، وتلك للمؤمن كافية لرجاء النصر، وأكدها بقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم قال: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ليكونوا مستعدين لطاعة الله حين يستخلفهم في الأرض، ولا يظنوا أن نجاتهم من فرعون نهاية المقصود برسالة موسى عليه السلام، فلم يجبهم موسى بما يغني عن الإستعانة بالله والصبر وإخبارهم أن العاقبة للمتقين، بل أشار إلى أنه لابد لهم من طاعة الله؛ لأنهم مختبرون عباد من عباد الله ليسوا خِيَرة منهم، بحيث يأتيهم النصر ولا يحتاجون إلى الصبر، فقال: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: إن قال قائل: كيف يستعان بالله؟ وما يقول المستعين؟

قيل له: الإستعانة بالله: هي العمل لا المقال من كل مستعين من النساء والرجال، وهي العمل بطاعة الله، والأمر بأمره، والنهي عن نهيه، والوقوف عن معاصيه،

فمن عمل ذلك من النسا[ء والرجال] فقد استعان بالواحد الرحمن، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨] ومن كان الله معه فقد قهر أمرُه وقوي، ومن لم يكن الله معه فقد عجز في أموره وغوي.

والله سبحانه فلا يكون إلا مع من ذكر من المتقين والمحسنين، وإذا لم يكن إلا مع المتقين فهو لا شك خاذل للفاسقين، ومن خذله الله فقد هلك وهوى، ومن وفقه الله وأعانه قهر أمرُهُ وعلَى، ألا ترى كيف يدل آخر الآية التي سألتَ عن تفسير أولها على جميع ما عنه سألتَ منها، حين يقول: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهذا دليل لمن عقل وفهم واستضاء بنور كتاب الله فعمل على ما قلنا به من تفسير الآية وشرحنا» انتهى.

قلت: لو قال: (استعينوا اللهَ) لكان معناه: اسألوا الله الإعانة، لكنه قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ فاختلف المعنى؛ لأن الإستعانة بالله: التوسل لأن يكون الله معيناً، وذلك باستعمال أسباب الإعانة، وقول الإمام الهادي عليه السلام: «ومن كان الله معه فقد قهر أمرُه» تنبيهٌ منه على أن هذه معيَّةُ حسنِ الرعاية بمصالح من هو معهم، وهي واضحة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا..﴾ [النحل:١٢٧-١٢٨] وكذلك (قصة في طالوت): ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩] وفي (سورة طه): ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا..﴾ [آية:٤٦] وفي (سورة التوبة): ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [آية:١٢٣] فهذه معِيَّةٌ خاصة غير المعية العامة، ومعناهما مختلف.

ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا

﴿١٣٠﴾ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾** ففي مدة دعوة موسى لهم وإتيانه بالآيات البينة أصابهم الله ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ وهي سنين الجدب والجوع، وانقطاع الأمطار وانقطاع الينابيع ونحوها، أو نقصها بسبب انقطاع الأمطار ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ شديد يذكِّرهم ليرجعوا إلى الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ تعريضاً لهم على التذكُّر، لكونهم مجرمين يستحقون التشديد وسوء الحال، وأنهم إذا رجعوا إلى الله أغاثهم، ولكنهم أبوا أن يتذكروا.

﴿١٣١﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الخير من الرزق وسعة الحال ﴿قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ﴾ نحن نستاهل هذه الحسنة ونستحقها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ كالسنين والنقص الشديد من الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي يتشاءمون بموسى ومن معه، يزعمون أن سبب ذلك النحسِ وجودُ موسى ومن معه على ما هو عليه هو ومن معه؛ ولعلهم يجعلون ما وقع من الهلاك على الأمم الماضية بنحس أنبيائهم قلباً للحقائق ولبساً للحق بالباطل.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه لأنهم جاهلون في بُعْدٍ عن ذكر الله، إنما شؤمهم عند الله؛ لأنه الذي قضى عليهم بسوء الحال بسبب ذنوبهم ليذكروا، فطائرهم الذي عند الله هو علمه بأعمالهم، وحكمته التي اقتضت إصابتهم لعلهم يذكرون، وصح استعمال ﴿عِندَ﴾ هنا كما صح في قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾** [الملك:٢٦] فليس ذلك بشؤم ممن زعموا.

بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا

﴿١٣٢﴾ ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي فرعون وقومه: ﴿مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾ لنؤمن لك وما يكون إيمانهم له لو اتبعوه إلا وهم مسحورون بها بزعمهم ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ فلا تتوقع منا أن نؤمن لك، ولو جئت بكل آية.

﴿١٣٣﴾ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ فبعد تمردهم وإعلانهم أنهم لن يؤمنوا أرسلنا عليهم أشد مما سبق من السنين والنقص من الثمرات.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: الطوفان: فهو العذاب الذي طاف بهم، والجراد والقمل فهما معروفان، أما الجراد فأرسله الله عليهم لهلاك ثمارهم، وأما القمل: فهو البرغوث بلغة الحجاز، جعله الله نقمةً عليهم يُؤرِّقهم ويذهب بنومهم، والضفادع ـ أيضاً ـ فهي معروفة تكون في المياه، قال الشاعر:

عين مطلحبة الأرجاء طامية ... فيها الضفادع والحيات تصطحب

وإنما أرسل الله الضفادع عليهم لينتقم بها منهم، وتضيق بها صدورهم ويعذبهم بها ويغمهم، وأما الدم: فهو علة من العلل، ويمكن أن يكون على ما رُوي: من أن الله ـ عزَّ وجل ـ عذبهم بأن جعل شرابهم وأغذيتهم دماً عبيطاً..» الخ، وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «الطوفان، معناه: الموت الذريع، ويقال: الماء، فأمطرنا عليهم مطراً دائماً ثمانية أيام بلياليها» انتهى.

رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ﴾ آي دلائل وعلامات على صدق موسى، واستحقاقهم العذاب بكفرهم، وهذه الخمس هي من التسع الآيات التي كانت لموسى عليه السلام حجةً عليهم، وقبلها ثلاث: انقلاب العصا ثعباناً مبيناً، وبياض يد موسى، وضمه جناحه إليه من الرهب، والتاسعة: تلقف العصا لسحر السحرة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ يدلُّ على إبائهم من الإيمان وأنَفتِهم منه في حال الشدة المذكورة، ترفعاً لما في صدورهم من الكبر، وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ بمنزلة الجملة المعترضة، أي وكانت عادتهم من قبل ذلك الإجرام، كقول الشاعر:

فمضى وقدّمها وكانت عادة ... منه إذا هي عرّدت إقدامها

وقول الشاعر:

رأيت رؤيا ثم عبرتها ... وكنت للأحلام عبّارا

وهي كثيرة في القرآن في أواخر الآيات.

﴿١٣٤﴾ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿ٱلرِّجْزُ﴾ العذاب بهذه الأمور المذكورة في الآية قبل هذا أبوا أن يؤمنوا، ولكن لشدة الأمر عليهم وعدُوا موسى إن كشف عنهم الرجز أن يؤمنوا له، وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي ادع بما أوصاك به وعلمك أن تدعو به، ليجيبك ويعطيك ما سألت.

إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ

وفي تفسير (الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ معناه: بما أوصاك به» انتهى، وهذا اعتراف منهم بوحي الله إلى موسى، وكأنهم ظنّوا أن الله أوصاه أن يدعو بألفاظ مخصوصة تكون سبباً لإجابة دعائه، وقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ ولم يقولوا: (كشف الله) لأنهم أرادوا أن يكشف موسى الرجز بالدعاء، فعلقوا الوعد بالإيمان على دعائه الكاشف للعذاب، ترغيباً له في الدعاء، وهم غافلون عن الله تعالى وعن اللجوء الى الله.

﴿١٣٥﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ عن آل فرعون ﴿ٱلرِّجْزَ﴾ كشفاً مؤجلا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ سيبلغونه فيعود عليهم رجز عظيم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ العهد الذي عاهدوا به موسى: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ وهذا عهد لأن معناه: نقسم لئن كشفت.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ دلالة على أنه تعالى عالم أنهم ينكثون وبعد أن ينكثوا يعذبهم، فكان كشفه للعذاب مؤجلاً لعلمه بنكثهم واستحقاقهم فيما بعد عذاباً بعد كشف العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ متعلق بـ﴿كَشَفْنَا﴾ وإنما قلت: كشفاً مؤجلاً إلى أجل تحقيقاً للمعنى، و مفاجأة نكثهم هي في حال الكشف المؤجل، ولا يجب تأخرها عنه، كما أنه لما وقع عليهم الرجز قالوا قبل نهاية الرجز وفي خلاله: ﴿يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

﴿١٣٦﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ عاقبنا، (الفاءُ) تفيد: أن ما ذكر من جرائمهم سبب لهذا الانتقام.

مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٍ

وقوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ كالتفصيل لما أجمله في قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ كما تقول: «توضأ فغسل وجهه، ويديه..» الخ، وقوله: ﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي في البحر العظيم، أو في البحر.

﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ فالتكذيب بالآيات والغفلة عنها سبب إغراقهم، الذي هو عقوبة التكذيب والغفلة وما ترتب عليهما من الجرائم، فلما ترتبت الجرائم عليهما صح جعلهما سبباً للعذاب، من حيث أنهما سبب، ومن حيث أنهما سبب الأسباب الأخرى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ [الإسراء:١٨] لما كان حبُّ الدنيا رأسَ كل خطيئة جعل اختيارها سبباً مستقلاً لجهنم؛ لأنه سبب الأسباب الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي بسبب إعراضهم عنها، واشتغالهم عنها بدنياهم ومعاصيهم، وتركهم للنظر فيها والتذكر لها، كراهة منهم لها ونفاراً عنها، ويجوز أن يكون مجازاً، كما يعبر بالنسيان في مثل هذا، وهذا محل العبرة من قصتهم، هلاكهم بسبب تكذيبهم وإعراضهم، كما في الأمم الأولى.

﴿١٣٧﴾ ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾

﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ موسى ومن معه، قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء:٥٤] وهذا الإيراث سببه الإيمان واتباع الرسول؛ لأنهم لو كانوا مثل فرعون وقومه لأهلكهم ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ عدة ربك الحسنى إن كان وعدهم، فكانت صدقاً وعدلاً ورحمةً وفضلاً، أو نعمته التي هي في سهولتها كالكلمة وإن كانت أمراً عظيماً، فلق البحر لهم، وجعله لهم في قراره طريقاً يبساً حتى خرجوا من البحر وأهلك عدوهم بإغراقهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ دليل على أن سبب نعمتهم هي الإيمان، واتباع الرسول في حال الشدة والخوف من فرعون، وذلك كان متوقفاً على الصبر، فجعل الصبرَ السببَ، كما جعل التكذيب بالآيات والغفلةَ عنها سببَ هلاكِ فرعون وقومه، وفي هذا رد على من توهم من الإسرائيليين أنها خصوصية لعنصر بني إسرائيل سواء صبروا على الدين أم لم يصبروا، بل وحين كفروا بعيسى ومحمد ـ صلى الله عليهما، وعلى آل محمد ـ ونكثوا العهد بالإيمان بالرسول ونصره، المذكور في (سورة المائدة).

وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ من عمارة الدنيا وزينتها وآثار القوة في ذلك ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ من الجنات كالكرم يجعل له عريش ينتشر وينمو عليه، وهذا يدل على أن الله دمر مداينهم وأموالهم بعد هلاكهم في البحر أو معه، وأورث بني إسرائيل حين كانوا مسلمين مشارق الأرض المباركة ومغاربها، وأورثهم بعد ذلك مصر وغيرها.

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ

﴿١٣٨﴾ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ (الباءُ) للتعدية، فقد جاوزوا البحر بتهيئة الله لهم ذلك وتيسيره، وتمكينهم منه وإقدارهم عليه ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يعبدون الأصنام بالعكوف عليها وحبس أنفسهم عليها خضوعاً لها ﴿قَالُوا۟﴾ أي بنو إسرائيل ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إله مثل آلهتهم واحداً نقنع به منك ولا نطلب أكثر منه، كما لهم آلهة عدة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ جعل طلبهم هذا جهالة ومخالفة للعقول ﴿تَجْهَلُونَ﴾ عادتكم الجهالات، فهي تقع منكم المرة بعد المرة: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧].

﴿١٣٩﴾ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ هالكٌ ذاهب لا يبقى ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ بل لا بد أن يتركوه بغلبة أهل الحق أو تسليط الله عليهم ما يقطع منكرهم أو بهداية الله لهم إلى الإسلام ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي لا فائدة فيه، بل يذهب عملهم الذي استمروا عليه ضائعاً لا ثواب فيه ولا خير، فكيف ترغبون في مثله.

﴿١٤٠﴾ ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ أطلب لكم، والسؤال سؤال إنكار وتوبيخ، فالله الذي هو رب العالمين فضلكم في النعمة عليهم؛ لأنه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥] فعليكم: أن تشكروا نعمة الله ربكم ولا تعصوهُ وتسيئوا بعبادة غيره وطاعة عدوه، وفيه دلالة: على أن المنكر إذا وقع من المفضلين كان أقبح من الواقع من غيرهم.

ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا

﴿١٤١﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا نعمة الله ﴿إِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾ يكلفونكم سوء العذاب ويبتغونه فيكم، قال الشاعر:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً ... أبينا أن نقرَّ الذلَّ فينا

﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾ تفسير لـ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ يستبقون في الحياة نساءكم لتعذيبهن بالحزن على أبنائهن وزيادة حزنكم بحزنهن ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ ﴿فِي ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء والخلاص من آل فرعون ﴿بَلَآءٞ﴾ نعمة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وإحسان ﴿عَظِيمٞ﴾ عليكم أن تشكروه.

﴿١٤٢﴾ ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ للكلام معه في الطور ﴿ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ وأضفنا إليها عشراً، تماماً لفائدة الثلاثين وكمالاً لمصلحتها، ولعل العشر كانت في الأربعين بمنزلة العشر الأواخر في شهر رمضان، والأقرب أن الأربعين ميقات للمناجاة كلها، والميقات: الموعد الذي هو وقت محدود.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ حين أراد الذهاب إلى الطور للموعد المذكور ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ قم فيهم مقامي لهدايتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودفع التظالم بينهم والمفاسد منهم أو عليهم ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ في سياستهم وقيادتهم.

وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بسوء السيرة أو بالعنف أو بالإهمال والتهاون بالأمور المهمة أو بالتسوية بين المحسن والمسيء والناصح والغاش أو بالمحاباة والميل لبعضهم بغير موجب.

﴿١٤٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ ﴿جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ حضر في الطور للموعد المذكور ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ﴾ له ما أراد سبحانه أن يقوله، ولعل منه تعليمه (التوراة).

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ قيل في تفسيره: سأل ربه علماً ضرورياً خاصاً يعبر عنه بالرؤية في مثل قولك: أراني أريد كذا، وأراني أكره كذا، وأحب كذا وأبغض كذا، أي أجد وأشاهد إرادتي الباطنة التي ليست بمحسوسة ولا فكريةّ وأجد في باطن ذاتي كراهة، وكأنه أراد بهذا علماً ضرورياً في معنى العلم الوجداني.

ولكن يشكل عليه قوله: ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ لأنه لا يستعمل في رؤية القلب ووجدانه، والأقرب: أنه وجد قومه مصرين على طلب الرؤية، وأذهانهم بعيدة عن فهم امتناعها من طريق النظر والتفكير، وقد سبق منهم طلب إله كآلهة المشركين، وبلغ بهم الميول إلى مشاهدة معبودهم، إلى درجة أن قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

فأراد عليه السلام أن يعلموا امتناع رؤيته تعالى بطريقة يذهب بها لجاجهم وهوى أنفسهم في الرؤية، وكان طلبه لنفسه الرؤية أقوى من طلبها لهم في أنها إذا امتنعت إجابته إليها، فبالأولى أن تمتنع إجابة موسى لو سألها لقومه، فسألها لنفسه ـ وهو يعلم امتناعها واستحالتها ـ ليرى قومُه ما تكون نتيجة هذا السؤال، ليتركوا المطالبة بالرؤية، وتنصرف أنفسهم عن هواها فيها، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ فأجابه أوّلاً: بأنه لن يراه، وثانياً: بالجواب الذي ينبني عليه الجواب المسكت لقومه.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ تبين له وعرفه معرفة تامة ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي مدكوكاً، قال في (الصحاح): «الدكُّ: الدقُّ، وقد دككت الشيء أدُكُّه دكّاً إذا ضربته وسويته بالأرض» انتهى.

فتبين: أن الجبل الذي يرونه على ما به من العظم والشموخ والقسوة لم يتحمل تجلي ربه له، فبالأولى أن لا يتحمل موسى وقومه الرؤية التي هي أعظم من التجلي؛ لأن ذلك التجلي كشفٌ بغير رؤية، فبالأولى الكشف بالرؤية لو كانت ممكنة، و معنى التجلي: خلق علم ضروري بعظمة الله وجلاله، كالعلم الوجداني أو كعلم أهل الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ فلعل ذلك من رجفة الجبل حين اندك، كما أن قومه صعقوا من الرجفة، وقد جاء ذكر موسى هنا وحده وهناك في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٥٥]

فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ

ذكر قومه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف:١٥٥] ولعله فصل موسى عنهم للفرق بينه وبينهم، لأنه لم يستحق من العقوبة ما استحقوا فذكر هنا وحده، لئلا يُتوَهَّم مشاركته لهم في الذنب والعقوبة.

وصعقة موسى عليه السلام غشية، بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ والإفاقة: الإنتباه بعد الغشية ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه بعد طلب الرؤية، يدل به على علمه بتنزه الله عنها.

وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ يحتمل: أنه تاب من مساعدة قومه بالسؤال، ولعله لم يكن استأذن من الله في ذلك سهواً ـ والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا أقف أيماني على شرط كما فعل قومي حين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ..﴾ [البقرة: ٥٥] فأنا مؤمن سابق لكل مؤمن من قومي، مع إذعاني بامتناع الرؤية.

﴿١٤٤﴾ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هذا التذكير له بنعمة الله عليه تقدمة للأمر بأخذ ما آتاه الله من التوراة وغيرها ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على نعمة الإصطفاء والرسالة، ونعمة تعليم الدين، وغير ذلك.

﴿١٤٥﴾ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ علوماً كثيرة في كل شيء يحتاج إليه ﴿مَّوْعِظَةً﴾ زجراً وتخويفاً من المعاصي ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بياناً لكل ما يُحتاج إليه من الدين وغيره مما ينفع في الدين،

يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

كأخبار الأولين، والتبشير بنبينا محمد ﷺ، وأخذ الميثاق بالإيمان بالرسل ونصرهم، وذكر القيامة، وما أعد الله للمؤمنين.. وغير ذلك.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ فخُذ الألواح ﴿بِقُوَّةٍ﴾ على اتباع ما فيها والتمسك به وإبلاغه ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ وهو المحكم ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فاحذروا المخالفة، التي توجب لهم تلك الدار، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦].

﴿١٤٦﴾ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ هذه الآية والتي بعدها يترجح أنهما بعد نهاية قصة موسى في الطور، وحكاية الله تعالى لها في القرآن دليل على أنه من الله، وفيها تسلية لرسول الله ﷺ، وإعداد له لمواجهة عنادهم مع وضوح صدقه حتى لا يتعب نفسه بمحاولة إيمانهم، ولا يكبر عليه إصرارهم على الكفر، وفي هذه الآية زجر عظيم عن التكذيب بآيات الله والغفلة عنها، ببيان ما يؤدي إليه ذلك من الخذلان، والميل إلى الباطل، والكراهة للحق.

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ﴾ دليل على: أنه غني عنهم لا يبالي بهم، بل يملي لهم ويمدهم بالنعم الدنيوية، فينشغلوا بها ويطمئنوا إليها ويستمروا على طغيانهم، فكان إنعامه عليهم صرفاً لهم عن الآيات، وهم

بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟

الذين اتخذوه صارفاً بإقبالهم عليه وانشغالهم به، فعبر بأنه يصرفهم للدلالة على أنه لا يبالي بهم، وأنه يفعل ما يؤديهم إلى الانصراف غير مبال بهم؛ لأنهم يستحقون ذلك؛ بتمردهم بتكبرهم في الأرض الذي هو تكبر بغير الحق؛ وبكونهم مصرين على الكفر بحيث لا يؤمنون بأي آية يرونها.

بل إن ﴿يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ الذي جاء به الرسول ودل عليه ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لتكبرهم وإصرارهم على الكفر ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ﴾ الغواية ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ اتباعاً لهواهم واستمراراً على الكفر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الغي والإصرار والتكبر والعناد الذي صاروا عليه سببه أنهم ﴿كَذَّبُوا۟﴾ بآيات الله وأعرضوا عنها واستمروا على ذلك فصاروا ﴿عَنْهَا﴾ معرضين باستمرار ﴿غَـٰفِلِينَ﴾ فاستحقوا بذلك عقوبة الخذلان وإرسال الشياطين عليهم، كقوله تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الأنعام:١١٠] وقد تكرر في هذه السورة التحذير من التكذيب بآيات الله والغفلة عنها.

﴿١٤٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ التي عملوها في الدنيا وهي ما وقع منهم من إحسان فهو حابط غير مقبول ولا ثواب لهم عليه جزاءً لهم بما كانوا يعملون من التكذيب وغيره، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن.

ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ

﴿١٤٨﴾ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ ﴿عِجۡلًا﴾ صورة عجل من الفضة أو الذهب ﴿جَسَدًا﴾ لا روح فيه إنما هو جسد ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت كصوت العجل، لعله بواسطة ضغط الهواء فيكون مثل بعض الآلات التي تصوت عند النفخ فيها، اتخذوا هذا العجل من بعد موسى في غيابه عنهم في سفره إلى الطور وبقائه فيه، والحلي: جمع حَلْي وهو يكون من الفضة ويكون من الذهب، قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف:٣١] وقال تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١].

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا﴾ فاتخاذه جهالة لا سبب لها إلا طمعهم في معبود مشاهَد واستحسانهم للحلية، ولا وجه لذلك في العقل بل هو مجرد هوى مع أنه لا مطمع فيه لإجابة دعوة؛ لأنه جماد لا يكلمهم، ولا مطمع فيه لهداية إلى سبيل؛ لأنه جماد، فاتخاذه إلهاً وهم يرونه جماداً مجردَ اتباع هوى تركوا فيه عقولهم فتورطوا في أعظم المنكرات.

﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ من قبل اتخاذه؛ لأنهم مصرون على الجهل والطمع في معبود مشاهَد، وقد قال لهم موسى من قبل: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولكونهم ظالمين من قبل تورطوا في أكبر الكبائر، ولو كان الإيمان قد دخل قلوبهم ما قفزوا منه إلى أكبر الكبائر.

﴿١٤٩﴾ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ برجوع موسى إليهم وغضبه عليهم وإنكاره عليهم، يقال: سقط في يده أي ندم ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ لتحريقه عجلهم ونسفه في اليّم وتبيينه لهم أنهم قد ضلوا ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا

مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى

وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي طلبوا المغفرة من الله والرحمة، واعترفوا بالخسران إن لم يغفر لهم ويرحمهم لوقوع سبب الخسران منهم، وقد جاءت هذه عقيب ذكر العجل؛ لأن أكثرهم قد تابوا منه، فناسب ذلك تعجيل ذكر توبتهم، وإن كانت تأخرت حتى رجع موسى، واشتد عليهم وغضب غضباً شديداً، وبيّن لهم بطلان ما صنعوا.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ من الطور ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ لأن الله أخبره بضلالهم، فغضب وأسف عليهم؛ لأنهم أصحابه وكان مؤمّلاً فيهم اتباعه والعمل بما في (التوراة) وقد جاء بالألواح التي كتبت فيها، والإنسان يأسف لفساد صاحبه الذي كان يظن فيه الخير ولم يكن يتوقع منه الفساد، وقد قال لهم من قبل: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ فقد كان ينبغي لهم أن يخلفوه بالثبات على ما علّمهم والتمسك بدينه؛ لأنه لهم ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وقد أتعب نفسه من أجل إصلاحهم، فخلفوه شر الخلافة بعبادة العجل ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ لعله من التضمين، ضمن عجلتم استبطأتم فعدي بنفسه.

قال في (الصحاح): «وقوله تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أسبقتم» انتهى، وقال في (لسان العرب): «وعَجِلَهُ سَبَقه.. ـ ثم قال ـ: وفي التنزيل: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أسبقتم، قال الفراء: تقول عَجِلْتُ الشيءَ أي سَبَقْتُهُ» انتهى.

والسؤال سؤال إنكار وتوبيخ على تضمين استبطأتم، والتوبيخ على ترك انتظار أمر الله الذي يبيّنه موسى حين يرجع، فلو انتظروا بالعِجل مجيء موسى ما عبدوه، ولكن سارعوا إلى عبادته بلا تروٍّ ولا نظر لأنفسهم و﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:٩١] وهذا إذا لم يقتنعوا بقول هارون، فكان عليهم أن ينتظروا أمر الله فيه؛ لأن الحكم لله وليس لهم أن يحكموا بما شاءوا، ويمكن تفسير (أسبقتم) بمثل هذا؛ لأنهم عجلوا على عبادة العجل وسبقوا بها بيان أمر الله في العجل وحكمه فيه على لسان موسى الذي يقتنعون ببيانه.

ويحتمل ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ عذابه، كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس:٢٤] فيكون المعنى: أنكم قد تعرضتم لعذاب الله بعبادة العجل، فهل عجلتم على العذاب بمسارعتكم إلى عبادة العجل؟! وهذا على تضمين (عجلتم) معنى (استبطأتم).

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ عن ظهور الحاملات لها للتخفيف عنها؛ وليتفرغ لمهاجمة قومه بالكلام والإنكار عليهم وتحريق العجل ونسفه، وما يقال: إنه كسر بعضها قول باطل، وأعتقده من أباطيل اليهود؛ لأنه لا يرجع غضبه على الألواح وفيها كتاب الله وهداه، وهو أعظم مَن يصونها ويحفظها، وإنما الإلقاء لازم لِلأحمال الثقيلة إذا طرحت عن ظهور الإبل.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أخذ برأس هارون، وقوله: ﴿أَخِيهِ﴾ تنبيه على شدة موسى في تلك الحال، وأنه لم تمنعه عاطفة الأخوّة؛ لأنه في حال الغضب لله، ولم يتهم أخاه بالشرك، لكنه لم يعلم عذره في بقائه عندهم وهم يعبدون العجل.

﴿قَالَ﴾ أخـوه يـا ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ يـا ابـن أمـي، وهـذا نـداء اسـتعطاف، وقولـه: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ بيان لعذره في تركهم يعبدون العجل، أنه لم يتركهم وهـو يـتمكن من التغيير عليهم، بل كان مغلوباً.

وقوله: ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي تظاهروا عليّ حتى ضعفتُ عن مقـاومتهم، أو اعتقدوني ضعيفاً لانفرادي بينهم، فتجـرأوا علـى مقـاومتي وكـادوا يقتلـونني، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): «كان هارون أخا موسـى لأبيـه وأمه، وإنما قال ذلك على عادة العرب استعطافاً بالرحم، قال الشاعر:

يا ابن أمـي ويا شُقَيقَ نفـسي أنـت خلفـتني لـدهر شديد»

انتهى، يعني عليه السلام: أن هارون عليه السلام استعمل الإستعطاف الذي يعبر عنـه العرب بقولهم: يا ابن أم.

وقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ قال الراغب: «الشماتة: الفـرح ببليـةِ مَن تعاديه ويعاديك» انتهى، فحاصل المعنى: ولا تجعلني سبباً لشماتة الأعداء.

وقوله: ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ تعـبير عـن كونـه مغلوبـاً مقهـوراً، وأنهـم في إصرارهم على عبادة العجل لم يلتفتوا إلى نهي هـارون وبيانـه ضـلالهم، بـل أشرفوا على قتله من شدة إصرارهم وعنادهم.

وقولـه: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لا تجعلـني شـريكاً لهـم في الظلم الذي فعلوه أي عبادة العجل؛ لأني لم أرض بـه ولم أقصـر في نهـيهم، ولم أقعد معهم إلا مضطراً لانتظارك والالتزام بوصيتك.

رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

وفي توقف هارون مع وجود المنكر للضرورة عبرة وحجة للزيدية المقدمين للإمام علي عليه السلام على الثلاثة، فقد قالوا: إن أمير المؤمنين اضطر إلى ترك المقاومة حفاظاً على قوة المسلمين ضد المرتدين والمشرفين على الردة؛ لأن أهل عاصمة الإسلام وهي (المدينة المنورة) يومئذ لو قاموا للقتال بينهم واشتغلوا به عن حماية الإسلام كانت قوّةً لأعداء الإسلام، وصارت شوكةُ الإسلام على خطر، فقول المخالفين: إن الزيدية قد نسبوا الإمام علي عليه السلام إلى الضعف والعجز وهو البطل الكرار مجرد مغالطة، وفي قصة هارون عليه السلام عبرة لهم، فقد قعد وترك قومه يعبدون العجل لما ألجأته الضرورة، ولم يكن ذلك ضعفاً من هارون عن القتال ولا جبناً، بل عملاً بالرأي الصائب ـ وبالله التوفيق.

﴿١٥١﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وهذا يفيد: أنه قد قبِلَ عذره ورضي عنه، وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ جعلها شاملة لهما أو ظرفاً لهما، ولعله أراد بها الجنة أو أراد أنها عامة وسعت كل شيء، وقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنه لا رحمة تعادل رحمة الله؛ لأن رحمة الله فيها النجاة من النار والفوز بالجنة، وتلك السعادة الدائمة.

﴿١٥٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ سمي العذاب غضَباً كما سميت الجنة رحمة، ومعنى (ينالهم) يُصيبُهم، إلا أن الغضب جعل طالباً لهم، فجعل إدراكه لهم نيلاً كما لو سمي إدراكاً، والذلة: ضد العزة وسببها الضعف والخذلان من الله وقوة الأعداء.

وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ ينالهم غضب ﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ عقوبة عاجلة على الإفتراء وهو تعمد الكذب وظاهره: الإطلاق في الإفتراء على الله، والإفتراء الراجع إلى الإفتراء على الله، كدعوى النبوءة أو الإمامة، أو الإفتراء في فتوى أو إثبات مسألة دينية.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «فالمعنى: أن كل مفتر في دين الله فجزاؤه غضب الله والذلة في الدنيا» انتهى، ولا شك أنه يدخل فيه الإفتراء بإثبات إله غير الله ولو لم يحكه عن الله فلا وجه لتخصيص الآية بالإفتراء على الله؛ لأن العام لا يقصر على سببه.

ولما ذكر الوعيد للذين اتخذوا العجل خصَّص من العموم مَنْ تاب، فقال تعالى:

﴿١٥٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تابوا من السيئات وآمنوا بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر إيماناً يأمرهم بالطاعة وينهاهم عن المعصية، فهم الذين يقبل الله توبتهم، فلا تكفي التوبة من الشرك مع عدم الإيمان لحصول المغفرة والرحمة من الله، وإن كفت في الخروج من الشرك وانقطاع حكم المعصية.

﴿١٥٤﴾ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ هدأ غضبه وسكن، وعبّر عن ذلك بالسكوت؛ لأن الغضب كالمطالب بالبطش، فسكت برجوع قومه عن عبادة العجل وإظهارهم التوبة، بقولهم: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ ونسف العجل وإظهار عقوبة السامري، ونحو ذلك ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ التي جاء بها من الطور لتعليم قومه دينهم وإبلاغ ما في الألواح.

سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ

﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ﴿فِى نُسْخَتِهَا﴾ المكتوبة فيها المثبت من كلام الله لموسى وتعليمه إياه ﴿هُدًى﴾ إلى طريق الحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ سبب للسلامة من شرور عاجله وآجله، وإنقاذ من مشاق في الدنيا ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ﴾ يرهبون ربهم، أي يخافونه فهم الذين ينتفعون بما في نسختها، وأما (اللام) في ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ فقيل: هي (لام التقوية) مثل: ﴿لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣] وقيل هي بمعنى: لأجل ربهم، ولعل الأحسن: أنها جعلت لتفيد أن هذه الرهبة مطلوبة لهم للتقرب إلى الله، فهي لله كقولك: صلى لله.

﴿١٥٥﴾ ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ ﴿لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ موعد المناجاة لموسى عليه السلام في الطور، فانتخب ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ ليكونوا معه في الطور عند المناجاة.

قالوا: الأصل (اختار موسى من قومه) فحذف (من) ونصب ﴿قَوْمَهُۥ﴾ بنزع الخافض وإيصال العامل إليه بنفسه، وهذا سماعي لا يقاس عليه، ويحتمل: أنهم جعلوا أي السبعين قومه؛ لأنهم نخبتهم وخيارهم - والله أعلم.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ﴾ أي أنت مالكنا تحيينا وتميتنا متى شئت، فلو شئت أهلكتنا قبل ما وقع من سؤال الرؤية وتعليقهم إيمانهم عليها، ولا يتوقف إهلاكنا على كونه عقوبة.

إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي حاشاك أن تهلكنا عقوبة على ما فعله السفهاء منا؛ لأنها ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤] فالسؤال بمعنى النفي والدلالة على أن صعقة موسى لم تكون عقوبة، وإنما العقوبة للذين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي التعميم بالمصيبة التي أدت إلى أن خر موسى صعقاً، فمن هداه الله يعلم أن الله لم يعاقب مَن هو بريء من سبب الرجفة، وإنما هي بلوى له فيها عوض ولله فيها حكمة، ومَن استحق الإضلال والخذلان يدعي أن الله أصابهم كلهم من غير فرق بين بريء ومذنب، أو يدعي أن الرجفة حادث طبيعي غير مقصود فيه عقاب ولا ابتلاء.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ ﴿وَلِيُّنَا﴾ تحسن رعايتنا وتدبير أمورنا فما كتبته لنا فهو خير لنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ولعل هذا الإستغفار بعد إحياء الذين ماتوا وتوبتهم، فاستغفر لنفسه ولهم وطلب الرحمة، وأما استغفاره لنفسه فهو كقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ لأنها مغفرة تؤدي إلى خير عظيم، ومغفرة من ذنوب قد توَجب على أهلها ـ لولا المغفرة ـ العذابُ الأليم، فموقع مغفرتك عظيم، حيث تنجي من النار وتبلغ الجنة، فهي خير مغفرة، وأنت خير الغافرين.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا

---

(١٥٦) ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ ﴿حَسَنَةً﴾ صفة لمحذوف، ولعله في تقدير عيشة حسنة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ حالة حسنة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي رجعنا وتبنا، وهذا حكاية عنه وعن السبعين، فدل على أنهم قد تابوا ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ لا رادّ لأمري، ولذلك أصاب قومك ولم يدفع عنهم كونك فيهم ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فلا تضيق عن شيء، وما عقاب العصاة لضيقها، ولكن للحكمة والعزة ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فإن اتقى قومك كتبتها لهم ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يكذبون بشيء، وهذا دليل على أنها لا تكتب لمن كفر بعيسى ـ صلى الله عليه ـ ولا لمن كفر بعيسى ومحمد ﷺ فهو سبحانه في إجابته لموسى يذكر الشرط، كما أخذ على بني إسرائيل الميثاق: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١] لأنه سبحانه عالم ما سيكون من بعض بني إسرائيل.

(١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ أي يتبعونه حين يبعث ومعه الآيات الدالة على أنه رسول مصدق لما معهم ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ هذه من صفاته ﷺ ذكرت لموسى في الجواب على دعائه، ومعنى ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا﴾ سواءً باسمه، أم بصفاته المعينة لـه.

وفي وصفه بأنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ دلالة على وجه وجوب اتباعه، ووصفه بأنه: ﴿يُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ كذلك ترغيب في اتباعه ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا ترغيب عظيم في اتباعه، و(الإصر): الثقل الذي يحبس صاحبه مكانه لا يستطيع أن يمشي به لثقله، وفي إضافة الإصر إليهم وهو التكليف الثقيل؛ لأنهم استحقوا بعض التشديد في دينهم، أو أنهم ابتدعوه ولم يكلفهم الله إياه، ويحتمل: أنه أضيف إليهم؛ لأن ثقله عليهم تحقيقاً لنعمة وضعه عنهم.

وقوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وهي قيود، أي تكاليف كانوا يتقيدون بها فيها تضييق عليهم، فإسقاط تلك القيود التي كانت عليهم نعمة من الله عظيمة، وتسميتها أغلالاً مجاز؛ لأن الغُل ـ بضم الغين ـ : قيد، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «وفي (البرهان) أراد بالأغلال: المواثيق التي اتخذت عليهم فيما حرمه عليهم» انتهى، وعلى هذا فوضع الأغلال بوضع التحريم المذكور، وفي هذا دلالة على نجاة المتبعين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بني إسرائيل.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿عَزَّرُوهُ﴾ قوّوه وعضدوه، وفي (لسان العرب): «وعزَّره: أعانه وقوّاه ونصره» انتهى.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ﴾ القرآن الذي أنزل معه، والفلاح: الظفر، وفي هذا حصر الفلاح عليهم، ويلزم منه هلاك المخالفين له من أهل الكتاب وغيرهم، وبهذا تمت (قصة الطور).

ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن

﴿١٥٨﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فله الحكم؛ لأن لـه ملكَ السموات والأرض، فهو يحكم ما يشاء، ومن حكمه إرسالي إليكم جميعاً أهل الكتابين وغيرهم من العرب والعجم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهذا إعلان التوحيد في الدعوة لأهميته وانتشار الشرك حتى في أهل الكتابين كما في (سورة التوبة) وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ تنبيه على أن الملك لله في الإحياء، ودلالة على قدرته على كل شئ من الحياة بعد الموت وغيرها، فهو الذي تحق لـه العبادة لا المخلوق العاجز، فعلى الناس أن يطيعوه عبادة لـه، وأن يعبدوه وحده ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ الذي لـه ملك السموات والأرض لا إلـه إلا هو يحيي ويميت.

﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي وآمنوا برسوله النبي الأمي، قال الراغب: «والأميُّ: الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ..**﴾ [الجمعة:٢] معناه: في الذين لا يكتبون» انتهى.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ من تمام صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولعلها مذكورة في (التوراة) ودليل إيمانه بالله طاعتُه لـه وإخلاصه وكثرةُ ذكره لـه، وإيمانه بكلمات الله يعم ما أنزل الله من كتاب.

قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فأمر بالإيمان به وباتباعه وهذا ما أمره أن يأمر به فهو الحق وغيره الضلال، فلا يقبل تدين بغير اتباعه، وهو مخصص لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢] فهذا في المؤمنين العاملين بالشرائع المذكورة قبل نسخها؛ لأن من الإيمان الإيمانُ بالرسل كلهم، ومنهم محمد ﷺ فلم يؤمن من كفر به .

ومن الإيمان: الإيمانُ بكتب الله كلها ومنها القرآن فلم يؤمن من كفر به، ولو آمن بالله ورسله وكتبه ولم يتبع محمداً ﷺ لم ينفعه عمل ولم يصلح عمله؛ لأنه غير مقبول، وذلك لأنه عاص بترك اتباع محمد ﷺ، وقد أمر الله به في القرآن، فليس من لم يتبعه من المتقين ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وقد أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب بما ذكر في (سورة المائدة) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [آية:١٢].

ثم دعاهم الله في (سورة البقرة) إلى الوفاء بالعهد، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [آية:٤٠] وكذلك أخذ الميثاق على النبيئين وأممهم تابعون لهم وهو ما حكاه الله في (سورة آل عمران) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آية:٨١].

﴿١٥٩﴾ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ..﴾ الآية [آل عمران:١١٣] وهم جماعة آمنوا بالله ورسوله ﷺ.

بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟

وقوله: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي وبالحق يعدلون، والعدل: ضد الجور يكون في الحكم، ويكون في المعاملة كالعدل في الوزن والكيل والقَسم، ويكون في الشهادة وغيرها، وذلك كله بالحق، والحق في القرآن قال تعالى: ﴿**وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**﴾ [الإسراء:١٠٥] وقال تعالى: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ**﴾ [يونس:٣٢] والهدى بالحق يكون ببيان الحق، ويحتمل: أن المراد بـ﴿قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ الذين كانوا معه في حياته.

﴿١٦٠﴾ ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ وقطعنا قومَ موسى: أي قسّمناهم ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ أمّة؛ لأن آباءهم اثنا عشر (أبناء يعقوب).

قال الشرفي رحمه الله: «وكانوا اثني عشرة قبيلة اثني [كتب في الأم من (المصابيح): اثنا عشر، ولعله غلط من الناسخ ـ تمت] عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام» انتهى.

ولعلهم في أول الأمر كانوا قبائل، ثم كثروا حتى صاروا شعوباً كل شعب سبط، واختصوا بهذا الإسم، والظاهر: أن سببه انتسابهم إلى الأسباط أولاد يعقوب؛ لأن القبيلة تسمى باسم جدها، كما قال الشاعر:

كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهم ... من العبيد وثلث من مواليها

وقال بعض الشعراء:

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمةً ... عشية لاقينا جذاماً و حميرا

وأحسن من هذا القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ [سبأ:١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (بدل بيان) لا (بدل إلغاء) وقد ذكر (بدل البيان) صاحب البرهان، وأثبته الرضي في (شرح الكافية) حيث جعل بعض البدل من عطف البيان.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ ﴿اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ طلبوه السقيا، ولعلهم أرادوا أن يدعو الله لهم ليسقيهم الماء، أو هو كقولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾ أي من جهالاتهم ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ أي حين ضرب الحجر بعصاه خرج من الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ انفجرت منه، ولعل الله جعلها اثنتي عشرة عيناً من الماء لتكون لكل سبط عين ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ من قبل انفجار الماء من الحجر ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ جعلنا الغمام ظلاً عليهم يظلهم من الشمس، وذلك حين كانوا في التيه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وهذا ـ أيضاً ـ حين كانوا في التِّيه طعاماً لهم، كما مر ذكره في (سورة البقرة).

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إما قيل لهم زيادة في النعمة: كلوا من هذا المنّ والسلوى، وهما من أطيب الطعام لذة ونفعا وسلامة من مكاره بعض المأكولات كالرائحة غير المرغوبة في الثوم، وإما كان بذلها لهم وتيسيرها أمراً بلسان الحال كأنه قيل: كلوا.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرهم لهذه النعم، أي لم يضرنا ظلمهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن عقوبة الظلم كانت بسبب المعاصي التي كانت منهم، فكانوا هم جرُّوا على أنفسهم العذاب، فظلموا أنفسهم بالمعاصي؛ لأنها سببت للعذاب، وقوله: ﴿كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يدل على تكرر المعاصي منهم الموجبة للعذاب.

حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿١٦١﴾ ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ واذكر ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ لبني إسرائيل، والظاهر: أن هذه القرية هي التي حرمت عليهم أربعين سنة، فبعد انقضاء الأربعين أُمِروا أن يدخلوها، ويظهر أن موسى كان قد توفى في مدة التيه بعد ما عصوا ودعا الله أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، فقيل لهم: ﴿ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ خروجاً من التيه، الذي لم يكن لكم فيه مساكن من البيوت، ﴿وَكُلُواْ﴾ من هذه القرية ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ تجدوا المأكول، ولعله لخصبها في نفسها ولما يجلب إليها من حولها ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي حط عنا الذنوب.

ومعنى ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا الباب خشعاً لله ـ عزَّ وجل ـ وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار والخشية لله الواحد الجبار، ولم يُرِد في هذا الموضع سجوداً على الوجوه، وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك رُوينا عن أئمتنا وسلفنا (عليهم السلام)» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ أي إن فعلتم ذلك، وقوله تعالى: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيدهم خيراً إلى هذه النعم وإلى مغفرة خطاياهم زيادة على ذلك.

﴿١٦٢﴾ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ لم يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾ كما أمروا، وقالوا مكانها قولاً مخالفاً لما أمروا به و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لعلهم بقايا العصاة الذين عصوا موسى، وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤] فقد خذلوا واستمروا على كفر النعم.

وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ من قبل دخول القرية وفي حال دخولها، كان ظلمُهم السابق كلُّه سبباً لهذا الرجز، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «فقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿رِجْزًا﴾ يريد: أنه أرسل عليهم عذاباً من السماء، والرجز: هو العذاب» انتهى.

﴿١٦٣﴾ ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ وأسال بني إسرائيل سؤال توقيف وتذكير ليعتبروا ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ﴿كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ فهي تصطاد الحيتان، وتعتمد عليها في معيشتها.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ إما بدل من ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ وإما بمعنى: اذكر ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ أي يعتدون في السبت، واعتداؤهم فعلهم ما لا يجوز لهم في السبت أن يفعلوه، والسبت محرم عليهم فيه الصيد، ولكنهم ابتلوا بمنعه عليهم في سائر الأيام وإظهار الحوت قريباً منهم.

﴿شُرَّعًا﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «﴿شُرَّعًا﴾ معناه: ظاهراً» انتهى، أي السمك ظاهرٌ في أعلى البحر، قريباً من أصحاب القرية، وهذا يوم يسبتون، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم الحيتان فيتعسر صيدها.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البلاء الشديد نبلو أهل هذه القرية بما تكرر منهم من الفسق أي بسبب ما ﴿كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ

وكان تكرر تعسير صيد الحوت عليهم في أيام جوازه، وإظهار الحوت وتقريبها يوم سبتهم، أعنى تكرر البلاء المذكور، ولكنه ابتلاءٌ شاقّ وقع في حال قسوة قلوبهم وغفلتهم عن الله وعن تذكر عقابه، فاعتدوا في السبت بصيد الحوت فيه.

﴿١٦٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ واذكر ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ﴾ من أهل القرية للناهين عن المنكر الواعظين منهم للمعتدين: لأي غرض تعظون قوماً قد تمردوا على الله، واستحقوا العذاب الشديد، وصار متوقعاً إهلاكهم أو تعذيبهم لعظم جرائمهم فلا يفيد فيهم الوعظ، قال الواعظون: وَعْظُنا لهم معذرةٌ لنا عند الله ننجو بها من عذابه، أو وعظناهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

قال بعض المفسرين: «وفي قولهم: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ حيث أضافوا الرب إلى اللائمين، ولم يقولوا: (إلى ربنا) إشارةً إلى أن التكليف بالعظة ليس مختصاً بنا، بل أنتم أيضاً مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم» انتهى.

قلت: هذه عادة المقصرين في دفع الفساد أن يلوموا من دافع، وذلك لغرض تبرير ما هم عليه من التقصير، وقد يكون منهم حسداً للعامل الذي يحصل له الشرف والصيت، يريدون لئلا يحصل له الشرف.

وقولهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي وتعريضاً لهم على التقوى، أو ورجاءَ أن يتقوا؛ لأنهم لو تابوا قبل نزول العذاب لقبلت توبتهم ونجوا من العذاب.

ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ

﴿١٦٥﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ اشتد إعراضهم عما ذكِّروا من آيات الله وتخويفه في (التوراة) وصار عندهم كالمنسي، فلا يتذكرون لوعظ الواعظين، لا تلتفت إليه أذهانُهم كأن لم يكن، بل كأنهم قد نسوه حقيقة.

﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ الذين وعظوا المعتدين في السبت ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالتعدي في السبت وبالحضور عليه وترك النهي وترك الهجرة وبالرضى ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ عذاب ﴿بَـِٔيسِۭ﴾ موصوف بالبأس أو بالبؤس، وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: شديد، ويقال: وجيع أليم» انتهى ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ بما تكرر منهم من الفسق.

﴿١٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ ﴿عَتَوۡاْ﴾ لم يؤثِّر فيهم النهي، بل تمردوا وأصروا بسبب ما نهوا عنه من المنكرات التي فعلوها، فازدادوا إصراراً وقسوة حتى لم يؤثر فيهم العذاب البئيس، كما لم تؤثر في آل فرعون السنين والرِّجز الذي وقع عليهم، فلما عتوا ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ﴾ أي للذين ظلموا: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي بسببه، كقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة:٣٦] أي عن الشجرة، وقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ [يس:٨٢] فالمعنى مسخناهم ﴿قِرَدَةً﴾ جمع قِرد، وهو الحيوان المعروف الذي هو قريب من مشابهة الإنسان، فجعلت صورهم مثل صوَر القردة، ومعنى ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مطرودين مبعدين من رحمة الله، لا تقبل لهم توبة ولا تسمع لهم شكوى.

تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى

قال الشرفي في (المصابيح): «قال ابن عباس: أصبح القوم وهم قردة صاغرون، فمكثوا كذلك ثلاثاً يراهم الناس ثم هلكوا» انتهى.

وذكر الشرفي في (المصابيح): «عن ابن عباس رحمه الله رواية قصتهم، وفيها: ثم قال ـ أي ابن عباس ـ : والله ما سمعت الله يقول نجا إلا الفرقة التي نهت واعتزلت، ولقد أهلك الله الفرقتين جميعاً التي عصت والتي نهت وأقامت معهم.. ثم تلى ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾» انتهى المراد.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ واذكر إذ تأذّن، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أجري مجرى فعل القسم: كعَلِمَ اللهُ، وشهد الله، ولذلك أجيب بما يجاب به القسم، وهو قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ والمعنى: وإذ حتَم ربك، وكتب على نفسه ليبعثن على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾» انتهى.

وقال في (لسان العرب): «وتأذّن ليفعلن: أي أقسم ـ ثم قال ـ: وقوله ـ عزّ وجل ـ : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ قيل: تَأَذَّنَ تألّي، وقيل: تأذّنَ: أَعْلَمَ، هذا قول الزجاج، الليث [أي قال الليث]: تأذّنت لأفعلَنَّ كذا وكذا، يراد به إيجاب الفعل، وقد أذنَ وتأذّن بمعنى كما يقال: أيقَن وتيقَّن، ويقال: تأذّن الأمير في الناس: إذا نادى فيهم، يكون في التهديد والنهي أي تَقَدَّمَ وأعلم» انتهى.

قوله: قيل: ﴿تَأَذَّنَ﴾ تألَّى أي أقسم يمكن الجمع بينه وبين القول أن تأذن بمعنى أعلَمَ بأن أصل معنى تأذَّنَ: أَعْلَمَ وتوعَّد، وضمّن معنى أقسم فأجيب بجواب القسم ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ وعدٌ صادق وقد كانوا يسلمون الجزية، وفي هذا الزمان قويت شوكتهم في (فلسطين) بحبل من (أمريكا) ودول الغرب، ومع ذلك لم يسلموا من يسومهم سوء العذاب من الفلسطينيين وغيرهم، فلا يزالون في توقع للعذاب والقتل فيهم يأتي حيناً بعد حين وهم خائفون من (إيران) ومن حزب الله الموجود في (لبنان) ولابد لهم مما وعد الله به إلى يوم القيامة، وهذا الوعد كما يدل على ما ذكر يدل على أنهم باقون إلى يوم القيامة يمضي من مضى ويخلفه منهم خَلَفٌ مصحوبين في كل قرن بمن يسومهم سوء العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ كالتعليل لما توعدهم به، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بيان: أن العالم كلهم يعيشون في مغفرته ورحمته وإن عاقب من عاقب، فالعقاب ضربان: ضرب بعد الإمهال والنعمة ففي الإمهال المغفرة والرحمة؛ لأنه يستحق التعجيل، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] وضرب من المغفرة والرحمة يكون في حال البلاء الذي يأتي عقوبة؛ لأنه ليس موفياً لهم بما يستحقون في العاجلة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ فهم في حال بلاء السنين الواقع بسبب ذنوبهم هم باعتبار آخر في ظل مغفرة ورحمة؛ لأنهم يستحقون أكثر من ذلك البلاء، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا

﴿١٦٩﴾ ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗا﴾ قسمناهم في الأرض فبعضهم في بلاد الإتحاد السوفيتي، وبعضهم في بلاد الغرب، وبعضهم في أقطار من الأرض متفرقة، ففي تلك النواحي أمم منهم، وفي هذا الزمان صار منهم في (فلسطين) أمم، وفي (أمريكا) أمم.

﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في الزمان الأول حين قطعهم في الأرض أمماً فجملة ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في معنى الحال، أي قطعناهم حالَ كونهم منهم الصالحون ﴿وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي دون الصالحين أو دون الصلاح، أي في محل من الدين دون الصلاح.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: ما محل ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾؟

قلت: الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ونحوه ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ﴾ [الصافات:١٦٤] بمعنى: وما منا أحد إلا له مقام، انتهى.

يعني أن ﴿دُونَ﴾ مع كونه منصوباً على الظرفية، هو في محل الرفع كما قالوا في قوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال:٤٢] أن أسفل الذي هو منصوب على الظرفية خبر المبتدأ في محل الرفع.

تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ

﴿١٦٩﴾ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ من بعد الفريقين الصالحين والذين دونهم ﴿خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ هذا العاجل الدنيء البالغ في الدناءة لتحريمه الشديد وكونه عاراً عليهم، فإذا عرض لهم أخذوه ولم يتورعوا منه، مع أنهم قد ورثوا (التوراة) وعرفوا الحلال والحرام، ومن أمثله ذلك الرشوة على الباطل، قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ [المائدة:٤٢] وقال تعالى: ﴿وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦١].

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ لأنا أبناءُ الله وأحباؤه ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾ فهم لم يقولوا: سيغفر لنا لتوبةٍ سارعوا إليها، بل هم مصرون مستعدون لأخذ مثله متى عرض لهم، فحين يأتيهم يأخذونه طمعاً في هذا الأدنى الذي هو عار على آكله ونار.

﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الذي هو التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ أي قد أخذ عليهم الميثاق في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ﴾ ما في الكتاب، فقد درسوا الميثاق وعلموه، فهم قد تجرءوا على نقض الميثاق، وقالوا على الله الباطل حين قالوا: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ فجمعوا جريمةَ أخذِ الحرام، وجريمةَ قولِ الباطل على الله، وجريمةِ نقض الميثاق.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فلو اتقوا ربهم لكان خيراً لهم، ثم وجّه الخطاب إليهم لوجودهم حين نزل القرآن، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؟! وهو توبيخ لهم على إيثار ما تهواه أنفسهم على تقوى الله التي

عاقبتها الجنة، وما تهواه أنفسهم قليل لا يبقى ولا يبقون لـه وعاقبته النار وفوات الجنة فكأنهم لا يعقلون؛ لأنهم لو استعملوا عقولهم ما أصروا على تلك الجرائم الموبقة.

(١٧٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ وهذا لكل عصر، ففي الزمان الأول كان المصلح من يتمسك بـ(التوراة) من أهل الكتاب والمفسد من يخالفها، وبعد مجيء عيسى عليه السلام كان المصلح من يتمسك بـ(التوراة) و(الإنجيل) وبعد ما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان المصلح من يتمسك بـ(القرآن).

وقوله تعالى: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ يفيد معنى: يتمسكون، أي يعتصمون به ويتبعونه، قال في (الصحاح): «أمسكت الشيء وتمسكتُ به واستمسكتُ به وامتسكتُ به، كله بمعنى: اعتصمت به، وكذلك مَسَّكتُ به تمسيكاً» انتهى.

ومعنى اعتصمت به: جعلته عاصماً لي من الهلكة، أي منجياً وحافظاً، ومنه (حديث الثقلين): «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» فالتمسك بهما الإعتصام بهما من الضلال، فالذين ورثوا الكتاب ودرسوا ما فيه وخالفوه هالكون.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ الآية وعدٌ لمن تمسك بالكتاب على عادة القرآن في العطف بين الوعد والوعيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ خبر﴿ٱلَّذِينَ﴾ والرابطُ العمومُ الذي دخلوا فيه دخولاً أوّليّا، وأفاد: أن الإصلاح يكون باتباع الكتاب، خلاف ما يدعى الكفار من أن التمسك به حَجَرُ عثرة في طريق التقدم، إنما العثرة في طريق التقدم هي بالتفرق، وعدول الجماهير من المنتمين إلى الإسلام عن التمسك به، إنهم لو لم يتفرقوا ويشتغلوا بالشقاق فيما بينهم لسادوا الأممَ.

بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

وقد أكَّد القرآن نهيَهم عن التفرق، وفيه: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦] وفيه: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠] وفيه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] فالقرآن يدعو إلى إعداد القوة بأي شكل كانت، في مجال الصناعة والعلم الحديث عموماً مما فيه خدمة للإنسانية وقوة للأمة وتقدم، وليس يدعو إلى التخلي عن ذلك والإشتغال بالرهبانية، فتبين: أن الإصلاح إنما هو باتباع القرآن.

﴿١٧١﴾ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في (لسان العرب): «نَتَقَ الشيءَ ينتِقُه وينتُقه [بالضم] جذَبَه واقْتلَعه، وفي (التنزيل): ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي زعزعناه ورفعناه ـ ثم قال ـ: ونتقت الغَرْبَ من البئر، أي جذبته بمرة» انتهى المراد.

فالراجح في معناه: أنه تعالى قَلَعَه ورفعه بسرعة وجعله فوق قوم موسى، وقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ كالتفسير لرفع الجبل فوقهم بمعنى أنه أمرٌ لهم أن يأخذوا ما آتاهم ربهم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وصبر وعزم صادق، ومعنى ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أنه تعالى رفعه فوقهم كما ترفع الظله فوق المستظِل بها بقدرته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ تأكيد للأمر بأخذ (التوراة) بقوة بالأمر بتذكر ما فيها من البواعث على الصبر والطاعة والتمسك بالكتاب، وذلك كالوعيد والوعد والعِبَر والأمثال والحكم النافعة المقوية للعزم على الطاعة.

بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ

وقوله تعالى: «﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله فتنجوا من عذابه، فرفعُه والتخويف به لمصلحتكم لتتقوا، وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ﴾ ظاهره: أن هذا غاية المراد به، ولم يذكر أنه قيل لهم: إن أخذتموه بجدٍ واجتهاد وإلا ألقي عليكم، فالرواية ضعيفة؛ لأنه لو كان كذلك لكانوا ملجأين إلجاءً، أما إذا لم يعلموا أنه يلقى عليهم يقيناً فهو تخويف كالتخويف بالرجفة، ومعناه: الموعظة التي يفهم منها بمعونة الحال أن التزام التمسك بالتوراة ينجيهم؛ لأنه تقوى الله التي تنجي من غضبه.

فصح تفسير التخويف بنتق الجبل فوقهم، بقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم..﴾ إلى آخر الآية، وهذا مبني على أن الجبل استقر في الجو وشاهدوه مستقراً مكانه، وعلموا أن الله ممسكٌ له، كما علموا أن الله ممسكٌ للبحر حين مروا وهو فوقهم كالطود العظيم، فلذلك لم يكونوا ملجئين.

نعم لو ألجأهم تعالى إلى قبوله، والتزام العمل به، ثم لم يكن ذلك الالتزام عهداً يسألون عن نكثه، ولا كانوا معاقبين على إخلاف ذلك القبول والوعد، لصح ذلك إن كانت فيه حكمة ـ والله أعلم.

﴿١٧٢﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۛ﴾ واذكر يا محمد إذ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ من الدرجة الأول من بني آدم وممن بعدهم من بني آدم أخذ منهم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حين أخرجهم من ظهورهم إلى بطون أمهاتهم وكثَّرهم و ناسلهم بهذه الطريقة طريقةِ ذريةٍ من آباء، ولو شاء لخلق كل فرد

لا من أب كما خلق آدم عليه السلام، ولكن اقتضت حكمته خلقهم بطريقة التناسل، وهي آية من آياته حيث خلقهم ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة:٨] وصوَّرهم وأكمل خلقَهم، فهم يشاهدون ذلك ويعلمونه بعقولهم، دليلاً على خالقهم.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ بما غرز فيهم وفطرهم عليه من توحيده وبما جعل لهم من العقول وأراهم من الآيات الدالة على أنه خالقهم ومُربِّيهم المالكُ لهم، حتى كأنه سألهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟! وحتى كأنهم قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ أنك ربنا.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «ويؤيد هذا المعنى من قول أئمتنا عليهم السلام: قولُ القاسم بن إبراهيم عليه السلام، فإنه قال: وأخْذُ الله على بني آدم: فهو أخذه على أولهم ما أَخَذ من الإقرار به وبوحدانيته، والإقرار بفرائضه وكتبه ورسله، لا يزيله عنهم شيء إلى أن تقوم الساعة، فرضاً لازماً في الأولين والآخرين، فهذا معنى أخذ الله من بني آدم، ومعنى ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ فهو أخذه على نسلهم نسلاً بعد نسل، والظهور ما يخرج من الظهور من النسول وعلى ما يخرج منها كان الأخذ عليها، ألا تسمع كيف يقول ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؟! فأخبر بذلك أنه على الذرية التي تخرج من الظهور.

ومعنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فهو بما جعل من حجج العقل الشاهد لهم وفيهم بحقائق ما أخذ الله من الإقرار بربوبيته ووحدانيته عليهم» انتهى.

﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ أشهدناكم على أنفسكم، لئلا ﴿تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿عَنْ هَٰذَا﴾ الذي في القيامة من العقاب والثواب ﴿غَافِلِينَ﴾ لم نكن نعلم أنا نصير إلى الآخرة وإلى ما فيها من الجنة والنار؛ وذلك لأن أصل العلم من فطرة العقل وبه تعرف الكتب والرسل، وبذلك تعرف القيامة والجنة والنار، فلولا العقول لم تعلم القيامة وما فيها.

أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ

﴿١٧٣﴾ ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أشهدناكم على أنفسكم، لئلا تقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أو تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ فقلَّدناهم في الشرك؛ لأنا كنا ﴿ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ومن طَبْعِ الذريةِ الميلُ إلى اتباع الآباء ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الذين اتبعوا أهواءَهم فأشرك بعضهم وتبعهم ذريتهم في الشرك.

فهذه الآيات تبيِّن أهمية الفطرة في إثبات الحجة على كل جيل، كما أن آيات (سورة الأنعام) تبين أهمية الكتاب كذلك في إثبات الحجة عليهم، انظر قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [آية:١٥٤-١٥٧].

﴿١٧٤﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التفصيل في هذه الآيات المبيِّن لفطرة الإنسان التي تدله على ربه الخالق له ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ نبيِّنها بياناً مفصلاً ليفهمها المخاطبون بها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الله، أو ليفهمها المشركون؛ ولعلهم يرجعون عن الشرك أي وتعريضاً لهم على الرجوع.

﴿١٧٥﴾ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ واقرأ على أهل الكتاب مما نوحيه إليك ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ علَّمناه آياتنا، فقرأ (التوراةَ) مثلاً وعَلِم ما فيها ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ تخلَّى عنها وتركها كأنه كان مشتملاً عليها حين كانت في صدره، فلما

إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا

تركها صار كأنه انسلخ منها كما ينسلخ الجلد من الذبيحة ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ لثقته بأنه يغويه أكثر مما قد غوي ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ لم يرجع عن غوايته بل استمر عليها حتى مات؛ لأنه سلط عليه الشيطان بسبب تركه لآيات الله وإعراضه عنها.

﴿١٧٦﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا﴾ ﴿لَرَفَعْنَـٰهُ﴾ بأن شرَّفناه وفضَّلناه على غيره وذلك بأن يكون له شرف العلم والعمل فلو شاء الله لجعلها سبباً لرفعه بهداية الله وتوفيقه ﴿وَلَـٰكِنَّهُۥٓ﴾ لم يكن أهلاً لأَنْ يرفعه بها؛ لأنَّه ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ركَن إليها واطمأن إليها لاعتباره لها مالاً باقياً تغل مزارعها وبساتينها من الحبوب والفواكه ما يستغني به وبأثمانه فاطمأن إليها، وانشغل بها كما اطمأن صاحب الجنتين المذكور في (سورة الكهف) إلى جنتيه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يدل على ضلاله عن الحق، ولذلك سلب التوفيق، وفي هذا تحذير زائد للعلماء.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد أن يتلو عليهم خبر الذي آتاه الله معرفته إياه وعلّمه ما يحتاج إليه من بيناته فانسلخ من تلك الآيات وخرج من أوامر الله البينات وأتبعه الشيطان ليضله ويزيده عمىً إلى عماه وبعداً عن الله سيده ومولاه، لَمَّا خرج من طاعة الله واتبع هواه، وجَانَب سبيلَ نجاته وتقواه، وإنما قص الله خبره على العباد،

ليحذروا من التجاهل بعد البينات، ولا ينسلخوا مما آتاهم الله من البينات، فهم لم يقبلوا هذه الموعظة، ولم يفلحوا وأفسدوا بعد علمهم ولم يصلحوا، فصار هذا القول حجة من الله عليهم» انتهى.

قوله: «فهم لم يقبلوا..» الخ أظنه يعني به علماء السوء وهو صحيح، وإن كان السبب علماء السوء من بني إسرائيل الموجودين حين نزل القران.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ مثل هذا الذي كان من الغاوين ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ المشغول بدلع لسانه ومتابعة أنفاسه في كلتا الحالتين إن حمل عليه لضربه أو لرجمه أو ترك، فقد انشغل باللهث: الذي هو دلع لسانه ومتابعة أنفاسه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد أنك إن وعظته لم ينتفع، وإن تركته لم ينتفع، فهو بمنزلة الكلب الذي يلهث إن تركته، ويلهث إن زجرته، فالزجر والترك عنده سواء لا فرق بينهما، ولا يترك طبيعته لواحد منهما.

واللهث في اللغة: هو دلع الكلب لسانه ومتابعة نسمه، ويحتمل وجها آخر أن يكون شبَّهه بالكلب لدناءته وخسته واتباعه لهوى نفسه وبغاضته والله أعز وأكرم وأجلّ من أن يعتب على الكلب وإنما عتب على من ....[هكذا في المصابيح، ولم أعرف ما هي، ولعلها تصحيف من عصا ربَّه أو معناها] ولم يستعمل ما ركب الله فيه من حجة عقله» انتهى المراد.

وقوله: ويحتمل وجهاً آخر، الفرق بين الوجه الأول والوجه الآخر أن الأول جعل التشبيه في حالة مذمومة هي استواء الحالتين عند الكلب حالة زجره وحالة تركه.

وأما الوجه الآخر، فمعناه: أن التشبيه بالكلب لبشاعة حالته وكراهتها عند من ينظر إليه وهو لا يزال دالعاً للسانه حتى لو زجر؛ لأنه في صورة شويهة لاستمراره على إخراج لسانه وعند ذلك يسيل لعابه.

فالكلب في تلك الحالة قد شبه به هذا العبدُ العاصي لله الذي لم يستعمل عقله فأشبه البهيمة وزادت خسته باختياره طريقة الجهل والهوى مع ما قد رزقه الله من علم قد كان ينال به شرف الدنيا والآخرة، فقبحت معصيته بزيادة نعمة الله عليه وزيادة حجة الله عليه، فكان حقيقياً بأن يُشبَّه بالكلب في حالة الكلب الضعيفة التي منظرها مكروه.

وقوله: ويحتمل وجهاً آخر، هذا الوجه الآخر هو أرجح؛ لأنه يعبر عن خسة ذلك الرجل وحقارته ودناءته وسقوط همته، فحَسُنَ مقابلته لحالة الشرف التي فاتته، وصار المعنى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فصار حقيراً دنيئاً ذميماً، فهذا الوجه انسب للسياق ـ والله اعلم.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فمثلهم كمثل الكلب المذكور؛ لأنهم أهملوا عقولهم ودفعوا هدى الله ففسدوا فاستحقوا ذلك المثل، وعلى الوجه الأول في تفسير الحسين بن القاسم: أنهم أهملوا عقولهم حين جاءتهم الآيات، وأعرضوا عنها، فاستوت حالتهم في الجهل والضلال قبل أن تأتيهم الآيات وبعد ما جاءتهم الآيات، فكانوا كالكلب في استواء حالتيه إذا زُجِر وإذا تُرِك مستمراً على لهثه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ الظاهر: أنه قصص (بلعام) لأنه عبرة لهم وتذكرة لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها.

وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ينظرون بأفكارهم وعقولهم كيف كانت عاقبته، وكيف خسر الشرف الحقيقي واستبدل به الحقارة واللؤم واستحوذ عليه الشيطان، فهو عبرة لمن يعتبر.

﴿١٧٧﴾ ﴿سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي حاله القبيحة الجارية مجرى المثل كحال الكلب، فالمثل عبارة عن الحالة، فقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ أي ما أسوأ مثلهم الذي هو كمثل الكلب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم هم أوقعوا أنفسهم في تلك الحالة القبيحة التي كانت سبباً لخسرانهم وحقارتهم، واستحواذ الشيطان عليهم، الذي يؤديهم إلى الشقاوة الدائمة والخسران المبين، فهم الذين ظلموا أنفسهم.

وهذا من أوضح الأدلة على بطلان القول بالجبر؛ لأنه لو كان الفعل ناتجاً عن فعل الله حتماً ما كان لهذا الكلام فائدة سواء نتج الفعل عن القدرة الموجبة أم عن مجموع القدرة الموجبة بشرط الإرادة، والإرادة التي هي عندهم فعل الله تعالى، فالمعنى واحد، فكيف لو كان الأمر كذلك ينسب إليهم ظلم أنفسهم، وأبلغ من هذا أنه قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ

﴿١٧٨﴾ ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ هذا ترغيب في طلب هداية الله والتعرض لها بالإيمان واجتناب أسباب الخذلان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تحذير من التعرض للإضلال بالتكذيب بآيات الله بعد وضوح الحق؛ لأن الإضلال بأي معنى كان إنما يكون عقوبة، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يبين سوء عاقبتهم مع خسرانهم العاجل بسلب التوفيق، فهو خسرانٌ عاقبته الخسران يوم القيامة.

﴿١٧٩﴾ ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾ في تفسيرها أقوال:

الأول: أن معنى ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا﴾ أنه تعالى يذرؤهم بالبعث بعد الموت، ولتحقيق ذلك عبَّر عنه بعبارة الماضي، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ [الكهف:٩٩] وقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] وهذا مبني على أن الآية من المتشابه، فصح تأويلها بالمعنى المجازي.

القول الثاني: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي لقد خلقنا مَن عاقبته لجهنم كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] وهذا

لأن الله خلق الجن والإنس كلهم ليعبدوه، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٩] على تفسير الإشارة، أي وللرحمة خلقهم، فجعل خلقهم لجهنم مع خلقهم للعبادة، معناه: أنه خلقهم لعبادته وعاقبتهم لجهنم بسوء اختيارهم.

القول الثالث: ليس معنى ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ خلقناهم ليكونوا لجهنم، وإنما معناه: خلقناهم ونحن نعلم أنهم لجهنم، لعلمنا بما سيكون منهم من التكذيب بآيات الله، وإهمال عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، وغفلتهم عن آيات الله بالإعراض عنها، بحيث صاروا كالناسين لها باختيارهم لسبب ذلك، وذلك أنك تقول: خيَّطت لفلان ثوباً، وليس المعنى ليكون لفلان بل المعنى أنه له، وكذلك غسلت له ثوباً، ومن هذا القبيل بنيت له بيتاً وصغت له خاتماً، فالمعنى: أن البيت والخاتم والثوب له، وليس المعنى ليكون له وذلك واضح.

وفائدة الإخبار بخلقهم لجنهم: بيان أنه تعالى خلقهم وهو يعلم أنهم لجنهم، فلم يخلقهم غلطاً بل خلقهم وهو يعلم أنهم يكذبون بآياته ويستحقون بذلك جهنم، وفي ذلك تنبيه على أنه غني عن طاعتهم، وأنها لا تنقصه معصيتهم، وأنه لايبالي بتكذيبهم وبمصيرهم إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر:٧] وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ دلالة على أن الله قد أكمل حجته عليهم بعقولهم، وكذلك بأسماعهم وأبصارهم، ولكنهم أهملوها فلم يستعملوها في طلب الهدى، فكأنهم لا يعقلون بألبابهم التي ركبها في قلوبهم

فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ

وفطرتهم التي فطرهم عليها، حين أشهدهم على أنفسهم، وكأنهم لا يبصرون ولا يسمعون، كل ذلك لإعراضهم عن الهدى العقلي والآفاقي والسمعي، كما قال الشاعر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده ... وأسمع خلق الله حين أريد

فكانوا بإهمالهم لطرق المعرفة ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في جهلها بما يعرف بالعقول، ثم قال تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام لم تجهز بالعقول، فهي غير معاقبة على غفلتها، بخلاف من جعل الله له قلباً وركب فيه لُبًّا وأضاف إلى ذلك السمع والبصر، وجاءته آيات الله ورسله، فأعرض عن آيات الله وتغافل عنها، وأعرض عما سمع ورأى، كأنه لا عقل له ولا سمع ولا بصر، فهو معاقب على غفلته، خاسر بتكذيبه بآيات الله وإجرامه، فهو لذلك أضل من الأنعام.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ تسجيل عليهم بالغفلة المذمومة والجهالة الممقوتة؛ لأن سببها إعراضهم وتمردهم على الله ورسله وآياته.

﴿١٨٠﴾ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الأسماء التي هي أحسن الأسماء؛ لدلالتها على الله، وعلى تسبيحه وتقديسه وتعظيمه وتحميده ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ أي فادعوه بها، قولوا: يا الله، يا الرحمن، يا الرحيم، أو يا من هو الرحمن الرحيم، أي ادعوه بكل اسم من أسمائه، لا تتركوا اسماً عن أن تدعوا الله به كما تَرَكَت الجاهلية اسمَ الرحمن، وليس المراد جمع الأسماء في الدعوة الواحدة.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ اتركوا الذين يلحدون ﴿فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ يميلون بأن يجعلوها لغيره كفراً بها، كالذين قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمنَ اليمامة، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:١١٠] والإسم الأحسن: هو الذي يفيد مدحاً عظيماً ولا يستلزم إثبات نقص، بل يفيد مدحاً عظيماً خالصاً، فهي لله سبحانه كلها بلا حصر، وهو يختص بها سبحانه لا يشاركه فيها غيره، ووصف غيره بلفظ بعض أسمائه ليس معناه إثبات ما أُثبِت لله مثل: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] بل الأسماء الحسنى على معانيها خاصة بالله وجعل شيء منها لغير الله هو من الإلحاد في أسمائه.

قال في (لسان العرب): «ومعنى الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد» وفيه أيضاً: «وأصل الإلحاد الميل والعدول عن الشيء» وفيه أيضاً: «وألْحَدَ في الحرم: تَرَكَ القصد فيما أُمِر به ومَالَ إلى الظلم» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «وألحد: مال عن الحق» انتهى المراد، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] فجعل عدولهم إلى غير الله إلحاداً إلى ذلك الرجل الأعجمي.

﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾ سيجزون أعمالهم كلها التي كانوا يعملونها، أي استمروا على عملها، والأصل يجزون جزاءَها المناسبَ لها الذي يستحقونه من أجلها، فكأنه هي لَمَّا كان جزاءً لها، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥] وذلك تحقيق لكونه جزاء العمل.

حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ

﴿١٨١﴾ ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فذروا الذين يلحدون في أسمائه واقتدوا بالأمة الهادية بالحق العادلة به فهي القدوة الصالحة، وهؤلاء هم السابقون بالخيرات، كقوله تعالى في (سوره الأنعام): **﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾** [آية:٨٩] فراجع تفسيرها.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ منهم من كذب بالقرآن ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ يجعلهم يتقربون إلى الهلاك درجه درجة ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يتقدمون إلى الهلاك؛ ولعل المراد بقوله تعالى: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من جهة الإنعام عليهم؛ لأنهم يتلهون به حتى يحضرهم الموت فيُغلَق عنهم بابُ التوبة، ويصيرون إلى العذاب من حين تحضرهم الملائكة، ويوم القيامة إلى عذاب النار.

﴿١٨٣﴾ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ﴿أُمْلِي لَهُمْ﴾ أمهلهم في هذه الحياة الدنيا مدة طويلة بالنسبة إلى استحقاقهم العذاب العاجل فلا أعاجلهم بعذاب وهم يغترون بالإملاء ويستزيدون من المعاصي؛ فلذلك جعله تعالى كيداً متيناً أي قويا، قال تعالى: **﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾** [آل عمران:١٧٨] فمن حيث أن الإملاء قد جعلوه سبباً لزيادة المعاصي، فصار سبباً لزيادة العذاب، فمن هنا صار كيداً باختيارهم وكان قوياً؛ لأنه مصحوب بالنعم ومنّتِهِ بهم إلى العذاب الشديد الدائم.

﴿١٨٤﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أي المكذبون بآيات الله ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جنون فيعرضوا عنه، ولا يلتفتوا إلى إنذاره،

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ

بل هو في غاية رجاحة العقل، فكيف لم تدعهم عقولهم إلى التفكر فيما جاء به من الآيات، وما أنذرهم حتى لا يقعوا في التكذيب بآيات الله ويستحقوا العذاب في الآخرة والخذلان في الدنيا والإستدارج والإملاء.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ ومن شأن العاقل أن يحذر ما أُنذِر، فكيف وقد أنذرهم عذاباً شديداً وصارحهم بالإنذار والتحذير، وجاءهم بالآيات الدالة على صدقِه، فهو ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ بَيِّنٌ واضح أنه نذير يستدعي إنذاره النظر، والتفكر في إنذاره وفيما جاء به من الآيات، وأن لا يعرضوا عن إنذاره كما يُعرَضَ عن كلام المجنون وهم يعلمون أنه عاقل، فكان من حقهم أن يخافوا أن يكون صادقاً في إنذاره فيصيروا إلى ما أنذرهم من العذاب الشديد، فإذا خافوا فمن حقهم إذا استعملوا عقولهم أن ينظروا في الآيات التي جاء بها دليلاً على صدقه حتى يبنوا على حقيقة فيؤمنوا إن صح الدليل أو يعلموا أنه لا حجه له إن لم يكن له آية صحيحة فيأمنوا ما أنذرهم، فأما استعجالهم على تكذيبه بلا نظر بل انقياداً للحسد والكبر والعصبية فهو جهالة وإهمال للعقول وتورط في المهالك، ولكن قلوبهم قاسية وهم مقبلون على دنياهم وأهوائهم فأعرضوا وغفلوا.

﴿١٨٥﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ حتى يعرفوا أن الله هو مالك السموات والأرض والمخلوقاتِ كلِّها ومالكهم، فهو رب كل شيء، فيلتفتوا بأفكارهم إلى رسوله وآياته ويحذروا عاقبة عصيانه والإعراض عنه، ويحذروا الشرك به.

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي وينظروا أن ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي أن من المتوقع الذي لا يبعد لأن كثيراً من الناس قد ماتوا وهم مثلهم في السن وأصغر منهم ﴿أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي الموت.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ لأن هذا الحديث الذي هو القرآن قد دل على صدق الرسول بإعجازه، ومع ذلك أنذرهم القرآن وحذرهم ووعظهم وخوفهم بضروب من المواعظ، ليؤمنوا به فلم يؤمنوا، فتبين أنهم لا يؤمنون بأي حديث بعد هذا القرآن؛ لأنه لا يَبْلغ مبلغَه حديثٌ.

ولو نظرنا ما في هذه السورة وحدها لوجدنا شيئاً عجباً:

من ذلك: ذكرُ نعم الله ودعوته إلى الشكر.

ومن ذلك: ذكر قصة إبليس ووعيده بإغواء بني آدم وتحذيرهم من أن يفتنهم كما أخرج أبويهم من الجنة.

ومن ذلك: قصص الأمم الذين كذبوا الرسل فأخذهم الله بذنوبهم، وتفصيل قصص أنبيائهم.

ومن ذلك: قصة القرية التي كانت حاضرة البحر، وقصة الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها.

ومن ذلك: التحذير من الخذلان المتتابع في السورة في مواضع متعددة.

ومن ذلك: التذكير بالآخرة والتذكير بجهنم وكثرة أهلها.

ومن ذلك: الإحتجاجُ على المشركين في مواضع من السورة، وعلى الجملة كل السورة هدىً ونورٌ ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧].

وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا

﴿١٨٦﴾ ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ كما أن من لم يهتدِ بالقرآن للإيمان لا يؤمن لأجل حديث بعد القرآن أي بعد أن تَرَك القرآن وأعرض كذلك من فاتته هداية الله وتوفيقُه وأرسل عليه الشياطين حتى ضلَّ فلا هادي له بعد الله ولن تكون هداية من غير الله بدلاً من هدايته ﴿ونَذَرهم﴾ نتركهم أو ﴿يَذَرُهُمْ﴾ ـ بالياء ـ أي يتركهم الله ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الذي اختاروه وفعلوه، والطغيان: مجاوزة الحد ومنه التكذيب بآيات الله والإصرار على معاصي الله ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتكرر منهم عمى البصيرة ويسترسلون فيه، وهذا من التحذير عن أسباب الضلال، كالتكذيب بآيات الله بعد وضوحها للناظر فيها.

﴿١٨٧﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ هذا من الناس الذين سمعوا رسول الله ﷺ ينذرهم ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ أي القيامة، وكأنها سميت بهذا لسرعتها عند مجيئها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧] فقالوا لرسول الله ﷺ ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿مُرْسَىٰهَا﴾؟ أي وصولها وحضورها، كأنها في إقبال، فإذا جاءت أرست مكانها وثبتت فلا ترجع أبداً.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ﴿عِلْمُهَا﴾ المحيط بها وبما يكون فيها وبوقتها إنما هو ﴿عِندَ رَبِّي﴾ وحده فهو الذي يعلم متى تأتي ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يظهرها ويبينها حتى تتجلى للناس وتتضح عن إتيان وقتها وحلول

أجلها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي ربي الذي أرسلني نذيراً لكم من مجيئها، وإذا جلاَّها لم يكن أوان تصديقكم بها ولم يكن مجيء أمر تفرحون به أو تتفرجون عليه، إنما هو أمر ثقيل شديد.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ عند الملائكة لإيمانهم بها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ لهولها على أهل الأرض وإشفاق المؤمنين منها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ كما قضت حكمة الله ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥] كما قضت بإخفاء أجل الموت، فالقيامة لا تأتيكم إلا إتياناً بغتةً حين لا تتوقعونها وعلى غفلتكم عن إتيناها، قال الراغب: «البغت: مفاجأة الشيء من حيث لا يُحتسَب» انتهى.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: حتى كأنك حريص مستقصٍ عن السؤال عنها وأنت غير حريص في البحث عن وقتها؛ إذ أنت موقن بها خائف منها.

والحفي على وجوه، أحدها: الحريص المستقصي، قال الشاعر:

فإن تسألي عني فيا رُبّ سائل ... حفيٍّ عن الأعشى به حيث أصعَدا»

انتهى، وقد ذكر في (الصحاح) هذا في معاني الحفي، فقال: «والحفي - أيضاً - المستقصي في السؤال، قال الشاعر:

فإن تسألي عني فيا رُبّ سائل ... حفيٍّ عن الأعشى به حيث أصعَدا»

انتهى.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يعلمها أحد غيره لما أعاد ذكر السؤال ليرتب عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أعاد ذكر الجواب لأن السؤال يستدعيه؛ ولعلهم أكثروا السؤال، فاقتضى الحال التأكيد في الجواب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون أنها ستقوم فلا يعلمون أن علمها عند الله.

وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي

﴿١٨٨﴾ ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ النفع كالرزق، والضر كالمرض وملكهما اقتداره عليهما جلباً ودفعاً، فقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إما بمعنى إلا ما شاء الله من الملك وهو ما أقدرني على سببه وعلمني طريق تحصيله ومكنني من تحصيله وتركه كبعض الرزق، وإما استثناء منقطع، وهذا أقرب؛ لأن الملك أبلغ من الإقتدار المحدود.

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ فأنا لا أعلم الغيب وليس إخباري بالساعة إلا لأن الله أعلمني أنها ستقوم؛ ولذلك لا أدري متى هي؟ ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ الذي يتوصل إليه بالأسباب المقدورة للبشر، وفي هذا رد على من زعم أن بعض المخلوقين يعلم الغيب، ولا يصح تأويله بعلم الغيب الذاتي؛ لأن الإستكثار من الخير لا يتوقف على الذاتي فلو أعطاه الله قوة علم الغيب لاستكثر من الخير.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ يحتمل أنه من جواب ﴿لَوۡ﴾ على أن السوء مطلق في السوء من أي ضر كان مما يتوصل إلى دفعه بالأسباب المقدورة ، ويحتمل أن الجملة معطوفة على جملة ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ فهي مما أُمِر في أول الآية أن يقوله، وعلى هذا فالمراد بالسوء الجنون بقرينة دعوى الكفار أنه مجنون.

وعلى الإحتمال الأول يكون المعنى: لو كنت أعلم الغيب ما مسني السوء، والأرجح الثاني لأنه لو كان من جواب الأول لما نفى نفياً مطلقاً كما لم يثبت الخير إثباتاً مطلقاً ولكان الظاهر أن يقال: لاستكثرت من الخير ومن

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ

دفع السوء، وذلك يتوجه إلى الممكن في قدرة البشر لو علموه؛ ولأن النفي لم يقترن بـ(لام الجواب) وكان أبلغَ في الدلالة على أنه معطوف على جواب (لو) أن يقال: ولما مسني السوء أو لاستكثرت من دفع السوء، فلأجل القرينتين ترجح أن الجملة النافية ليست من جواب (لو) بل هي مستقلة.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ قد عرف متعلقه من غير هذه الآية أنه نذير بالنار لأعداء الله وبشير بالجنة للمتقين، فقوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ إن أريد به يؤمنون بالفعل فهم المتقون، وهو قيد لـ(بشير) متعلق به، وإن أريد لقوم شأنهم أن يؤمنوا حين تأتيهم الآيات لأنهم يريدون الحق لا يصرفهم كبر ولا تعصب ولا غيرهما فقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ "يُؤْمِنُونَ راجع إلى جملة ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ والمراد: أنهم هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير؛ لأنهم يتفكرون إذا جاءتهم البينة فيؤمنون بالفعل، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٩] وهذا أرجح عندي ـ والله أعلم.

﴿١٨٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم﴾ إن كان الخطاب به للناس فالنفس الواحدة آدم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي وجعل لها زوجها منها أنشأها، وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ تعليل لجعل الزوج لآدم ليسكن، ويحتمل وجعل منها أنَّ زوجه منه بمعنى قوة التشابه في الصورة والقوى والطباع، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: «أنت مني وأنا منك».

شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ

وهذا حمل على المجاز، ولكن كونه أنسب للتعليل بقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ لا ينافي إثبات الحقيقة وجعل التشابه في الصورة والقوى والطباع نتيجة لإنشاء زوجه منه كما يكون من التشابه بين الوالد وولده ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ الرجل الذي خلق منه المخاطبون ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ علقت بالولد وصار حملاً في بطنها خفيفاً في أول الأمر ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ مشت به تذهب وتجيء لا يثقلها ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ عالمين مؤمنين أنه هو الذي يصور الولد في رحم أمه كيف يشاء إن شاء جعله صالحاً وإن شاء جعله ناقصاً أو ضعيفاً فلذلك دعوا الله ربنا ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فالخلق خلق الله أصله ونسله، فهو الحقيق بأن يعبد لا ما يشرك المشركون من الأصنام وغيرها مما لا يخلق شيئاً لا خلق المشركين ولا غيرهم.

﴿١٩٠﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ فالمشركون كانوا يعتبرون شركاءهم شركاء لله في أنفسهم هم فيعبدونهم ويؤلهونهم لذلك ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿١٩١﴾ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ هذا إنكار وتوبيخ للمشركين، وبيان لبطلان الشرك؛ لأنهم يجعلون لشركائهم نصيباً في أنفسهم مع أنهم لم يخلقوهم، والمشركون يُخلقون خُلِقَ آباؤهم الذين أشركوا قبلهم وخلقوا من بعد خلق آبائهم فهم عباد لخالقهم ربِّ العالمين.

﴿١٩٢﴾ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي شركاؤهم ﴿لَهُمْ﴾ أي للمشركين ﴿نَصْرًا﴾ وهذا دفع لتوهمهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس:٧٤].

أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي هؤلاء المعبودون لا ينصرون أنفسهم لو حطمهم أحدٌ كما فعل إبراهيم عليه السلام؛ ولذلك يجند المشركون أنفسهم لحماية شركائهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس:٧٥].

﴿١٩٣﴾ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ هذا بيان لكون أصنامهم جمادات عاجزة، فكما أنهم لا ينصرون أنفسهم فهم أيضاً عاجزون أن يفعلوا لأنفسهم خيراً وصلاحاً، فإن تدعوهم إلى ما هو هدى ورشاد في حقهم ليتبعوكم إلى ما دعوتموهم إليه كالإنتقال إلى مكان أفضل من مكانهم أو كالإنتقال معكم حيث تنتقلون إلى مكان في طلب المرعى والماء لأنعامكم لا يتبعوكم.

أو تدعوهم إلى النزول من فوق بيت الله الذي ليس لهم فيه حق؛ لأن الله وحده هو رب البيت وهو الذي جعله نعمة لقريش أمناً في بلدهم وفي رحلتيهم، وبقاء الشركاء على بيت الله باطل، فإن تدعوهم لينزلوا ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لعجزهم سواء عليكم دعاؤهم إلى ذلك والسكوت عنه؛ ولكون السكوت عن هذا الدعاء هو الأصل ليس حادثاً بعد الدعاء المذكور قال: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ لأنه استمرار على الحالة الأصلية.

﴿١٩٤-١٩٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ

إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَـٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ

يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَا﴾ ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ عباد لله الذي خلقهم ﴿أَمۡثَالُكُمۡ﴾ في أنكم عباد الله ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ لطلب شيء من حوائجكم منهم ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ بتحصيل ما طلبتم﴿إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ﴾ في جعلهم شركاء فيكم.

وهذا بيان آخر لعجزهم وتذكير لهم بما هم به عالمون في الأصل؛ لأنها جمادات كسائر الجمادات لا تمتاز عنها بشيء، وإنما سموها آلهة هم وآبائهم وهي ما زالت على حالتها الأصلية لم يحدث لها من التسمية قدرة ولا علم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآ﴾ إهانة للمشركين وتنزيلٌ لهم منزلة من لا يفهم؛ لأنهم يعلمون أنها أحجار أو تماثيل لا تمشى ولا تبطش ولا تبصر ولا تسمع فلم يسموها آلهة لشيء من ذلك، وهم يعلمون أنه لا أرجل لها تمشي بها، ولا أيدٍ تبطش بها، ولا أعينَ تبصر بها، ولا آذانَ تسمع بها، فهم يعلمون أنهم وآبائهم سموها آلهة في حال أنها لا تتميز عن سائر الجمادات بشيء من قدرة أو بصر أو سمع، فلا حجة لهم فيها ولا شبه حجة.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ وهذا بيان لعجزها بدعوتها لتكيد رسول الله ﷺ وتعجيز أهلها ليدعوها تكيده معهم في أسرع وقت تهلكه وهذا مع كونه بياناً لعجزهم بيان لعلمهم بذلك، ودليل على ثقة الرسول ﷺ بعجزها وأنها لا تستطيع شيئاً من ذلك.

﴿١٩٦﴾ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَـٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ﴿وَلِـِّۧىَ﴾ الذي يرعاني ويحسن رعايتي ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ هو القادر على كل شيء والعالم

﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا

بكل شيء فهو يهديني ويحفظني ويرزقني وإذا أرادني بخير لا يمسكه غيره وإن أرادني بضر لا يكشفه غيره، ومن حسن رعايته ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ رحمة وهدى ودليلاً على توحيده وعلى بطلان الشرك وفيه الهدى والنور، فمن الله الهدى والخير كله ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فلو صلحتم لتولاكم كما تولاني.

﴿١٩٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ والنصر من أهم الحاجات، فبالأولى غيره من حاجاتكم لا يقضون لكم منها شيئاً ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ وكفى بذلك دليلاً على أنهم لا ينفعون فيُعبَدوا لطلب نفعهم ولا يضرون فيُعبَدوا لدفع ضررهم.

﴿١٩٨﴾ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ دعاءكم لأنهم جمادات ولو كانوا يسمعون لسمعوا إن تدعوهم إلى الهدى؛ لأهمية السمع لمن يدعو إلى الهدى، فهو حقيق أن يصغى له فيسمع.

﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ أي الأصنام ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ موجهون إليك إما أنهم تماثيل لأحياء ينظرون فإذا جئتهم كانوا أمامك كأنهم ينظرون إليك، ومعلوم أنهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ وإما لأنهم أحجار موجهة إلى من أتاها كأنها تنظر إليه، ومن المعلوم أنها لا تبصر فقد ذكّرهم الله عجزَ أصنامهم وتعجيزهم بما يكشف عن علمهم بعجزها فهم يعبدون ما لا ينفعهم شيئاً ولا يضرهم وكفى بذلك جهلاً وغباوة وانقياداً للباطل.

وبعد تمام الإحتجاج على المشركين والكفار، والإنذار الكامل في هذه السورة التي في أولها الأمرُ باتباع ما أنزل إلينا من ربنا، واجتناب ما يصرفنا عنه، وإكمال الحجة لرسول الله ﷺ على المشركين والمكذبين بالقرآن، وصّى الله رسولَه في خاتمة هذه السورة، فقال تعالى:

(١٩٩) ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ الميسور من أخلاق الناس وأدبهم لرسول ﷺ ولا تستقصِ عليهم في حقوقك ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ وهو ما تعرفه العقول من توحيد الله، والإحسان إلى الوالدين والأقارب والجار واليتيم والمسكين، وغير ذلك ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ السفهاء الذين يجهلون عليك بالكلام المؤذي فلا ترد عليهم بمثل كلامهم مما يؤذيهم من السب، بل أعرض عنهم واشتغل بما كُلِّفتَه من الدعوة والإبلاغ والإنذار والتبشير والهداية.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ هو أدب من الله لنبيه ﷺ فجَمَعت هذه الأحرف اليسيرة من الآداب الكثيرة ما فيه حكمة عظيمة لمن عقلها وأقبل عليها بفكره وقبلها؛ لأن قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ يدل على احمال [احتمال] الشرور وستر كثير من قبائح الأمور لما في الأناة الحلم وحسن التدبير من المعونة والسلامة والبركة والخير الكثير.

ثم قال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ فدل على الأمر بالخيرات والزجر عن جميع القبائح المنكرات، ثم قال: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فدلّ بذلك على ألطف المواعظ كلها، وهي الهجرة الجميلة لسفهاء البرية وسَفَلها عند الإعراض والترك لجدالها ومكالبتها والتشاغل بها ومجالستها، فانظروا ما في هذه الكلمات من الحكمة وحسن التدبير والبركات، والسلامة من القبائح والشُّنَع المهلكات، نحمد الله على ما علمنا من كتابه، ونشكره على هدايته وآدابه» انتهى.

قال في (المصابيح): «وعن جعفر الصادق عليه السلام: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها» انتهى.

يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ

﴿٢٠٠﴾ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَإِمَّا﴾ أصله (وإن ما) وهي (أن) الشرطية اتصلت بها (ما) صلةً للكلام فأدغمت (النون) في (الميم) والنزغ من الشيطان: تحريك الشر، أو محاولة تحريكه قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف:١٠٠].

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ﴾ معناه: يستخفنَّك منه خفةٌ عجلة، ونَزْغ الشيطان الإفساد بين الناس» انتهى، ونحوه في (الصحاح).

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي توصل إلى إعاذته لك كما مر في: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ ومن الإستعانة بالله طلب الإعاذة، ومن التوسل إلى إعاذة الله الإيمان والتوكل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩].

ومعنى طلب الإعاذة: طلب الإنجاء للعائذ بالله، والعائذ: اللاَّجيء، فمعنى: أعوذ بالله: ألجأ إلى الله، لينجيني من الشيطان إن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ الدعاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستعيذ به.

﴿٢٠١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ طاف به جاءه فمعنى ﴿مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ﴾ أصابهم طائف أي آتٍ ووارد؛ لأن الشيطان غير ملازم للمتقين، وإنما هو عارض يعرض لهم.

قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لعلَّ ﴿مِّنَ﴾ للإبتداء فهو بمعنى وسوسة من الشيطان ونزغ منه، وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي ذكروا الله في أنفسهم فخافوا عذابه.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ (إذا) هي للمفاجأة، لسرعة انتباههم لوسوسة الشيطان وغروره وسرعة حذرهم منه، أبصروا بعقولهم طريق الصواب، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ جملة إسمية تفيد ثباتهم على إبصار الصواب والحذر من الشيطان، وهذا لا ينافي وقوع اللَّمم منهم؛ ولعل التعبير بمسهم من أجل أنهم ربما وقعوا في المعصية إلا أنهم لا يصرون، كما في (سورة آل عمران): ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ..﴾ إلى قوله: ﴿.. وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ [آية:١٣٥].

﴿٢٠٢﴾ ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ وإخوان الشياطين رَجَع الضمير على الشيطان ضميرُ الجمع؛ لأنه اسم جنس عام، فكان في معنى الجمع من حيث التعدد في مفهومه ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ يمدهم الشياطين ﴿فِي ٱلۡغَيِّ﴾ في الغواية عن طريق الرشد والصواب.

ومعنى (يُمِدُّونَهم) ـ بضم الياء، وكسر الميم ـ : أن الشياطين مع إغوائهم يزيدونهم من الغواية فيسترسلون في الغواية ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ عنها بل يستمرون في الغواية، أما المتقون فهم بخلاف ذلك كله كما مر.

قال الراغب: «وأقصر عنه كفَّ مع القدرة عليه» انتهى.

﴿٢٠٣﴾ ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ هذا عائد إلى بعض إخوان الشياطين إذا تأخر نزول آية من الله قالوا في خلال مدة التأخر:

﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ أي هلاّ اجتلبتَ آية وجئتَ بها، أو إذا لم تأتهم بآية كما يطلبون لتكذيبهم بآيات الله وزعمهم أنها ليست آيات، ويريدون آية كما يقترحون كآية ثمود ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ لتاتينا بها.

قال في (لسان العرب): واجتباه: أي اصطفاه وفي الحديث: «أنه اجتباه لنفسه» أي اختاره واصطفاه. ابنُ سيده: واجتبى الشيءَ اختاره، وقوله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ قال معناه عند ثعلب: جئت بها من نفسك.

وقال الفراء: معناه: هلاّ اجتبيتها، هلاّ اختلقتها وافتعلتها من قِبَل نفسك، وهو في كلام العرب جائز أن يقول: لقد اختار لك الشيءَ واجتباه وارتجله، وقوله [عزَّ وجل]: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦] قال الزجاج: معناه وكذلك يختارك ويصطفيك، وهو مشتق من جَبَيْتُ الشيءَ، إذا أخلصته لنفسك، ومنه: جبيت الماء في الحوض، قال الأزهري: وجباية الخراج: جمعه وتحصيله مأخوذ من هذا» انتهى.

وقال في (الصحاح): «واجتباه: أي اصطفاه» انتهى.

قلت: الراجح: أنهم يقولون: ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ أي لولا اصطنعتها، وهذا يناسبه الجواب: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لا أصطنع الآيات من تلقاء نفسي ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فأبلغكم ما أمرت بإبلاغه، هذا القرآن ﴿بَصَآئِرُ﴾ آيات ودلائل تبصر بها القلوب، فهي للقلوب بصائر إلى بصائرها إما على طريق التشبيه بالبصائر لقوة البصائر بالقرآن وتنوّرها به، أو البصائر الأصلية هي العلوم العشرة والعلوم الحاصلة من القرآن زيادة في البصائر أي في

لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ

العلوم، فهي بصائر كالأصلية، فيكفيكم هذا القرآن آيةً تدل على صدق الرسول، فهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدٗى﴾ أي دلالة على طريق الخير ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ لأنه سبب للنجاة من العذاب ومخرج من الظلمات إلى النور، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم الذي يهتدون به وينالون الرحمة بسببه.

﴿٢٠٤﴾ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ وهذا مؤكد، لكونه آيةً بيِّنة من حيث أن مستمعه المنصت له متعرض لرحمة الله بأن يوفقه للإيمان، ويهديه به للتقوى التي يبلغ بها الجنة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ أي للقرآن، وهو الصوت المتلو فلا حاجة لتقدير، فاستمعوا لقراءته، وقوله تعالى: ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ أي اسكتوا مع قراءته، لا تعارضوها بكلام.

﴿٢٠٥﴾ ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ هذا الذكر بالقلب لله ولمعاني أسمائه الحسنى ﴿تَضَرُّعٗا﴾ تذللاً لله تعالى ﴿وَخِيفَةٗ﴾ منه، أي مخافة تبعث على الذكر تقرباً إلى الله جلَّ جلاله.

﴿وَ﴾ واذكر ربك ﴿دُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وهذا الذكر باللسان أمر الله به، وقد قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾

قال في (الصحاح): «جَهَر بالقول: رفع به صوته» انتهى.

قلت: الصوت قد يكون جهراً يُعْلَن لا يُخفَى عن أحد، وقد يكون سِرّاً لا يسمعه من بجنبه، وقد يكون متوسطاً بين الجهر والإسرار، فدون الجهر: يعم السر والمتوسط.

﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ قال في (الصحاح: «والغدوُّ نقيض الرَّواح - ثم قال: وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي بالغدوات، فعبَّر بالفعل عن الوقت كما يقال: آتيك طلوع الشمس، وقال: والغُدْوَة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس» انتهى، وفي هذا الوقت وفضل الذكر فيه أحاديثٌ صحيحة مشهورة.

وقال في (الصحاح) أيضاً: «والأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب» انتهى، وفي (لسان العرب): «والأصيل العشي» انتهى، وعلى هذا فهو من بعد الظهر.

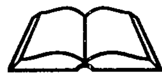
وفي (مصابيح الشرفي) عن (البرهان): «﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي بالبواكر والعشيّات، وَذَكر هذين الوقتين لفضلهما» انتهى المراد.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ الذي لا يذكرون الله إلا قليلاً، والغفلة: ضد التذكر والإنتباه، فرجوعه إلى قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ ظاهر، أما إلى قوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ﴾ فيؤخذ منه إحضار الذهن عند الذكر باللسان؛ لأن الذكر باللسان قد يكون مع الغفلة عنه وعن معناه.

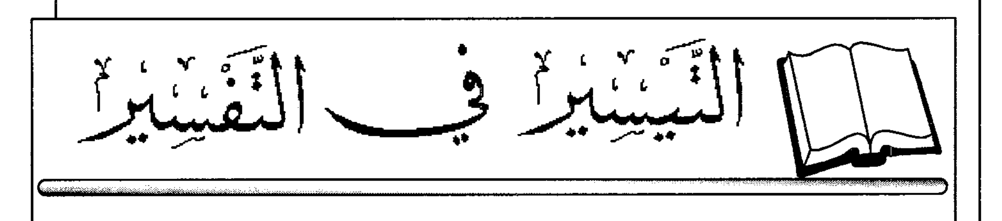
(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي إن الملائكة المقربين ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح)

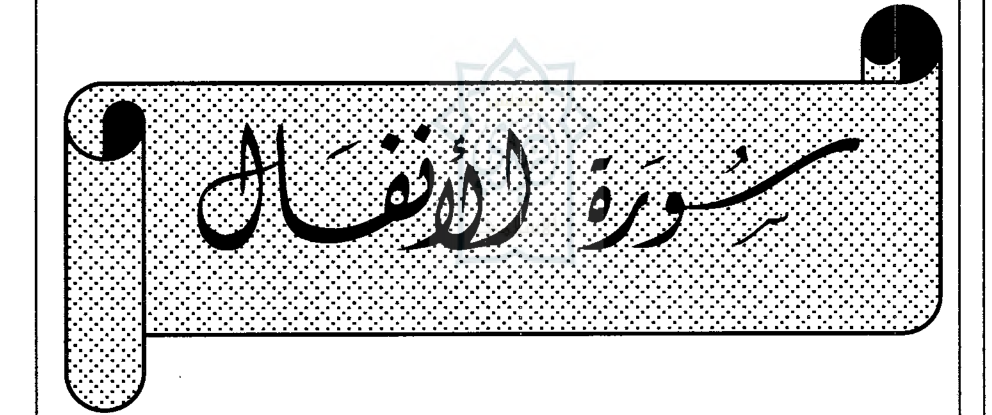
في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾: «قال في (البرهان): أي عن التسبيح له، والصلاة، والخضوع، ولا يغفلون عن طاعته في أوامره ونواهيه، ويستصغرون حالهم في طاعته وعبادته، ثم قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي ينزهونه عمَّا لا يليق به ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ أي يخضعون بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين» انتهى.

قلت: وهو تذكير للبشر بمن هو في الدين فوق المعهود من الناس؛ لأن من الحكمة أن ينظر الإنسان إلى من فوقه في الدِّين ليستصغر عمله ويستقلَّه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ حصر، فدل على أن السجود هنا هو الخضوع بالعبادة، فهم يعبدون الله وحده لا يشركون به ـ وبالله التوفيق.




التيسير في التفسير


سورة الأنفال





سُورَةُ الأَنفَالِ — ترتيبها ٨ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

تفسير (سورة الأنفال) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ ﴿الْأَنفَالِ﴾ هنا: هي الغنائم، والسائلون فيما يفيده السياق: هم من الذين مع رسول الله ﷺ، أي ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد عن حكم الغنائم لمن هي، ولعل سبب السؤال اختلافهم فيها.

﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فالغنائم يجب تسليمها إلى رسول الله ﷺ لأنها لله وله، وحبسها عنه غلول، وهذا لا ينافي أنهم يملكون أربعة أخماس الغنيمة حين يقسمها الرسول ﷺ فيهم كما أن أهل الخمس يملكونه حين يعطيهم ﷺ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فاتقوا الله أي اتقوا الله بطاعته في شأن الأنفال وغيرها، وهو ـ أيضاً ـ توطئة لبقية الآية ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ باستعمال أسباب صلاح ذات البين من التزام العدل والإحسان، واجتناب الإساءة بينكم، وتلافي ما فرط من إساءة باستحلال المظلوم والتخلص من ظلامته وتطييب نفسه.

وذاتُ البين: هي العلاقة والحالة التي بين المؤمنين، وإصلاحُها يكون كما ذكرت بالعدل والإحسان، ومن ذلك: الكلمة الطيبة، وترك الإنقباض والحمل على السلامة، ومن أعظم فساد ذات البين: ظن السوء، والأوهام المنفرة، والغيبة، والنميمة، والإحتقار، والسخريه، وغير ذلك مما نهى الله عنه في (سورة الحجرات).

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي في شأن الغنائم وغيرها، وهو قائم مقام جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين أطعتم الله ورسوله؛ لأن طاعة الله ورسوله من صفات المؤمنين المميزة لهم عن غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٧١].

﴿٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي خافت، لتذكُّرها عند ذكره ما يوقع الخوف فيها؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر راسخ في القلوب، والإيمان بالرجوع إليه يوم القيامة والسؤال والحساب والجزاء على الأعمال، والإيمان بعلم الله تعالى بكل ما يفعل العبد، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فذكر الله يسبب خوفاً أسبابه في النفس إنما يذهب عند الغفلة فإذا ارتفعت الغفلة وقع الخوف.

﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ أي إذا تليت عليهم ءايات الله التي هي ءايات القرآن زادتهم إيمانا؛ لأن القرآن وما فيه من الآيات أعظم أسباب الإيمان لدلالته على رسالة الرسول ﷺ وعلى اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب فسماعه عند تلاوته عليهم يزيدهم إيماناً إلى إيمانهم السابق.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي على ربهم وحده يتكلون في إصلاح أمرهم؛ لأنهم يعلمون أن ما كتبه الله لهم نالهم أو نالوه وأنهم لا يعدوهم ما كتب لهم ولا يعدون ما كتب لهم، والإتكال على الله هو في طاعته فيمتثلون أمر الله لا يمنعهم خوف من عدو أو خوف من فقر أو نحو ذلك، ويجتنبون ما نهى عنه لا يعصونه لخوف فقر أو غيره مما يخوفهم الشيطان.

يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ

وليس معنى هذا: أن الأعذار الشرعية لا تسقط التكليف إنما المراد ما ليس عذراً شرعياً لا يمنعهم من طاعة الله؛ لأنهم يطيعون الله ويكلون إليه أمرهم فيما يحتمل وقوعه في المستقبل؛ ولهذا يجاهدون في سبيل الله من دون أن يضمن للواحد منهم السلامة من القتل ومن دون أن يضمن لهم أن يغلبوا العدو على كل حال.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإقامة الصلوة من مميزات المؤمن عن غيره، وإقامتها إحياؤها بفعلها كاملة بفروضها، جامعة لشروطها كما أمر الله، والمحافظة عليها في أوقاتها، ولا يبعد أن من إقامتها الأذان لها والإقامة والجماعة حيث لا عذر، وذلك في حق الرجال، وقد تكرر في القرآن الدلالة على أن إقامة الصلاة من صفات المؤمن.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ مما أعطيناهم ينفقون فيما أمروا بأن ينفقوا فيه، كالجهاد في سبيل الله، والزكاة، وسائر وجوه الإنفاق الواجب.

﴿٤﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي أهل الصفات المذكورة ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أما غيرهم فليس بمؤمن وإن ادعى الإيمان، كالمنافقين، والذين في قلوبهم مرض، والأعراب الذين ادعو الإيمان ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وكل من لم تحصل فيه هذه الصفات؛ لأنها جاءت لبيان المؤمنين حقاً بعد قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما جاءت آية (التوبة) في صفات المؤمنين، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ [آية:٧١] للتمييز بينهم وبين المنافقين، وجاءت آية (الحجرات) في صفة المؤمنين في الرد على الأعراب لدعواهم الإيمان.

ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

وجاءت في (سورة النساء): ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ..﴾ الآية [آية:٦٥] في الرد على الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، فكل ذلك يدل على: أن هذا حكم الله في الفرق بين المؤمن حقاً والمدعي للإيمان دعوى، كما لا يخفى على من تفهَّم القرآن.

﴿لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿دَرَجَـٰتٌ﴾ رفع لقدرهم وتشريف وكأن ذلك قدّم؛ لأنه من أعظم المرغبات عند أهل الهمم العالية والنفوس الرفيعة، ومغفرة: فهم ناجون من العقاب وهذه الفائدة المهمة فذكرها من الترقي من مرغب إلى أعظم منه في الترغيب.

وقوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يفيد: رزقهم في الدنيا وفي الجنة، ووصف بالكرم لسلامته عما قد يقترن به الرزق في الدنيا من الهوان بسبب الحاجة إلى الرزق؛ ولاقترانه في الآخرة بالتكريم للمؤمن، وإعلامه أنه جزاء بما صبر في الدنيا وبما عمل، وعلى هذا فوصفه بالكرم لأنه يتجلى فيه كرم الرازق ويعبِّر عن كرم المرزوق ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

﴿٥﴾ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ جعل الله الأنفال لله والرسول، وصادف ذلك كراهة فريق من المؤمنين لنزعها منهم وجعلها لله والرسول، وذلك يشبِه إخراج الله لك يا محمد ﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾ للقتال خارج المدينة المنورة في (أحد) إخراجه لك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فهذا بالحق وذاك بالحق المشبه والمشبه به، وإن كان كلٌ منهما مع كراهة فريق من المؤمنين.

قال الشرفي في (المصابيح: قال الهادي ﷺ هذا إخبار من الله تبارك وتعالى بما كان من خيرته لنبيه ﷺ في خروجه إلى (أحد) وتبرّزه عن المدينة حتى كانت الحرب بـ(أحد) ولم يكن على أبواب المدينة ، فكان ذلك خيرة من الله لنبيه.

فأما قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ فقد كان رسول الله ﷺ شاورهم أين يكون قتالهم، أيرون أن نثبت حتى يأتون المدينة فنقاتلهم على دروبها أو نخرج فنقاتلهم ناحية منها، فأشاروا عليه بالقتال في المدينة فأطاعهم، ثم بدا لهم فأشاروا بالخروج فأطاعهم، فدخل منزله ولبس لأمته ثم ركب وخرج، فلما خرج قالوا: يا رسول الله ارجع على الرأي الأول إلى القتال على أبواب المدينة نثبت لهم حتى يأتونا إلى أهلنا، فقال ﷺ: «ما كان للنبي إذا لبس لامته - يعني درعه - أن يفسخها حتى يقاتل» ومضى ﷺ نحو أحد فكرهوا ذلك وجادلوه فيه وثقل عليهم الخروج إلى قريش ورجع من الطريق عبد الله ابن أبي الأنصاري في ثلاث مائة، ومضى رسول الله ﷺ وباقي الناس وفيهم من الهيبة والفرَق ما قال الله - عزَّ وجل - : ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ من لقاء القوم وحاربوهم وكان من الأمر ما كان، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ قال في (لسان العرب): «والفريق: الطائفة من الشيء المتفرق» انتهى. قلت: هي طائفة مفارقة مثل: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] ومثل: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف:٣٠].

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي الفريق المذكور يجادلونك ﴿فِي ٱلْحَقِّ﴾ في الخروج للقاء العدو لِيفتِلوك عنه إلى البقاء في المدينة ليكون القتال على أبوابها ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم الحق أنه الخروج بأمر رسول الله ﷺ حيث أفاد

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ

أنه لابدّ منه فهم في جدالهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ مع أنهم قد وعدوا بالنصر إن أطاعوا الله ورسوله فلا موجب للجدال، وقوله: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي ينظرون محل الموت وما أعد فيه لإماتتهم.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ قبل القتال في بدر ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ من العدوّ إمَّا العير وإما النفير، والعير كانوا راجعين من الشام بمال تجارة كثير على العير أي الإبل، والنفير عسكر قريش الذين نفروا من مكة للدفاع عن العير.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ فهم عسكر قريش الذي لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بـ(بدر) والطائفة الأخرى فهي العير التي أقبلت من الشام إلى مكة تحمل الطعام، فلما أن وعدهم أن يظفروا بأحدهما أحب المسلمون وودُّوا أن تكون طائفة العير والطعام الذي ليس فيها إلا الحاملين الذين لا يحاربون ولا يدافعون عنها ولا شوكة فيها، وأشفقوا من طائفة العسكر الجيش الذي فيه السلاح والخيل فأحبُّوا أن يلقوا غير هذه الطائفة فيكون أهون عليهم في المعاناة وأسلم لهم، وكان الله يريد غير ذلك من إذلال العسكر ومن فيه، وقتل أعداء نبيه، وإظهار النصرة على عدوه، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل» انتهى.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ غير ذات السلاح والخيل وهي العير، قال الشرفي رحمه الله: «وعبارة (البرهان) في معنى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي غير ذات الحرب وهي العِير،

لأن نفوسهم في لقائها أسكن، وهم إلى ما فيها من الأموال أحوج، وفي الشوكة التي كنَّى بها عن الحرب وجهان:

أحدهما: السدد (الشدة) ويكنى بها عن الحرب لما فيها من الشدة.

الثاني: أنها السلاح وشاك السلاح، فكنى بها عن الحرب لما فيها من السلاح» انتهى المراد.

وظاهر كلام الإمام الهادي عليه السلام: أن الشوكة: السلاح، وقد حكى الشرفي عن الحسين بن القاسم عليهما السلام: «أن الشوكة: هي الحد» وهذا مأخوذ من الشوكة وحدها، وهو موافق لكلام الإمام الهادي عليه السلام.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: غير ذات الحِدَّة» انتهى هكذا في (المطبوعة) والذي في (المخطوطة) بدون هاء أي تاء التأنيث؛ فلعل الأصل: غير ذات الحد.

وفي (لسان العرب): «والشوكة: شدة البأس، والحد في السلاح، ثم قال: وفي التنزيل: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ قيل: معناه: حدة السلاح، وقيل: شدة الكفاح» انتهى.

ولم يذكر في (الصحاح) إلا المعنى الحقيقي، فقال: «الشوكة واحد الشوك، وشجر شائك أي ذو شوك..» إلى قوله: «..وشوكة العقرب: إبرتها». فالراجح: أن الشوكة هي السلاح، وتستعمل بمعنى القوة بالسلاح، ولازم خوف السلاح خوف الحرب بالسلاح، فصح تفسير خوف الشوكة بخوف الحرب على هذا المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يثبت الحق ويقره في الأرض ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وهي آيات الكتاب وما أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بكلماته المحاولين لإبطالها بالقوة والشوكة، وقطع الدبر

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ

كناية عن الهلاك الذي لا يبقي منهم كافراً وذلك بإذلال ذات الشوكة، وقتل بعضهم أوّلاً، ثم بفتح مكة آخراً، وبما بينهما من قتل الكفار، والمراد: ويقطع دابرهم أي الطائفتين لكفرهم، فأقيم الظاهر مقام المضمر.

﴿٨﴾ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ليثبت الحق في الأرض، أي يقطع دابر الكافرين ليحق الحق ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يزهقه ويذهبه، ويحتمل يحق الحق: يقضى فيه بما يليق به؛ لأنه الحق ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ يقضي فيه بما يليق به من حيث أنه الباطل أي قضى قضاء جعل به الحق حقاً وجعل الباطل باطلاً، وهو جعل الحكم التكويني بنصر الحق وإذلال الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي أنه أمر غالب قاهر للمجرمين لا يستطيعون رده لأجل كراهتهم له، والمجرمون المذنبون والمراد به هنا أعداء رسول الله ﷺ ونصره عليهم يوم بدر وبعده.

﴿٩﴾ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ اذكر إذ تستغيثون أي ببدر تطلبون ربكم أن يغيثكم يدفع العدو وينقذكم من بأسه بنصركم عليه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ﴿مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ﴾ جاعل لكم مدداً أي زيارة في الجند من الملائكة ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بآخرين من الملائكة فعلى قراءة (فتح الدال): متبعين بلا تراخٍ، وعلى قراءة (كسر الدال): مردِفين لآخرين، أي جاعلين لهم رادفين لهم من غير الألف المذكور، ولو كان المراد ترادف الألف بعضه لبعض لقيل: مترادفين.

وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ أي الإمداد بالملائكة ما جعله الله إلا بشرى لكم تستبشرون به، وينكشف عنكم الغم من كثرة الأعداء وقوتهم مع قتلكم وقلة عدتكم ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ﴾: يذهب عن قلوبكم القلق والإضطراب بهذا الإمداد.

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من وجود الملائكة فيكم أولا من الملائكة؛ لأن الله تعالى هو الذي يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، ويربط على قلوب المؤمنين، ويهيىء أسباب انتصار المؤمنين بعلمه وقدرته وبعزته وحكمته؛ لأن من العزة نصر دينه، ومن الحكمة ـ أيضاً ـ نصر دينه مع ابتلاء المؤمنين بالجهاد وصبرهم عليه.

﴿١١﴾ ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾ في هذه الآية ذكر بعض أسباب النصر فمنها: أن الله تعالى أغشاهم النعاس أي أرسله عليهم، والنعاس نوم قليل متقطع؛ لأنه يتخلله انتباه ﴿أَمَنَةً﴾ أماناً من الله، فجعل النعاس أماناً لهم، وانتصاب ﴿أَمَنَةً﴾ على الحال، أي حال كون النعاس أمنة كائنة من الله، أي سبباً منه لأمان في قلوبكم.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً لأربع فوائد:

الأولى: أفادها قوله تعالى: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من النجاسات ومن الجنابة إن كانت وبالوضوء، وينظفكم به من أثر السفر لما يكون فيه من العرق والغبار.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وهذه الفائدة *الثانية*: إذهاب وسواس الشيطان القذر؛ لما فيه من التخويف من العدو وسبقهم إلى الماء، والتذكير بقوة العدو وقلتكم مع أنه كان العدو سبق إلى الماء قبل نزول المطر.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ يشجعكم ويمنع قلوبكم من أن تضطرب، وذلك لثقتكم بالماء للشرب وغيره، واستغنائكم عن الماء الذي كان الكفار قد سبقوا إليه، وهذه الفائدة *الثالثة*؛ ولعل في برد المطر سبباً للإحساس بالقوة والنشاط وزوال التعب فيكون بذلك من التشجيع.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي يثبت بالماء النازل عليكم أقدامكم، وثبات الأقدام يحتاجه المقاتلون؛ لأن من زلَّت قدمه ضعف وكان ذلك فرصة للعدو فأما إذا سقط فذلك أشد عليه، وانظر الدعاء بثبات الأقدام في (سورة البقرة) و(سورة آل عمران) وهذه الفائدة *الرابعة* من فوائد ذلك المطر.

وفي (مصابيح الشرفي) رحمه الله: «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: أنه قال في تثبيت الأقدام: وذلك أن المطر إذا وقع بالأرض اللينة اشتدت والتأم بعضها إلى بعض وقويت واستمسكت بها الحوافر والأقدام» انتهى المراد.

﴿١٢﴾ ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾: في إعانة المؤمنين ليعلم الملائكة فضل ذلك العمل، وأنه يقربهم إلى الله ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للتثبيت طريقتان:

الأولى: تثبيتهم بالتشجيع، ليثبتوا في مواقعهم ولا يرجعوا عن القتال.

الثانية: إمساك المقاتل ليبقى قائماً لا يسقط مع مصاولة العدو، وهذا تثبيته بتثبيت قدمه وإمساكه قائماً.

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ بشرى للملائكة بنصر المؤمنين، و﴿الرُّعْبَ﴾ قال في (لسان العرب): «الرُّعب، والرَّعب: الفزع والخوف» انتهى المراد.

وقال تعالى: ﴿سَأُلْقِي﴾ وفي (سورة الحشر): ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [آية:٢] وذلك تصوير للرعب، كأنه جسم يلقى ويقذف في القلب، وذلك لإفادة سهولته على الله، أو لإفادة شغل قلوبهم به.

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي قد أمكن الله منهم بتثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، فهيأ لكم أن تضربوا ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وفوق العنق: هو المفصل بينه وبين الجمجمة، وفي هذا تعليم للمجاهد ليتحرى ذلك المفصل فهو أيسر لقطع الرأس، وهيأ لكم أن تضربوا من الكفار ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ وهذا يتفق مع فشلهم واتقائهم للسيوف بأيديهم بغير روية فتقطع بنانهم.

والأمر هنا ﴿فَاضْرِبُوا﴾ واضربوا عبارة عن تسليط المؤمنين على الكفار وإغرائهم بضربهم بالسيوف؛ وذلك لأن هذا الأمر واقع في حكاية قصة المعركة، والخطاب هنا راجع إلى النبي ﷺ لذكره في أول الآية أي أنت ومن معك، وهذا هو المناسب لتفريع (فاضربوا) على تثبيت الذين آمنوا وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، ولو كان الأمر للملائكة ما تفرع على ذلك.

وقد قالوا في تفسير قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ [آل عمران:١٦٥] قتل المؤمنين للكفار في بدر سبعين منهم، ولو كان الملائكة أمروا بضرب فوق الأعناق ما أبقوا أحداً إلا ضربوا فوق عنقه؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم وذلك يستلزم أن المؤمنين لم يقتلوا السبعين من الكفار، فظهر: أن الخطاب بقوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا﴾ للنبي ﷺ ومن معه.

بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا

﴿١٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ذلك المذكور في الآية قبل هذه بأنهم أي الكفار شاقوا الله ورسوله: عادوا الله ورسوله وباينوه، وقد دل على أن محاربة دين الله محاربةٌ لله، كما أن نصر دين الله نصر لله، وذكر الرسول هنا في الموضعين لتأكيد الزجر عن معاداته والدلالة على أنها سبب للعقاب، وفي (سورة الحشر): ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آية:٤] للدلالة على أن العقاب على مشاقة الرسول ﷺ بسبب أنها مشاقة لله تعالى.

فقام قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:٤] مقام قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ..﴾ إلخ، وقام قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مقام قوله: يعاقبه عقاباً شديداً، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تأكيد شديد من حيث دل على أن ذلك صفة له، وأن ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ اسم من أسمائه الحسنى؛ وذلك لأنه من شأنه لعزته وحكمته، بدليل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] وعلى هذا فقد أعد للمشاقين عذاب النار مع ما أصابهم ببدر، وفي ذلك قوله تعالى:

﴿١٤﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب للكفار ﴿فَذُوقُوهُ﴾ الأمر ذلكم ﴿فَذُوقُوهُ﴾ فأنتم مستحقون له بما أجرمتم، وهذا تعبير غضب من الله عليهم، ودلالة على أنه يريد ذلك فيهم لاستحقاقهم له، وهو تصوير لحالهم في المعركة من حيث هم في حالها في غضب الله وعذابه بأيدي المؤمنين، والأمر هنا كالأمر في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا﴾.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ

﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ عطف على ذلكم، أي أمركم ذلكم ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ كلّهم وأنتم منهم، فكأنه قيل: أمركم ذلكم وأن لكم عذابَ النار.

﴿١٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «والزحف: الدنوّ قليلاً قليلاً، وهو الجيش يرى لكثرته، كأنه يزحف أي يدبّ من زحف الصبي على إسته دبّ» انتهى.

وكأنه حكاية عن الزجّاج، ونحوه في (لسان العرب) بعضه عن الزجاج وبعضه عن الأزهري، فالمعنى: إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم جيشاً زاحفاً إليكم متقدماً إليكم لقتالكم فلا تفروا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ كناية عن النهي عن الفرار ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ﴾ فلا تجعلوا أدباركم متجهة إليهم، مثل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤] والأدبار: جمع دبر، وهو القفا أي الخلف، قال الراغب: «دبر الشيء: خلاف القُبُل وكنّيَ بهما عن العضوين المخصوصين» انتهى.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم لقاء الكفار زحفاً، يولهم ﴿دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ﴿مُتَحَرِّفٗا﴾ عن المكان الذي لقي الكفار فيه إلى مكان آخر ﴿لِّقِتَالٍ﴾ أي ليقاتل في طرف آخر، وذلك لأن المكان الآخر أنسب له للقتال ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا﴾ منظماً إلى فئة ليقاتل معهم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١٧ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ﴾

قال الراغب: «والفئة: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد، قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾» انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): لقوله الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ..﴾ الآية [البقرة:٢٤٩] «فالفئة: الجماعة» انتهى المراد.

وفي (الكشاف): «﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين» انتهى المراد، وكذلك قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾: «إذا حاربتم جماعة من الكفار» انتهى.

﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ﴾ رجع متحملاً غضباً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عليه، باء مغضوباً عليه ﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾ ومصيره الذي ينضم إليه ﴿جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وتعريف المأوى يفيد: أن لا مأوى له غيره، فهو يفيد: الخلود في جهنم، وهذا وعيد للمسلم إذا فر من الزحف.

۝١٧ ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ بـ(بدر) ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ﴾ أي لم تقتلوهم بقوتكم؛ لأنكم كنتم قليلاً، وعدَّتكم دون عدتهم، فلولا الله هيأ لكم أسباب القتل لهم لما قتلتموهم، فالله قتلهم بأيديكم، كقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة:١٤] فالنفي في قوله تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ مجاز، كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بِمَيْت　　　إنما الْمَيْت ميِّت الأحياء

﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ الحصباء إلى وجوه العدو فكان لها الأثرُ العظيم في هزيمتهم، فالرمية كلا رمية بالنسبة إلى العادة، ولكن الله جعلها سبباً لما حصل منها من الأثر في الكفار، فكانت رمية

شـديدة بصـنع الله فيهـا، فـالنفي مجـاز كمـا في ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ وهـو هنـا أوضح؛ لأن الله قد قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبتها ولا تنـاقض لاخـتلاف معنـى النفي والإثبا، كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بِمَيْت ...

ولعل ما ذكرت في تفسير ﴿مَا رَمَيْتَ﴾ هو مراد القاسم عليه السلام، حيث قال ـ كما حكاه الشرفي في (المصابيح) ـ: «معناه: ما رميت في قلـوبهم بالرعـب، ولكـن الله رمـى بـه في قلـوبهم، أي أن الرعـب الـذي كـان عنـدما رميـت الحصباء لم يكن أثراً عادياً، وإنما هو صنع الله في الرمية جعلها سـبباً، فـالنفي والإثبات اختلف معناهما».

قال الشرفي: وقال ولده محمد بن القاسم عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رمـى في وجوههم بكفّ من حصى، ففرق الله ذلك التراب حتى أصاب أعيـانهم، وكان ذلك من الله ـ عزَّ وجل ـ» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معنـاه: أن الله هـو الـذي أيّـدك ونصرك» انتهى، وهذا مثل تفسير الإمام القاسم ذكر فيه حاصل المعنى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: فكان هذا إخبار مـن الله عزّ وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم [و] للمؤمنين بما كان مـن نعمتـه علـيهم في تكـثير قبضـة الحصى التي رَمَى بها رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتـى انتشـرت تلـك القبضـة وكثـرت فوقعت في أعين جميع أهل الكفر، فعمّتهم على كثرتهم، وتباعـد بعضـهم مـن بعض، فلم يبق منهم رجل بعُدَ ولا قَرُب حتى ملت تلك القبضة عينيه، فوقـع الرعب عند وقوعهـا بهـم في قلـوبهم فظفـر المؤمنـون عنـد ذلـك بأعـداء الله فكانت هذه الرمْيَة من محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتكثير لها مع إيقاعها في أعينهم سـبباً كـان

من الله سبحانه أذلَّ به الكفر والطغيان، وأعزّ به أهل الفضل والإيمان، ولم يكن لينال محمد ﷺ بالقبضة التي رمى بها ما نال إلا بفضل الله وتأييده الذي جعله في قبضته التراب حتى بلغت من النكاية لأعداء الله ما كان سبباً لهلاكهم فالحمد لله المعزّ لأوليائه أهل الحمد والتحميد والتوحيد حمد من آمن به واتقاه وآثر في الأمور كلها رضاه» انتهى.

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ في (لسان العرب): «ويقال: أبلاه الله يبليه إبلاءً حسناً، إذا صنع به صُنعاً جميلاً، وبلاه الله وابتلاه اختبره، ثم قال: قال القتيبي: يقال: من الخير أبليته إبلاء، ومن الشر بلوته أبلوه بلاءً، قال: [أي القتيبي] والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معاً من غير فرق بين فعليهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]» انتهى.

قلت: الراجح: أن المتعدي بالهمزة خاص بالخير بمعنى الإنعام، وغير المتعدي بها مشترك بين الخير والشر بمعنى الإختبار، قال في (لسان العرب): قال ابن بري: والبلاء: الإنعام، قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان:٣٣] أي إنعام بيّن، وفي الحديث: «من أُبْليَ فذكر فقد شكر» الإبلاء: الإنعام والإحسان، يقال: بلوت الرجل وأبليت عنده بلاءً حسناً، وفي حديث كعب بن مالك: «ما علمت أحداً أبلاه الله أحسن مما أبلاني» والبلاء الاسم ممدود، يقال: أبلاه الله بلاءً حسناً وأبليته معروفاً.

قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يَبْلُو

أي صنع بهما خير الصنع الذي يبلو به عباده» انتهى المراد، فالمعنى: وليعطي المؤمنين عطاءً حسناً، أو نحو ذلك.

ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ فقد سمع استغاثتهم وعلم صبرهم وصدق نياتهم وأنهم أهل للإبلاء الحسن.

﴿١٨﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أمركم ذلكم البلاء الحسن والنصر على أعدائكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿مُوهِنُ﴾ الوهن: ضد الصلابة و ﴿كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ما يعملونه ضد الإسلام والمسلمين من الاحتيال لقهر المسلمين وإبطال الإسلام فأمر المسلمين البلاء الحسن بنصرهم، وأمرهم أيضاً توهين كيد الكافرين، ويحتمل الأمر نصر أولياء الله وإيهان أعداء الله فإيهان أعداء الله الكفار مقصود مستقل، وهذا أظهر، فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي الأمر والشأن ذلكم البلاء الحسن أن الله بقدرته وحكمته موهن كيد الكافرين لكفرهم؛ ليطهر الأرض من فسادهم.

﴿١٩﴾ ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾ خطاب للكفار يروى أنهم دعوا الله أن يحكم بينهم وبين المؤمنين. إن تطلبوا الفتح فقد جاءكم ﴿ٱلۡفَتۡحُ﴾ القضاء الذي هو إعزاز المؤمنين وإذلالكم.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن محاربة الرسول والمؤمنين ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ لأنهم منصورون وأنتم مخذولون ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لقتالهم ﴿نَعُدۡ﴾ لنصرهم وخذلانكم.

﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ ﴿فِئَتُكُمۡ﴾: جماعتكم ﴿ولو كثرت﴾، لن تغني عنكم شيئاً: لن تكفيكم بأس المؤمنين المنصورين أي لن تدفع عنكم شيئاً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولأن الله مع المؤمنين فهو ناصرهم ومذل من حاربهم.

وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم

﴿٢٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ عن الرسول ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أمر الله بطاعته واتباعه، وتسمعون القرآن الذي أنزله الله عليه مصدقاً لـه وتسمعون ما وعظكم الله به في كتابه، وهذا تأكيد لوجوب اتباع الرسول ﷺ ليأتمروا بأمره في كل شيء من الجهاد وغيره، والتأكيد لأن بعض التكاليف شاقة يحتاجون ليطيعوا ويصبروا عليها إلى تأكيد في الحث عليها ومبالغة، وكان كثير ممن قد أسلم مظنة المخالفة بمثل ما وقع منهم يوم أحد، وما وقع من بعضهم من التخلف عن الجهاد.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا تكونوا كالمنافقين الذين زعموا أنهم يطيعون الله ورسوله ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يقبلون كلام الرسول ﷺ وإنما هم مراءون، فهذه الآية كقوله تعالى: **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾** [الحشر:١٩].

﴿٢٢﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهم المخذولون الذين لا تنفع فيهم الآيات والنذر فكأنهم صم لكراهتهم سماع الحق وإعراضهم بقلوبهم عنه، والبكم تشبيه بالذين لا يستطيعون النطق، فقد شبه المنافقين بهم في (سورة البقرة) وذلك لكراهتهم النطق بالحق كأنهم لا يستطيعون الكلام وإنما أظهروا الإسلام، فقالوا: سمعنا خوفا من الرسول ﷺ ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنهم أهملوا عقولهم، وتركوا النظر والتفكر والتدبر لآيات الله فكأنهم لا يعقلون، فهم شر الدواب **﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾** [الفرقان:٤٤].

مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ بأن لطف بهم وهداهم لاستماع أمر الله ورسوله، والخير هنا حسن النية ولكنهم لا ينوون الخير ولا يريدونه ﴿وَ﴾ لذلك ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾: وهذا يدل على أنهم قد بلغوا في البعد عن امتثال أمر الله ورسوله إلى حدٍ لا يطيعون ولو سمعوا ما يقول لإعراض قلوبهم عنه وكراهتهم له.

﴿٢٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أجيبوا دعوة الرسول ﷺ إجابة امتثال وطاعة وقبول لدعوته بالعمل لا مجرد القول، وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ لأن الإستجابه للرسول ﷺ إستجابة لله ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ﴿إِذَا﴾هي ظرفية بمعنى حين يدعوكم، أي أنه يدعوكم لما يحييكم فسارعوا إلى إجابته ولا تتأخروا، فحين يدعوكم أجيبوا فوراً، وحياة الأفراد حياة القلوب التي تحصل بالإيمان والطاعة والزهد في الدنيا والرغبة في طاعة الله، وحياة المجتمع عزه ونصره وانتظام أمره بالتوحُّد، وطاعة القائد في طاعة الله وجعل أمر الله فوق كل أمر وحُكْمه فوق كل حكم، وذلك يتوقف على حياة القلوب.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ هذا تحذير من الخذلان الذي يكون بسبب العصيان، فهو كقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣]

أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم

فالخذلان يؤدي إلى فوات الانتفاع بالقلب في طريق الخير والهدى لإصراره على الباطل وتوجهه إليه وكراهته للحق، كما مر في قوله تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الأنعام:١١٠] فهذه من المتشابه، وقد تكرر نظيرها في (سورة الأنعام).

وقد بيَّنَّا أن ذلك راجع إلى الخذلان وترك الشياطين يزينون له الباطل ويكرِّهون إليه طريق الخير بوسواسهم ومع ذلك بسط النعمة والإملاء، وذلك حق من الله لاستحقاق العاصي المتمرد المصر بعد وضوح الحق له، وفائدة نسبة ذلك إلى الله تعالى الدلالة على أنه غني مع التحذير من معصيته التي تؤدي إلى الخذلان، الذي يترتب عليه فساد القلب وبُعْدُه عن الحق، وقد مرَّ نحو هذا في (سورة الأنعام) فراجعه إن شئت.

﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّهُۥٓ﴾ أن الله ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إليه وحده تحشرون ليجزيكم بما أسلفتم فاحذروا ترك الإستجابة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ تصيب بعضكم بسبب تركهم الإستجابه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كقوله تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾ [النور:٦٣].

﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾: هم من بين المؤمنين ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نهيٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿**لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾ [الأعراف:٢٧] أي لا تتعرضوا لها فتصيب من سبب لها وحده دون سائر المؤمنين، والفتنة: ابتلاء كابتلاء أصحاب السبت بالحوت، قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ [الأعراف:١٦٣] فهي أمر يصعب على العاصي امتثاله، وقد لا يصعب على المؤمن كما يصعب على العاصي؛ لأن المؤمن يستسهل الصعب

مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ

في طاعة الله؛ لأنه يرى الطاعة أهون من العذاب وأهون من فوات الجنة، يرى الطاعة أهون من غضب الله وفوات رحمته ورضوانه، فقد استلان ما استوعره المترفون؛ لأنه عوّد نفسه الطاعة وسيطر على نفسه، والفاجر عوّد نفسه اتباع هوى نفسه وسيطرة نفسه عليه، فكان بعض التكاليف فتنةً له ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي ألاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فطاعته فيما شق على النفس وكَرِهته أهون من عقاب الله بكثير؛ لأن عقاب الله جهنم التي ليس لله فيها رحمة نعوذ بالله منها.

﴿٢٦﴾ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٌ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ أي ﴿ٱذۡكُرُوٓاْ﴾ نعمة الله عليكم فلا تقابلوها بالعصيان، فاذكروا حين كنتم قليلاً يراكم أعداؤكم ضعفاء، فهم جريئون على قتالكم لأنهم يستضعفونكم لقلَّتكم، ولما أنتم عليه من الفقر وقلَّة العُدة من الخيل وغيرها، فأنتم في تلك الحال ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ الكفار من كل جانب لكثرتهم، فهناك مشركوا قريش ومن حولهم، وهناك كفار أهل الكتابين، وهناك الدولتان العظيمتان كسرى وقيصر، فأنتم تخافون أن يأخذوكم بسرعة لاقتدارهم وضعفكم فجعل أخذ الناس لهم من كل جانب تخطفاً لسرعته لو وقع وذلك لسرعته مع كثرة الأعداء وقوتهم وقلتكم وضعفكم.

وذلك يدل على توكل رسول الله ﷺ والمؤمنين الصادقين في إيمانهم، ويدل على أنهم كانوا في شدة ففرجها الله عنهم بأن آواهم: جعل لهم مأوى ودار إيمان هي المدينة المنورة التي كانت إليها الهجرة.

و(أيّدهم): أي قوّاهم بنصره، فعزوا بعد الذلة التي هي الضعف، والقلة في حال كثرة الأعداء وقوتهم وجرأتهم على المؤمنين.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فأغناكم عن العيش في دياركم وأموالكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ تعريضاً لكم على شكر هذه النعم العظيمة، فكيف تقابلون أنعمه عليكم بمعصية رسوله، وهذا تأكيد لحثهم على طاعة الرسول في كل شيء؛ ولعل ذلك لأنهم يستقبلون مشاق الجهاد وحالات، رغبة تدعو إلى معصية الرسول ورهبةٍ كذلك فقبْلَهم يوم (الخندق) ويوم (الأحزاب) ويوم (مؤتة) ويوم (خيبر) ويوم (حنين) فيظهر: أن هذه التأكيدات المتظاهرة من أجل ما يستقبلون لا لمجرد الخلاف على الغنيمة يوم بدر.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الخيانة لله ورسوله: مخالفة ما يظهرونه من الالتزام بطاعة الله ورسوله والنصح لله ورسوله إلى خلافه، وذلك يكون بصور:

منها: موادّة الكفار سرّاً.

ومنها: وعدهم بالكون معهم سراً أو بتخذيل المؤمنين أو بخذلان المؤمنين.

ومنها: التناجي بمعصية الرسول في الخفاء.

ومنها: الإرجاف بهجوم الكفار وكثرتهم وقوتهم.

ومنها: التخلف عن الجهاد عقيب إظهار العزم والوعد به، كما رجع بعضهم يوم أحد من الطريق.

ومنها: كتمان ما يجب إبلاغ الرسول ﷺ ومَن معه ليحذروه.

ومنها: الغلول.

وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو

وكلُّ خيانة للرسول ﷺ فهي خيانة لله تعالى؛ ولعل ذلك سبب قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ أي لا تخونوه بخيانة الرسول ﷺ وذلك لأن السر والعلانية سواء عند الله، فمن أخفى منه كمن جاهر، ومن وعد ثم أخلف كمن أعلن بالخلاف من قبل، ولا تكاد تتصور خيانة لله حقيقية، فظهر أن المعنى لا تخونوا الله بخيانة الرسول ﷺ.

ويمكن أن يدخل في خيانة الله ما صورته الخيانة له، لكنه مجاز كإفطار الصائم خفية، والصلاة بعد انتقاض الوضوء بما يخفى، وترك غسل النجاسة التي لم يعلم بها الناس، و ترك الغسل من الإحتلام، والرئاء في العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ أي لا تخونوا فيما ائتمنتم عليه من وديعة أو جوار أو صحبة في طريق أو قرض أو وصية أو رسالة أو مشورة أو مجلس قيل فيه سر ائتماناً للحاضر وغير ذلك ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك معصية لله تعالى، وتعلمون وعده ووعيده وما يوجب اجتناب الخيانة من فوائد الطاعة ومضار المعصية.

﴿٢٨﴾ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء أي اختبار، فالمؤمن يطيع الله ولا يعصيه ولا يخون الله ورسوله من أجل مال ولا ولد، لأنه يعلم أنهم فتنة له ويعلم أن الله عنده أجر عظيم خير من الأموال والأولاد، ويخشى الله ويتقيه فلا يخونه لحماية مال أو ولد، بل يطيع الله وينصح له ويتوكل عليه في شأن المال والولد، والفاجر بخلاف ذلك يغلبه حب المال أو الولد؛ ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الفجار».

ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ

ولعل بعض العامة قد فتنوا بالمال ففسدت نياتهم في معاونة أهل الدين في حال إظهارهم أنهم مازالوا معهم، وذلك من خيانة الله ورسوله، وصَدَق أمير المؤمنين عليه السلام: «المال يعسوب الفجار» وحقيقة اليعسوب: أمير النحل الذي تتبعه أينما كان أي ما يسمى (أبو النُّوب) والنُّوب اسم عربي.

﴿٢٩﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هذا من جملة الحث على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والترغيب في تقوى الله ليستعد المؤمنون لها تمام الاستعداد، إن تتقوا الله كما أمرتم في الآيات الماضية، فتتقوا الفرار من الزحف، وتستجيبوا لله ورسوله إذا دعاكم لما يحييكم، وتجتنبوا الخيانة لله ورسوله، وتطيعوا الله كما أمرتم، فإنه سبحانه ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ يفرق بين حالكم اليوم وحالكم في المستقبل حين تقومون بواجبكم في طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، كما وعد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

فمن الفرقان: إظهار دينهم على الدين كله، وأمنهم بعد الخوف وتمكينهم في الأرض، ورزقهم، وكشف الشدة عنهم، ومن الفرقان: زيادتهم هدى إلى هداهم وعلماً إلى علمهم بما يتنزل من القرآن وسائر الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الفرقان: تنوير قلوبهم وتقوية بصائرهم بحيث يتبين الفرق بسبب صبرهم وجهادهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] فيزدادون فهماً لكلام الله ورسوله.

ومن الفرقان: جودة الرأي والتدبير بما يحصل لهم من ممارسة الحرب ومقاومة أعداء الله، ومن الفرقان: القوة على تحمل الشدائد بسبب تعود ذلك والتمرن عليه، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

فبذلك كله يحصل لهم الفرقان بين حالتهم يوم نزول هذه الآية، وحالتهم يوم يعطيهم الله ما وعدهم من الفرقان، وليس يتوقف كله على التقوى والاستمرار عليها طول حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل كلما ازدادوا ثباتاً على التقوى حصل لهم فرقانٌ، أي نوعُ فرقانٍ، وعلى هذا فقد كان عصيانهم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن إنفاذ جيش أسامة ممن تحتم عليهم الوجوب كانت المعصية سبباً لفوات بعض الفرقان.

وقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فذلك فيما تقدم قبل التقوى، وفي الصغائر التي لا تنافي التقوى، وهي عندنا الخطأ والنسيان والمكره عليه فيما قد أمكن التحفظ منه، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ زيادة ترغيب في التقوى؛ لأنها سبب لفضل الله وفي الآخرة بمضاعفة الحسنات والتفضُّل العظيم.

(٣٠) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ واذكر إذ يمكر، ففيه عبرة لك؛ لأن الله حفظك وسلمك من مكرهم،، ومكرُهم هذا تآمرهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: ليقيدوك» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وذلك أن قريشاً تآمروا في دار الندوة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال هشام بن عمر[و]: قيدوه واحبسوه في

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ

بيت تتربصون به ريب المنون، وقال أبو البختري: أخرجوه عنكم على بعير مطروداً تستريحون من أذاه لكم، وقال أبو جهل: ما هذا برأي، و لكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كل قبيلة رجل فيضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد فيرضى حينئذ بنو هاشم بالدية، فأوحى الله ـ عزَّ وجل ـ إلى نبيه بذلك، فخرج إلى الغار ثم خرج مهاجراً إلى المدينة» انتهى.

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ أي مكراً غير ذلك، فلم ينالوا ما أمَّلوا بل ﴿يَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ بهم حين يمكرون، فهو يملي لهم ويهيئ لهم أسباب الهلكة والكبت حتى قُتِلوا ببدر وغيرها وأذلَّهم الله ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ لأن مكره عدل وإحسان مع الإعذار والإنذار وإيضاح الحجة.

﴿٣١﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قولهم: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ تقدمةٌ لقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ أي أنهم قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد سماعهم له ومعرفتهم له، وهم كاذبون فإنهم لا يأتون بمثله ولو استطاعوا لكان ذلك أيسر من محاولة حبسه أو طرده أو قتله وأيسر من قتاله ببدر وأحد وحنين، وتحمل المشقة يوم الأحزاب.

وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كذب وتكذيب وإعجازه لهم يكذبهم، والأساطير: جمع أسطورة وهي ما سطر من القصص.

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ أي واذكر إذ ﴿قَالُوا۟﴾ أي

ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا

الذين كفروا: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أي يا الله ﴿إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي القرآن، أو إرسال محمد ﷺ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً..﴾ يريدون بذلك الصدّ عنه ودعوى أنهم يعلمون أنه باطل؛ لأنهم لا يدعون على أنفسهم بزعمهم إلا وقد علموا أنه ليس الحق، وهذا لشدة حرصهم على إبطال أمره وتكذيب ما جاء به من الآيات.

﴿٣٣﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لأن الرسول ﷺ أرسله الله نذيراً لهم، ومعاجلتهم بالعذاب تبطل فائدة بقاء الرسول فيهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فمن علم الله أنه يتوب لا يعاجله بالعذاب، وهذا يشير إلى أن فيهم من يتوب.

﴿٣٤﴾ ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فهم مستحقون للعذاب، إنما يؤخره الله عن وقت طلبهم له لحكمةٍ في التأخير، وصدُّهم عن المسجد الحرام منعُهم لرسول الله ﷺ حيث اضطروه إلى الخروج من مكة وأخافوه في الحرم.

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانُوٓا۟﴾ أي وما كان الكفار أولياءَ المسجد الحرام، إن أولياءُ المسجد الحرام أي ما أولياء المسجد الحرام ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وفي هذا دلالة على أن الظلمة لا ولاية لهم على الأمة الإسلامية؛ لأنهم لا يصلحون لولاية المسجد الحرام، فكيف يصلحون لولاية المساجد كلها، والمدارس والمصالح الدينية كلها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أكثر الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قد غلب عليهم الجهل والبعد عن فهم الحق.

كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ

﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فكيف يكونون أولياءَ البيت وما دينهم إلا لعب ﴿مُكَآءً﴾ أي صفيراً ونحوه.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالمكاء: الصوت والصفير، والصوت يصفر كما يصفر المُكَّاءُ وهو طائر، والتصدية: التصفيق بالأكفّ» انتهى.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ببدر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا بَعْد خروج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مكة وهجرته، فبطل أمانهم بقوله: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وهو - أيضاً - في كفار لا يستغفرون؛ لأنهم قد خُذِلوا فما كانوا ليؤمنوا، ففاتهم الأمان الثاني، وقد كان ما نزل بهم في بدر عذاباً؛ لأنه جمع القتل والإهانة مع الكبر المتأصل في صدورهم والإغاظة لشدة عدواتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فغاظهم القتل والأسر والهزيمة والإذلال، وهذا عذاب عاجل ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٧].

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كما أنفقوا يوم بدر ليقاتلوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم محاربة لدين الله ليصدوا الناس عن اتباعه.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ في المستقبل كما أنفقوها يوم بدر ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ لحبهم المال

بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ

مع ظنهم خيبة الأمل حين يرون النبي ﷺ يزداد قوة وأنصاراً ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وذلك يوم فتح مكة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ فعاقبتهم الخسران المبين والشقوة الدائمة.

﴿٣٧﴾ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ هذه حجة لإثبات الحشر إلى جهنم، وهي أن الله بحكمته يميز بين المسلم والمجرم، بين المؤمن والفاسق، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾ وهذا إشارة إلى كثرة أهل النار، فالله بعزته وحكمته يجعل بعضهم على بعض ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ لكثرته وتزاحمه حتى يكون ركاماً مجموعين بلا تخلل بل بعضهم مضموم إلى بعض، كما تركم الأدوات في المكان الضيق؛ ولعل هذا بعد سَوقهم إلى جهنم يحشرون حولها بهذا الشكل إهانةً لهم وتنزيلاً لهم منزلة الجمادات المركومة، فأولاً ميزهم من بين المؤمنين بسوقهم من محل الجمع، فجمعهم حول جهنم، فجعلهم في جهنم؛ لأنهم جنس خبيث.

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الخاسرون الخسارة العظمى، فاتهم كلُّ خير وصاروا في عذاب دائم.

﴿٣٨﴾ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ هذا دفع لتوهم الكفار من قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أنها لا تقبل لهم توبة في الدنيا، فإنهم إن ينتهوا عما نهى الله عنه مما هم عليه من الباطل بأن يسلموا ويؤمنوا يغفر لهم ما قد سلف منهم من الشرك وغيره.

ويحتمل: إن ينتهوا عن محاربة الرسول ﷺ يغفر لهم في الدنيا ما قد سلف، أي لا يُعاجَلون فيها بهلاك أو عذاب من أجل ما قد سلف منهم إمهالاً لهم لِيَنظروا حين يرون إظهار الله لدينه، وهذا مغفرة كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ..﴾ الآية [الكهف:٥٨] وهذا أقرب.

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ لإصرارهم على باطلهم إلى قتال الرسول ﷺ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بإهلاك الكفار المقاتلين لأنبيائهم، فلن تجد لسنة الله تبديلا، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥] فلا بد من هلاكهم إن لم يتوبوا وإن اختلفت مدتهم، فبعضهم ببدر وبعضهم في أحد، وبعضهم في الخندق، وبعضهم في حنين، وبعضهم يوم الفتح، وبعضهم فيما بين ذلك، أو ما بعده عقاباً عاجلاً في الدنيا لكل بما يستحق من التعجيل.

وفي هذه الآية على ما ترجح من تفسير ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ دلالة على أن الحرب في أول الإسلام كانت دفاعية حتى نزلت (براءة) ولم يبق من المشركين إلا متمردٌ عدوٌ للإسلام، وقد عرف الحق أو معرض عن النظر متمرد في إعراضه عدو للإسلام أيضاً، فنزل الأمر بالقتال بقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ..﴾ الآية [التوبة:٣-٥] فهي ثلاث مراحل:

مرحلة الكف عن القتال وهي بمكة وأول الهجرة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ..﴾ الآية [النساء:٧٧] **ومرحلة** القتال للدفاع بـ(بدر) و(أحد) و(الخندق) ونحوها، **ومرحلة** القتال بحكم الله رب العالمين من بعد (براءة).

فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ

ولا موجب لجعلها كلها دفاعية؛ لأن الله يحكم ما يريد، ويحدث من أمره ما يشاء، وقد أحدث الأمر بقتال المشركين مطلقاً في (براءة) فإن أريد بكونها دفاعية أن قتال المشركين لم يشرع إلا لعداوتهم للإسلام والمسلمين، وأنهم كلما تمكنوا قاتلوا المسلمين وليس المراد بكونها دفاعية أن المسلمين لا يُقاتِلون إلا إذا قوتلوا فيقاتِلون لمجرد الدفاع لمن قاتلهم، فإذا لم يكن هذا هو المراد بكون الحرب كلها دفاعية، فالخلاف لفظي أو قريب من الخلاف اللفظي.

فإن قيل: فالمشرك القوي السليم من العوائق كالعمى ونحوه لو أعلن أنه لن يقاتل المسلمين ودعا إلى السلم هل يقبل منه ذلك؟

فالجواب: أنه إن كان ممن استُثني وهم الرهبان المتخلون للعبادة فنعم يترك وإلا لم يصدق في دعواه ودعوته إلى السلم؛ لأنه مع شركه وإصراره على الشرك لا بد أن يكون عدواً للمسلمين، وإنما يدعو إلى السلم لعجزه، نعم من دعا إلى السلم، وهو يستطيع الحرب، فمن الرأي مصالحته صلحاً مؤقتاً إلا أن يظهر منه إرادةُ الخيانة، وذلك جائز لمصلحة الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ كما يأتي في هذه السورة، ولعله يأتي مزيد تحقيق إن شاء الله في تفسير (براءة).

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ إن لم ينتهوا ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حتى لا يفتن مسلم ليرجع عن الإسلام كما كان الكفار يصنعون بالمسلمين في مكة ﴿وَ﴾ حتى ﴿يَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ بأن تغلبوهم فيسلموا أو يقتلوا، وهذا فيمن بدأ بالقتال إذا لم ينته بعد نزول قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ .

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ﴾ (٤٠)

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ بعد الحرب الأولى ولم يعودوا لقتال المسلمين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو يحاسبهم ويجازيهم بما أسلفوا وما يكون منهم في المستقبل وأمرهم إليه.

(٤٠) ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عما دعوا إليه من الكف عن قتال المسلمين ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي فاعلموا لتقاتلوهم كما أمرتم، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وارجوا النصر من الله الذي هو ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ متولي أموركم ومحسن رعايتكم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لأنه رحيم بالمؤمنين وعلى نصرهم قدير ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لأنه الغالب على أمره.

(٤١) ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ أمرهم بالعلم؛ لأنهم إذا علموا سهل عليهم الانقياد لحكم الله ولئلا يتهموا الرسول ﷺ بظلم إذا أخذه ولم يقسمه عليهم مع الغنائم.

﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فليس سبيله أن يقسمه بين الغانمين كما يفعل بالأربعة الأخماس، بل عليه أن يخص الأربعة الأصناف فيعطيهم من الخمس، أما الأربعة الأخماس فهي وإن كانت له، لكنه يقسمها أو يضعها في مصلحة عامة، أما الخمس فهو له، وعليه أن يعطي الأربعة الأصناف، الأول ذو القربى وهو قريبه من النسب وهم بنو هاشم، وقالوا: أعطى معهم بني المطلب لاتصالهم ببني هاشم، وهذا يناسب أنه له، وإنما يعطي الأربعة بعد ملكه له.

﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾ الذين قتل آباؤهم أو ماتوا وهم لم يبلغوا الحلم، فهو تأنيس لهم وجبر ليتمهم؛ ولعل سببه أن أكثرهم قتل آباؤهم في سبيل الله، ولكن العام لا يقصر على سببه ﴿وَٱلۡمَسَـٰكِينِ﴾ أضعف حالاً من الفقراء، فحاجتهم شديدة ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر فيعطى بقدر حاجته.

هذا والغنيمة ما يستفاد من أموال العدو بالقتال كما في هذه الآية، فهي في سياق القتال، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ أي مما أخذتم من أموال العدو بالجهاد، وفي الحديث: «وأحل لي المغنم ولم يحل لأحد قبلي، قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ..﴾ الآية» انتهى.

رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام): عن أبيه، عن جده، عن علي عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. الحديث، وخرَّجه في (شرحه) عن علي عليه السلام وعن ابن عمر، وعن جابر، وعن أبي هريرة.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ فذلك كله يفيد: أن المغنم هو المستفاد من مال العدو بالجهاد، أما سائر المستفادات بالتجارة أو الإجارة أو الزراعة، فلم يكن في حلها إشكال ولم تكن محرمة على الأولين، وفي (معلقة عنترة):

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وفي (لسان العرب): «وقد تكرر في الحديث ذكر الغنيمة والمغنم والغنائم وهو: ما أصيب من أموال أهل الحرب، وأوجف عليه المسلمون الخيلَ والركاب» انتهى.

ولا إشكال أنه قد يستعمل (الغُنْم) ـ بضم الغين، وسكون النون ـ في الفائدة ضد (الغُرْم) لكن الراجح: أن المعنى الأصلي للغنيمة والمغنم هو ما ذكرت.

واستعمال (الغنم) في الفائدة توسُّع إما مجازاً وهو الراجح كما قيل: الصوم في الشتاء غنيمة باردة، ولو كان مجردُ الاستعمال ولو مع القرينة يصير اللفظ حقيقة لَما بقي في اللغة مجاز، وإما حقيقة في لفظ (الغُنم) ـ بضم الغين ـ خاصة لا في الغنيمة والمغنم وغَنِم، ولا ينافي هذا وجوب الخمس في غير ما أخذ من مال العدو المقاتلين كالرِّكاز؛ لأنه لا تلازم بين وجوب الخمس واسم الغنيمة ووجوب الخمس في غير الغنيمة بدليل آخر.

وأما قول الراغب: «الغَنَم معروف.. إلى قوله: والغُنم إصابته والظفر به، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العِدَى وغيرهم» انتهى، فقد خلط الحقيقة بالمجاز، كقوله في تفسير الأب: «الأب الوالد، ويسمى كل من كان سبباً في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره أباً، وكذا قال في تفسير الإبن، ويقال: لكل ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته أو بتفقده أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره هو ابنه» انتهى المراد.

فلا حجة في كلامه لإثبات أن الغنم حقيقة في كل مستفاد، ولا نكره ثبوت ذلك لو ثبت فإن أكثر الهاشميين من الزيدية في أبين الحاجة إلى خمس الأرباح؛ لأنهم قد منعوا الزكاة فصاروا لا ينالون زكاة ولا خمساً إلا نادراً لا يخلصهم من الفقر، لكن الحق عندنا أن خمس الأرباح ليس من خمس الغنائم، والحق أحق أن يتبَع، ويمكن أن يحتج عليهم بما في (الكافي) بسنده عن العبد الصالح قال: «الخُمس من خمسة أشياء: من الغنائم، والغوص، ومن الكنوز، ومن المعادن، والملاحة» انتهى، فجعل الغنائم غير المستفادة من الأربعة المذكورة، فظهر: أنه المأخوذ بالقتال من مال العدو.

وفي (مجمع البيان) للطبرسي في تفسير هذه الآية: «الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال، وهي هبة من الله تعالى للمسلمين،

والفيء: ما أخذ بغير قتال، وهو قول عطاء ومذهب الشافعي وسفيان، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام» انتهى المراد.

ثم قال الطبرسي: «وقال أصحابنا أن الخمس واجب في كل فائدة تحصل للإنسان..» إلى قوله: «..ويمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإن في عرف اللغة يطلق على ذلك اسم الغُنم والغنيمة» انتهى.

قلنا: قد أقر بالمعنى الحقيقي، ولم يثبت المعنى العرفي؛ لأن الإستعمال مع القرينة لا يدل على أنه حقيقة، هذا والطبرسي من الإمامية فلا يحتج بدعواه العرف.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فذوا القربى: مَن بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قربى النسب؛ لأنه ذكر عقيب ذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فكأنه قيل ولذي قرباه، مع أن المفروض أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي يعطي ذا القربى، فإذا شرع له أن يعطي ذا القربى كان الظاهر أنه ذو القربى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعم كل واحد منهم؛ لأنه اسم جنس مضاف، ولو كان خاصاً بالإمام لما كان لفاطمة منه شيء، والرواية تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعطي سهم ذوي القرابة قرابته ـ أي كلهم ـ فدعوى أن ذا القربى هو الإمام خلاف الظاهر، وإفراده كإفراد ابن السبيل.

وأما اليتامى والمساكين وابن السبيل فظاهر ما روي عن زين العابدين عليه السلام: «هم يتامانا، ومساكيننا، وابن سبيلنا» محمول على إيثارهم عند الحاجة لتحريم الزكاة عليهم، فيدل ذلك على أن المراد جنس اليتامى والمساكين وابن السبيل على حسب ما يراه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من تعميمٍ للصنف الواحد أو تخصيصٍ لبعضه كما في الزكاة.

فأما السبب في إفراد ذي القربى وابن السبيل، وجمع اليتامى والمساكين فلعل ـ والله أعلم ـ كلمة (ذي) للصنف جعل كالشيء الواحد؛ لأن ذا تصلح للفرد وللجماعة إذا أضيفت إلى ما هو للفرد والجماعة إذا جعلت الجماعة شيئاً واحداً مثل فريق وصنف وطائفة؛ ولذلك أطلق (ذات) على الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ فكأنه على هذا قيل: وللفريق ذي القربى، أو أفرد لإثبات أن الواحد مع القربى أهل للعطف عليه بسبب القربى، أو ليلفت السامع إلى القربى الباعثة على العطف، ولا يتجه ذهنه إلى قلة أو كثرة.

وقد أفرد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى..﴾ [النحل:٩٠] وفي (سورة سبحان): ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [آية:٢٦] والظاهر أنها معطوفة على الأمر في الوالدين، وفي الوالدين: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾ [آية:٢٣] فليست في الرسول ﷺ، فأما (آية الروم): ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [آية:٣٨] فروى في (شواهد التنزيل) بسنده عن ابن عباس: «أنها لما نزلت دعا رسول الله ﷺ فاطمة وأعطاها فدكاً، وذلك بصلة القرابة» انتهى.

وأما ابن السبيل فقد أفرد في القرآن في كل موضع، ولعله لقِلَّته يوم نزولها أو لأن المنفرد هو مظنة الانقطاع بخلاف من له أصحاب في السفر.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ هذا حث عظيم على العلم بفريضة الخمس يفيد أن من لم يعلم بها بعدما حكم الله بها فليس مؤمناً بالله؛ لأن من شأن المؤمن أن يعلم أن حكم الله هو الحق.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أي وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم بدر، والفرقان هو نصر الله للمؤمنين فرّق به بين حالهم قبل

أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ

المعركة وحالهم بعدها، وفرق به بين المجاهدين في سبيله والذين كفروا الصادين عن سبيله، وبين الحق والباطل ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ من الوحي ومن الملائكة، وفائدة ذكر الإيمان بالملائكة المنزلين ببدر تذكر تلك النعمة العظمى ليشكروا الله ويسلّموا لحكمه في الغنائم، فلولا نصره ما غنموا.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي جَمْع المؤمنين وجمع الكافرين للقتال ببدر وهو تفسير ليوم الفرقان ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فتوكلوا عليه وارجوا منه النصر والغنائم في المستقبل.

﴿٤٢﴾ ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ اذكروا إذا أنتم أيها المؤمنون بعدوة الوادي ﴿الدُّنْيَا﴾ القريبة إلى طريق المدينة.

قال في (الصحاح): «والعِدوة والعُدوة: جانب الوادي وحافته، قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾» انتهى المراد، وأعتقد أن المراد بجانب الوادي وحافته وشاطئه هو المرتفع عن يمين الوادي والمرتفع عن يساره كل واحد عدوة.

﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ ﴿وَهُم﴾ أي الذين كفروا في العدوَة القصوى بالنسبة إلى المدينة أي البعيدة، فقد قربوا إليكم وقربتم إليهم وتراءيتم ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ ﴿الرَّكْبُ﴾ العير الذين هم إحدى الطائفتين غير ذات الشوكة، سارعتم لأخذها وسارع الكفار لحمايتها.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ للقتال من دون هـذا السـبب ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ والاختلاف يكون في الزمان أو في المكان أو فيهما معاً؛ لأن كلاً من الفريقين يراعي ظروفه وينظر لما يناسبه من الزمان والمكان، فمثلاً المسلمون يريدون تأخير الميعاد حتى يكثروا وتتوفر لهم العُدّة من الخيل والنفقة، والكفار يريدون التعجيل قبل أن يتقوى المسلمون.

﴿وَلَكِن﴾ هيّأ الله لقاءكم بلا مواعدة بل على الحال التي وقع عليها بسبب الركب الذين أسفل منكم ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ يوقعه ويتمه وهو الأمر واحِدُ الأمور وهو إظهار دينه ونصر نبيه وإعزاز أوليائه ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ كان واقعاً لا بد من وقوعه.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ ليصير للعذاب مَن هلك بالكفر وصار مستحقاً للعذاب ﴿عن بينة﴾ للحق قاطعة لعذره فلا يبقى له يوم القيامة دعوى أنه كان غافلاً لم يأته من الله بيان.

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ توجب له صحة العقيدة وتهيىء له الثبات على الحق، وهذه الحياة حياة القلب بالإيمان الصادق، كقوله تعالى: **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا..﴾** الآية [الأنعام:١٢٢].

وفي (المصابيح) للشرفي رحمه الله: «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغرّ التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه ففيه أوضح دليل لكلّ من الفريقين على أمر دينه وذلك أنه لا شك أن عسكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أول الأمر كانوا في غاية من الضعف والخوف بسبب القِلّة وعدم الأهبَة ونزلوا بعيداً من الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضاً رمليّاً تغوص فيه أرجلهم.

أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا

وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العَدد وحصول الآلات والأدوات وأنهم كانوا قريباً من الماء؛ ولأن الأرض التي كانوا عليها كانت صالحة للمشي؛ ولأن العِير كانوا خلف ظهورهم وكانوا يتوقعون مجيء العدو ساعة فساعة، ثم إنه تعالى قلب القصة وعكَس القضية وجعل الغلبة للمسلمين والدمار على الكافرين، فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات على صدق محمد ﷺ فيما أخبر عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر» انتهى المراد.

قلت: وقد كان من أسباب الضعف لولا النصر من الله غلبة العدوّ على الماء ومشاهدة المسلمين لكثرة العدو وخيلهم ونحرهم للإبل ليأكلوا، فهذا لولا النصر كان من أسباب الضعف النفسي، والآيات القرآنية توضح الآيات الكونية في بدر ومن أجل بدر ما مر من الآيات في هذه السورة ومايأتي.

﴿٤٣﴾ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ هذه الرؤيا كان تأويلها قلة الكفار وضعفهم في جنب ما يجعل الله للمسلمين من الإمداد والنصر، فلم تكن خبراً بظاهرها؛ لأن هذا شأن الرؤيا أن يكون لها تأويل هو مصداقها، ولكن من طبيعة البشر توهم ظاهرها وتوقعه أو ما يقرب من ظاهرها لسبقه إلى الخيال قبل تأويلها الصحيح، فلذلك صح أن يري الله رسوله ﷺ في المنام قلة المشركين.

وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لغلبكم الخوف من كثرتهم مع قلتكم وقلة عُدّتكم ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ بسبب شدة الحال وفرط الإهتمام، فمثلاً يقول قائل: لا نلاقيهم بل نقف حتى يأتونا أو يرجعوا، ويقول آخر: لا بد من لقائهم لئلا يروا أنا قد جبنّا فيتجرءوا علينا أشد، ويقول آخر: إن لي عذراً في التخلف، ويقول آخر: إما أن نلقى كلنا وإما أن نقعد كلنا، والتنازع سبب للفشل فينضاف فشل إلى فشل.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ سَلَّم المؤمنين من هذا الفشل وهذا التنازع ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالخفية مما في الصدور، فهو يعلم أسباب قوة القلوب وأسباب ضعفها.

﴿٤٤﴾ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ إذا التقيتم على العُدْوتين فتراءيتم وذلك قبل اختلاط الفريقين ليتشجع المؤمنون برؤيتهم للكفار قليلاً، ويتجرأ الكفار ويطمعوا في قتل المؤمنين وأسرهم ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ إذا اختلط الفريقان ينصر دينه ويحق الحق ويبطل الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ هي إراءة جملة الكفار مصغرة وليست إراءة تفصيلية تحقق كل فرد منهم بعينه، ومثل هذا يغلط فيه البصر، يرى الكبير صغيراً أو الصغير كبيراً؛ لنوع من البعد مع الشمس والسراب أو الغبار، وكما يرى في المرآة المصغِّرة للشيء والمرآة المكبِّرة لسبب في المرآة فلا تفيد الجزم والقطع بقلتهم، ولكنها تشجع المؤمنين بتخيلهم قليلاً.

ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لأنه القادر على كل شيء والعالم بكل شيء، فشأن المؤمن أن يُرجع أموره إليه ويتوكل عليه إذا كان مجاهداً في سبيله أو كان في طاعة لربه فلا يتحول عنها لوسواس الشيطان وتخويفه، بل يتوكل على الله، فهو الذي ينبغي أن يتوكل عليه المتوكلون، وهذا من إعداد المؤمنين للجهاد في المستقبل.

﴿٤٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾ للقتال ﴿فِئَةً﴾ جماعة تريد قتالكم فاثبتوا في محل القتال، لا تفروا ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ حال اللقاء ذكراً ﴿كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بالخير، فذكر الله يعين على القتال: **﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** [الرعد:٢٨].

﴿٤٦﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فذلك من أسباب النصر، والمعاصي تضعف المجاهد في سبيل الله، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾** [آل عمران:١٥٥].

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وكفى بهذا تحذيراً من التنازع، وإنما ينبغي للمجاهدين إذا عرض الخلاف أن يُحكّموا قائدهم فيما يتعلق بالقتال ويرجعوا إلى رأيه ولا يصرّ أحدهم على الخلاف، فأما التنازع في أمر آخر فيؤخر لما بعد القتال إن أمكن تأخيره وإلا قطع النزاع بحكم مَن صَلَح للحكم فيهم أو صُلْحٍ من يُصْلح بينهم وإلا فقد عصوا ربهم، والمسؤولية على من أصر على النزاع.

تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ

وقوله تعالى: ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ قال الراغب: الفشل ضعف مع جبن، وقوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ نشاطكم للقتال وتهيئة النصر لكم؛ ولعله تشبيه بالريح المبشرة بالمطر، فيكون معنى الريح العلامات المبشّرة بالنصر من نشاط المجاهدين وتآخيهم وتوحّدهم وقوتهم وثباتهم، وظهور خلاف ذلك من أعدائهم ـ والله أعلم.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: تنقطع دولتكم» انتهى، ولعله يعني بالدولة إقبال النصر والغلبة ـ والله أعلم.

﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهذا من التعليم لأسباب النصر، فلا بد من الصبر وتحمل مشقة الجهاد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دليل على أن الله يعينهم ويهيىء لهم القوة ويقويهم، وهذا وعد مؤكد وقد مر في (قصة طالوت): ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩] وفي (آل عمران): ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آية:١٢] وفيها: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آية:٢٠٠] وفيها: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ..﴾ [آية:١٢٥] وفيها: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آية:١٤٦] وفي (سورة الأعراف): ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [آية:١٢٨] وفيها: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [آية:١٣٧].

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ قال في (الصحاح): «البَطَرَ: الأشَر، وهو شدة المرح، وقال في تفسير المرح: شدة الفرح والنشاط» انتهى، وهذا يناسب ما روي: أن قريشاً خرجوا إلى بدر معهم القيان والمعازف يشربون الخمور وتعزف عليهم القيان .

وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ

وقال الشرفي في (المصابيح): البطر: «وهو الطغيان في النعمة» انتهى المراد، وذكر (صاحب لسان العرب) خلافاً في معنى البطر ـ ثم قال ـ: وقال الزجاج: البطر الطغيان عند النعمة ـ ثم قال ـ: وبطر النعمة بطراً فهو بَطِر لم يشكرها» انتهى المراد، وهذا يناسب طغيان قريش عند خروجهم إلى بدر في ثروتهم وقوّتهم، فالبطر قد كان منهم على المعنيين ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ليراهم الناس فيعتزّوا بذلك عند الناس، فلا تكونوا مثلهم في خروجكم للجهاد، بل أخلصوا النية لله، واذكروا الله كثيراً.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا تكونوا مثلهم، وكل من قاتل في نصرة الباطل فهو يصد عن سبيل الله، أي يمنع عن دين الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ فلا يفيدهم ما يعملون عزة ولا غلبة للحق وأهله، لأنه محاط بقدرة الله وعلمه وعزته وقهره.

قال بعض المفسرين ـ ونعم ما قال ـ: «وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث على أمور ستة أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها في الحروب الإسلامية عند اللقاء: وهي الثبات، وذكر الله كثيراً، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع، وأن لا يخرجوا بطراً ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، ومجموع الأمور الستة دستور حربي جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحربية شيئاً..» إلخ.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ﴾ ﴿وَإِذۡ﴾ هذه وما قبلها كلها بمعنى يوم خروجهم ومصيرهم للقتال الذي كان ببدر أو متعلقة به، وتزيين الشيطان إن كان من

شياطين الجن فهو بوسوسته لهم، وإن كان من شياطين الإنس فبقوله لهم: إنهم قد أصابوا الرأي بما عملوا من جمع الناس، وترغيبهم باللهو، وتوجههم لقتال المسلمين ونحو ذلك.

ومما زين لهم قوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ لكثرتكم وقوتكم، قوة القلوب وقوة الأبدان وقوة السلاح، وقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أنكم أقوى من كل من حولكم من الناس من المسلمين وكنانة، وقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ يفيد: أنه من شياطين الإنس، وأنه يجيرهم من أصحابه، فلا يقاتلونهم ليفرغوا لقتال المسلمين، ولعل هذا الشيطان هو سراقة بن خثعم، الشاعر الكناني الذي زعم بعض المفسرين أن إبليس تصوّر بصورته، لقي قريشاً وشجعهم وصحبهم.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ فئة المسلمين وفئة المشركين، رأى فئة المشركين فئة المسلمين، ورأى فئة المسلمين فئة المشركين ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ تأخّر عن قريش ورجع القهقرى؛ لأنه لا يريد القتال إنما أراد أن يشجع غيره ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ بريئ من جواركم، فلا أصحبكم لأجل الجوار بل أرجع ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني فأنتم ترون محمداً وأصحابه قليلاً ضعفاء وأنا أراهم أقوياء بالله، ولا طاقة لي بحرب الله.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أبهمه عنهم؛ لأنه لا يريد أن يرجف عليهم، إنما أراد أنّ يذكر لنفسه مبرراً لتركهم ونكوصه عن القتال بأنه رأى رجال إيمان بالرسول ﷺ صادق وعقيدة راسخة؛ لأنهم ملازمون له صابرون على الجوع والأذى والخوف والعناء، ورآهم مستميتين لا يستسلمون ولا يفرون، فليس قتالهم مما يطلب.

وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

﴿٤٩﴾ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الذين أظهروا الإسلام وتولوا الكفار سراً ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك في صدق الرسول ﷺ وسوء نيةٍ في نصره، فكِلا الفريقين لم يؤمنوا، وإنما نظروا إلى ظاهر قوّة قريش وقلة المؤمنين وقلة عتادهم، فقالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ لظنهم أن الغلبة لقريش، وأن المؤمنين اغتروا في مواجهتهم باعتقادهم أنهم إما أن ينصرهم الله؛ لأنهم في سبيله، وإما أن ينالوا الشهادة فهي إحدى الحسنين، وهذا لا معنى له عند المنافقين والذين في قلوبهم مرض، فزعموا أنه اغترار وأن المؤمنين قد تورطوا في مهلكة.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذا ردّ على المنافقين والذين في قلوبهم مرض، بأن المؤمنين لم يكونوا مغرورين ولم يتورطوا؛ لأنهم توكلوا على الله، فكيف يخذلهم مع عزته وقدرته على نصر أوليائه المجاهدين في سبيله وحكمته التي تقتضي إظهار دينه ونصر نبيه ﷺ وتكريم أوليائه؟! وقال في المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] فجعل رحمته لهم من شأن عزته وحكمته.

ولو اختار لهم الشهادة ما كانت ورطة كما يظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض، بل كان قد أعدّ لهم السعادة والشرف العظيم الدائم الذي لا تدانيه حياة المنافقين والذين في قلوبهم مرض..

بل حياتهم تزيدهم إثماً ثم يموتون أو يقتلون، فما نال المؤمنين من إحدى الحسنين، فهو من شأن عزة الله وحكمته ورحمته لأوليائه، وإن ظن المنافقون

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ

والذين في قلوبهم مرض الذين نسوا الله أنه لا قوة للمؤمنين ولا ناصر، وكفروا لما قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ فقد كفروا بدين الله ورسوله ﷺ وجعلوه اغتراراً.

﴿٥٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ هذه عامة للذين كفروا بالله ورسوله ﷺ من قريش وغيرهم، تدل على سوء عاقبتهم من حين تتوفاهم الملائكة أي تعالج قبض أرواحهم ونزعها من أجسادهم، فتعذبهم عند ذلك وتهينهم بضرب وجوههم وأدبارهم، وتلك الورطة العظمى التي تصيرهم إلى عذاب الحريق، وهم المغترون الذين غرتهم الحياة الدنيا، فلو تراهم في تلك الحال لرأيت شيئاً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟﴾ أي نعذبكم بهذا ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ والراجح: أنه طوي ما بين موتهم ومصيرهم في عذاب الحريق، فكأن عذاب الحريق عقيب ضربهم؛ لأنهم إذا صاروا في عذاب الحريق كانت المدة الماضية كأن لم تكن، وهذا تصوير عظيم لسوء عاقبتهم.

﴿٥١﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بما قدمتم من الجرائم كلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وبأن الله ليس بظلام للعبيد، أي وبعدل الله وتقدسه عن الظلم لعبيده، فعدله سبحانه كان لأجله تعذيبهم، لإنصاف المؤمنين خصومهم المظلومين الذين حاربوهم في الدنيا، واعتدوا عليهم وآذوهم، واتخذوهم سخرياً، وكذبوهم وسبوهم وكذبوا عليهم.

فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا

﴿٥٢﴾ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تعذيب الذين كفروا بمحمد ﷺ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في تعذيبهم عذاباً عاجلاً، فقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كعادة آل فرعون، كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ وهذا كقوله تعالى في (سورة فاطر): ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [آية:٤٣].

فقال: ﴿سُنَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ والمعنى سنة الله في الأولين ـ أي العذاب العاجل ـ فقوله تعالى: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ تفسير لدأبهم؛ لأن الكفر بآيات الله وأخذهم بسبب التكذيب جزاءً على ذنوبهم كِلّها تتابع في الأمم، كما مر في (سورة الأعراف) أي تتابع التكذيب والأخذ بتتابع الأمم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ كالتعليل لدأبه في الأولين واتّباع الآخرين بهم، والراجح: أن هذه الآية وما بعدها في قتلى بدر؛ لأن أكثر الآيات الماضية في هذه السورة في وقعة بدر، فأغنى وقوع المعركة ومشاهدة ما حل بالكفار عن ذكره في تلك الحال، مع أنه قد أفاده قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ..﴾ ولم يبعد العهد لسوق الآيات بعدها في وقعة (بدر).

وقد قال تعالى في الفريقين: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩] فأغنى حضور المعركة في الأذهان عن أن يقول: هذان المقتتلان ببدر خصمان، فالمعنى: أن الله تعالى عذّب هؤلاء المشركين بأيديكم، كما عذب من قبلهم من الأمم الذين كذبوا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم.

عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ

﴿٥٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فقد أنعم على قريش بتمكين الحرم الآمن الذي تجبى إليه ثمرات كل شيء، وأنعم عليهم بئيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فلما جاءهم الرسول ﷺ كذّبه أكثرهم وحاربوه وهمّوا بقتله تكذيباً بآيات الله، فسلبهم الله تلك النعمة، فبيَّن الله تعالى أنه لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلو لم يفعلوا ما فعلوا من الجرائم لدامت لهم النعمة بفضل الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا..﴾ الآية [الأعراف:٩٦] فكما أنعم عليهم لم يكن ليغير نعمته لو آمنوا واتقوا.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فقد سمع تكذيبهم للرسول ﷺ وأباطيلهم وعلم ما كان منهم من تغيير ما بأنفسهم من الحال التي كانوا عليها حين أنعم عليهم من صلاح أو قلة فساد أو حسن نية أو نحو ذلك.

﴿٥٤﴾ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مكنّاهم في الأرض ولم نسلبهم النعمة حتى ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المالك لهم المنعم عليهم ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ لعله خصهم بذكر الغرق بعد ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم آية لأهل الكتاب، بما في هذا من بيان موقع آل فرعون من الأمم المهلكة بالتكذيب.

﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ مشركوا قريش المأخوذون وآل فرعون ومن قبلهم، فقد اشتركوا في سبب سلب النعمة كما اشتركوا في الأخذ.

ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ

﴿٥٥﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦] والدواب أخص من البرية وهو عام للناس وغيرهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ معناه: أنهم يبقون على كفرهم حتى يموتوا، لا تنفعهم الآيات، ولا يؤثر فيهم الإنذار والتخويف.

﴿٥٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ أي من الذين كفروا، أي من الذين عاهدتهم من الذين كفروا ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ﴾ ينكثون ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ عاهدتهم فيها، أي كلما عاهدتهم نكثوا عهدهم ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله فيما يعلمون مما به ينكثون، ومن نفس النكث ومن غيرهما، فهم في جرأة على المعاصي، فكأنه قيل: ينقضون عهدهم في كل مرة في حال أنهم يتجرءون على عصيانهم لله بذلك وبغيره، فهؤلاء شر الدواب.

﴿٥٧﴾ ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿فَإِمَّا﴾ أي (فإن ما) أدغمت النون في الميم، فكتبت كما ينطق بها، أي فإن تثقفهم، و(ما) هي صلة للكلام ﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ أي تظفر بهم في الحرب وتتمكن من قتلهم، فاقتلهم وشرد بقلتهم ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ من الكفار، وتشريدهم: إبعادهم عن محاربة رسول الله ﷺ وفرارهم لاعتبارهم بمن قتلهم، وخوفهم من أن يقتلهم مثل أولئك الذين نكثوا فقتلهم و﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ من الكفار، من حولهم

مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

من الكفار ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي مَن حولهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ أن حرب رسول الله ﷺ ليس مثل حرب غيره، وأن لـه نصراً من الله، فكما نصره على الناكثين المذكورين، ينصره على غيرهم أو نحو هذا، المهم يذكّرون ما به يرتدعون، وهذا فيمن تحقق منه النكث، فأما من يتوقع منه ولَمَّا يقع فقال تعالى فيهم.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي فالق إليهم عهدهم، أي فأبلغهم إلغاء عهدهم وأنه ما بقي بينك وبينهم عهد، فاعتُبِر هذا الإعلان نبذاً لعهدهم، كأنه إرجاع له إليهم؛ لأنه لم يبق مقبولاً.

وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي فيما بينهم يستوون في الإبلاغ، أي يعمهم كلهم و لا تبدأهم بقتال قبل النبذ المذكور، لأن ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أو لا يحب الخائنين، فلا يحب تمكينهم من الخيانة بالبقاء على عهدهم وترك النبذ لـه إليهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ السبق: بمعنى فواتهم ونجاتهم من أخذ الله لهم في العاجل ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ لا يعجزون الله، فمتى شاء سلطكم عليهم فعذبهم بأيديكم، والمناسب لقوله : ﴿سَبَقُوٓا۟﴾ أن يقدر أنهم لا يعجزون الله، أي هرباً.

وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ

﴿٦٠﴾ ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم﴾ أي لقتالهم ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وهذا يعم قوّة القلوب، وقوة الأبدان، ويدخل في ذلك القوة التي تحصل بالتدريب، وتَعَلُّم الإصابة في الرمي، ونحو ذلك، وقوة آلات الحرب ونحوها من المال الذي ينفق في سبيل الجهاد وحاله وبعده، وفي هذا العصر يعم القوات التي تستعمل في الحرب في هذا الزمان ونحوها.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ لم يقل: ومن اقتناء الخيل، فهو لا يكفي لإرهاب العدو، بل من رباط، فالظاهر أنه مرابطة الخيل أي إعدادها للقتال بأن تربط استعداداً للقتال وانتظاراً له، فتعلف حيث يتوقع لقاء العدو، ولا ترسل لتتبع المراعي حيث كانت، أو بأن تربط حيث المرعى في حبل طويل، وذلك إذا كان المرعى في موضع المرابطة.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي بما استطعتم ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أي تخيفون، وعدو الله يصلح للفرد والجماعة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ [الشعراء:٧٧] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ﴾ [النساء:٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ آي وترهبون آخرين من دون الذين قد ظهرت عداوتهم من الذين كفروا، ولعلهم المنافقون؛ لأنهم أدنى إلى المسلمين من الكفار المحاربين، وفائدة الإرهاب: إما أن يتركوا قتالكم لخوفهم من قوتكم وخيلكم، وإمّا أن يقاتلوكم على رعب منكم فيضعفوا في قتالكم.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في سبيل نصر دين الله وحماية دين الله ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ فهو بمنزلة القرض يرجع

فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ

للمقرِض وافياً لم ينقص منه شيء، وهذا تمثيل للثواب في الآخرة على ما أنفق في الدنيا، كأنه لقي ما أنفق وهو في وقت الحاجة إليه حيث لا يمكن تحصيله بتجارة هناك ولا غيرها من أنواع الكسب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ﴾ أي وأنتم أيها المؤمنون ﴿لَا تُظۡلَمُونَ﴾ لا تنقصُون مما أنفقتم في سبيل الله شيئاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف:٣٣] وهذا خطاب عام للذين آمنوا، فعلى كل فرد إعداد ما استطاع، وما أنفق في سبيل الله يوفَّ إليه، والخطاب قبل هذه الآية وبعدها للرسول ﷺ لتوليه قيادة المؤمنين.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿جَنَحُواْ﴾ مالوا للسلم، أي لترْك الحرب بينكم وبينهم، كأنها سميت سلماً لما فيها من السلامة، قال في (الصحاح): والسِّلم الصلح [يفتح ويكسر ويذكّر ويؤنث].

وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ أي فَمِل إلى السلم كما مالوا، وذلك يستدعي المعاهدة على الصلح ولوازمه، ويأتي في (سورة التوبة) في معاهدة المشركين تفصيلٌ ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ كِلْ أمرَك إليه في تدبير نصرك وسلامتك من غدرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما قالوا، إذا أرادوا خيانة مثلاً أو غيرها ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما أضمروا من وفاء أو خيانة أو غيرهما، فكِلْ أمرك إليه فهو كافيك.

﴿٦٢﴾ ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ ﴿يَخۡدَعُوكَ﴾ يغدروا بك في السلم، أو في طلبه، أو في التظاهر بالجنوح إليه ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ فإن كافيك الله؛ لأنه معك.

قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿أَيَّدَكَ﴾ قوّاك، قال الشاعر:

فآتت أعاليهِ وآدَتْ أصولـــه وأدلى بقنـوانٍ من البُسر أحمرا

﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، وسائر أسباب الغلبة، وأيّدك ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم أطاعوا الرسول ﷺ وجاهدوا معه واستعدّوا لذلك للمستقبل.

﴿٦٣﴾ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ جعل قلوبهم متفقة على الرغبة في نصر الرسول ﷺ، وقتال أعداء الله أعداء رسوله، وعلى التعاون على ذلك، فأصبحوا إخواناً بعد عدواة كانت بين الأوس والخزرج شديدة.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لشدة العدواة التي كانت فيهم ورسوخها في قلوبهم لما سبق بينهم من القتل والقتال والظلم من بعضهم لبعض والإهانة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بالتأليف بين قلوبهم ونزع الغِلّ منها وإبدالها بالمحبة بينهم والتآخي على طاعة الله ورسوله، فاجتمعوا مع الرسول ﷺ وتوحّدوا في نصره ومعاداة أعدائه، فصاروا بذلك قوة للرسول ﷺ أيده الله بهم ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ قاهر لا يُنال ﴿حَكِيمٌ﴾ وكان من الحكمة نصر نبيه لإظهار دينه على الدين كله وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

﴿٦٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي فحسبك أي كافيك؛ لأنه معك ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ وانقاد لأمرك وحكمِك والجهادِ معك، فقاتل في سبيل الله ولا تنتظر زيادة عليهم من الأعوان في الجهاد.

ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن

﴿٦٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ قال في (الصحاح): «التحريض على القتال: الحث والإحماء عليه» انتهى، وقال في تفسير حمي وحميت عليه ـ بالكسر ـ غضبتُ. انتهى، وذكروا أنه يقال: «حرّاض للذي يوقد على الأحجار لتكون نورة أو جصاً» انتهى، فظهر: أن التحريض حثّ يحرك الحميّة والغضب لا مجرد الحث.

وقال الراغب: «والتحريض الحث على الشيء بكثرة التزيين له وتسهيل الخطب فيه» انتهى المراد، فلم يجعله مطلق الحث عليه، بل جعله الحث المخصوص الذي يرغب في القتال بطريقة تزيينه وتسهيل شدته، وذلك بذكر فوائده العاجلة والآجلة، وما أعد الله للمجاهد من الثواب، وما في الشهادة من الترغيب العظيم في القرآن والحديث الشريف.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن تَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾ من الرسول ﷺ والمؤمنين ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ ومائة صابرة، شرط الصبر لأنه شرط النصر، فأفاد أن مع الإيمان والصبر يغلب المجاهدون مثلهم عشر مرات من الكفار، بسبب أن الذين كفروا ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

قال بعض المفسرين ـ ونعم ما قال ـ: «وفقدان الفقه في الكفار وبالمقابلة ثبوته في المؤمنين، هو الذي أوجب أن يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين أكثر من العشرة من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء

مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ

المائتين من أولئك على ما بني عليه الحكم في الآية، فإن المؤمنين إنما يُقْدِمُون فيما يُقْدمون عن إيمان بالله وهو القوّة التي لا يعادله ولا يُقاومه أيّ قوّة أخرى لابتنائه على الفقه الصحيح الذي يوّصِّفهم بكل سجية نفسانِيَّة فاضلة كالشجاعة والشهامة والجُرأة والاستقامة والوقار والطمأنينة والثِّقة بالله واليقين بأنه [أي المجاهد المؤمن] على إحدى الحسنيين إن قُتِل ففي الجنة وإن قَتَل ففي الجنة، وأن الموت بالمعنى الذي يراه الكفار لا مصداق له [يعني أنه في حق المؤمن الشهيد أو كل مؤمن إنما هو انتقال من هذه الحياة إلى حياة أفضل] وأما الكفار فإنما اتكاؤهم على هوى النفس..» إلخ.

﴿٦٦﴾ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ أي هذا الحين الذي نزلت فيه هذه الآية خفف الله عنكم بنسخ ذلك التكليف بقتال العشرين مائتين، والمائة ألفاً من الذين كفروا ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ولم يقل: إنكم ضعفاء؛ لأن الضعف في جملتهم لا في كل فرد، وهو الضعف الذي يصعب معه تحمل التكليف المذكور صعوبة زائدة على صعوبته في المرة الأولى؛ لأن الإنسان قد يقوى على الشيء في المرة الواحدة، ويضعف عن تكرره عليه، فقد حدث الضعف من هذه الناحية، وهذا بالنسبة إلى بعضهم لأن ما كل واحد منهم بلغ في إيمانه وزهده في هذه الحياة بل ولا في الشجاعة الأصلية مبلغ رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام حتى تكون قوتهم على المعاودة كقوّتهم على الابتداء.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ أي

صابر بقرينة ذكره مع المائة، والإكتفاء واقع في القرآن، قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] أي الذاكرات الله كثيراً، وقال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إذنه بالغلبة المذكورة، وإن كانت مخالفة للعادة المعهودة، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يبين أن من سبب الغلبة هو الصبر الذي لأجله يكون الله معهم، فينصرهم بحيث تغلب المائة مائتين، والألف ألفين، فأما دون هذا العدد من المؤمنين مع هذا العدد من الكافرين فموجب النسخ والتخفيف أنه لا يجب عليهم القتال، بل لهم أن يحتالوا لترك مواجهتهم بأي حيلة، وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ وهو في الحقيقة نسخ لبعض ما تضمنته، وإن سمي تخصيصاً فهو مجاز.

وما وقع يوم (حنين) من ثبات رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام ومن معهما في حال انهزام الباقي من جيش رسول الله ﷺ، وكذلك ما وقع من ثبات الحسين في قلة أصحابه وكثرة أعدائه هو عمل بأحد الجائزين، وهو أفضل وأشرف، وعليه جرى أئمة الهدى وسائر الأخيار من ذريتهم وشيعتهم.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «وقال زيد بن علي عليهما السلام: إذا كان الإمام في قِلَّة من العدد لم يجب عليه قتال أهل البغي، فإذا كان أصحابه ثلاثمائة وبضع عشرة عدّة أهل بدر وجب عليه وعليهم القتال، ولم يعذروا بترك القتال، فإنه ليس من الأعمال شيء أفضل من جهادهم» انتهى.

ولعل هذا خاص في قتال البغاة، لقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ [الحجرات:٩] واختصاص الباغي بأن فساده في دار الإسلام ـ والله أعلم.

يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

﴿٦٧﴾ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليس يليق بحال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا صح ولا استقام أن يكون لـه أسرى؛ لأن تعجُّل الأسرى لا يحصل لـه به قوة، وغرضه ومهمته عـزة دينـه ورفـع رايـة الحق، وذلـك لا يحصـل إلا بالإثخـان في الأرض وإضـعاف الكفـر وأهلـه بالقتل المؤدي إلى ذلتهم.

والأسرى: جمـع أسـير، والأسـرى يؤخـذون ويربطـون حتـى يفتـدوا أو يفديهم غيرهم بمال يعطون الآسرين فيطلقونهم، وهـذا لا يليـق بحـال الـنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون مطلباً مقدماً قبل الإثخان في الأرض، وفي (تفسير الإمام زيـد بن علي عليه السلام): «﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: يغلب ويبالغ، ويقـال: حتى يظهر على الأرض» انتهى.

قال في (الصحاح): «وأثخنته الجـراح أوهنتـه، ويقـال: أثخـن في الأرض قتلاً إذا أكثر» انتهى.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ ﴿تُرِيدُونَ﴾ الخطـــاب لأصـحاب رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم الـذين أرادوا فـداء الأسـرى، وهـو ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ لأنه عارض يزول ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ إعزاز دينه الذي هو سبب سعادة ﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ لمن اتبعه، وذلـك بالإثخـان في الأرض قبـل الأسـر ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُنال، فمن عزتـه إعـزاز دينـه ﴿حَكِيمٌ﴾ فـأمره ونهيه على ما فيه الحكمة.

﴿٦٨﴾ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو حكمه أن لا يؤاخذ على الخطأ أو نحو هذا

رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ

﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ أي في الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقد كان تعالى قادراً على أن يجعل في الأسرى قوة ويسلطهم على المسلمين، فيقتلوهم ويضعفوا أمرهم، فيكون للمسلمين ضد ما أمّلوا في الأسرى من الفائدة التي أخذوهم لأجلها.

﴿٦٩﴾ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿فَكُلُوا۟﴾ لعل (الفاء) للتفريع على العفو المفهوم من قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ فلكون الكتاب سبق بما اقتضى العفو كلوا ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ ووجه التفريع: إما أن الغنائم تفرعت على العفو، ولولا العفو لفات النصر وفاتت الغنائم، وإما أنهم كانوا يعاقبون بتحريم الغنائم لولا الكتاب، فإباحتها متفرع على العفو، فكلوا من الغنائم ﴿حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ أي هي حلال طيب، فهو حال من (كلوا).

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بطاعته في كل شيء من الغنائم وغيرها، ومن ذلك حكمه في أول السورة وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كالتعليل لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ فهو من مغفرته ورحمته.

﴿٧٠﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ﴿خَيْرًا﴾ الإيمان والنية الصالحة ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفِدى، ويُعوضكم بخير مما أخذ منكم لإطلاقكم من الأسر، والراجح: أن هذا وعد لهم بتعجيل رزق خير مما غرموا في الفداء.

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ إن كانت المغفرة الكاملة للدنيا والآخرة، فالخير الإيمان والتوبة، وإن أريد المغفرة رفع العذاب العاجل كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] فالخير الإسلام والإقلاع عن الشرك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: مغفرة ورحمة عاجلة، ومغفرة ورحمة عاجلة وآجلة، ولكل منهما أهل.

﴿٧١﴾ ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ أن يخونوك بعد إطلاقهم من الأسر ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بمحاربة رسوله ﷺ ومعاونة المشركين أو بالشرك ﴿فَأَمْكَنَ﴾ نبيه ﷺ ﴿مِنْهُمْ﴾ من أخذهم وأسرهم، فهو قادر على أن يُمكن منهم مرّة أخرى إن خانوك؛ لأنهم خانوا الله بخيانتهم لك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يكون منهم من خير أو شر، وبكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو لا يهمل المفسدين ولا يسوي بين المحسن والمسيء، وأحكامه موافقة لحكمته.

﴿٧٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ هذه في المؤمنين مع رسول الله ﷺ من المهاجرين الذين تركوا بلادهم وهاجروا المشركين، أي هجروا المشركين، وهجرهم المشركون، وهجر المؤمنين للمشركين، ومهاجرتهم: مفارقتهم لمن في بلدهم منهم

بالخروج إلى المدينة المنورة دار الهجرة التي صارت دار الإسلام والإيمان، ومأوى الرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار، فحكم بالولاية بين المؤمنين المهاجرين الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والذين آووا رسول الله ﷺ وآووا من معه من المهاجرين في وقت الهجرة، وذلك ببذل بلادهم لهم، وإمدادهم من مالهم، والجهاد معهم لحماية الرسول ﷺ وإيوائه ومن معه، ونصروا رسول الله ﷺ بالجهاد معه وفي نصرته.

وهذا يفيد إيمانهم؛ لأن الذين في قلوبهم مرض والمنافقين لم يكونوا كذلك، فأهل هذه الصفات من المهاجرين والأنصار أولئك بعضهم أولياء بعض، فهم إخوان في الدين متعاونون على نصرته وحمايتهم له ﷺ، همُّهم في ذلك واحد، فبعضهم مع بعض لا يتولون الكفار، فهم مجتمعون على ذلك متحابون عليه، وذلك معنى الولاية، فكل مهاجر ولي لكل أنصاري من المؤمنين والعكس.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ فلا ولاية بينكم وبينهم؛ لأنهم ليسوا معكم في الأمر المهم الذي هو التعاون على نصر الدين وحمايته والتآخي عليه، حتى يهاجروا أو يصيروا معكم في ذلك.

﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ وذلك إذا قوتلوا على الدين ليرجعوا إلى الشرك، أو هَمَّ قوم بقتالهم ليرتدوا، فعلى رسول الله ﷺ أن ينصرهم هو ومن معه من المهاجرين والأنصار مع عدم الولاية، ينصروهم لينقذوهم منهم ويتمكنوا من الهجرة، إلا على مَن بينه وبينهم عهد على الصلح يتمسك به المعاهدون ويثقون به في ترك الحرب، فعلى الرسول ﷺ وعلى من معه التمسك بالميثاق، وترك نصرة هؤلاء الذين

تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ

آمنوا ولم يهاجروا في هذه الحالة تمسكاً بالميثاق، وهذا حكم وسط للذين آمنوا ولم يهاجروا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ كلكم أنتم ومن لم يهاجر ﴿بَصِيرٌ﴾ فيحكم في كل بما يليق به ولكلٍ بما يصلح لـه.

﴿٧٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ مالكم من ولايتهم من شيء ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ إن لا تفعلوا الولاية بين المؤمنين المهاجرين والأنصار دون غيرهم، واعتبار الكفار بعضهم أولياء بعض لا يتولاهم مؤمن ولا يتولونه ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ باختلال نظام المؤمنين، وبث الخلاف والفرقة بينهم، والمعاداة، وضعف التناصح، وفي الأخير ضعفهم وقوة الكفار، وحينئذ يكون نشر الفساد في الأرض ويضعف المسلمون عن دفعه كما هو الحال اليوم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ يعني بغلبة الكفار ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ لضعف الإسلام، وأيضاً يحتمل ﴿تَكُن [فِتْنَةٌ] فِي ٱلْأَرْضِ﴾ باختلاف الكلمة ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بكثرة المنازعات والفتن» انتهى.

﴿٧٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم الذين تمت فيهم حقيقة الإيمان وصفاته المذكورة في أول السورة.

﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لما سلف منهم قبل الإيمان وللصغائر، ومما سلف ما وقع من الزلات فتابوا منه، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون

مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

﴿وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾ وعد بالرزق الكريم مطلق فيرجى به الرزق في الدنيا والآخرة، وكانوا في أول الهجرة في إقلال وجوع فرزقهم الله من الغنائم والفيء.

﴿٧٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ من بعد هجرة الأولين الذين هاجروا قبل نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ..﴾ الآية فهؤلاء المتأخرون آمنوا وهاجروا قبل الفتح المسقط للهجرة من مكة؛ لأنها صارت بالفتح دار إسلام ولكنهم تأخروا عن أولئك الذين هاجروا من قبل نزول هذه الآيات فأولئك المتأخرون منكم في ولايتكم تتولونهم ويتولونكم لصدق إيمانهم وهجرتهم بدليل الجهاد معكم.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فالولاية بين المؤمنين المجاهدين لا تبطل الولاية بين أولي الأرحام منهم، بل أولو الأرحام من المؤمنين من المهاجرين والأنصار أولو الأرحام منهم بعضهم أولى ببعض؛ لأن سبب الولاية العامة للمؤمنين المجاهدين قد حصل لهم، واختص أولو الأرحام بسبب خاص هو الرحامة الانتساب الخاص إلى رحم وُلِدوا منها فهم أولى ببعضهم من سائر المؤمنين والمهاجرين ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكم الله الذي كتبه، إما كتابة القرآن وإما كتابة إيجابه وحكمه الجازم، مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة:١٧٨].

قال الشرفي في (المصابيح): «واحتج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - صلوات الله عليهم جميعاً - في كتابه إلى

أبي جعفر المنصور بهذه الآية، في أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب عليه السلام، ذكره الرازي» انتهى.

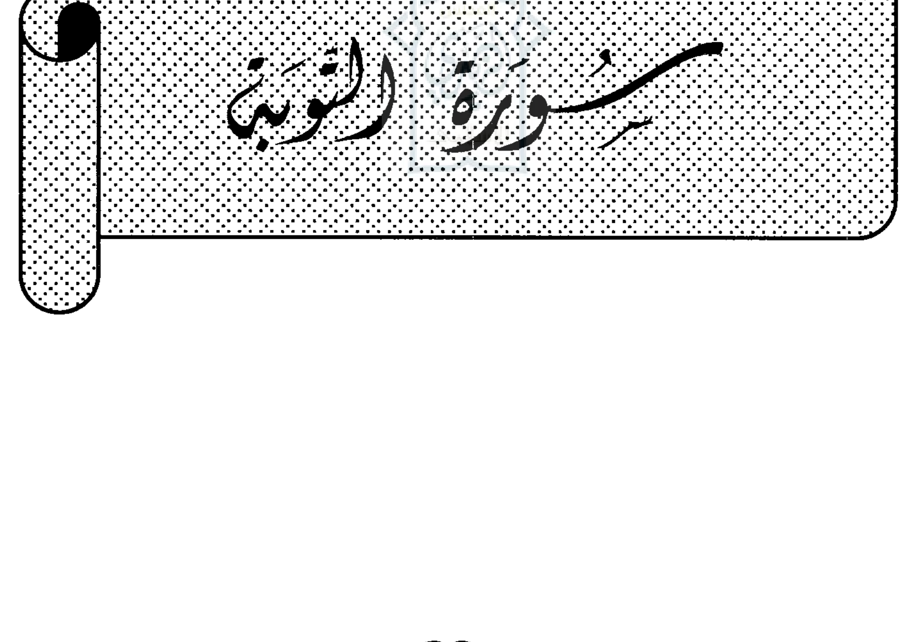
قلت: الآية مطلقة في كل أمر راجع إلى الولاية والاختصاص، ولذلك كان أمير المؤمنين علي عليه السلام هو الذي تولى غسل رسول الله ﷺ وحراسته حتى صلى عليه الناس في يومين، وحتى دفنه ﷺ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فقوله الحق، وحكمه الحق، وعلينا أن نمتثل أمره ونهيه، ونعلم أنه رقيب علينا في كل عمل لا يخفى عليه طاعة مطيع لله ورسوله ولا معصية عاص لله ورسوله.

فهذه الخاتمة راجعة إلى ما في هذه السورة من ذكر وقائع وتكاليف وأخبار وأحكام وهي تشير إلى الوعد والوعيد ـ وبالله التوفيق.




سورة التوبة



سُورَةُ التَّوْبَة
ترتيبها ٩ — آياتها ١٢٩

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى

ابتداء تفسير (سورة براءة) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام: إن قال قائل: لِـمَ لمْ تكتب في أولها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟

قيل لَه: اعلم ـ هداك الله ـ أن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مفتاح كل خير وبركة ورضى وتزكية أثبتها الله فيما كان أنزله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعلى المؤمنين من القرآن، وأن (براءة) نزل في أولها مفتاح حرب وإنذار ونبذ العهد الذي كان بين الرسول وبين المشركين، وإنذار وإبعاد لهم من ذي الجلال والإكرام عن المسجد المطهر والبيت الحرام، وإخباراً لهم بأن ما كانوا يفهمون ويعرفون قد زال وتصرم وَحَالَ، وأنهم إن ثبتوا على شركهم قُتِلوا حيث ما ثُقِفوا إشادة من الله سبحانه بذكر الإسلام وإظهاراً وإعزازاً لدعوة نبيه عليه السلام، فلذلك لم يثبت فيها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾» انتهى.

أي هذه ﴿بَرَآءَةٌ﴾ واقعة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ موجَّهَة وبالغة ﴿إِلَى﴾ المشركين ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾ أيها المؤمنون، أي براءة لله ورسوله من عهودهم فلا يلحق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عيب ولا ذنب في رفض العهود المذكورة؛ لأنها بلاغ إلى الكفار يعلن التخلي من الصلح السابق ويؤذن بالحرب وذلك نهاية لمضمون العهد السابق، ونهاية لِحُكمهم؛ لأنه في حال يمكن فيه استعداد العدو للحرب إن شاء، فلا غدر فيه ولا نكث للعهد، وقد أرسل هذه البراءةَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المشركين لتُقرأ عليهم أيام الحج في مكة في حال اجتماع الكثير منهم بحيث تبلغهم كلهم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): براءةٌ نزلت برفع الأمان، ونزلت سنة تسع من الهجرة فأنفذها رسول الله ﷺ مع أمير المؤمنين علي عليه السلام في الموسم بعد ما سلمها إلى أبي بكر فاستردَّها منه بأمرٍ من الله ـ عزَّ وجل ـ نزل به جبريل عليه السلام وقال: (لا يبلغها إلا أنت، أو رجل منك) فسلمها رسول الله ﷺ إليه فقرأها أمير المؤمنين عليه السلام في يوم النحر على جمرة العقبة وكان قدر ما قراه عشر آيات من أولها» انتهى.

قال الشرفي: «ومثل هذا ذكرَ الإمام الناصر أحمد بن يحي عن أبيه الهادي إلى الحق صلوات الله عليه ـ ثم قال عليه السلام ـ: وقد روت العامة هذا الخبر في رد أبي بكر، وإرسال علي ـ صلوات الله عليه ـ بالصحيفة في (مسند ابن أبي شيبة) وغيره، فلما كان يوم النحر واجتمع المشركون قام علي بن أبي طالب صلوات الله [عليه] عند جمرة العقبة فقال: (يا أيها الناس إني رسولُ [رسول] الله إليكم) وكان فيما روى أنه سمع أقصى الناس كما سمع أدناهم، فقالوا: بماذا أرسلك؟ فقرأ عليهم: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: من كان بينه وبين رسول الله عهد فهو بريء منه» انتهى.

قلت: في (مسند أحمد بن حنبل) [ج١/ ص٣]: «حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قال حدثنا وكيع قال قال إسرائيل: قال أبو إسحاق: عن زيد بن يثيع عن أبى بكر أن النبي ﷺ بعثه ببراءة لأهل مكة: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، من كان بينه وبين رسول الله ﷺ مدة فأجله إلى مدته والله بريء من المشركين ورسوله، قال: فسار بها ثلاثاً، ثم قال لعلي رضي الله عنه: ألحقه فرد علي أبا بكر وبلِّغها أنت، قال: ففعل، قال: فلما قدم على النبي ﷺ أبو بكر بكى، قال: يارسول الله حدث فيَّ شيء، قال: «ما حدث فيك إلا خير، ولكن أمرت أن لا يبلغه إلا أنا أو رجل مني» انتهى.

ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ

وفيه من [زوائد] ابنه عبد الله: حدثنا عبد الله حدثنا محمد بن سليمان لوين حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي ﷺ قال: لما نزلت عشر آيات من (سورة براءة) على النبي ﷺ دعا النبي ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني النبي ﷺ فقال لي: (أدرك أبا بكر (رض) فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم) فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر (رض) إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نزل فيَّ شيء، قال: (لا، ولكن جبريل جاءني فقال:لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك») انتهى.

وفي (الدر المنثور) للسيوطي: وأخرج ابن مردويه: عن سعد بن أبي وقاص (رض): أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث أبا بكر (رض) ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث علياً رضى الله عنه على إثره فأخذها منه، فكأن أبا بكر (رض) وجد في نفسه، فقال النبي ﷺ: «يا أبا بكر إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني» انتهى، وفي هذا روايات عديدة.

﴿٢﴾ ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ السياحة: السير الطويل في الأرض، والأمر بالسياحة كناية عن الأمان في هذه الأربعة الأشهر وهي من يوم إبلاغهم في الحج عاشر ذي الحجة إلى عاشر ربيع الأول فهي مهلة للمشركين يأمنون فيها لينظروا لأنفسهم، فإما اختاروا الإسلام، وإما اختاروا الحرب، وقد أمروا أن يعلموا: أنهم ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ فهو قادر على قهرهم بنصر نبيه وبغير ذلك، لا يعجزونه بقوتهم ولا يعجزونه بهرب، وأمروا أن يعلموا: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ فعليهم أن لا يتعرضوا للخزي والهوان والعار، بل أن يسلموا ليسلموا الخزي من الله الذي يجعله على الكافرين.

فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

﴿٣﴾ ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ الأذان: إبلاغٌ بصوت رفيع موجهٌ إلى الناس كلهم ليعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ بريء منهم، وهذا عام للمشركين من كان لـه عهد ومن لم يكن لـه عهد.

و﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ عاشـر ذي الحجـة يـوم طـواف الزيـارة المسـمى طواف النساء لحلِّهنَّ بـه، وعمـوم الأذان للمشـركين يـأتي تخصيصـه قريبـاً، ومعنى براءته منهم إعلان الحرب بينه وبينهم، وأنه ليس لهـم أمـان مـن بعـد هذا فلا يلحق الرسول ﷺ عار من قتلهم ولا إثم.

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ إلى الله أي رجعـتم عـن الإبـاق منـه ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في دنياكم وآخرتكم ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن الله وأصـررتم علـى الشـرك ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ وهذا تأكيد ليعلموا أنهم حرب لله وأنه غالبهم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا إنذار بعذاب النار عبّر عنـه بالتبشـير تهكُّماً بهم؛ لأنهم أبوا إلا أن يعملوا ما يؤدِّيهم إليه كأنهم طالبون له.

﴿٤﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي وَفَوا بالعهد وفاءً كاملاً لم ينقصوا مما عاهدوا عليه شيئاً ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ ولم يعينوا عليكم أيها المؤمنون أحداً ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وهذا تخصيص لعموم البراءة والأذان أخرجَ منه من قد جرّبه المؤمنون موفِياً بعهده على التمام، فمن التقوى أن يبقى المؤمنون على العهد بينهم وبينه، ويبقى آمناً منهم إلى مدة الأجل الذي جُعل حداً للصلح والعهد.

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

﴿٥﴾ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ ﴿فَإِذَا﴾ تفريع على البراءة من المشركين والأذان، وبيان أن ليس مراد قتالهم في الأشهر الحرم، وهي أربعة يأتي ذكرها في هذه السورة، وانسلاخها: انقضاؤها وذهابها.

قال الراغب: «السلخ: نزع جلد الحيوان، يقال: سلخته فانسلخ، وعنه: استعير سلختُ درعَه نزعتُها، وسلخ الشهر وانسلخ» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ يدل على قتلهم سواء في بلدهم أو في سفر أو في معركة أو أينما كانوا، مستعدين للقتال أو غير مستعدين، وفيه تخويفٌ لهم، ويحتمل: أن يعم الْحَرَم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ ويحتمل: أن هذا العموم مبنيٌّ على الخصوص في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٩١].

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى إن شئتم، أي اقتلوا مَن شئتم وخذوا مَن شئتم ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ امنعوهم من الذهاب حيث شاءوا؛ لتقتلوهم أو تأسروهم متى ضاقوا من حصرهم واضطروا إلى الإستسلام.

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كل مكان يصلح لرصْدِهم وانتظارهم حتى يأتوا عنده فيُقتَلوا أو يُؤخَذوا مثل انتظارهم على طريق يمرون منها.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ لأنهم قد خرجوا من الشرك الذي لأجله أمرتم بقتلهم.

ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه ويرحمه، وتخلية سبيلهم أن لا يُعترَضوا في سبيل بل يُتركوا ليذهبوا حيث شاءوا، وهذا تخصيص ثانٍ من عموم البراءة والأذان.

﴿٦﴾ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلبك أن تجيره ممن يخاف منه القتل أو نحوه ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فاحمِهِ من ذلك ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ لزيادة الحجة عليه إذا سمعه؛ لأنه يعرف أنه كلام الله بكونه خارقاً في كماله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ مثل: بلده أو أصحابه حيث يأمن، وبذلك لا يبقى له جوار إذا بلغ مأمنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم بأن يجار حتى يسمع كلام الله ثم يُبلغ مأمنه ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ لعدم استعدادهم للعلم ولإعراضهم واشتغالهم بدنياهم فالآيات تمر عليهم فيعرضون عنها، ففي حالة استجارة المشرك قد يتذكر وينتبه إذا سمع القرآن، ففي هذا تخصيص مؤقت لهذه الحالة يخرجها من عموم الأذان والبراءة.

﴿٧﴾ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾؟ وهذا يدل على أنهم لا يصلحون لعهد لما يأتي بيانه في الآية التي بعد هذه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ﴾ استثناء لأناس مخصوصين قد مضت معاهدتهم واستقاموا عليها، وقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ

أي عند الكعبة ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُواْ لَكُمْ﴾ على العهد لم يميلوا ﴿فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ واستقامتكم حينئذ من التقوى.

﴿٨﴾ ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عهد ﴿وَ﴾ لا وفاء لهم بل ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يكونوا أقوى منكم حتى يتمكنوا من قتلكم أو أخذكم ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً﴾ إما ﴿لَا يَرْقُبُواْ﴾ لا ينتظروا إلاًّ عهداً، أي لا ينتظروا تمام مدة عهد ولا مدة ذمة، أو لا ينظرون إلى عهد ولا ذمة ولا يلتفتون إليه، وهذا الذي أفاده في (المصابيح).

قال في (الصحاح): «الرقيب: الحافظ، والرقيب: المنتظر، تقول: رَقَبْتُ الشيء أرْقُبه...» إلخ. قلت: وإذا كان في الآية بمعنى لا يحفظون فهو مستقيم؛ لأن معناه: أنهم يضيعون العهد والذمة؛ لإهمالهم لهما.

وفي (مفردات الراغب): «وَرَقَبْتُهُ: حفظته، والرقيب: الحافظ» انتهى، وقال الشرفي في تفسير قول الله تعالى ـ حاكيا عن هارون عليه السلام ـ: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤] أي تحافظ على وصيتي في قولي لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:١٤٢] ولم تعمل بموجَبها» انتهى المراد.

وأما الذمة: فقال في (لسان العرب): «وفي الحديث ذكر الذِّمَّة والذَّمَّام، وهما بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة والحق» انتهى المراد.

وفي الحديث: «لا تعطوا القوم ذمتي ولا ذمةَ الله، فالمخفر ذمة الله لاق الله وهو عليه ساخط، اعطوهم ذمتكم وذمم آبائكم وفوا لهم، فإن أحدكم لأَنْ يُخفِر ذمته وذمة أبيه خير له من أن يخفر ذمة الله وذمة رسوله» انتهى من (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام).

عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ

قلت: يظهر: أن الذمة هنا بمعنى الضمان، مبالغةٌ في الأمان، وزيادة في العهد لتأكيده، فالمشركون لا يرعون عهداً ولا يرعون ذمة إن ظهروا على المسلمين، وكأن عطفها على العهد من الترقي، كأنه لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، ولا ما هو أقوى منه وهو الذمة إن أعطوكم ذممهم، وهذا خبر الله عالم الغيب بيَّن أنهم إن يظهروا على المؤمنين لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة، فقد بيَّن تعالى بذلك أنه لا عهد لهم باعتبار ما سيكون منهم أي من المشركين إن ظهروا على المؤمنين.

﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي بكلامهم ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ تمتنع قلوبهم من تطبيق ما قالوا ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ فسوقاً غير الكفر والشرك خُبثٌ وتعمُّدٌ للفجور، فهم أبعد من أن يوفوا بعهد؛ لأنهم شاركوا المشركين في عقيدتهم وفي كفرهم بآيات الله وامتازوا بأنهم لا يتحرجون من قبيح.

﴿ ٩ ﴾ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ استبدلوا باتباع آيات الله أو بالإيمان بآيات الله ﴿ثَمَنٗا﴾ هو الأغراض الدنيوية التي يرون أنها تفوت إن آمنوا واتبعوا آيات الله ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ما أسْوَأَ ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ما تكرر منهم من العمل الفاحش.

﴿ ١٠ ﴾ ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ ﴿لَا يَرۡقُبُونَ﴾ هذه صفتهم التي استمروا عليها واعتادوها فهم لا يردعهم عن النكث إلا الخوف منكم، فأما العهد والذمة فلا يرقبونه ولا يلتفتون إليه، وهذا خبر عن ماضيهم المتصل بالحال فلا تكرار بينه وبين الأول، وهذا من بيان خُبثهم ودفعاً لتوهم أنهم قد راقبوا العهد في الماضي ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهلُ هذه الصفات ﴿هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ لنقضهم عهد الله عليهم وإصرارهم على نقض العهود.

ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا

﴿١١﴾ ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن جرائمهم كلها ورجعوا إلى الله بالإيمان ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهم إخوانكم ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ التفصيل خلاف الإجمال، نفصل: نجعل الآيات القرآنية مفصلة ليستفيد منها وينتفع بفهمها قوم يعلمون ما علمناهم بالآيات المفصلة، وبهذه الآية ختمت الآيات العشر النازلة سنة تسع لإعلان البراءة من المشركين أو بالآية التي قبلها.

﴿١٢﴾ ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ كما هو شأنهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ من بعد أن عاهدوا على الصلح، نكثوا: أي نقضوا الميثاق بعد أن عقدوا لكم اليمين على الصلح ولعله في الأصل تشبيه بنكث الشعر والصوف والوبر بعد غزله أي نقضه وإرجاعه إلى ما كان عليه قبل غزله، ونكث الأيمان بقتال المسلمين أو قتال حلفائهم.

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ طعنوا في الإسلام بكلامهم في ذمّ الإسلام ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ أي فقاتلوهم فهم ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي المتبوعون في الكفر فقاتلوهم ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ لا عهد لهم، فكل عهد لهم ضائع ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ عن قتالكم إذا قاتلتموهم.

نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿١٣﴾ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ إنكار على المؤمنين كأنه قيل: كيف لا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بقتالكم يوم بدر ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾؟ فتتركون قتالهم خوفاً منهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ لأن عذابه أشد من قتال القوم، وهذه الآيات يظهر أنها نزلت في الحث على فتح مكة وقتال قريش، وذلك متقدم قبل نزول العشر الآيات التي في أول (براءة).

﴿١٤﴾ ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ وهذا أمر وترغيب بذكر فوائد ونصر، وهو غاية الترغيب، وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ بقتل من يقتل وغيظ قرابته منهم وأصحابه.

وقوله: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ يذلُّهم ويفضحهم بعجزهم عن الدفاع واستسلامهم بعد كبرهم وعنادهم، وقوله: ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي إن تقاتلوهم ينصركم ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ قد ظلَمَهم المشركون كثيراً ففي قلوبهم حرارات وحقد على الكفار لا يشفيها إلا قتال الكفار وإخزاؤهم والنصر عليهم.

﴿١٥﴾ ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ﴾ قلوب هؤلاء المؤمنين الذين غاظهم المشركون كثيراً حتى رسخ الغيظ في قلوبهم فلا يذهبه إلا ما ينال المشركين بقتال المؤمنين لهم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ من بعد ذلك القتال وفوائده ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فباب التوبة مفتوح لهم وإن قوتلوا وعذبوا بالقتال، فمن شاء الله هداه للتوبة فأسلم وتاب، وهذا دفع لتوهمهم أنها لا تقبل توبتهم لطول تمردهم وقتالهم للمسلمين وتعذيبهم قبل الهجرة ومعاداتهم لرسول الله ﷺ وهمهم بإخراجه وغير ذلك من عدوانهم وظلمهم وتكذيبهم لآيات الله.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بما سيكون، وهو عليم بما عليه الكفار وما قد مضى منهم وبكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ فحكمه بالقتال وتوبته من بعد على من يشاء كلٌّ ذلك مطابق للحكمة.

﴿١٦﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾ غير مكلفين بالقتال ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي تُتركوا في حال لم يتميز المؤمن الصادق في إيمانه المجاهد في سبيله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ جاهدوا ولم يتخذوا من الكفار ﴿وَلِيجَةً﴾ بطانة يتولونهم من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

قال الراغب: «والوليجة: كلُّ ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله، من قولهم: فلان وليجةٌ في القوم إذا لحق بهم وليس منهم» انتهى، وقال في (الصحاح): «ووليجةُ الرجل: خاصته وبطانته» انتهى.

فالمؤمنون الخلَّص جاهدوا وثبتوا على إيمانهم ولم ينافقوا، فكان التكليف بالجهاد لتمييزهم وإثابتهم، وإظهار فضلهم على غيرهم ممن تقاعد عن الجهاد ومن نافق، ولولا التكليف بالجهاد لكانوا في الظاهر سواء، ولم تحصل للمؤمن فضيلة الجهاد، وفضيلة التوكل والثبات عند الزلازل والخوف.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عليم بِخُبر أعمالكم كلها؛ لأنه عالم الغيب، فقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ إنما هو كناية عن وقوع ما يعلم الله وقوعه، مع أنه سبحانه عالم ما سيكون قبل كونه ولكنه تشبيه للتكليف بالإختبار الذي يترتب عليه تمييز الخبيث من الطيب في حقنا، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ بمعنى بل أحسبتم، فهو إضراب من الترغيب في الجهاد بذكر فوائده إلى ذكر حق الله فيه من الإختبار الذي يريده.

﴿١٧﴾ ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ ليس من شأن المشركين كأنه لا يتصور منهم ﴿أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ لأن أعمالهم حابطة لا تقبل فهي كلا عمل، فالمراد العمارة التي لها فائدة وتعد حسنة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام الناصر ـ أحمد بن الهادي إلى الحق عليه السلام ـ: وقد جاء في الرواية أنه لما أسر بعض رؤساء المشركين أقبل ناس من المهاجرين فعيروه بالكفر وقطيعة الرحم وعون المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترك الإيمان والإقامة على الكفر فقال لهم: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكروا محاسننا؟ قالوا له: وهل لكم محاسن؟ قال: نعم، إن كنتم تجاهدون في سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأعداء فنحن أفضل منكم أجراً، قالوا: وبأي شيء؟ قالوا [قال]:نعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة،ونفك العاني، ونفادي الأسير، ونسقي الحاج، ونؤمّن الخائف، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ..﴾الآية» انتهى.

ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ

و﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ..﴾ المسجدُ الحرام وسائر المساجد الشرعية، ولعل ذكر الجنس ليتناول الكلامُ من كان من المشركين يدَّعي عمارة المسجد الحرام، ويتناول سائر المساجد الشرعية في أن عمارتها لا تتهيأ من مشرك.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أصل العمارة ضد التخريب ولكن السياق يدل على أن العمارة هنا: بمعنى إحياء المسجد بالعبادة فيه، وعمارة المسجد الحرام بالطائفين والعاكفين والركَّع السُّجود، قال تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور:٤] وافتخارُ المشركين بعمارة المسجد الحرام يُظهر أنهم: أرادوا إحياءه بمعاونة الحجاج والعُمَّار بالسقاية ونحوها، والحماية بحيث كثر الحجاج والعمار، أو أرادوا إحياءه بأنفسهم بالطواف وبصلاتهم، أو بالمعنيين.

وفي (الصحاح): «أبو زيد: يقال: عَمَرَ الله بك منزلك» انتهى، وفي (لسان العرب): «ويقال: عَمَرَ الله بك منزلك: يَعْمُرُهُ عمارة وأعمره جعله آهلاً» انتهى المراد.

فالذين يعمرون مساجد الله هم المؤمنون؛ لأن العمل لا يقبل إلا من المؤمن، والجامع للصفات الأربع هو المؤمن حقاً، فعمل الكفار لا يعد عمارة؛ لأنه غير مقبول بل هو حابط، فهو كلا شيء، ويمكن أن لا يسمى عمارة؛ لأن المشرك لا يجي المسجد؛ لأن حياة المسجد وعمارته إنما هي بالعبادة الحقيقية، وعمل المشرك فيه أشبه باللعب؛ ولكون المشرك نجساً لا يصلح للكون في المسجد، فلا يعتبر آهلاً ببقائه فيه كما لو كان فيه كلب فلا يعتبر كونه في المسجد عمارةً له بل شغلاً ونجساً.

سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

وقوله تعالى في المؤمنين: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي يقرب أن يكون أهل هذه الصفات الأربع من المهتدين في بقية أعمارهم للصراط المستقيم فيختم لهم بالخير ويثابون على عمارة المسجد وسائر أعمالهم ففائدةُ ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بيان: أنه لابد من الثبات على الإيمان والإهتداء بهدى الله لئلا يحبط العمل، وأهل الصفات المذكورة قريب منهم الثبات بسبب الإيمان وترجيح خشية الله على خشية غيره، فهم بعيد من النفاق والإنقلاب، فعسى ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ولعل هذا المعنى هو المراد في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢] ومنه قول المصلي: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

﴿١٩﴾ ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾؟ الخطاب لمن سوّى بين ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وبين الإيمان بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، سؤال إنكار للتسوية بينهما وسقاية الحاج سقاية الحجاج بالماء العذب.

﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في علمه أو في علمه وحكمه وهو أحكم الحاكمين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقد كان المشركون في ضلال حين يزعمون سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مع شركهم عملاً صالحاً يُفتخَر به، ولو كانوا على هدى لعلموا أنه لا يقبل منهم عمل مع الشرك، وأن ذلك كسرابٍ بِقِيعة.

أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿٢٠﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ولكون المراد بالكلام في العمل الكلامَ في العاملين، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ أي مَن يسقي الحاج ويعمر المسجد الحرام، ومن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، ثم زاد توضيحاً بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ فبين: أنهم لا يستوون وأوضَحَ عظمَ درجة المؤمن المهاجر المجاهد، وفي التفضيل وجهان:

أحدهما: أنه ليس معناه المشاركة في الدرجة وإنما هو لإثبات درجة عظيمة مقابل لا شيء، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] ولا كرامة للمشرك عند الله، ويؤكد هذا الحصرَ بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فلا درجة لغير الفائز.

الوجه الثاني: أن يكون مدعي المساواة كان قد أسلم وأراد أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام نافعان له وإن كانا قبل الإسلام فرد الله عليه بنفي التسوية، ثم ببيان فضل المؤمن المهاجر المجاهد؛ لأنه قام بواجب الإيمان وواجب الهجرة وواجب الجهاد، وتعداد ذلك مناسب لذكر فضله وإن كان الإيمان والجهاد في تلك الظروف قد أفاد الهجرة بالنسبة لمن لم يكن من أهل المدينة ويشعر ذكرُ الهجرة هنا أن دعوى المساواة كانت بين عملِ مشرك وعملِ مهاجر كما تدل عليه الرواية.

عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «ويقول تبارك وتعالى فيه [أي في علي عليه السلام] وفي العباس ابن عبد المطلب عندما كان من تشاجرهما على الفضيلة، فقال العباس: (أنا ساقي الحجيج) وقال علي عليه السلام: (أنا السابق إلى الله ورسوله) فأنزل الله - عزَّ وجل - في ذلك: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وكان سبب ما أنزل الله من ذلك أن العباس بن عبد المطلب رحمه الله ذكر فضل ما في يده وما يظهر من عمله من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وذكر أمير المؤمنين عليه السلام قديم إسلامه وهجرته واجتهاده في جهاد أعداء ربه، وبذله مهجته لله ورسوله، فقضى الرحمن بينهما وبيَّن الفضل بين فضيلتيهما بما ذكر وقال في كتابه» انتهى ما أردت نقله هنا.

وفي (الدر المنثور) رواياتٌ حاصلها: نزول قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..﴾ الآية، في علي عليه السلام والعباس رحمه الله، وفيه: وأخرج أبو نعيم في (فضائل الصحابة) وابن عساكر عن أنس (رض) قال: قعد العباس وشيبة يفتخران..

فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ

إلى قوله.. فقال علي ﷺ: «أنا خير منكما أنا أول من آمن وهاجر» فانطلقوا ثلاثتهم إلى النبي ﷺ فأخبروه فما أجابهم بشيء فانصرفوا، فنزل عليه الوحي بعد أيام، فأرسل إليهم فقرأ عليهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ..﴾ إلى آخر العشر، انتهى.

وفيه: «وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، وابن مردويه: عن عبد الله بن عبيده ﷺ قال: قال علي للعباس ﷺ: (لو هاجرتَ إلى المدينة) قال: أولستُ في أفضل من الهجرة ألست أسقي الحاج وأعمر المسجد الحرام؟ فنزلت هذه الآية يعني: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ قال: فجعل الله للمدينة فضل درجة على مكة» انتهى.

وفي (مصنف ابن أبي شيبة) [ج١٢/ ص٨١ ـ الطبعة الأولى تاريخها١٤٠٢هجرية]: «حدثنا وكيع، عن إسماعيل، عن الشعبي: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: نزلت في علي والعباس» انتهى، وفي (حاشيته): «أخرجه الطبري في (التفسير) من طريق ابن عيينة عن اسماعيل» انتهى.

وذكره ابن كثير من طريق عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة..إلخ، وفي كتاب (شواهد التنزيل) تأليف الحاكم الحسكاني روايات كثيرة تؤيد هذا، وفي النسخة المطبوعة تخريج واسع لتلك الروايات، فراجعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كالتعليل يشير إلى سبب عظم الثواب من قدرة الله وعلمه وغناه وكرمه وغاية الرحمة والرضوان لأوليائه.

﴿٢٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ اتخاذهم أولياء إصفاء المودة لهم والكون معهم فيما يهمهم، أي النصح لهم في المعاونة لهم على الأمر المهم لهم.

تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ

وذكر الشرفي في (المصابيح) في معنى هذه الآية: «عن الإمام الناصر أحمد ابن الهادي عليه السلام قال: إنها نزلت في المسلمين من أهل مكة، فالذي وصل إلينا من الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر الناس بالهجرة إلى المدينة فجعل الرجل يقول لأبيه والرجل لأخيه والرجل يقول لامرأته والرجل يقول لقرابته: إنَّا قد أُمرنا بالهجرة إلى المدينة فاخرجوا معنا، فمنهم مَن سارع وتعجبه الهجرة، ومنهم من يأبى على صاحبه أن يهاجر معه، فجعل الرجل يقول لزوجته ولولده ولأخيه ولقرابته إذا أبوا عليه أن يهاجروا معه: والله لئن ضمَّني [ضمَّنا] الله في دار هجرة بعد اليوم لا نفعتكم بشيء أبداً ولا أعطيكم شيئاً أبداً وصفهم [كذا] [فمنهم] من تتعلق به زوجته وعياله فيقولون: ننشدك بالله أن تَدَعَنا على غير شيء فنضيع ونهلك فيرقّ لهم عند ذلك ويرحمهم فيجلس معهم ويدَع الهجرة، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ [وَإِخۡوَٰنَكُمۡ] الآية» انتهى.

قلت: ولا يشكل على هذا تأخر نزول (براءة) بعد الفتح، فإن المتأخر هو العشر الآيات في أولها وقد مر ما يفيد هذا، فأما بقية السورة فمنها ما هو متقدم أو كل بقيتها أو أكثره.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم عصوا الله ورسوله بتوليهم، ومعصيةُ الله ظلم لأنها حيف وجور؛ لأن الحق والعدل طاعة العبد المنعَم عليه لسيده المنعِم عليه بنعَم لا يحصيها، فإذا أساء إليه بالمعصية وارتكاب ما نهاه عنه فقد ظلم وجار وتعدى.

﴿٢٤﴾ ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾ قال الراغب: «فصار العشيرة اسماً لكل جماعة من أقارب الرجل الذين يتكثَّر بهم» انتهى.

نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها فهي عزيزة عليكم بسبب اكتسابكم لها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي أموال تجارة تخشون أن لا تَنفُقَ لكم إن هاجرتم ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ إما لإلفهم لها وإما لأن فيها أغراضَهم ومطالبهم فلا يريدون مفارقتها للهجرة .

﴿قُلْ﴾ إن كان ذلك المذكور ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بنصر نبيه والإنتقام منكم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن أمره الخبثة الفجار، أي فأنتم حينئذ فاسقون محرومون من هدى الله؛ لأنه لا يهدي القوم الفاسقين، وهو يفيد: أنهم مستحقون لانتقام الله منهم؛ لأن الفاسق يستحق العقاب، وهذه الآية للمسلم مَخْبَر الإيمان الصحيح أو الفسق الصريح، فليتأمل نفسه ليعرف من أيِّ الفريقين هو أمن المؤمنين أم من الفاسقين؟

﴿٢٥﴾ ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَ﴾ اذكروا ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ قال في (الصحاح): «والموطن الْمَشْهَدُ من مشاهد الحرب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وقال طرفَة:

على موطن يخشى الفتى عنده الردى ... متى تعترِكْ فيه الفوارسُ تُرْعَدِ»

انتهى.

وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

و﴿حُنَيْنٍ﴾ موضع وقعت فيه معركة شديدة، قال في (الكشاف): و﴿حُنَيْنٍ﴾ واد بين مكة والطائف» انتهى ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ قال في (لسان العرب): «وأعجبه الأمر سرَّه» انتهى، سرتكم كثرتكم لظنكم أنكم تغلبون العدو بسبب كثرتكم ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ لم تكفكم شيئاً من عدوكم أي لم تدفع كثرتُكم عنكم شيئاً من ضر العدو لكم، وهذا يدل على أن العدو قد أصابوهم ببعض الإصابات لم يدفعوها بكثرتهم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ بعد أن لم تغنِ عنكم كثرتكم شيئا انهزمتم مدبرين، والإدبار ضد الإقبال.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ الطمأنينة وسكون القلوب وذهاب الفزع على رسوله وعلى المؤمنين، والمؤمنون في تلك الحال هم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ لم يفروا من الزحف، ويحتمل أن هذا الفرار من بعضهم لاحقٌ بالخطأ فلا يخرجهم من الإيمان وذلك فرارُ مَن رجع فوراً وكان فراره بسبب مفاجأة العدو قبل التوقع له ولمصادفته يرمي وهم غافلون ـ والله أعلم.

فهذه السكينة في وقت الخوف أضافها الله إلى نفسه هي آية من الله وأمر خارق كإنزال الجنود، فأما اطمئنان بقية الجند المنهزمين بعد تراجع المجيبين لدعوة الرسول ﷺ فليس من السكينة المذكورة لأنه أمر غير خارق لحصول سبب الأمن الطبيعي.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: حنينٌ وادٍ بين مكة والطائف كان فيه القتال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين قبائل من المشركين فأُعجِب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكثرتهم حتى ظنوا أنهم لا يهزمون فلما التقوا بحنين حمل عليهم المشركون حملةً واحدة فخفت أقدامهم واختلفت قلوبهم وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين، ومعه نفر من بني هاشم فلم يبرحوا، وثبَّت الله أقدامهم ونصحوا، قال الشاعر:

خلا الناس عنه في حنين بأسرهم	وولوا هزيماً بالرماح الشوارع
سِوى الهاشميين الكرام فإنهم	ذوو الصبر تحت المرهفات القواطع
وفيهم عليٌّ خير من وطئ الحصا	قريع قريش كلها في الوقائع
سنان رسول الله في كل حومة	وكاشفها عن وجهها غير راجع

قال الشرفي: «ومعنى قوله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٢٥] أي فلم تدفع عنكم الكثرةُ شيئاً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ مع رحبها وسعتها أي لا تجدون موضعاً لمنجاتكم لشدة الخوف» انتهى المراد.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية وتفسيرها يقول الإمام الناصر أحمد بن الهادي عليه السلام: فلما التقوا بحنين كسر العدو [جفون] سيوفهم ثم حملوا عليهم فهزموا المسلمين هزيمة شديدة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بغلته وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به وهو ابن عمه، والعباس بن عبد المطلب آخذ بالسفر [بالثفر] وانهزم الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا عشرة رجال كلهم من بني هاشم لم يخلطهم أحد من الناس منهم: العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأمير المؤمنين علي عليه السلام، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ..﴾» الآية.

فوجبت السكينة على رسوله وعلى المؤمنين..الآية، فوجبت السكينة وفضلها له ﷺ ولمن وقف معه بحنين خاصة وبمثل هذه يعرف الحق لأهله والفضل لمن جعله الله له وفيه، وقد قال غيرنا: إن الذين وقفوا معه نحو من ثلثمائة رجل، وليس ذلك بشيء وليس الصحيح إلا عشرة من بني هاشم، وفي ذلك يقول الشاعر:

خلا الناس عنه في حنين بأسرهم ... وولـوا هزيماً بالرماح الشوارع

ثم ذكر الأبيات التي مر ذكرها آنفاً.

قال عليه السلام: وقد قيل في ذلك من الشواهد ما لا نحصيه ورجع رسول الله ﷺ يناديهم: (يا معشر المهاجرين إليَّ) ويقول:(يا معشر الأنصار إليَّ) ثم يقول: (أين أصحاب السمرة)؟ فاجتمع الناس، ثم حملوا على المشركين فهزمهم الله لرسوله ﷺ وولوا مدبرين وغُنِمت أموالهم وذراريهم، ولهم خبر يطول وأنت تجده في (كتاب المغازي) إن شاء الله تعالى›› انتهى.

قلت: قد صححت بما بين المعقوفات؛ لأن الظاهر أن خلافه تصحيف من بعض النساخ وغلطهم.

وفي (سيرة ابن هشام): ‹‹أن رسول الله ﷺ قال: (يا عباس أصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة›› انتهى، وهي الشجرة المذكورة في القرآن: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] فالدعوة لهم تذكير لهم بالبيعة تحتها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بالقتل والهزيمة واغتنام أموالهم وذراريهم وما في ذلك من الغيظ والحزن، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي تعذيبهم عقوبة عاجلة، أو التعذيب من حيث هو تعذيب جزاؤهم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا

وفي (قصة حنين) تذكير بنصر الله لرسوله والمؤمنين حين لم تنفعهم الكثرة فهو تذكير لهم بنعمة الله وعبرة ليزدادوا توكلاً على الله، وليس فيها دلالة على أنهم أثموا بإعجاب كثرتهم لهم وكيف لا تعجبهم وهي في ظاهر الحال قوة للإسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] وليس العجب بالقتال مع الكثرة بل مظنة العجب القتال في حال القلة، فجعل ذلك من العجب المذموم غير صحيح عندي، وبالله التوفيق.

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ القتال للمسلمين والتعذيب للكفار ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فيهديه للإسلام وهذا دفع لتوهم الكفار أنه لا توبة لهم، فأما المسلمون فلا إشكال في قبول توبة من تاب منهم من الفرار وقد تقرر ذلك يوم أحد فجعل هذه الآية فيهم بعيد عندي مع أنهم داخلون في عمومها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن مغفرته ورحمته توبته على بعض العصاة ليتوبوا.

﴿٢٨﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ قال الشرفي في [المصابيح]: قال في [البرهان] هم أنجاس الأبدان كنجاسة الكلب والخنزير وتنزه منهم المساجد كما تنزه من الكلاب والخنازير ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ بحج أو عمرة كما كانوا يفعلون، وقوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ وهو عام سنة تسع من الهجرة، لقول علي عليه السلام: «ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك» انتهى.

قلت: يعني: أنه تفسير للآية، وهو واضح لأن رسول الله ﷺ أرسل علياً إليهم بـ(براءة) وهم بمكة، فدل ذلك على أنه لم يكن سبق النهي عن دخولهم المسجد الحرام؛ لأنه لو كان قد سبق لم يحج المشركون لأن رسول الله ﷺ قد كان فتح مكة وصارت دار إسلام، ولو كانت هذه الآية نزلت قبل سنة تسع لنهاهم رسول الله ﷺ قبل إرسال براءة، أي سنة ثمان مثلاً، ولو نهاهم لاشتهر أنهم انتهوا أو أنهم لم ينتهوا.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يا أيها الذين آمنوا خفتم ﴿عَيْلَةً﴾ فقراً بسبب انقطاع ما كان يأتي به المشركون مع الحج من الطعام وغيره ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الفقر ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ فعليكم أن تمنعوا المشركين على كل حال، وتوكلوا على الله وهذا فائدة قوله تعالى
﴿إِن شَآءَ﴾ لأنه لو لم يقل إن شاء لذهب الإبتلاء بمنعهم مع خوف العيلة.

فإن قيل: فما فائدة هذا الوعد المعلق على شرط المشيئة؟

قلت: فائدته: أن يرجو فضل الله، ولا ييأسوا لمنع المشركين من رزق يغني عما كانوا يجلبونه إلى مكة، وإذا اجتمع الخوف والرجاء كان شأن المؤمن التوكل على الله في امتثال أمره ونهيه وأن لا يمنعه الخوف من طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذكير لهم أنه عليم بأحوالهم فهو عليم بانقطاع ما كان يجلبه المشركون عليم بحاجة المؤمنين إلى بدله من الرزق وهو حكيم، فإذا اقتضت حكمته أن يرزقهم ويغنيهم من فضله فعل، وهذا أيضاً مما يحصل به الرجاء لفضله.

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى

وأما الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ والقصر فيه فالراجح: أن معناه: ليس المشركون صالحين لقرب المسجد الحرام؛ لأن عملهم غير مقبول وهم يطوفون عراة وصلاتهم عند البيت مكاءً وتصدية وفي تلبيتهم الشرك؛ لقولهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» فليس فيهم خير يؤهلهم لقرب المسجد الحرام إنما هم نجس، فالقصر قَصْرُ القلب، مثل: ﴿لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١] وذلك لئلا يظنوا منع المشركين من قرب المسجد الحرام أنه من الصد عن العبادة في المسجد الحرام فليسوا أهلَ عبادة لله إنما هم نجس.

﴿٢٩﴾ ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ واليوم الآخر؛ لأنهم وإن ادعوا ذلك غير مؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] وقال في بعض أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٨١] فالإيمان الصحيح هو ما بَعَثَ على طاعة الله وتقواه لبعثه على الخشية من الله ومراقبته وهكذا الإيمان باليوم الآخر هو ما بعث على الإستعداد له والحذر من النار والصبر على طاعة الله وترك الإصرار على معصية الله خوفاً من النار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فهم أهل فساد وإفساد وإذا تُركوا فهم يبيحون الخمر والخنزير، وذلك يؤدي إلى نشرهم لفسادهم في الأرض، وقد قال تعالى في اليهود: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة:٣٣] والتجربة في هذا الزمان تدل على انتشار الفساد بسبب الحرية التي تبيح الخمر والزنا واللواط، وغير ذلك من أسباب شيوع الفساد وانتشاره وانتشار الأمراض بسببه، مع انحراف أهل الأهواء عن الملل جملة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو دين الله ارتضاه لهذه الأمة وأرسل به رسوله وأنزل به كتابه وقامت الحجة على أهل الكتاب وغيرهم بالقرآن فعتوا عن الإيمان به وأصروا على الكفر، وهذا مع ما يأتي في الآيتين بعد هذه الآية من فسادهم.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يخص أهل الكتاب من بين سائر الكفار لحكمة وهو أحكم الحاكمين حيث شرع قتالهم حتى يعطوا الجزية بخلاف سائر المشركين الذين ليسوا أهل كتاب سماوي.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ غاية للأمر بقتالهم فلا يجب متى أعطوا الجزية ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ عن يد بسبب يد ونعمة عليهم هي أمانهم من القتل فقوله تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾ كقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي في معنى ﴿عَن﴾ فاليد هنا النعمة ولذلك أفردت، ولو كانت عبارةً عن العضو لجُمعت، كقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ (الواو) واو الحال أي في حال صَغَارهم والصغارُ الذلة وذلك يفيد أن لا يبقى لهم عز بل يخضعوا لدولة الإسلام وأحكامه من غير أن يُظلَموا ولا يَنالوا كرامة المسلم.

ومن أمثلة ذلك: ما روي عن علي عليه السلام في مخاصمته لكتابي ادَّعى عليه علي عليه السلام درعاً له، فتحاكما إلى شريح فجلس علي عليه السلام عند شريح، والقصة بسندها في (أمالي أبي طالب عليه السلام) في (الباب الثالث) وفيها: فقال - أي أمير المؤمنين علي عليه السلام -: هيه يا شريح لو كان خصمي مسلماً ما جلست إلا معه ولكنه نصراني، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كنتم وإياهم في طريق فصيِّروهم إلى مضائقه، وصغِّروهم كما صغر الله بهم من غير أن تطغوا» انتهى.

والقصة في (أمالي المرشد بالله عليه السلام) في (الباب الرابع والثلاثين) [ج٢/ ص٢٣٥] بسند آخر، وفيها: فقال علي عليه السلام: لولا أن خصمي ذِمِّي لاستويت معه في المجلس لكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أصغروا بهم كما أصغر الله بهم» انتهى.

وفائدة الجزية: أن تعين على إدارة أمورهم مع أنه لا زكاة عليهم ولا فطرة، وفائدة التصغير بهم: تقريبهم إلى الإسلام لأنهم في مهلة الأمان قد يأنفون من أداء الجزية صاغرين ويرون عدالة الإسلام فيرغبون فيه، وقد روي أنهم كانوا في دولة الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين يسلمون بسبب عدله.

وكذلك الخصم الذي خاصمه أمير المؤمنين علي عليه السلام لدى شريح في قضية الدرع قال كما في الرواية في (أمالي المرشد بالله عليه السلام): أمير المؤمنين قدَّمني إلى قاضيه وقاضيه قضى عليه، أشهد أن هذا الحق، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومثله في (أمالي أبي طالب عليه السلام) ورواية (أمالي أبي طالب) رواها الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول فيما يجب على القاضي أن يفعله) وعقَّب عليها الإمام الهادي عليه السلام في ما يفيد صحتها عنده حيث قال عقيبها: «رحم الله علياً أمير المؤمنين، فقد جهل الحقَّ مَن جهل فضله..» الخ.

ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يعني قوماً من اليهود كانوا غلَوا في عزير ـ صلوات الله عليه ـ لما بعثه الله بعد موته بمدة من الزمان، فقرأ لهم التوراة جميعاً وكتبها وأحاط بمعرفتها كلها وحفظها يروى أنهم صدقوه أنه مبعوث بعدما أنكروا عليه وقالوا عزير مات منذ زمن طويل، فلما رأوا ما فعل من كتابة التوراة كلها وحفظها وروايته لجميعها غلَوا فيه حتى جاوزوا به الحد وخرجوا به من الدين والقصد» انتهى.

قلت: ظاهر الآية: أنهم أجمعوا فلعل ذلك بقول بعضهم ورضى الباقين، وهو يحتمل أنهم كالنصارى في إثبات اللاهوت والناسوت، ويحتمل أنهم جعلوا عزيراً ابناً بالتبنّي والإتخاذ، وكلا القولين باطل وجهل بالله الغني الحميد.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام الناصر أحمد بن يحي الهادي عليه السلام: قد جاء في الرواية أن بخت نصّر لما ملك بابل وظهر على بني إسرائيل وملك بيت المقدس وهدمه وقتل من قرأ التوراة وأحرق ما قدر عليه منها، وكان عزيراً إذ ذاك غلاماً صغيراً، فاستصغره فلم يقتله ولم يرَ أنه يقرأ في التوراة، فلما توفي عزير ببابل ـ صلوات الله عليه ـ ورجعت بنو إسرائيل من بعده إلى بيت المقدس رجعوا وليس منهم إنسان يقرأ التوراة.

فمكث عزير عليه السلام في موته مائة سنة ثم بعثه الله سبحانه ليجدد لبني إسرائيل توراتهم ويكون لهم آية فأتاهم فقال لهم: أنا عزير، فكذبوه وقالوا: قد حدثنا آباؤنا أن عزيراً مات ببابل فإن كنت كما تزعم عزيراً فأت بالتوراة علينا قال: نعم فكتبها لهم حتى فرغ، فقال: هذه التوراة، ثم إن رجلاً من بني إسرائيل يقال له سمحان بن لحيان، وكان من أبناء الذين سباهم بخت نصَّر وكان أبوه رجلاً صالحاً فقال: إن أبي أخبرني أن التوراة جعلت في جابية والجابية هي الجرة ثم دفنت في كرم لنا، فانطلقوا معي حتى أستخرجها لكم.

فانطلقوا معه حتى احتفرها فاستخرج الجابية وفيها (التوراة) فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوها غادر منها آية واحدة مما كتب كله ولا سورة فعجبوا وقالوا: إن الله ـ عزَّ وجل ـ لم يقذف التوراة في قلب رجل منا بعد ما ذهبت من بيوتنا وقلوبنا إلى قلب رجل واحد إلا وهو ابنه، فهذا شركهم بالله عزَّ وجل، فعند ذلك قالت اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ جل وتعالى وتقدس عن قول كل كافر وعلا علواً كبيراً، وأما النصارى فكان شركهم بالمسيح صلوات الله عليه لَمَّا رفعه الله ـ عزّ وجل ـ إليه وحدث من بعد عيسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوم لم يكونوا أدركوه ولكنهم كانوا يقرؤون التوراة ويؤمنون بعيسى صلوات الله عليه.

فأتاهم رجل من اليهود يقال له: يونس، فغرهم في دينهم حتى لبَّس عليهم، وأتاهم بالشبهة مثل ما ترى أكرمك الله في دهرك ممن يتحيل في إدخال الجبر والتشبيه وفساد الدين والطعن على المحقّين من الزنادقة وأهل الإلحاد ووضع الكتب المخالفة للقرآن فنعوذ بالله لنا ولك من الحيرة في دينه والجهل بكتابه والركون إلى غير مرضاته إنه قوي عزيز» انتهى المراد.

وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قُرئ ﴿يُضَاهُوْنَ﴾ يشاكلون فهو قولهم خرج من أفواههم على كبره ونطقوا به في حال أنهم يضاهئون به ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ فهو الباعث لهم على النطق به، وذلك أن من طبع البشر الميل إلى الإقتداء، كما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨].

قال بعض المفسرين: «إن تسرب العقائد الوثنية في دين النصارى ومِثلهم اليهود من الحقائق التي كشف عنها القرآن الكريم في هذه الآية ﴿يُضَاهُوْنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ وقد اعتنى جمعٌ من محققي هذا العصر بتحقيق ما تضمنته كتب القوم، أعني العهدين: القديم، والجديد، على ما حصل من مذاهب البوذيين والبرهمانيين، فوجدوا معارف العهدين منطبقة على ذلك حذو النعل بالنعل حتى كثيراً من القصص والحكايات الموجودة في الأناجيل، فلم يُبقِ ذلك ريباً لأي باحث في أصالة قوله تعالى: ﴿يُضَاهُوْنَ..﴾ الآية في هذا الباب» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعبير عن الغضب عليهم بسبب تلك المقالة، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] ثم قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي من أين يصرفون عن القول في الله بالحق إلى القول بالباطل الذي لا يقبله عقل ولا دين ولا تؤدي إليه حجة ولا شبهة لو عرفوا الله جل جلاله.

﴿٣١﴾ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ أي المذكورون في الآيتين قبل هذه ولعله جمع لهم على التوزيع أي بعضهم اتخذوا ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وبعضهم اتخذوا المسيح فنسب إلى

مجموع الفريقين لذلك، والأحبار: علماء اليهود هنا، والرهبان: عبَّاد النصارى المتفرغون للعبادة فلا يشتغلون بكسب الرزق ولا بأعمال دنيوية.

اتخذوهم ﴿أَرْبَابًا﴾ أي ملاَّكاً مالكين لهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم جعلوا أحكامهم تجري عليهم دون أحكام الله تعالى، فجعلوا تحريم الحلال إذا حرموه عليهم جعلوه ملزماً لهم ليس لهم أن يستحلوه بعد أن حرمه أحبارُهم ورهبانُهم، وهكذا إذا أحلوا لهم ما حرم الله جعلوا ما حرم الله حلالاً لهم فقد جعلوا أحبارهم ورهبانهم مالكين لهم يحق لهم أن يحكموا فيهم بما شاءوا؛ لأن حكمهم لا يكون حقاً إذا كانوا أحراراً مثلهم، وإنما المالك هو الذي يحكم في عبده فيلزمه حكمه، فمعنى جعل الحكم لأحبارهم ورهبانهم: جعلهم مالكين لهم، فصح: أنهم اتخذوهم أرباباً حقيقة وجعلوا لهم الربوبية أسبق إليهم من ربوبية الله لهم حيث آثروا حكمهم على حكم الله، فصح أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله.

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه رباً مالكاً لهم؛ لأنهم أوجبوا على أنفسهم عبادته والعبادة إقرارٌ بالعبودية بزعم العابد.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فلم يأذن الله لهم باتخاذ أرباب من دون الله ولا بعبادة غير الله، فتديُّنُهم بذلك الشرك تديُّنٌ لم يأذن الله به وإن ادعوا أنه من دين الله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ بعبادة الله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ ليس ثلاثةَ أقانيم ولا مؤلفاً من متعدد بل هو واحد حقيقة ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يشاركه ابن ولا صاحبة ولا غيرهما ليس له صاحبة ولا ولد، وهو المالك لعباده؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم فهو ربهم فلا يستحق العبادة إلا هو ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ بَعُدَ عن مشابهة ما يشركونه من المخلوقين الضعفاء المربوبين وتعالى عن ذلك بعزته وقهره فوق عباده.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

﴿٣٢﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ هداه بالقرآن والرسول ﷺ فهم أعداء الحق وأعداء الهدى فلا حق لهم في أن يُتركوا ليفسدوا في الأرض بل يجب أن يُقتَلوا حتى يخضعوا لحكم الإسلام في إطار الصَّغَار حتى لا يتمكنوا من نشر الفساد، ألا ترى أنهم في هذا الزمان ظهر فسادهم وانتشر بالمبشرين وبالإذاعات والتلفزيون والإنترنت وغيرها لَمَّا تمكنوا وضعف المسلمون بتفرقهم وتخاذلهم، بل وعدم الإيمان في قلوب أكثرهم وصاروا يقتلون المسلمين قتلاً ذريعاً لا يحميهم ميثاق الأمم المتحدة، ولا ما يزعمون من رعاية حقوق الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧].

ولو أصلح المسلمون ما بينهم وبين الله لأصلح ما بينهم وبين الناس ولكن كثيراً منهم لا يؤمنون الإيمان الصحيح وإن ادعوا بألسنتهم أنهم مؤمنون: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٨٠-٨١] وصار الكثير منهم علْمَانِيَّةً يفصلون بين الدين والسياسة، ويرفضون تطبيق الشريعة الإسلامية فكيف لا تضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وإطفاء نور الله بأفواههم: هو التشكيك في صدق الرسول ﷺ في أنه رسول الله، وفي أن القرآن كلام الله ونحو ذلك من الكلام المضل عن الهدى، وفي العبارة تشبيه بإطفاء السراج بالتيار الهوائي الخارج من الفم، وفي إضافة نور الله إلى الله تعظيم له ودلالة على قوته وضعف أفواههم عن إطفائه.

لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قد كانوا أرادوا إطفاء نور الله في وقت رسول الله ﷺ فأبى الله ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بإتمام الوحي وإكمال الدين وإظهاره، وقد كان ذلك في آخر عهد الرسول ﷺ فأتَمَّ نوره والكافرون كارهون لذلك، لأن الله غالب على أمره.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ هذا كالتعليل لقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ فالله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يأبى أن يطفئوا هذا النور قبل أن يظهره على الدين كله، ولا يستطيعون مغالبة الله على أمره، والهدى: ما بلغه الرسول عن الله من القرآن وسائر الوحي يهدي من اتبعه إلى الحق، ودين الحق: ما شرعه الله لعباده من عبادته والقيام به من الأعمال والمعاملات وغيرها، وهو دين العباد لربهم يدينون به أي يطيعون الله به ويعملون لـه.

وقولـه تعـالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي ليُعليـه ويجعلـه فـوق الأديان كلها بقوة حجته ونصره لأهلـه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لأن الله غالـب علـى أمـره، وفي هـذه الآيـات تشـجيع علـى قتـال أعـداء الإسـلام المذكورين حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا تحذير من الإغترار بهم فهم فاسدون يأكلون الحرام ويصدون عن دين الله الذي ارتضاه لعباده، فلا ينبغي مع هذا النظر إلى أنهم أحبار أو أنهم رهبان فذلك مظهرُ خداعٍ وتضليل، كما أنه حث على منع تمكنهم من الصد عن سبيل الله بإذلال مجتمعهم وإخضاعه لحكم الإسلام بقتال من أمر بقتالهم في الآيات السابقة: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

﴿.. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ قال في (الصحاح): الكنـز: المال المدفون ـ ثم قال: وفي الحديث: «كل مال لا تؤدّى زكاته فهو كنـز» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «الكنـز: جعل المال بعضه على بعض وحفظه ـ ثم قال ـ:وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي يدّخرونها» انتهى، وفي (لسان العرب): «الكنـز: اسم للمال إذا أحرز في وعاء ولما يحرز فيه، وقيل: الكنز المال المدفون» انتهى المراد.

وقوله: «ولما يحرز فيه» الصواب: وللإحراز فيه، يعني: أنه يكون مصدر كنزَ كما يكون اسماً للمال المكنوز، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما بلغ أن تؤدّى زكاته فزكّي فليس بكنز» رواه الإمام أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) ومحله (الباب الثاني والعشرون).

ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

وفي الآية الكريمة دلالة على وجوب الإنفاق في سبيل الله وهو الإنفاق في سبيل دين الله، أي لحمايته أو نصرته أو حفظه أو نحو ذلك، وهذا واجب غير الزكاة.

والآية عامة لأهل البخل الذين يكنزون الذهب والفضة، وفيها تعريض بالأحبار والرهبان أن منهم من يكنز وأنه داخل في الوعيد المذكور، وهو دليل واضح على أن الذهب والفضة المكنوزة ﴿يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا﴾ جباه الكانزين، والجبهة: أعلا الوجه فوق العينين، والجنوب: الضلوع، والظهر: القفا.

قال في (لسان العرب): «والظهر من الإنسان من لدن مؤخر الكاهل إلى أدنى العجز عند آخره» انتهى، وقال فيه: «والكاهل: مقدم أعلا الظهر مما يلي العنق، وهو الثلث الأعلا فيه ست فقر» انتهى.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ يقال لهم حين يعذبون بها هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ وهو تحقيق لخسرانهم العظيم بسبب ما كنزوا.

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ ﴿عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ أي شهور العام الواحد ما هي إلا ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ وهذا حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه حين كون الشمس والقمر وبروجهما يوم خلق السموات والأرض،

فجعل الليل والنهار وجعل الأهلّة وجعل القمر يمر على منازله في شهر، والشمس تمر على منازلها في سنة، فكتب هذا التوقيت بتسخيره للشمس والقمر على سيرهما المقدر المحدود، كما قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥] فبهما علم الناس السنين وحساب الأوقات أيام وشهور وسنين وهذا مع دورة الأرض، ولعلها ذكرت هنا لمشاركتها في تحديد الشهور، لأن الهلال إنما يكون هلالاً لموقع القمر بين الشمس والأرض ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يفيد أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما في بروجهما يوم خلق السموات والأرض فكانت الأشهر اثنا عشر شهراً يوم خلق السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ الأربعة: ذو العقدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، ومعنى ﴿حُرُمٌ﴾: أن كل شهر منها حرام أي لا يحل القتل فيه ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ تحديد الأشهر بهذا العدد اثني عشر وتحريم أربعة منها: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بالقتل فيها.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ ومع تحريم الأربعة الحرم قاتلوا في غيرها المشركين كلهم عربهم وعجمهم وأهل الكتاب وغيرهم، إلا أن قتال أهل الكتاب محدود بإعطاء الجزية، وخص من الأمر بالقتال من ذكر في أول (سورة التوبة).

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) لقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾: «معناه: عامَّة» انتهى.

وفي (الصحاح): «والكافة: الجميع من الناس، يقال لقيتهم كافة أي كلهم» انتهى، في (لسان العرب): «الكافة: الجماعة، وقيل: الجماعة من الناس، يقال: لقيتهم كافة:أي كلهم.

يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨] قال: كافة، بمعنى الجميع والإحاطة» انتهى المراد، وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الفرا: معنى كافة: أي جميعاً، والكافة لا تكون مذكرة ولا مجموعة على عدد الرجال» انتهى.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فقاتلوهم وثقوا بأن الله معكم إذا كنتم متقين لله مطيعين، وهذا تشجيع وتعبير عن قوة المتقين بالله.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قال في (الصحاح): «وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ هو فعيل بمعنى مفعول، من قولك: نسأت الشيءَ فهو منسوء إذا أخَّرته، ثم يحوّل منسوء إلى نسيء كما يحول مقتول إلى قتيل» انتهى.

وعلى هذا: فالمعنى: أن حرمة الشهر الحرام التي يؤجلها المشركون إلى شهر آخر من غير الأشهر الحرم هذه الحرمة المجعولة في غير الشهر الحرام هي زيادة في الكفر، لأنها تشريع لم يُشَرِّعه الله؛ ولأنها يضل بها الذين كفروا؛ لأنهم يستحلون الشهر الحرام بسبب تأجيل حرمته إلى غيره، والمعنى: أن التأجيل لهذه الحرمة إلى الشهر الحلال زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، ولعل هذا هو السبب في تفسير النسيء بتأجيل الحرمة وتأخيرها أي بالمصدر.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: كان أهل الجاهلية فيما روي إذا احتاجوا إلى القتال في الأشهر الحرم تَسَلّفُوا منها أيَّاماً يحلونها لحاجتهم ويحرمون بعد ذلك أياماً بعددها من زمانهم ويسمونها النسيء بمنزلة نسيء الدَّين، وهو النظرة بين المتداينين، قال الشاعر:

ونحن الناسئون على معدٍّ   شهورهم الحرام إلى الحليل»

انتهى المراد، وهذا يفيد: أن (النسيء) اسم للشهر الذي حرّموه بدلاً من تحريم الشهر الحرام فتسميته النسيء بمعنى أنه الشهر الحرام أخِّر عن وقته الحقيقي.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «هم قوم من بني كنانة كانوا ينسئون الشهور معناه يؤخرونها لحرب أو لأمر فيجعلون ذا الحجة في المحرم أو ذي [ذا] القعدة أو غيرها من الشهور» انتهى نقتله من صورة المخطوطة.

وأفاد في حاشية المطبوعة بتحقيق الدكتور محمد حسن تقي: أن في بعض النسخ (ذا) في الموضعين أي بالنصب ولعله الصواب؛ لأن ذلك هو التأخير، أما جعل ذي الحجة في ذي القعدة فهو تقديم، وفائدة جعل ذي الحجة في المحرم: أن يستحلوا ذا الحجة، ولعلهم يجعلون المحرم حينئذ في صفر فتكون تلك السنة عندهم ثلاثة عشر شهراً، وقد رد الله تعالى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهذا هو الراجح في معنى ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أنه يستلزم أن تكون السنة أكثر من اثني عشر شهراً بشهر أو بأيام.

وقوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بسببه يقعون في الضلال عن الحق لأنهم يقعون في الباطل بناء على النسيء، وقوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والمعنى: أنهم يحلونه عند حاجتهم إليه سنة، ويرمونه إذا استغنوا عن القتال فيه سنة أخرى، والعام هو السنة وهو الحول» انتهى المراد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا

قلت: الراجح: أنهم كانوا إذا أحلوه عاماً حرموه في العام الذي يليه حفاظاً على وقته الأصلي؛ لأنهم لو استمروا عليه نسوا الأصل فهو نوع من تبرير باطلهم بغير مبرر ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوها بتحريم أربعة أشهر وذلك لا يكفي، وأما قوله تعالى: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فهو تفريع على إحلاله عاماً وهو الأصل في التفريع وعلى تحريمه عاماً لأنهم توصلوا به إلى إحلاله في العام الأول وجعلوه مبرراً له، فكانوا بإحلاله عاماً وتحريمه عاماً قد أحلوا ما حرم الله.

﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ﴾ زيَّنته أنفسهم للحصول على هواها بالقتال فيه وزينه لهم الشيطان ليزدادوا كفراً وضلالاً وليكونوا من أصحاب السعير ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأنهم يستحقون الخذلان بكفرهم، و﴿سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ قبيحُ أعمالهم.

﴿٣٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تقديم للحث على الجهاد في سبيل الله وإنكار التثاقل عنه؛ لأن من شأن المؤمن الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:١٥].

فالإنكار عليهم بقوله: ﴿مَا لَكُمۡ﴾ معناه: السؤال: ما المانع عن إجابة الدعوة إلى الجهاد؟ لأن الأصل فيهم إن كانوا مؤمنين أن يجيبوا ولا يتثاقلوا، والمراد به بعضهم، إلا أنهم غلبوا على المؤمنين لكثرة المتثاقلين في تلك الحال ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ أي اخرجوا من البلد إلى الجهاد، وفي (مفردات الراغب): «النَّفْر: الإنزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالفزع إلى الشيء وعن الشيء» انتهى المراد، فهو يشعر بالسرعة وقوة النهوض والحركة.

وقوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي تثاقلتم مائلين إلى القعود على الأرض أي اثاقلتم عن الخروج مائلين ﴿إِلَى﴾ البقاء في مكانكم من ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو يصور تباطُئَهم بتثاقلٍ يصعب معه التزحزح للخروج لأجل الثقل الحاصل بالتثاقل.

قال سيد قطب في قوله تعالى ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾: «وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل ويلقيها بمعنى ألفاظه اثاقلتم إلى الأرض وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق..» إلخ.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ﴿أَرَضِيتُم﴾ بهذه الحياة ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ على قصرها وقلة لذاتها وكثرة المنغصات فيها بدلاً ﴿مِنَ﴾ الحياة ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في جنات وسعادة دائمة، فالقاعد عن الجهاد في سبيل الله العاصي لربه بالقعود عنه تفوته الجنة وليس له متعة إلا هذه الحياة الفانية.

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة، أي بالنسبة إلى الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وكيف لا يكون قليلاً وهو منسوب إلى الخلود الأبدي في جنات النعيم ؟ فهو قليل في مدته، وقليل في لذته وخيره، بل هو أقل من نسبة ساعة واحدة إلى مليون سنة.

وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟

﴿٣٦﴾ ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كُتبَت في المصحف ﴿إِلَّا﴾ بغير نون كما ينطق بها، والأصل ﴿إنْ لاَّ﴾ وهي (إن) الشرطية و(لا) النافية.

﴿إنْ لاَّ تَنفِرُوا۟﴾ كما أمرتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يحتمل: عذاباً عاجلاً وآجلاً، ويحتمل: عذاباً آجلاً، والأول أرجح لتقديمه على قوله تعالى ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويحتمل: أن تقديمه لأنه أهم وأشد من الإستبدال لا لتقدمه في الوقوع. وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا﴾ أي يأتي بقوم يجاهدون بدلاً منكم.

وقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ أي شيئاً من الضر؛ لأنه لا تضره معصية من عصاه ولأن دينه يظهر ونبيه ينصر بغيركم إن لم تنفروا ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على تعذيبكم وعلى استبدال قوم غيركم وعلى نصر نبيه وإظهار دينه وعلى كل شيء وليس محتاجاً إلى جهادكم إنما يريد أن يبلوكم بالأمر بالجهاد وبالجهاد إن جاهدتم.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ

نَصرَهُ ٱللَّهُ﴾ في حال غيابكم عنه وغيابه عنكم ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي حين أخرجه الذين كفروا حين ﴿يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فقد نصره الله في حال حين انفراده عن الأنصار ليس معه من ينصره.

﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أي لرفيقه في تلك الحال ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾ فهو قوي بالله واثق بالله، وصاحبه لا ينصره بل هو يطَمْئن صاحبه بقوله له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ويثبته على دينه بقوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾ أي لا تحزن لكونك معي، فإني وأنت في رعاية الله فلا تحزن لأجل وحدتنا أو لا تحزن لعدم من ينصرنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

والفرق دقيق فالحزن الأول سببه الصحبة، والحزن الثاني سببه اليأس من السلامة، وهذا الحزن غير الخوف فهو غير منهي عن الخوف وليس منكراً إنما المنكر الحزن لكونه لازماً لمحذور، ففي تلك الحال تبين نصر الله له واستغناؤه بالله عن الأنصار من الناس، فاعتبروا بها لتعلموا أن الله ناصر نبيه ولو قعدتم عن نصره.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين خرج من مكة ودخل غاراً في جبل ثور ليخفى على من خرج من قريش في طلبه والغار عميق في الجبل والغار هو الجرف من جراف [استعمال الجرف بمعنى الغار لغة يمنية ولعلها عرفية مولده] الجبال وهو الكهف وهو الكنان.

ثم قال الشرفي: والمراد من قوله: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو أنهم جعلوه كالمضطر إلى الخروج وخرج صلى الله عليه وآله وسلم أول الليل إلى الغار وأمر علياً أن يضطجع على فراشه ليمنعهم السواد من طلبه حتى يبلغ إلى ما أمر الله به» انتهى المراد.

وقوله: «جعلوه كالمضطر إلى الخروج» يعني: بتآمرهم على قتله تلك الليلة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يدل على أن الكفار طلبوه فأيده الله بالملائكة ودفع بهم أعداء الله عن نبيه ﷺ، وقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ بأن أعز نبيه وسلَّمه من أخذهم له وقتله وقد تآمروا على قتله ليبطلوا أمر الله ودينه ويبقى الشرك فأبطل الله كيدهم ونجاه منهم بما جعل له من أسباب النجاة منهم وتفويت غرضهم حتى أبطل الشرك والكفر وجعله الأسفل.

فإن قيل: فأين نصر الله له ﷺ والآية إنما دلت على انفراده عن الأنصار، وقوله: ﴿لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؟.

قلنا: بل أفادت نصره بقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ فنجاته وفوات غرضهم بنصر الله وإنزال السكينة عليه جعل قلبه مطمئناً ثابتاً كأنه غير مطلوب ليقتل حذراً أن يفوتهم فيكون له أنصار فيعود عليهم ويقهرهم ويبطل دينهم، فشدة الطلب وشدة حرص الطالبين من شأنه تحصيل الخوف وارتجاف قلب المطلوب مع وحدته وابتعاده عن قرابته وعدم من ينصره من الناس، فكيف لا يكون محتاجاً إلى إنزال السكينة عليه؟ فكان إنزال السكينة عليه وتخييب أمل أعدائه من النصر ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾لأنه إذا قال للشيء كن كان؛ ولأن دينه الأعلى لأنه لا بد أن يظهره على الدين كله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ كالتفصيل والبيان للنصر وما بينهما ظرف للنصر كأنه قيل: فقد نصره الله في حال وحدته عن الأنصار ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾.

خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ

﴿٤١﴾ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا الأمر راجع إلى ما قبله من إنكار التثاقل إذا قيل لهم انفروا، فكأنه قيل: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ وقوله: ﴿إِذَا قِيلَ﴾ يدل على وجوب النفر عند القول لهم: انفروا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولعل المراد قول من له الولاية عليهم كالرسول ﷺ ويحتمل وجوب النفر ولو لم يكن للآمر ولاية عليهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لم يفصل، فيكون كقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩] فإنه لا يشترط فيه أن تكون للمؤذن ولاية عليهم.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: «لا يُفسِد الجهادَ والحجَّ جورُ جائرٍ، كما لا يفسد الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر غلبةُ أهل الفسق» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿خِفَافًا﴾ مطلق في سبب الخفة فتكون خفة البدن لعدم ما يثقله من نقص قوة لمرض سابق أو كثر لحم وشحم أو غير ذلك، وقوله تعالى ﴿وَثِقَالاً﴾ مطلق في أسباب الثقل إلا أنه قد خص الأعمى والأعرج والمريض وبقي من سواهم في العموم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي النفر خفافاً وثقالاً والجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله خير لهم؛ لأن ثوابه عظيم وفيه إعزاز للدين وإذلال للكفر وحماية من الفساد في الأرض.

وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون علمتم ذلك، ومعنى إن كنتم تعلمون الإطلاق ليس مقيداً بمعلوم، فكأنه قيل: إن كان من شأنكم أن تعلموا، وذلك شأن كل عاقل والخطاب للمؤمنين، فلا بد أن يعلموا ما أخبر الله به.

﴿٤٢﴾ ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ ﴿لَوۡ كَانَ﴾ ما دعوا إليه والكلام في المتثاقلين إلى الأرض ﴿عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: غنيمة قريبة» انتهى.

والعرض يصدق على متاع الدنيا لأنه عارض لا يبقى، قال تعالى: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف:١٦٩] فالغنيمة منه ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ بحيث يسيرون في الطريق ولا مشقة فيه، وهذا ليس شأن المجاهدين فإنهم يجولون ويصولون ويذهبون يميناً وشمالاً على ما تدعو إليه حال المعركة فالمعنى لو كان ما دعوا إليه متاع من متاع الدنيا يسافرون له سفراً قاصداً ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ حتى ينالوه بغير قتال ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: السفر والسير» انتهى.

وقال الراغب: «والشقة: الناحية التي تلحقك المشقة في الوصول إليها» انتهى، وفي (الصحاح): «والشقة ـ أيضاً ـ السفر البعيد، يقال: شقة شاقة» انتهى، ومثله في (لسان العرب). ثم قال فيه الأزهري: «والشُّقَّةُ بُعد مسير إلى الأرض البعيدة قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ وفي حديث وفد عبد القيس:آنَّا نَأتِيكَ من شُقَّةٍ بعيدة أي مسافة بعيدة، والشُّقَّةُ أيضاً: السفر الطويل» انتهى.

أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ

والمعاني متقاربة وهي تدل على أن المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ تخلفوا لبعد المسافة إلى محل الجهاد وفي ذلك مشقة السفر الطويل مشقة الغياب عن الأهل والمسكن والمال وفي هذا التعبير دلالة على عدم إيمانهم لأنهم إذا تخلفوا لهذه العلة فهم غير مؤمنين، لأنهم عصوا الله ورسوله ﷺ فراراً من مشقة السفر الطويل فبالأولى أنهم لا يجاهدون في سبيل الله مع رسول الله ﷺ لأنهم أهل دنيا فقط.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يهلكون أنفسهم بالكذب والحلف على الكذب فقد كانوا استطاعوا، ولكن كرهوا الجهاد في سبيل الله، وفي هذه الآية رد على من قال: أن استطاعة العبد لا تكون إلا عند الفعل وهي عندهم موجبة للفعل ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في حلفهم ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾: أي غفر الله لك، مالك أذنت لهم ولم تبتليهم بما يثقل عليهم، حتى تختبرهم ويتبين لك الصادق والمنافق الكاذب منهم» انتهى.

ويظهر: أن المتثاقلين إلى الأرض عند الأمر بالخروج إلى غزوة تبوك استأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف فأذن لهم، لأن المتثاقل غيابه أفضل من حضوره ولمعرفته أنهم مظنة الإنهزام لو خرجوا ولمثل هذا صرف طالوت

وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ

أكثر جنده بالنهر الذي شربوا منه فكان الأذن لهم هو الصواب في ظاهر الحال ولكن هذه الغزوة كانت مسافتها بعيدة وهي تؤدي إلى حرب الروم أهل القوة والكثرة، فكانت هيبتهم مع ضعف حال المجاهدين تمنع غير المؤمنين من امتثال أمر الرسول ﷺ بالجهاد لهم؛ لأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يحبون الحياة ولا يريدون طاعة الله ورسوله ﷺ، فكانت صعوبة المعركة والسفر لها وهيبتها تحملهم على التخلف سواء أذن لهم النبي ﷺ أم لم يأذن لهم، فكان الأذن لا موجب له بل كان تركه فرصة يتبين له ﷺ الصادق في دعواه الإيمان والكاذب، وقد فاتت بطريقة السهو وصار الأذن لهم مجرد رفق بهم وستر عليهم، وهو ينافي الغلظة عليهم التي يستحقونها ومن هنا كان زلة غفرها الله له قبل أن نبهه عليها.

فقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ ليس سؤال توبيخ وإنما هو سؤال عن سبب الإذن ليبين له أنه كان ساهياً فيه وأنهم كانوا يستحقون تركه ليتبين له الكاذبون والصادقون بطاعة الصادقين ومعصية الكاذبين وفيه دلالة على غضب الله عليهم وإن أذن النبي ﷺ لم يفدهم شيئاً، لأنهم متثاقلون عن الجهاد ليس لهم فيه نية والأذن لهم بترك الخروج مع النبي ﷺ لم يكن أذناً في ترك الجهاد في سبيل الله لأنهم لا يجاهدون في سبيل الله ولو خرجوا معه وزعموا أنهم يجاهدون في سبيل الله.

﴿٤٤﴾ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي لا يستأذنونك أي لئلا يجاهدوا، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بضمائرهم ونياتهم وأنهم يريدون الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فهو أخبر عنهم لعلمه بهم.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فلا يخافون عذاب الآخرة لمعصيتهم لله ولا يرجون ثوابها لو جاهدوا في سبيل الله وارتابت قلوبهم شكّت في صدق الرسول وقلقت فهم في ريبهم في شكهم وقلقهم يترددون بين الإيمان والكفر وبين الطاعة والمعصية.

فاحتمال صدق الرسول ﷺ في نفوسهم يدعو إلى الإيمان والطاعة وتجويزهم كذبه يدعوهم إلى الكفر والمعصية واحتمال انتصار الرسول ﷺ يدعوهم إلى طاعته واحتمال غلبة الكفار له في نفوس المرتابين يدعوهم إلى ترك الجهاد معه بل وإلى النفاق واتخاذ الولائج وكلا الإحتمالين مقلق لهم مخيف والجهاد لمشقته وكونه تعرضا للقتل يبعد وقوعه منهم لأنهم يحبون الحياة الدنيا ولا يوقنون بالحياة الآخرة فحرصهم على الحياة الدنيا يصرفهم عن الجهاد ويدعوهم إلى الإستئذان ليتستروا بالأذن لهم في التخلف ولا يصارحوا بالعصيان.

وهذا الإستئذان هو استئذانهم في ترك الخروج للجهاد بعد دعوة الرسول ﷺ إلى الخروج للجهاد وهو غير الإستئذان المذكور في أواخر (سورة النور) فهناك الإستئذان من بعض المؤمنين بالله ورسوله ﷺ الحاضرين معه على أمر جامع للرسول والمؤمنين يستأذنونه ليذهبوا عن محل اجتماعهم لبعض شأنهم وذلك مثل اجتماع لمشاورة في أمر مهم أو لموعظة أو تبليغ وحي يراد تبليغه للعموم.

أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ فتركهم للإعداد مع تمكنهم منه دليل على أنهم لا يريدون الخروج ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ سمى خروجهم انبعاثاً؛ لأنهم لا يخرجون للجهاد في سبيل الله فكأنه مجرد خروج عن البلد ليس كخروج المؤمنين وليس من الطاعة لله ورسوله إنما هو رئاء لو كان ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ حبب إليهم القعود وزادهم كسلاً.

﴿وَقِيلَ﴾ بلسان الحال: ﴿ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ المأذون لهم في ترك الخروج للعذر الشرعي كالأعمى والأعرج والمريض وهذا تحقير لهم حيث قرنوا بالعجزة.

﴿٤٧﴾ ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ بالإرجاف عليكم والتخويف من الأعداء وبانهزامهم عند لقاء العدو حين البأس ونحو ذلك من أسباب الضعف في الرأي وفي العزم، واستثناء الخبال على طريق المشاكلة التقديرية؛ لأنهم يضعون الخبال موضع زيادة القوة للمجاهدين بتسويدهم وتكثيرهم فبطريقة المشاكلة جعله من الزيادة بنفس الإستثناء المفرغ ويأتي نظيره، وهو قوله الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقريب منه في الإستثناء وإن لم يكن من المشاكلة قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

﴿ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

هذا والخبال: ضعف الرأي والإضطراب، قال الراغب: «الخبال: الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالجنون والمرض المؤثر في العقل والفكر» انتهى.

﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ قال الراغب: «ووضعت الدابة تضع في سيرها أسرعت ـ ثم قال ـ : وأوضعتها حملتها على الإسراع» انتهى.

فقوله تعالى: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ مجاز عن السعي في التفريق بين المؤمنين لأن من أوضع بعيره خلال الناس فرقهم، وقوله تعالى: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة أن يفتنكم الذين كفروا بسبب تفرقكم واختلاف قلوبكم ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ غافلون عن كيدهم وفساد نياتهم لا يظنون فيهم الكذب والتغرير وهكذا كثيراً من الناس ولذا يتوصل الكفار بالصحافة الخائنة وغيرها من وسائل الإعلام لإفساد الشعوب الإسلامية والتفريق بينهم ويجعلون منع الصحافة ظلماً وكبتاً للحرية.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عليم بما يفعلون وعليم بما يسرون وعليم بكل أمورهم؛ لأنه عالم الغيب والشهادة فقوله فيهم هو الحق.

﴿٤٨﴾ ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ لقد ابتغى هؤلاء المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله ابتغوا من قبل هذا التخلف الفتنة للمسلمين بتدبير الكيد لهم، إما بالتحريض للكفار عليهم مع الأرجاف على المسلمين وتخويفهم من قوة الكفار، وإما بالتناجي فيما بينهم وتدبير الكيد بأي وسيلة، وإما بغير ذلك.

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ﴾ يا رسول الله ﴿ٱلۡأُمُورَ﴾ التي حاولوا كيدك بها فاتخذوا وسائل مختلفة وآراء متعددة لإبطال أمرك بتقليب الأمور وتحويلها عن وجه إلى وجه خداعاً، والتقليب يكون بقلب الحقائق كذباً وخداعاً، ويكون بفعل ما يظهرونه طاعة، وهم يكيدون به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مثل: خروج بعضهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم (أحد) ثم رجوعهم من الطريق، فهذا الرجوع تخذيل للمجاهدين وكان ظاهر الخروج الطاعة فانقلب مكيدة.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام الناصر أحمد بن يحيى عليه السلام: وتقليب الأمر: تصريفه وترديده، لأجل التدبر والتأمل فيه يعني اجتهدوا في تدبير الحيل والمكايد ودور الآراء في إبطال أمرك.

قال في (البرهان): وتقليبهم الأمور: هو معاونتهم في الظاهر، وممالات المشركين في الباطن، والثاني [كذا] توقعهم الدوائر وانتظارهم الفرص» انتهى.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي أبطل ذلك الكيد وخيب آمالهم، ولعله كشف أسرارهم تارة وتفويت أغراضهم بنصر الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعصمته له من كيدهم ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ دينه الذي حاولوا إسقاطه وإضاعته ﴿وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ فهم ما زالوا أعداء الدين في الماضي وأعداءه في المستقبل.

(٤٩) ﴿وَمِنۡهُم﴾ من المتخلفين ﴿مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام هذه الآية نزلت في جَد [ضبط اسم الجد من غير (المصابيح) انتهى ـ مؤلف] بن قيس وذلك أنه أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج معه في غزوة تبوك فقال يا رسول الله قد علمت إعجابي بالنساء ومحبتي لهن وأنا أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لا أصبر وأفتتن بهن، فقال سبحانه: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا

سَقَطُوا﴾ يقول سبحانه: ألا في العذاب والفتنة، فمعناها: العذاب، فأخبر سبحانه أنه عاد وتعلل بمعنى قد وقع فيه بتخلفه عن الرسول ﷺ» انتهى.

فقوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي لا توقعني في الفتنة أي في الإثم إذا رأيت جواري الروم ووقعت في الزنا أو ارتددت إلى دينهن طمعاً فيهن، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ولا تأثمني ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ معناه: في الإثم وقعوا» انتهى.

وتسمية الإثم فتنة، لأنه سبب للعذاب وهذا أرجح وقوله: ﴿سَقَطُوا﴾ أي هذا القائل وأضرابه من المتخلفين المعذرين.

قال سيد قطب ـ ونعم ما قال ـ: «والتعبير يرسم مشهداً كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون، وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات فلا يفلتون» انتهى المراد.

﴿٥٠﴾ ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا رسول الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ مثل: نصر، وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تغمّهم وتؤلم قلوبهم يقال ساءه ضد سرَّه ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ مثل قتل فيمن معك من المؤمنين ﴿يَقُولُوا﴾ هؤلاء المتخلفون ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ هيأنا لنفوسنا أسباب السلامة ﴿مِن قَبْلُ﴾ بتخلفنا عن الجهاد ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ إلى مقاعدهم ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما هم عليه من المخادعة للمؤمنين وترك الجهاد معهم وفرحون بما أصاب رسول الله ﷺ عداوة له ورجاء لضعفه واطمئناناً إلى قوة الكفار وركوناً إليهم.

هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ

﴿٥١﴾ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَا﴾ ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا﴾ هو خير لنا في العاقبة فكتبه الله لنا، لأنه خير لنا هو مولانا مدبر أمورنا ومحسن رعايتنا ومتولي مصالحنا، فقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ يدل على أنه فائدة لا خسارة علينا، ولعل هذا المعنى هو مراد الحسين بن القاسم عليه السلام، فقد قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ من الكفار وظلمهم ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ عليه الأجر والثواب، ولكنه اختصر في كثير من متشابه الكتاب ليثبين بذلك فضل أولي الألباب، ثم قال: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَا﴾ أي مالكنا وناصرنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وحق المؤمن أن لا يتوكل على غيره» انتهى من (المصابيح).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ليكلوا أمرهم إليه يدبر لهم ما شاء فلا يتركوا الجهاد حذراً من المصيبة وهذا أمر للمؤمنين أن يتوكلوا على الله لا على غيره.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ﴾ ﴿تَرَبَّصُونَ﴾ تنتظرون ﴿بِنَآ﴾ ينالنا ونصير إليه ﴿إِلَّآ إِحۡدَى﴾ الخصلتين ﴿ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ﴾ وهما: النصر، أو الشهادة، فالنصر خير عظيم لظهور دين الله في الأرض وذهاب الشرك والفساد، والشهادة خير عظيم لما مر في (سورة آل عمران).

﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ ونحن ننتظر بكم ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ﴾ بسبب عداوتكم للدين وتخلفكم عن

أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا

الجهاد في سبيل الله وكيدكم للإسلام فنحن نتوقع ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ يوقعه عليكم بأي سبب من أسباب عذابه ﴿أَوْ﴾ يصيبكم الله بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ بأن يأمرنا أن نعذبكم ويسلطنا عليكم بإجرامكم.

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ بكم وقوله: ﴿مَعَكُم﴾ هي معية الإشتراك في التربص ووقته وإن اختلف متعلقه، وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ تعبير عن عدم المبالاة بتربصهم.

﴿٥٣﴾ ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي سواء أنفقتم ﴿طَوْعًا﴾ رئاءً وتعمية على أهل الحق توهمون به النصح للدين ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ عند الأمر بالإنفاق في سبيل الله الأمر للعموم؛ لئلا يظهر نفاقكم ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لأنكم من قبل قوم فاسقون، و﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة:٢٧] وأنتم قد استمر منكم وتكرر الخبث والفجور.

﴿٥٤﴾ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ وهذا خبث عظيم وفجور كبير، فهو من بيان فسقهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ لأنهم لا يرجون الثواب ولا يخافون عذاب الآخرة فهم إنما يراؤون بها رئاء؛ لئلا يقتلوا وهم كارهون لها وذلك سبب كسلهم.

تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ كذلك لعدم إيمانهم بالثواب والعقاب ولبخلهم عن الإنفاق في وجوه القرب فهم يكرهون الإنفاق في سبيل الله وللفقراء والمساكين وسائر ما يأمر الله به ورسوله وسبب ذلك عدم الإيمان الذي هو شرط في قبول الأعمال، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وقد اجتمع منهم الإخلال بشرط القبول والمانع من القبول، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور:٣٩].

﴿٥٥﴾ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ قال في (لسان العرب): «وشيء معجب: إذا كان حسناً جداً».

قلت: فإعجابه تسببيه للسرور به أو للرغبة فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٢] فإن المعنى: ولو رغبت في حسنهن وتفسيره بالسرور غير متعين في كل موضع وإنما يتعين فيمن قد حصل له الأمر المعجب.

وقد قال الراغب في تفسير (العجب): «ويستعار مرة للمؤنق، فيقال: أعجبني أي راقني» انتهى، وفي (لسان العرب): «وكذلك حديث عبيد بن عمير: (ما من عاشية أشد أنقاً ولا أبعد شبعاً من طالب علم) أي أشد إعجاباً واستحساناً ومحبة ورغبة والعاشية من العشاء وهو الأكل بالليل

ومن أمثالهم: «ليس المتعلق كالمتأنّق» معناه: ليس القانع بالعُلقة وهي البُلغة من العيش كالذي لا يقنع إلا بآنق الأشياء وأعجبها ويقال: هو يتأنّق، أي يطلب ءآنقَ الأشياء، أبو زيد: أنقت الشيء أنقاً إذا أحببته» انتهى.

وروى أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) وهو في (باب الترغيب في حسن الخُلق) بإسناده عن علي عليه السلام كلاماً له ذكره في (الأمالي) منه: قوله عليه السلام: «وقعت جارية حماء حواء لعساء لمياء..» إلى قوله عليه السلام: «.. فلما رأيتها أعجبت بها وقلت لأطلبن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعلها في قسمي..» إلخ.

فظاهر قوله عليه السلام: «أعجبت بها» رغبت فيها، وفي حديث (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام): عن أبيه عن جده عن علي عليهم السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعجبه من الحلو التمر والرطب ومن الأطعمة الثريد ومن البقول الهندبا» فالظاهر من قوله: يعجبه، أنه كان يحبه أحسن من غيره.

فالراجح في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾ أنه تفريع على كون نفقاتهم لا تقبل فهي قليلة الفائدة كما في الحديث: «ليس لك من مالك إلا ما لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، أو أكلت فأفنيت» فقد فاتتهم الفائدة العظمى في مالهم فهو حقير لقلة فائدته، فلا ينبغي استحسانه لوفوره لأن نصيبهم منه قليل، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لكل امرئ في ماله شريكان: الوارث، والحوادث» وعلى هذا فتكثير مالهم وولدهم ليس مسارعة لهم في الخير إنما هو فتنة لهم لأنهم يتعبون في خدمة المال وحراسته ويشقون بالحرص عليه والأسف على ما فات.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ أن يمدهم بالمال والبنين ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيعيشون معيشة ضنكا بسببهما، أما الولد فيزيد الحرص على جمع المال

وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ

فيكون التعذيب به من هذه الجهة، وقد يكون عاقاً أو غير مساعد على معاونة أبيه، فيكون التعذيب بالغيظ الذي يحدث لأبيه بسبب عقوقه أو معصيته، والآية الكريمة لم تحدد التعذيب بالمال والولد وقد أراده الله فهو بصير بذلك وليس لنا أن نحدده.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مستحقون للنار، وذلك أنهم يشغلون أوقاتهم بمالهم وتتوجه قلوبهم إلى الجمع والمحافظة وتزداد قسوة وغفلة حتى يموتوا على ذلك وذلك عقوبة على محادة الله ورسوله وسببه منهم فلو آمنوا لكانت أموالهم وأولادهم خيراً نافعاً في الدنيا والآخرة، وكان أولادهم سبباً لزيادة الثواب بتربيتهم على الدين والطهارة، ولكنهم أقبلوا على الدنيا واختاروها وصارت همهم ونيتهم وإرادتهم، فصارت عليهم عناء وعذاباً؛ بفساد قلوبهم بالحرص وطول الأمل، وعدم التوكل على الله، وعدم القناعة، وأراد الله أن يتركهم على ما اختاروا لأنفسهم عقوبة لهم عاجلة فأنزل عليهم الموت ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ باختيارهم فالحال التي زهقت أنفسهم وهم عليها هي منهم والله أراد إزهاق أنفسهم وهم على ما اختاروا لأنفسهم عقوبة لهم بترك التوفيق فساءت خاتمتهم باختيارهم.

﴿٥٦﴾ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ حلفة المسلمين تظاهراً بالإسلام ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ على دينكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ فهم يحلفون على الكذب ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ فلذلك أظهروا الإسلام، ولذلك يحلفون بالله إنهم لمنكم والفَرَق ـ بفتح الراء والفاء ـ الخوف، وخوفهم من القتل بسبب كفرهم.

(٥٧) ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ هذا تحقيق لفرقهم وبيان لشدته عليهم فـ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا﴾ يلجأون إليه من دون أن يفارقوا ديارهم وأموالهم للجأوا إليه خوفاً من رسول الله ﷺ وخوفاً من غلبة الكفار، والملجأ ما يحميهم وينجيهم لو لجأوا إليه من قوي يجيرهم أو غيره ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ جمع مغارة وهي إما الغار على قول (صاحب الصحاح) وغيره، وقال (صاحب لسان العرب): «والمغار، والمغارة: كالغار وفي التنزيل: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾» انتهى، وإما منخفض من مكان كما ذكره (الراغب).

فالحاصل: مكاناً يختفون ممن يخافونه، إما كهف عميق، وإما حفرة، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ نفقاً ضيقاً أو جحراً ضيقاً يندسون فيه ليأمنوا، قال الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): والمدّخل: الضيّق الذي يدخل فيه بشدة» انتهى، وقال الراغب: «وادَّخل: اجتهد في دخوله، قال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ أي هربوا إليه طلباً للنجاة، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون إسراعاً شديداً، قال الرغب: أصله من الفرس إذا غلب فارسه بنشاطه في مروره وجريانه، وذلك أبلغ من النشاط والمرح. انتهى، يعني الجموح أبلغ من النشاط والمرح.

قلت: فقد أحسن (صاحب الكشاف) حيث قال: «يجمحون: يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء، من الفرس الجموح..» إلخ.

وفي (لسان العرب): «وقوله تعالى: ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون، وقال الزجّاج: يسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شيء، ومن هذا قيل فرس جموح وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام» انتهى المراد.

فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ

﴿٥٨﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): روينا عن بعض السلف أنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي، فقال له: اعدل يا رسول الله، فقال: «ومن يعدل إن لم أعدل»؟ فأنزل الله ذلك فيه رواه أبو سعيد الخدري، انتهى المراد، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يعيبك ويقع فيك ويطعن عليك» انتهى.

فالحاصل: يذمك في الصدقات أنك تخطئ في قسمتها أو تضعها في غير الصواب أو نحو ذلك.

﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا﴾ بعد اللمز ﴿رَضُواْ﴾ لأن سبب اللمز إنما هو حرصهم عليها ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم لم يعطوا والمفاجأة هنا بالنظر إلى أنهم يظهرون الإسلام فسخطهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مفاجئ؛ لأنه لا يتوقع من مسلم ومع ذلك هو ينافي الحياء والمروءة ويدل على خسة النفس لذلك فهو مفاجئ ممن لم يكن ظهر منه مثل ذلك من قبل.

﴿٥٩﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ﴾ حين منعوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لكان خيراً لهم، ومعنى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا الله؛ لأنه الرزاق وهو لا يخفى عليه حالنا ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ إما راغبون عما مُنعناه، أي راغبون عنه

وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾

إلى الرجاء في الله وحده وانتظار فضله، وإما إلى الله راغبون أي نرغب إليه وحده أي ندعوه ليعطينا من فضله وهذا أرجح، والحصر هنا لأجل الدعاء، أي ندعوه وحده، فلا ينافي قولهم: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ لأنه إذا أجاب دعاءهم فقد يعطيهم من طريق رسول الله ﷺ.

﴿٦٠﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ تشريع من الله يقطع طمع الطامعين من أغنياء المنافقين والذين في قلوبهم مرض الذين يلمزون رسول الله ﷺ في الصدقات.

والفقراء: هم المحتاجون حاجة تلجيء إلى السؤال أو الإقتراض، والمراد الحاجة الطبيعية لا حاجة النهم بجمع المال، والحاجة الطبيعية مثل حاجة القوت، حاجة اللباس الساتر، حاجة المسكن الذي يؤويه، حاجة الماء، حاجة الدفاء من البرد، حاجة الدواء، حاجة ما يخفف الحرّ في بلاد الحر الشديد، حاجة الزواج، ويدخل في حاجة القوت أو نحوه من هذه الأشياء ما يتوقف حصولها عليه كالحطب والتنور والآنية المحتاج إليها لتحضير الطعام أو حفظه، فحاجة ذلك كله من الفقر ومن كان واجداً ما يسد خلته حى يحصل دخل آخر من غلول مال أو نحوه فليس فقيراً في اللغة بل هو غني.

وقيل: الفقير من لا يملك ما تجب في مثله الزكاة فاضلاً عن المنزل والأثاث والكسوة ونحو ذلك، وذلك بناءً على أن اسم الفقر والغنى قد نُقلا

عن معناهما إلى معنى شرعي؛ بدليل قوله ﷺ: «فأعلِمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم» انتهى.

قلت: مجرد الإستعمال في حديث لا يدل على النقل؛ لأنه قابل للتخصيص والتقييد ولا يجب أن يشمل كل من وجبت عليه الزكاة؛ لأن صدقة نكرة لا يعم كل صدقة، وعلى الجملة هذا موكول إلى بيان تفاصيل أحكام الزكاة فهي تبين من تجب عليه ونصابها الذي تجب فيه وليس الحديث بصدد بيان حقيقة الغني والفقير، ولو دل على أن من تؤخذ منه الزكاة غني لم يدل على أن من لم تؤخذ منه ليس غنياً لاحتماله التخصيص والتقييد وذلك كثير في الحديث، فلا يجب قصر اسم (الغني) فراراً من التخصيص ـ والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: وإنما سمي الفقر فقراً؛ لأنه يفقر الظهر ويقطعه وكذا المسكين فإنما سمي مسكيناً لأنه يَذل ويستكين ويخضع للفقر ويضعف ويلين» انتهى، وقال الراغب: «وأصل الفقير هو مكسور الفقار» انتهى المراد.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) مفسراً لهذه الآية:

«فأما *الفقراء* فهم الذين لا يملكون إلا المنزل والخادم وثياب الأبدان فهؤلاء هم الفقراء.

والمساكين: الذين يجب لهم أن يأخذوا من الصدقة فهم أهل الحاجة والفاقة والإضطرار إلى أخذها.

والعاملون عليها: فهم الجباة لها المستوفون لكيلها وأخذها من أيدي أربابها.

والمؤلفة قلوبهم: فهم أهل الدنيا المائلون إليها الذين لا يتبعون المحقّين إلا عليها ولا غنى بالمسلمين عنهم ولا عن تألّفهم، إما للتقوي بهم على عدوهم، وإما تخذيلاً لهم وصداً عن معاونة أعدائهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويجب على الإمام أن يتألفهم لذلك وعليه أن يُنيلهم بعض ما يرغبون فيه.

وأما الرقاب: فهم المكاتبون الذين يكاتبون مواليهم على شيء معلوم، فيجب على الإمام أن يعينهم في ذلك بقدر ما يرى أو على قدر ضعف حيلتهم وقوّتها.

وأما الغارمون: الذين قد لزمتهم الديون من غير سرف ولا سفه ولا إنفاق في معصية، فيجب على الإمام أن يقضي عنهم ما عليهم من ديونهم ويعطيهم من بعد ذلك ما يقيمهم ويحييهم ويقوتهم ويكفيهم.

وأما السبيل [سبيل الله]: فهو أن يصرف جزء السبيل في التقوية للمجاهدين، والإستعداد بالقوة للظالمين مما يتقوى له من الخيل والسلاح والآلات عليهم، وذلك ما أمر الله سبحانه فيهم، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

وأما *ابن السبيل*: فهو مارّ الطريق المسافر الضعيف، فيعان بما يقيته ويكفيه من قليل أو كثير يدفع إليه الإمام مما له في يده ما يقوم به في كرائه ونفقته وما يكون إن كان عارياً في كسوته حتى ينتهي ويصل إلى بلده» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مفروضة للثمانية الأصناف فرضها الله لهم أي أوجبها وحدّها ولحقته (التّاء) لأنه قد صار اسماً مثل النطيحة.

قال في (الصحاح): «والفرض: ما أوجبه الله تعالى، سمي بذلك لأن له معالم وحدوداً» انتهى المراد، وقال الراغب: «والفرض كالإيجاب لكن الإيجاب يقال اعتباراً بوقوعه وثباته والفرض بقطع الحكم فيه» انتهى المراد.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ

وقوله: «في الرقاب فواجب على الإمام أن يعينهم..» إلخ. الراجح: أن المكاتب مصرف لمعاونته على التحرر وللإنفاق على نفسه، وهو في الحقيقة معاونة على التحرر، لكن الآية لم تخص المعاونة، وكذا قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣] فيتصدق عليه لقوته وحاجاته ولمعاونته على تحرير رقبته.

﴿٦١﴾ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ هنا جريمتان من المنافقين:

الأولى: أذيتهم للنبي ﷺ إما بكلام فيه وإما بالتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإما بغير ذلك فهو جريمة من حيث هو أذية للنبي ﷺ ولا حاجة بنا لتعيينه ما هو.

والجريمة *الثانية*: قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي مسماع سموه أذنا كما سمي الرقيب عيناً.

قال الشرفي في (المصابيح): «عن الناصر أحمد بن الهادي عليهم السلام: كانوا يؤذون رسول الله، فيقولون فيه مالا ينبغي، فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع كذا بنا، فقال ابن سويد: بل نقول ما شئنا فإنما محمد أذن سامعة لمن يأتيه فنحن نأتيه فيصدقنا، فنزل عليه صلوات الله عليه ﴿وَمِنْهُمُ﴾ يعني المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يسمع من أتاه» انتهى.

﴿قُل﴾ يا أيها النبي ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾ سماع سماعاً هو خير لكم لما فيه من الإغضاء عن كلام المنافقين والإعراض عن جهالاتهم وإفساح المجال لمن أراد أن يتوب إلى الله ويصحح إسلامه، فاللين والرفق بكم أقرب لاستصلاحكم ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ [آل عمران:١٥٩] فالتغافل عن حقيقتكم رحمة لكم بإظهار قبول أعذاركم تارة وترك كشف حقيقتكم عند اعتذاركم تارة أخرى، وأذن خير لكم من حيث أنه يسمع كلام الله فيؤمن بالله الذي أنزله عليه، ويبلغ ما أنزله الله إليه من الهدى والرحمة للعالمين.

وأذن خير يؤمن ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ فيقبل منهم قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ ولا يردهم لاحتمال أنهم كاذبون، فيسهل عليهم الدخول في الإيمان بإيمانه لهم وهذه نعمة عظيمة على من كان منافقاً فتاب وآمن؛ لأنه لو رد عليه كلامه وقوله: (آمنت) رده عليه: بأنك قد عرف منك النفاق، والله أعلم بكلامك هذا لشق عليه وعسر الإيمان لمواجهته بالغلظة عليه، فكون رسول الله ﷺ مسماعاً رحمة وكرم، وصفة مدح له، ومن تكلم فيه بالذم لكونه مسماعاً وآذاه بذلك أو بغيره له ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ عقوبة له بأذيته لرسول الله ﷺ عاجلة وآجلة يوم القيامة.

وقلت: عاجله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ..﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾.

وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى

﴿٦٢﴾ ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ يتسترون بالأيمان الكاذبة ليرضوا محمداً ﷺ والمؤمنين، ويحلفون بالله إنهم لمنكم اتخذوا أيمانهم جنة والله العالم بحقيقتهم العالم بكذب أيمانهم ﴿أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ويرضوا رسوله ليسلموا عذابه ويفوزوا بثوابه؛ ولأنه ربهم المنعم عليهم بما لا يحصونه من النعم، فهو أحق أن يرضوه.

وقوله: ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمنين يعلمون أن الله ورسوله أحق أن يرضوه، فهؤلاء المنافقون إن كانوا مؤمنين كما يدّعون فهم يعلمون ذلك.

﴿٦٣﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ فقد جاءتهم الآيات البينات الدالة على ذلك فمن حق المنافقين أن يعلموا لو استعملوا عقولهم ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: من يحارب ويشاقق» انتهى، وهو أحسن في التعبير من تفسيره بالمخالفة؛ لأنه يستعمل في مواضع الحرب أو الشقاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢٠-٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة:٥].

قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

قال الشرفي في تفسيرها: «﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾ [المجادلة:٢٠] أي يخالفون أمره ويعادون ويحاربون أولياءه ويتعدون حدوده وذلك تارة بالمحاربة لأولياء الله وتارة بالتكذيب والصّد عن دين الله، والضمير في قوله: ﴿يُحَادُّونَ﴾ يمكن أن يكون راجعاً إلى المنافقين.. إلى قوله: ويحتمل سائر الكفار» انتهى المراد.

فالأقرب في معنى المحادة: أنه المعاداة، وأنها مشتقة من الحدود التي تكون بين بلدان المتعادين المتباينين، فالآية تفيد: أن للمنافقين نار جهنم خالدين فيها؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ﴾ الفضيحة والعار ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أشد من افتضاحهم في الدنيا إذا انكشف نفاقهم وفجورهم في أيمانهم وكذبهم، وما يقولونه من تحقير النبي ﷺ وما يتناجون به من الإثم والعدوان ومعصية الرسول وتوليهم للكفار من دون المؤمنين وغير ذلك من عيوبهم.

﴿٦٤﴾ ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ قال الراغب: «الحذر: احتراز عن مخيف» انتهى.

فالمراد: أنهم يحاولون إخفاء ما في قلوبهم من الغش والعداوة للإسلام وأهله لئلا تنزل فيهم سورة من القرآن تخبرهم أن في قلوبكم كذا وكذا من الكفر والبغضاء وهذا من جهلهم؛ لأن الله لا يخفى عليه ما يكتمون، ثم أن كتمانه وإخفاءه بما يظهرونه للمسلمين من دعوى الإيمان، وحلفهم إنهم لمنهم ونحو ذلك مما يقولونه، تغطية على نفاقهم وهم فيه غير جادين إنما هم

تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ

مستهزئون، كما قالوا لشياطينهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤] فحذرهم بكلامهم الذي يقولونه استهزاء، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي لن يفيدكم الإستهزاء بترك إنزال سورة تنبؤكم بما في قلوبكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ إخراجه بكشفه لرسوله ومصارحتكم به.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عن خوضهم وتناجيتم بالإثم والعدوان ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ﴿نَخُوضُ﴾ نفيض في الكلام ونسترسل فيه تلهياً بالخوض ﴿وَ﴾ كنا ﴿نَلْعَبُ﴾ بما نقول ليس جداً فيه.

﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ فهو في صورة السؤال عما ادعوه خوضاً ولعباً وهو استهزاء بالله وآياته ورسوله قد انكشف ولم ينفعهم كتمانه بقولهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

﴿٦٦﴾ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ بقولكم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ ليس مجرد خوض ولعب بل هو الكفر بعينه. ﴿إِن يُعْفَ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ يوفقون للتوبة لحكمة في ذلك ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ منكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ استمروا على كونهم مجرمين وأصروا فلم يوفقوا للتوبة ولا بد من تعذيبهم في الدنيا والآخرة.

﴿٦٧﴾ ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ متشابهون في أهوائهم وسلوكهم وغشهم وعداوتهم للدين فهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ

هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ يبخلون، فقد كان هناك المهاجرون في سبيل الله والمحتاجون المؤمنون من الأنصار، وكان المؤمنون يتصدقون، وبعضهم يؤثرون على أنفسهم، والمنافقون يقبضون أيديهم في خلال ذلك المجتمع مجتمع المواساة والإيثار وكثرة المحتاجين؛ لأنهم يبغضون المسلمين ويكرهون معاونتهم، حتى قال قائلهم: ﴿لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧].

﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ غفلوا عنه وتوجهت قلوبهم إلى أغراضهم وباطلهم فلم يراقبوا الله ولم يخافوه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ تركهم وأهملهم عن التوفيق والألطاف والهداية، كأنه نسيهم من هذه الجهة.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هم الخبثة الفجار بعينهم ليسوا من الإيمان في شيء.

﴿٦٨﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ هذا وعد الله لا يتخلف، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لأنه في معنى التوفيق للخروج من النفاق ومن خرج من النفاق وتاب تاب الله عليه، وذلك ـ أي قبول التوبة ـ معلوم من الدين لا يلزم استثناؤه، بل يترك الإستثناء إحالة على فهم السامع.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٤] فإنما معناه إن شاء أن يتوب عليهم بالتوفيق ليتوبوا وهو لا يعارض الوعيد؛ لأنه إنما يفيد: أن الأمر لله فيهم يحكم فيهم بما يشاء وهو لا ينافي الوعيد القاطع للتردد.

فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ

وكذا قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٧-١٢٨] فهو لا ينافي وعيده للكفار الذين لم يتوبوا؛ لأنه ليس إلا بيان أن الحكم لـه فيهم يحكم فيهم ما يريد، وقد بين ما يريد بما أنزل فيهم من الوعيد إن لم يتوبوا، وأن التائب يغفر الله لـه بياناً واضحاً جلياً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم من رحمته، وقوله تعالى ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ أي باق لا نهاية لـه.

﴿٦٩﴾ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ هذا التفات خطاب للمنافقين أي أنتم كالذين من قبلكم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ قد مضوا وهلكوا وقد ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾ في أبدانهم ﴿وَأَكۡثَرَ﴾ منكم ﴿أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ﴾ في الحياة الدنيا ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ بنصيبهم من متاعها الذي هو انتفاع محدود الوقت.

﴿وَخُضۡتُمۡ﴾ أيها المنافقون كالخوض الذي ﴿خَاضُوٓاْ﴾ من القول الذي بقيت تبعته وذهبت لذته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الخائضون بالباطل ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي عملوها من الخير كإطعام جائع أو تفريج عن ملهوف ونحو

وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

ذلك مما يظنون نفعه، فهو حابط ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ لم يدفع عنهم العذاب العاجل ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ لن يدفع عنهم في الآخرة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأن دنياهم انقضت **﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾** [الرعد:٣٥] **﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾** [النساء:١٤٠].

﴿٧٠﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ ألم يبلغهم ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ خبر الذين من قبلهم وقصتهم فيعتبروا بهم لئلا يهلكهم الله بذنوبهم كما أهلك من قبلهم بذنوبهم وصاروا إلى جهنم وذلك الخسران المبين.

﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ النمرود وأتباعه ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب الذين أخذتهم الرجفة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ المنقلبات إلى الباطل.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: ﴿الْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ هي الأمم الكاذبات على الله المجترئات الآفكات، وإنما سميت مؤتفكات لما أتت به من الإفك، والإفك فهو العجز عن لحوق الحق والتمادي في طريق الفسق، فسمى من كان كذلك مؤتفكات مما كان منها من الكذب والإفك على الله في الحالات» انتهى.

قلت: يظهر من عطفها في الآية أنها أمم مخصوصة، ولعلهم كانوا مسلمين فانقلبوا فسموا مؤتفكات لتحولهم عن الحق إلى الباطل، وخصوا بهذا الإسم لذلك من بين الأمم المكذبة للرسل، ولم يقل: الأفكات وإن كان سبب

عقابهم إفكهم؛ ولعل ذلك ليدل المنافقين الذين كفروا بعد إيمانهم أن من انقلب على عقبيه لم ينفعه إيمانه الذي قدمه قبل الإنقلاب بل حبط في الدنيا والآخرة لأنها: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ فكذبوا بآيات الله البينات فأهلكهم الله﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه غني حكيم فلا يصح منه ولا يستقيم أن يظلمهم ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتكذيبهم بآيات الله ومحاربتهم لدين الله، وهذا من أوضح الدلائل على بطلان الجبر، وإلا فما المنفي بقوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ وما المثبت بقوله: ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما الفائدة من هذا النفي وهذا الإثبات وقد تبين أن المعنى أنه سبحانه وتعالى لم يكن ليظلمهم بتعذيبهم الذي عذبهم ويعذبهم به ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي هم الذين فعلوا سبب استحقاقهم للعذاب، فأصابهم سيئات ما كسبوا فلو كان فعلهم من الله لما كان لهذا الكلام معنى، فليحرر فكره مَن طلب الحق وإلى الله المصير.

ولا شك أنه يستوي قول من قال:لا قدرة للعبد إنما هو كالشجرة ـ إن صح أن أحداً قال بهذا القول ـ وقول من قال:للعبد قدرة موجبة للفعل، وأنه يستوي من قال: أنها موجبة يوجد فعل العبد بوجودها فيه، ومن قال: يوجد فعل العبد بوجودها فيه ووجود إرادته، وإرادته عندهم فعل الله يخلقها في العبد، فمتى خلقها وجب عندهم حصول الفعل بالقدرة، فالقدرة عندهم موجبة للفعل بشرط إرادة العبد للفعل، وإرادة العبد للفعل هي من الله عندهم يخلقها في العبد، فإذا وجدت بقدرة الله وجد الفعل بالقدرة الموجبة بشرط الإرادة، وإنما هؤلاء محتالون للقول بالجبر بحيلة؛ لأنهم يقولون: وجد فعل العبد بقدرته وإرادته وصورة هذا القول صورة قول أهل العدل.

ولكنهم وقعوا في الجبر بجعلهم إرادة العبد من الله يوجدها في العبد وجعلهم تأثير قدرة العبد بزعمهم علة موجبة لحصول فعل العبد بشرط إرادة العبد، وجعلوا حصول هذا الشرط من الله فقد جعلوا القدرة والإرادة من الله، وجعلوا القدرة موجبة للفعل متى خلق الله الإرادة في العبد وأوجدها ولا تؤثر القدرة إلا بشرطها والشرط والمشروط والفعل عندهم كله من الله، فلم يخرجوا من الجبر، وإن أثبتوا للعبد بزعمهم قدرة وجعلوا وجود فعله متوقفاً على إرادته، فإن هذا لم يخلصهم من إثبات تعذيب الله للعبد عقوبة على ما أوجده الله فيه كما لو عذبه على السواد الذي خلقه فيه سواء سواء؛ لأن نسبة الفعل إلى العبد لمجرد قيامه به ووجوده بقدرته وإرادته ولكن هذه الإضافات لا معنى لها؛ لأن قدرته عندهم موجبة للمراد والإرادة ليست فعل العبد فلم يبق للعبد تمكن من ترك الفعل؛ لأنه على قولهم مجبور على الإرادة، وعلى الفعل وإن كان لا يسمى مجبراً ولا مكرهاً، فهذا لا يفيدهم شيئاً في إثبات عدل الله وحكمته وتنزيهه من ظلم عباده؛ لأن الله إذا عذبه بذنبه والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد ذنبه بخلقه للقدرة الموجبة والإرادة فيه، فقد عذبه على قولهم بما خلق فيه ولا يفيد اللفظ بأنه إنما عذبه بذنبه شيئاً من تنزيه الله عن تعذيبه بغير استحقاق، وكيف يكون ذلك الفعل سبباً لاستحقاق العذاب وذلك الفعل ناتج عن فعل الله في العبد ولا دخل للعبد في وجود الفعل أصلاً؛ لأن سببه الموجب من الله عندهم فهو من الله وحده؛ لأن فاعل السبب فاعل المسبب فنعوذ بالله من إهمال العقول.

ولما وصف المنافقين بصفاتهم ووعظهم بالوعيد ويذكر من فيه عبرة لهم من الذين من قبلهم وصف المؤمنين بصفاتهم التي تميزهم عن غيرهم، فقال تعالى:

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

﴿٧١﴾ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الولاية ضد العداوة فهي الحب والكون معهم في الأمور المهمة بسبب الحب ويوافق هذا الحديث الشريف: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ لحرصهم على طاعة الله منهم ومن غيرهم حباً لله ولدينه؛ ولكونهم مأمورين بذلك ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأن إيمانهم يبعثهم على إقامتها أي إحيائها وإتمام فروضها وشروطها وخشوعها؛ لرغبتهم في عبادة الله؛ ولأنهم مأمورون بذلك ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ رغبة في ثوابها وفي مواساة مصارفها؛ ولأنهم مأمورون بذلك ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ لأن إيمانهم يأمرهم بطاعة الله ورسوله لخوفهم من الله وإيمانهم بالجنة والنار؛ ولذلك إذا زل أحدهم سارع إلى التوبة ولم يصر على ما فعل وهو يعلم أنه قد عصى الله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي أهل تلك الصفات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الآخرة ولعل هذه الرحمة صرف عذاب النار عنهم، قال تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن عزته وحكمته أن يرحم المؤمنين؛ لأنهم أهل ولايته.

وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ

﴿٧٢﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها لا يموتون ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في البرهان: [أي في المساكن] هي القصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر مبنية بهذه الجواهر، فأما جنات عدن فمعناها جنات خلود وإقامة ومنه المعدن لإقامة جوهره» انتهى المراد.

وكون المساكن في جنات بقاء فضيلة للمساكن؛ لأنها مع حسنها وطيبها وجودتها لا يخاف صاحبها أنه سيفارقها بل يكون واثقاً ببقائه فيها.

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ تنكير الرضوان إما لتعظيمه أي ورضوان عظيم من الله أكبر من ذلك المذكور، وإما للدلالة على أن أي رضوان من الله فهو أكبر من ذلك النعيم؛ لأن لذته في قلب المحب لله أعظم من كل لذة إذا علم رضاه عنه وأكبر من كل غرض في الجنة في نفس المؤمن، أو لأنه يفيد أن لهم من النعيم ما يستدعيه رضا الله لكرمه وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وذلك «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

هذا ولعل نسبة الرضوان إلى الله تعالى كنسبة الرحمة، أي أنه باعتبار الغاية من دون إثبات عاطفة أو نحوها، قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم: قيل: إن رضوان الله عليهم أكبر من دخولهم الجنة، قال عليه السلام: وأنا أقول: إن رضوان الله في ذلك اليوم هو الجنة، ومعنى أكبر أي أن رضوان الله كبير فقام أكبر مقام كبير..» إلخ.

وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ

قلت: لعله عليه السلام تأول الرضوان بناء على أن معناه: عَرَض ينـزه الله عنه فجعل الرضوان هو الجنة، كما كانت الرحمة في قوله تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٧] هي الجنة.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وعد الله المؤمنين والمؤمنات ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ والظفر والفلاح ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه سعادة دائمة وسلامة من شقاوة دائمة.

﴿٧٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ غالبهم وحاول قهرهم بضروب المغالبة فبعضها بالسلاح، وبعضها بالتخويف والإذلال، وبعضها بالحجة القوية البالغة، وإبطال الشبه والتعللات؛ بحيث يضعف المبطل ويقوى جانب الحق ﴿وَٱغْلُظْ﴾ الغلظة ضد الرقة فهي قسوة وشدة وعدم مبالاة، كما قال الشاعر:

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد ... لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَهَنَّمُ﴾ يأوون إليها ويصيرون فيها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ كلمة ذم.

﴿٧٤﴾ ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ هؤلاء منافقون قالوا كلام كفر،ثم صاروا

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ خوفاً من المسلمين، فأكذبهم الله، وبين فجورهم في حلفهم، ثم قال تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ أي هموا بعدوان كاغتيال رسول الله ﷺ ولم ينالوا ذلك الذي هموا به، وهذا تحقيق لكفرهم، وقد روي: أنهم حاولوا في عودة رسول الله ﷺ من تبوك إسقاطه وهو في العقبة، إسقاطه من فوق بغلته إلى الوادي.

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ أي ما أنكر هؤلاء المنافقون شيئاً يبعث على الكفر والهم بالفتك ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وهذا يستدعي الشكر فوضعوا الكفر موضع الشكر وجعلوه بدله، كما مر في قوله تعالى: ﴿مَا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ والغنى ما كانوا ينالونه من الغنائم والصدقات قبل نزول آية المصارف الثمانية، أو بالتأليف لبعضهم، وقوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي من فضل الله.

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾ وهذا بعد كشف جرائمهم دفع لتوهمهم أنه لا توبة لهم ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ﴾ عن الله بالإصرار على كفرهم ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ فلا ينصرهم الكفار الذين نافقوا إليهم ولا غيرهم، والولي أعم من النصير؛ لأنه يتولى رعاية من يتولاه وحمايته وإصلاح أموره.

﴿٧٥﴾ ﴿وَمِنۡهُم﴾ أي من المنافقين ﴿مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): والمشهور في سبب نزول هذه الآية أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ادع الله أن

أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ

يرزقني مالاً، فقال ﷺ: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» فراجَعَه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعى له، انتهى، وقصة ثعلبة في (أمالي المرشد بالله): [ج١/ ص١٩٨ـ ١٩٩].

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ لم يصَدِّقوا كما عاهدوا الله ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن طاعة الله لم يكونوا من الصالحين ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عما يبلغه رسول الله ﷺ بحضرتهم من الآيات والمواعظ.

﴿٧٧﴾ ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾ كان سبباً للعاقبة السيئة ذلك التولي والإعراض، أو الله على أنه من المتشابه المؤول بالخذلان ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي حباً للنفاق وإصراراً عليه، كقوله: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البقرة:٩٣] ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ أي يموتون على ذلك ويبعثون يوم القيامة عليه ويوقفون موقف الحساب والسؤال وهم كذلك.

﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ فالعصيان بالخلف وبالكذب جرَّهم إلى النفاق، وفي الحديث: «..والكذب يهدي إلى الفجور» فهو موافق للآية الكريمة.

﴿٧٨﴾ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ حين عاهدوا الله كاذبين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ ما يتناجون به من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ ألم يعلموا ذلك فيراقبوا الله ويتقوه ويجتنبوا أسباب غضب الله عليهم، لقد آن لهم أن يعلموا.

ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ

﴿٧٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ هذا وصف لمن عاهد الله فقد أضاف إلى نكث العهد وإلى البخل جريمةً أخرى هي لمز المطّوعين من المؤمنين في الصدقات.

واللمز: الذم، كما مر عن الإمام زيد بن علي عليهما السلام، ووافقه (صاحب الصحاح) فقال: «اللمز: العيب..» إلى قوله: «..ورجل لماز ولمزة أي عياب» انتهى.
وقيل: اللمز الإغتياب، وفي (تفسير القاسم عليه السلام)؛ لقوله تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١] الجمع بين القولين ـ والله أعلم.

و﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ الذين ينفقون رغبة وطوعاً ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ حكى الشرفي في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم عليهما السلام معنى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ وهم مع ذلك لا يجدون إلا جهدهم، وهو طاقتهم وقوتهم وما يقيم ويثبت أرواحهم في أجسادهم» انتهى المراد، فقد جعل الذين لا يجدون وصفاً للمطّوعين معطوفاً بالواو، كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

وهو قريب؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ لأن مظنة أن يسخروا منه هو منفق القليل، فأما منفق الكثير فإنما يذمونه بدعوى أنه أنفق رياء، وليس ذلك من السخرية. والآية تفيد: أنهم جمعوا بين اللمز والسخرية، فالمطوعون يستحقون المدح والإحترام، فإذا انضاف إلى تطوعهم أنه إيثار على أنفسهم زاد به استحقاقهم للمدح والتعظيم فلمزهم والسخرية منهم ظلم على ظلم ظلمات بعضها فوق بعض.

لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي فعل بهم كفعل الساخر بهم والمستهزئ بهم؛ لأنه أعدّ لهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وأملى لهم، وهم يتوهمون الإملاء لهم خيراً لأنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على جرائمهم كلها، ومنها: اللمز، والسخرية.

﴿٨٠﴾ ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، فهو تخيير بين الإستغفار وتركه لبيان أنهما سواء.

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنه أعلم بجرائمهم وإصرارهم، وأنهم ليسوا أهلاً لأن يغفر الله لهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فكفرهم بالله ورسوله جرّأهم على الجرائم الأخر، وعلى الإصرار والبعد من التوبة لعدم الخشية من الله وعدم الخوف من عذاب الآخرة؛ لأنهم قد كذبوا الرسول الذي أنذرهم والله لا يهدي القوم الفاسقين الخبثة الفجار المتمردين على الله فلا يغفر لهم ولو أكثرت الإستغفار لهم لأن الغفران متوقف على اهتدائهم وتوبتهم، ولا يهديهم الله لأنهم فاسقون.

﴿٨١﴾ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ سرّهم تخلفهم

يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ

وقعودهم عن الجهاد مع رسول الله سروراً اطمأنوا إليه، كأنهم قد أدركوا الخير الذي لا يعقبهم شراً، وسرهم مقعدهم من حيث أنه خلاف رسول الله كراهة له ولمرافقته وللتأسي به، فهذا الفرح نتيجة كفر ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا تقديم لما يترتب عليه من الوعيد ليدل على أنهم فرحوا بما يضرهم وكرهوا ما هو خير لهم.

﴿وَقَالُواْ﴾ لبعض الناس ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾ تخذيلاً عن الجهاد، ومعارضة لدعوة الرسول ﷺ إليه، ونهياً عن المعروف ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗا﴾ وأنتم صائرون إليها ولم تتّقوها فلم تنهون عن النفر في الحر وأنتم لم تتقوا نار جهنم ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ لو كان المنافقون يفهمون ليحذروا حرَّ جهنم، لكنهم قد أهملوا عقولهم فهم لا يفقهون فقه من استعمل عقله.

﴿٨٢﴾ ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾ في فرحهم بالقعود وتركهم للجهاد ﴿قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ﴿قَلِيلٗا﴾ مدة في هذه الحياة الدنيا تنتهي ثم يصيرون إلى نار جهنم حيث يبكون كثيراً.

وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾ تعبير عن حقارة ذلك وقلّته في جنب أنهم يصيرون إلى جهنم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [ابراهيم:٣٠] وأما قوله: ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ فهو يدل على أن البكاء الكثير كائن لهم وأنه مطلوب لهم أي يريده الله لهم، وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي يجعلهم باكين كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون من الآثام المتكررة العديدة.

مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا

﴿٨٣﴾ ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ من هذه الغزوة، التي فرحوا بمقعدهم عنها خلاف رسول الله قالوا وهي (غزوة تبوك) ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ من هؤلاء المنافقين، ولعل السر في قوله: ﴿طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ ولم يقل: (إليهم) أنهم لا يبقون كلهم حتى يرجع بل يموت بعضهم أو ليعم كل طائفة لأنه نكرة في سياق الشرط فكل طائفة منهم يقول لها ما أمر به في قوله.

﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ لأنكم لا تزالون منافقين أعداء للدين مفسدين، فلن تصلحوا للخروج معي أبداً ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم﴾ لأنفسكم ﴿بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم مأمورين بالخروج للجهاد في سبيل الله فعصيتم، فكشف الله سركم، وبيّن أنكم لو خرجتم أفسدتم، وأنكم لا تصلحون للجهاد في سبيل الله، فكيف تصلحون للخروج مع رسول الله ومرافقة نبي الله وأنتم أعداؤه وأعداء دينه، وقوله: ﴿مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ تحقيق لقعودهم في المدينة، والخالفون: الباقون فيها خلف المجاهدين، أي مع غياب المجاهدين.

﴿٨٤﴾ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ هي صلاة الجنازة سميت صلاة لأنه يدعى للميت فيها، والله أعلم. وفائدة التأبيد: بيان أن من تأخر موته حتى جوز الرسول ﷺ أنه قد تاب فلا حكم لذلك لو وقع؛ لأنهم لا يزالون فاسقين ولو عاش أحدهم سبعين سنة بعد هذا التخلف.

تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ

﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ لأن ذلك تكريم له، وليس أهلاً إلا للإهانة ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ فهنا علتان للنهي:

الأولى: أنهم كفروا بالله ورسوله.

والثانية: أنهم ماتوا وهم خبثة فجار متعمدون للفجور لخبثهم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡ﴾ ولا تستحسن أموالهم الوافرة وأولادهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ فتعذيبهم بها هو المراد بها لأنها تجر عليهم الهم والغم والعناء والتعب المتواصل والتشديد على أنفسهم وعلى أهلهم فبذلك ونحوه يعذبهم الله بها عذاباً عاجلاً والقصر في هذه الآية هو قصر القلب.

أي إنما يريد الله أن يشقوا بها لا أن يسعدوا ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ لاشتغالهم بالدنيا وشغل قلوبهم بها عن النظر لأنفسهم لفرط حبهم لها وغفلتهم عن الحياة الدائمة، فكأنه لا حياة إلا هذه الحياة، فلذلك جعلوها أكبر همهم، حتى ماتوا وهم كافرون، فمأواهم جهنم وبئس المصير.

قال الراغب: «زهقت نفسه: خرجت من الأسف على الشيء» انتهى، وفسر في (الصحاح) و(لسان العرب) زهوق النفس: بخروجها من غير قيد الأسف، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾ معناه: تخرج» انتهى.

مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ

﴿٨٦﴾ ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ كان الكلام فيمن قيل لهم: ﴿انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهنا فيمن سمع كتاب الله يأمر بالإيمان والجهاد مع رسول الله، وهو خاص بأولي الطول من المذكورين أوَّلاً، ولعل هذا كان قبل أن يبلغهم رسول الله ﷺ ما أمر به في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا﴾ لأن هذا بعد (غزوة تبوك) وقد نزل الأمر بالإيمان والجهاد في القرآن من قبل قالوا: وكانت (غزوة تبوك) سنة تسع من الهجرة.

و ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾ الأغنياء الذين لهم فضل من المال يستطيعون به الخروج للجهاد، سواء كان معنى الطول: الغنى، والسعة، أو كان معناه: القدرة ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا﴾ أي اتركنا ﴿نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ كأنهم يحتجون بقعود غيرهم، مع أن القاعدين إما معذور فلا حجة به لغير المعذور، وإما عاصٍ لرسول الله ﷺ فلا حجة فيه بل المقتدي بالعاصي عاص.

﴿٨٧﴾ ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ رضوا لأنفسهم سِيمَا الضعف، بأن يكونوا قاعدين مع النساء؛ لأنهن لم يكتب عليهن الجهاد لضعفهن مع كفاية الرجال.

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ لا يفهمون الزجر والإنذار والتخويف فهما نافعاً؛ لأنهم معرضون لا يتفهمون ولا تقبل أنفسهم ما فهموه لأنهم كارهون لذلك.

وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى

﴿٨٨﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أهل الإيمان الصادق المشاركون لرسول الله ﷺ في نصرة الإسلام، والدعوة إلى الله، والإيمان الصحيح الكامل ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ مكتوب لهم ومعدّ لهم الخير الكثير ﴿وَأُولَٰٓئِكَ﴾ أهل تلك الصفات ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بالخير لا من قعد في أهله وماله وظن أن الخير في ذلك.

﴿٨٩﴾ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ للرسول والذين آمنوا معه ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه السعادة الدائمة ومنجاة من الشقوة الدائمة فهو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ قال الراغب: «الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ تنبيه على أنهم على خلاف ما عليه المتخلفون الذين تقدم الكلام فيهم وبضدها تتميز الأشياء فقوله: ﴿لَٰكِنِ﴾ لإفادة ذلك.

﴿٩٠﴾ ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والفرق بين العذر والتعذير: أن العذر حق، والتعذير كذب» انتهى.

ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ وهم الذين غير جادّين في الأمر، يظهرون باللسان خلاف ما في القلب» انتهى.

فالمعذرون هنا: هم الذين يدّعون الأعذار المرخصة في ترك الجهاد، أو الأعذار التي تسبب الأذن لهم في التخلف، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ﴾ أي جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدلون إليه بدعاوى الأعذار ليؤذن لهم في التخلف عن الجهاد.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ﴿قَعَدَ﴾ عن الجهاد وتخلف فلم يخرج للجهاد ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ﴾ أي قالوا: كاذبين، إما قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ وأما أنهم يقولون لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: سنجاهد معك، وهم في ذلك متعمدون للكذب.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ علق الوعيد على الكفر ليخرج من خرج من الكفر بالتوبة، ويحتمل: رجوعه إلى المعذرين والكاذبين وهو الراجح.

﴿٩١﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ ليس عليهم حرج في ترك الجهاد، والضعف قد يكون من أثر المرض، وقد يكون من شدة الكبر بحيث لا يستطيع القتال.

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إذا صلحت نياتهم وجدّوا في معاونة الإسلام بما يقدرون عليه من القول ونحوه، فالنصح إخلاص الولاء لله ورسوله ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ ما عليهم حجة ليصيبهم حرج؛ لأنهم محسنون، والحرج إنما هو على المسيئين.

مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فهو يغفر لأهل الأعذار الصحيحة، ويرحمهم مما قد يقع منهم من تقصير في النصح لغفلة أو سهو أو نحو ذلك.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ ولا حرج على الذين هم راغبون في الجهاد، لكن ليس لهم رواحل تحملهم إلى محل الجهاد وهو بعيد، فإذا ﴿أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ على إبل من عندك لم يكن عندك ما تحملهم عليه ﴿تَوَلَّواْ﴾ من عندك يبكون ﴿حَزَنًا﴾ من أنهم لا يجدون ما ينفقون ليجاهدوا، فهؤلاء ما عليهم من حرج في ترك الجهاد لأنهم راغبون فيه لم يمنعهم إلا أنهم لا يجدون ما ينفقون في رواحل أو في كراء رواحل وفي مؤونة السفر.

﴿٩٣﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُ﴾ يقدرون على تحصيل الدواب ومؤونة السفر، ولكن ليسوا مؤمنين فيرغبوا في نصرة الإسلام بل أرادوا القعود ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ مع النساء الخوالف في البلد للذين رحلوا للجهاد، أي خلفن المجاهدين، وهذه صورة للأغنياء المعتذرين دنيئة قد رضوا بها لأنفسهم بسبب كراهتهم للجهاد.

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهذا يدل على أنهم قد تمردوا حتى استحقوا الخذلان فصارت قلوبهم كارهة للحق فكأن عليها طبعاً وختماً كالختم على الزجاجة يمنع من دخول العلم إلى قلوبهم وهذا تمثيل وقد مر تحقيقه في تفسير أول (سورة البقرة).

لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يعتذرون من تخلفهم واستئذانهم لترضوا عنهم ﴿قُل﴾ يا رسول الله: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم ولن نقبل منكم اعتذاركم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وفي هذا دليل على أن المعتذر المخادع الذي يعلم كذبه وإضراره لا يجب قبول عذره وهو مخصص لعموم الحديث: «من لم يقبل العذر من محق أو مبطل لا ورد علي الحوض».

فإن قيل: فما فائدة قوله: «أو مبطل»؟

قلنا له فائدتان: **الأولى:** إذا كان تائباً وقد ندم على إساءته فاعتذر منها فيقبل اعتذاره لتبقى الأخوة بين المؤمنين، **الثانية:** إذا فرض أنه مبطل في الواقع لكن لا يُعلم أهو محق أم مبطل، فيقبل اعتذاره حملاً له على السلامة؛ لتبقى الأخوة بين المؤمنين، فأما هؤلاء المذكورون في الآية فهم مصرون مخادعون بدليل هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾ أي أخبرنا الله وأعلمنا بعض أخباركم، وهو ما يكشف كذبكم وخداعكم وإصراركم.

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي عملكم المستقبل سيراه الله ورسوله فإن صلحتم نفعكم وإن بقيتم على ما أنتم عليه كان أمركم مكشوفاً لرسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ العالم بكل ما قدمتم لأنه عالم الغيب والشهادة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حتى لا ينفعكم كتمان ما تكتمون في الدنيا من نفاقكم وفسادكم ويكون يوم القيامة عملكم كله مكشوفاً فتجزون الجزاء الأوفى لأن الله ينبئكم به هو ولا يحتاج إلى سؤالكم ليعرف ما كنتم تعملون.

سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ

﴿٩٥﴾ ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي رجعتم إليهم ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ عن تعنيفهم أو مؤاخذتهم بسبب تخلفهم عن الجهاد، أي يحلفون على اعتذارهم لتصدقوهم فيه فتتركوهم، أعيد ذكر هذا وإن تضمنه قوله يعتذرون من أجل ذكر حلفهم بالله ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ إعراض هجر وإرجاء لأمرهم لحكم الله فيهم.

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تترك مجالستهم وتتقى مخالطتهم لرجسهم أي فسقهم وخبثهم وفجورهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ فهي حسبهم ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي بكل جرائمهم التي تكررت منهم وتعددت ونعوذ بالله من غضب الله فقد ولاهم ما تولوا وتركهم وشأنهم على أنه حافظ لدينه ولرسوله ومنتقم منهم بجهنم.

﴿٩٦﴾ ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ أعيد ذكر الحلف ليرتب عليه قوله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الفجرة: الخبيثين المتمردين على الله، فكانت لأعذارهم المصحوبة بأيمانهم ثلاثة أحكام:

الأول: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا..﴾ إلى آخر الآية.

الثاني: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

الثالث: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ﴾ عنهم ما داموا فاسقين، أي فرضاكم عنهم باطل.

مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

﴿٩٧﴾ ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: هم أهل البادية الجهال والكفرة والجفاة الضلال..» إلخ.

أقول: الأعراب: البدو، وما ذكر فيهم هو من تفسير قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا..﴾ الآية، قال الراغب: «العرب: ولد إسماعيل، والأعراب جمعه في الأصل، وصار ذلك اسماً لسكان البادية» انتهى، أي سكان البادية من العرب، وفي (الصحاح): «العرب: جيل من الناس وهم أهل الأمصار، والأعراب منهم: سكان البادية خاصة ـ ثم قال ـ: وليس الأعراب جمعاً لعرب، وإنما العرب اسم جنس» انتهى باختصار.

وقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ أي أشد من هؤلاء الذين في المدينة الذين يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم، وقوله تعالى: ﴿كُفۡرٗا﴾ لعله ككفر بعض المنافقين مع إظهارهم الإسلام ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنِفَاقٗا﴾ أي أشد ولاءً للكفار مع إظهارهم الإسلام، وهذا مما يفيد أن ليس مفهوم النفاق إبطان الكفر مع إظهار الإسلام، بل الكفر شيء والنفاق شيء قد يجتمعان وقد لا يجتمعان أعني كفر الجحود بالرسول والقرآن، وذلك أن مريض القلب يعترف بالإسلام خوفاً فيشهد الشهادتين، ويكون بذلك قد أسلم كما قال تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ثم يحمله الخوف من الكفار؛ لعدم ثقته بنصر الله لرسوله وإظهاره لدينه،لأنه غير مؤمن، فينافق ليكون له عند الكفار ما يؤمنه إن غلبوا المسلمين، فالنفاق هو موالاة الكفار سراً مع إظهار الإسلام.

عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي أقرب إلى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الوحي في القرآن وفيما جاء منه على لسان الرسول ﷺ ومن طريقة من غير القرآن فالأعراب لبعدهم عنه أجدر بالجهل لأحكام الله وشرائعه، وهكذا يكونون لبعدهم عن العلم والعلماء، إلا أنهم في هذا الزمان قد يتمكنون من المعرفة بواسطة الكتب والأشرطة التي تسمع في المسجلات، ونحوها من الوسائل التي سهلت للناس التعلم لمن أراد التعلم، وقد يزدادون جهلاً بما يلقى إليهم من وسائل الإعلام المشتملة على الشبه والتضليل، فيضيفون جهلاً مركباً إلى الجهل البسيط.

وقوله تعالى: ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي حدود الدين المأخوذة مما أنزل الله، وحدود الدين مثل: أعداد الصلوات، أعداد الركعات، كيفية الركوع، كيفية السجود، أول وقت الصيام، أول وقت الإفطار، كم نصاب الزكاة من المزكى، وكم الزكاة: العشر، أو نصف العشر، أو ربع العشر.. ونحو ذلك، فحاصل ذلك: أنهم أقرب إلى الجهل بتفاصيل الشريعة وتفاصيل الدين.

قال في (الصحاح): «وفلان جدير بكذا: أي خليق، وأنت جدير أن تفعل كذا» انتهى المراد، وقال الراغب: «والجدير المنتهى لانتهاء الأمر إليه انتهاء الشيء إلى الجدار وقد جَدُر بكذا فهو جدير وما أجدره بكذا وأجدر به» انتهى، فمعنى الجدير على قول الراغب: الغاية في الأهليّة للشيء.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو يعلم الفرق بين الأعراب ومن بالمدينة ويعلم كل شيء وهو يحكم فيهم بما هو من مقتضى الحكمة في الدنيا وفي الآخرة.

﴿٩٨﴾ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يتخذ ما ينفق مغرماً يعُده غراماً

فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ

وضياع مال بلا فائدة، أي خسراناً؛ لأنه ينفق لمداراة المسلمين لا لطلب الثواب، ولا يرجو ثواباً على ما أنفق، فهو عنده تألف في غير فائدة.

﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ ينتظر ﴿بِكُمُ﴾ أيها المسلمون ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي دوائر الزمان وتقلب الأحوال فهو ينتظر أن تنقلب الحال فتسقط دولة الإسلام ويفنى المسلمون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على هؤلاء الأعراب ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ هذا دعاء عليهم بأن تدور عليهم دائرة السوء، وهو دلالة على استحقاقهم دائرة السوء، وتعبير عن الغضب عليهم، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ولكل قول ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يخفون من تمني دائرة السوء على المسلمين أو غير ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء.

﴿٩٩﴾ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا يدل على أن قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾ خارج منه بعضهم ﴿يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾ أي يَعُدُّها قربات له ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لأنه مؤمن أنفقها لله وفي سبيله.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي دعاءه لهم عند أخذ المنفق منهم، فهم يرجون الخير بصلوات الرسول ﷺ فإن كان ﴿صَلَوَٰتِ﴾ معطوفاً على ﴿مَا يُنفِقُ﴾ فالمعنى: ويتخذ صلوات الرسول ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سبباً للقربة عند الله، لأن دعاء الرسول مستجاب، وهم يرجون أن يكون سبباً للتوفيق والهداية، ولأن صلوات الرسول تزيدهم رغبة في فعل الخير إذا سمعوها، فيزدادون بسببه من العمل المقرب عند الله.

لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟

وهذا الوجه أقرب من جهة التركيب، ويحتمل: أن ﴿صَلَوَٰتِ﴾ معطوفاً على ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ أي ويتخذ ما ينفق صلوات الرسول أي سبباً لها، كأن المال يصير صلوات الرسول، وهذا ضعيف من جهة التركيب فيما نرى، فإن معناه لا يحوج إلى التأويل.

والأول أرجح، ويؤكده تأنيث الضمير في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ فظاهره العود إلى ﴿صَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ ولأنه أقرب من ﴿مَا يُنفِقُ﴾ فعود الضمير إلى ﴿صَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أقرب، وإن شمل ما ينفقون فبطريقة الإكتفاء، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة:١١] فاكتفى بضمير أحد الشيئين اكتفاء بفهم السامع لإرادة الحكم على كل واحد منهما.

وقوله تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ تحقيق لحصول القربة لهم عند الله و﴿رَحْمَتِهِۦٓ﴾ الجنة، بدليل ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾ فهي قرينة، فأما رحمة الدنيا فهم داخلون فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك يقبل العمل الصالح ويعد عليه الثواب ويجعل ما تقدم من زلات الإنسان الصغائر غير مانعة من الثواب العظيم وكذلك ما تقدم من السيئات قبل الإيمان والتوبة يجعله كأن لم يكن.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ كأن الكلام في المؤمنين من الأعراب كان سبباً للكلام في بقية المؤمنين مع رسول الله ﷺ، والأقرب أن إعرابه: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وما عطف عليه، والسبق هنا هو السبق إلى الإيمان.

وقوله: ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ يخرج بعض المهاجرين والأنصار وبعض السابقين منهم، لأن السبق إضافي، فكل مؤمن سابق لمن آمن بعده ولكن قد شمل الباقين الذين هم مؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ أي آمنوا بعدهم، ولا يدخل فيها التابعون بعد وفاة رسول الله ﷺ لأن ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾ فعل ماض، فلا يدخل فيه إلا من كان قد آمن قبل نزول هذه الآية إيماناً مقروناً بالإحسان، والمراد به أهل الإيمان الصادق، الباعث على أن يكون صاحبه من المحسنين.

وقد فسر (المحسنين) أول (سورة لقمان) ولأن التابعين بعد وفاة الرسول ﷺ لا ينسب اتباعهم إلى السابقين الأولين فحسب، لأنهم تابعون للصحابة كلهم سابقهم ومسبوقهم، فظهر: أن المقصود بالتابعين للسابقين الأولين المسبوقون من المهاجرين والأنصار الذين سبقهم السابقون الأولون.

وقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ تعبير عن قبول إيمانهم وإحسانهم وأنه غير ساخط على من كان كافراً منهم لأن إيمانه وتوبته محى ما سلف منه، وقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ لأنهم بإيمانهم الصادق يرضون بقضائه، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ويتحملون التكاليف برغبة لإيمانهم بالثواب ورغبتهم في رحمة الله ورضوانه، وهذا يقابل ما مر في الأعراب والمنافقين الكارهين لطاعة الله في الجهاد والإنفاق وغير ذلك الذين نسوا الله فنسيهم.

أخرج الحاكم في (المستدرك) [ج٣/ ص١٣٧]: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: علي، وعمار، وسلمان» قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي في (تلخيصه) وأخرجه الترمذي [ج٥/ ص٦٦٧] وقال: حسن غريب.

وأخرجه أبو نعيم في (الحلية) [١/ ١٤٢] وذكره المتقي في (كنز العمال) هكذا، أو ذكره بلفظ:«أن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي، وعمار، وسلمان، والمقداد» وأفاد: أنه أخرجه الطبراني في (الكبير) عن أنس، وذلك في [ج١٢/ ص٢٣٣] من (كنز العمال).

وأخرج الحاكم في (المستدرك) [ج٣/ ص١٣٠] عن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:«إن الله أمرني بحب أربعة من أصحابي، وأخبرني أنه يحبهم، قال قلنا: من هم يا رسول الله؟ـ وكلنا نحبّ أن نكون منهم ـ فقال: ألا إن علياً منهم، ثم سكت، ثم قال: أما إن علياً منهم، ثم سكت» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، قال الذهبي: ما أخرج مسلم لأبي ربيعة.

قلت: يكفي في صحته على شرط مسلم أن يكون ربيعة على شرط مسلم وإن لم يخرج له، وفي (تهذيب التهذيب): «حسَّن الترمذي بعض أفراده ـ أي أفراد ربيعة» انتهى.

والحديث أخرجه أحمد في (المسند) [ج٥/ ٣٥١] بلفظ:«إن الله ـ عزَّ وجل ـ يحب من أصحابي أربعة، أخبرني أنه يحبهم وأمرني أن أحبهم، قالوا:من هم يا رسول الله؟ قال:إن علياً منهم، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود الكندي»».

وأخرجه الطبري في (منتخب ذيل المذيّل) المتصل بتاريخه في [الجلد الآخر منه/ ص٣٨] من صفحات (المنتخب) فقال: حدثني إسماعيل بن موسى السدّي، قال: أخبرني شريك عن أبي ربيعة الإيادي، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى أمرني بحب أربعة. قيل:يا رسول الله من هم؟ سمهم لنا. فقال: عليّ منهم، يقول ذلك ثلاثاً، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان، أمرني بحبهم وأخبرني أنه يحبهم»».

وأخرجه الترمذي في (جامعه) [ج٥/ ص٦٣٦] وحسَّنه، وذكره المتقي الهندي في (كنز العمال) [ج١٢/ ٢٣٣] في فضائل الصحابة في قسم الأقوال بلفظ: «أُمِرت بحب أربعة من أصحابي وأخبرني الله أنه يحبهم: علي، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود الكندي».

وأفاد: أنه أخرجه الروياني عن بريدة، وأخرجه في [ص٢٣٦] من ذلك الجزء بلفظ: «إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يُحبهم: علي منهم، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان».

وأفاد: أنه أخرجه الترمذي، وابن ماجة،وأفاد: أنه أخرجه الحاكم، وأنهم أخرجوه عن بريدة، انتهى.

وهو في (سنن ابن ماجة) [ج١/ ص٦٦] وأخرجه أبو نعيم في (الحلية) [ج١/ ص١٧٢] وأفاد ابن حجر في (الصواعق): أنه أخرجه الترمذي، والحاكم، وصححه عن بريدة، فظهر: أنه سقط من نسخة (المستدرك) المطبوعة قوله: «وأبو ذر، والمقداد، وسلمان» وأنه ثابت في (المستدرك).

قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ قال في (البرهان): «وهو أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ لأنه أول من سبق إلى الإسلام من الرجال وخديجة بنت خويلد» انتهى.

قلت: تحقيق هذا في كتب الزيدية والإمامية، وقد عقد له السيد العلامة عبد الله بن الهادي الحسن بن يحيى القاسمي باباً في حاشية (كرامة الأولياء) وحقق ذلك تحقيقاً كافياً، ونقله هنا يطول.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿أَعَدَّ﴾ إما أنه قد خلقها فأعدها للمتقين حقيقة، وإما أنها بمنزلة المخلوقة لسهولة إيجادها، فكأنها قد وجدت، وإعدادها للمذكورين بشارة

عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ

عظمى لمن لم يتحول عن خط الإحسان إلى الإساءة، ولا دلالة فيها على أنهم كلهم لا يتحول أحد منهم عن طريق الجنة؛ لأن معنى إعداد الشيء تهيأته لمن أعدَّ له، وهي قد تكون لأناس يتخلف بعضهم، ولا ينافي ذلك إعدادها لهم.

وقد أفاد القرآن أن بعض المنافقين كانوا قد آمنوا، وقد مر قوله تعالى فيهم: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧] وفي (جامع البخاري) المسمى بـ(الصحيح) [ج٤/ ص١٤٢ـ١٤٣]: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تحشرون حفاة عراة غرلاً» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٤] فأول من يكسى إبراهيم، ثم يؤخذ رجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابي، فيقال: «إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم..» إلى آخر الحديث نقلته من المطبوعة المجردة عن الشروح عن طبعة [دار الطباعة العامرة باستانبول] والحديث مخرّج من كتب وطرق عديدة، انظر: (الإعتصام) تأليف الإمام القاسم بن محمد عليه السلام الجزء الأول.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ممن حولكم ممن هو خارج المدينة المنورة ومن أهل المدينة حيث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن يتلى وآيات النبوءة تتجدد، و﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: عتوا» انتهى.

وقال (صاحب الصحاح): «والمرود على الشيء: المرون عليه، والمارد: العاتي» انتهى، وفي (لسان العرب): «المارد: العاتي ـ ثم قال ـ: والمرود على الشيء: المرون عليه، ومرد على الكلام: أي مرن عليه لا يعبأ به، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ قال الفرَّاء: يريد مرنوا عليه وجُرِّبوا» انتهى المراد.

فالراجح: أن المعنى: عتوا على النفاق، بسبب مرونهم عليه والفهم له، فالعتو حاصل المعنى ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ صفة لقوله منافقون أي منافقون مردوا على النفاق وكلهم من أهل المدينة وممن حولهم، وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ دليل على أن الله لم يجعله يعلم الغيب، إنما يعلم ما أوحي إليه به، ولم يوح إليه بكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يحتمل في الدنيا، ويحتمل مرة في الدنيا أو عند حضور الموت ومرة بعد الموت قبل القيامة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو عذاب جهنم نعوذ بالله من عذابه وفي الآية دلالة على أن ما كل من رأى رسول الله ﷺ وسمعه صحابياً إذا كان قد شهد الشهادتين، لأن هذا الأصل يستلزم جعل المنافقين من الصحابة فإذا جعلوا من الصحابة وجعل الصحابة كلهم عدولاً نتج عنه تعديل المنافقين، وإيجاب قبول حديثهم وهم أعداء الإسلام، فالأولى أن الصحابي: من طالت ملازمته لرسول الله ﷺ متبعاً لشرعه، ولم يثبت عنه تحول عن اتباعه، وقد حققت هذه المسألة في (تحرير الأفكار).

سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ

﴿١٠٢﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ لعله عطف على قوله: ﴿مُنَافِقُونَ﴾ فالمعنى: وممن حولكم ومن أهل المدينة آخرون غير منافقين، لكنهم ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ تارة يعصون وتارة يطيعون.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيوفقهم للطاعة المستمرة والتوبة النصوح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن مغفرته ورحمته تعريض عباده على التوبة وتوفيق من لم يستوجب الخذلان.

﴿١٠٣﴾ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ليسوا كمن قال فيهم: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لأن هؤلاء غير منافقين، وإنما يتقلبون لعدم رسوخ الإيمان في قلوبهم، كما قال أمير المؤمنين: «من الإيمان ما يكون ثابتاً مستمراً، ومنه ما يكون عواري بين الصدور والقلوب» وذلك أنها تعرض الغفلة فينسى الإيمان فكأنه كان عارية مردودة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يشعر بأنها الزكاة؛ لأنها تجب في الأموال المختلفة، أما غيرها فيكفي الإنفاق من غير تبع لأنواع المال، بل قد يكفي من نوع واحد.

وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ يفيد: أن في إخراج الزكاة على الوجه المقبول تطهرة لصاحبها، فهي سبب للتوفيق، كقوله في الصلاة: ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] والزكاة الطيب والصلاح،وهذه فائدة في الزكاة عظيمة يرغب فيها كل مؤمن.

ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أدع لهم إن دعواتك سكن لهم، في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) لقوله تعالى: ﴿إِن صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: «معناه: دعاؤك سكن لهم وتثبيت» انتهى المراد، وفي (المصابيح) للشرفي عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي تفسير ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: «أي تثبيت لهم ورحمة» انتهى.

والدعاء لهم ليس مقيداً بكونه عند أخذ الصدقة، إذ ليس في الآية تقييد والعطف لا يفيده ومجرد الترتيب لا يفيد أن الدعاء لهم عقيب استلام الزكاة وقد روي الدعاء لهم عند استلام الزكاة وهو مناسب ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ فهو يسمع الدعاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن ينبغي الدعاء له، وسميع لكل قول، وعليم بكل شيء.

﴿١٠٤﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ قد آن لهم أن يعلموا، لأن محمداً إنما هو رسول الله، مبلغ عن الله، دعا الناس إلى التوبة وأكثرهم مشركون، وهو يخبرهم أنه رسول الله يدعوهم بأمر الله، فقد آن لهم أن يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ هو لا غيره ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيكفيهم أن يتوبوا إليه فتقبل منهم، ولو لم يكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد علم توبتهم، فليس المهم أن يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويرضى عنهم، إنما المهم تحقيق التوبة، وليس المراد: أن يخفوها عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو أن لا يبالوا به ولكن المراد: أن يعلموا أن الأمر لله وحده وهو الذي يقبل التوبة عن عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ كذلك دليل على أن النافع قبوله لها وأنه يقبلها فليرغبوا في إيتائها والمراد من التائبين؛ لقوله تعالى:

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فليرجع إليه كل مذنب، وليتوبوا كلما زلوا، والتوّاب: كلمة مبالغة تدل على كثرة التوبة، وهي نوعان: توبة التوفيق للتوبة، وقبول التوبة، وذلك كله كثير وكله رحمة.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وقل لهؤلاء التائبين ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ في المستقبل ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ وهو الذي يجزي ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعاملونكم معاملة المؤمنين إن ثبتم على التوبة وبخلاف معاملة المؤمنين إن أسأتم وهذا تأنيس لهم؛ لئلا يظنوا أن معاملتهم ستكون على ما تقتضيه الإساءة السابقة، ولذلك قال هنا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فهم يتولون من تاب ويؤاخونه، وينسون ما سلف منه قبل التوبة، وبالأولى أن يرضى عنهم رسول الله ﷺ لأنه على خلق عظيم.

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا بعث على الإخلاص لله، لأنه هو الذي يردون إليه ليجزيهم بما عملوا من خير أو شر، وهو الذي يعلم ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ ولا ينفع عنده التمظهر بالصلاح مع فساد الباطن ولو نفع عند الرسول والمؤمنين.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): وهم الثلاثة الباقون من العشرة المتأخرين عن رسول الله ﷺ في غزوة (تبوك) ولم يربطوا أنفسهم مع أبي لبابة، وهم: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك.

ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ

ومعنى ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي مؤخرون موقوفون لما يَرِد من أمر الله ـ عزّ وجل ـ فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ أي يأمر بعذابهم في الدنيا إن لم يعلم صحة توبتهم إن بقوا على إصرارهم ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا» انتهى. ومثل هذا في (تفسير ابن كثير) و (تفسير سيد قطب) وغيرهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يخفون وما يعلنون عليم بنياتهم، عليم بتوبة من تاب وندم من ندم ﴿حَكِيمٌ﴾ فحكمه فيهم هو الحق، وتأتي إن شاء الله الآية في توبة الله تعالى عليهم.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا﴾ إثبات الواو قراءة (حفص) وعليها يكون المعنى أنهم من أهل المدينة أو ممن حولهم الذين اتخذوا مسجداً ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أما على حذف (الواو) وهي قراءة نافع فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ..﴾ الآية أو ما أفاده الكلام قبله مقدر.

وقوله تعالى: ﴿ضِرَارًا﴾ أي أرادوا بهذا البنيان أن يكون مسجداً لقصد المضارة للمؤمنين بتقوية جانب المنافقين ﴿وَكُفْرًا﴾ هو الباعث على اتخاذ المسجد لأن الغرض به محاربة الدين ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لينشقوا، ويصير بعضهم إلى مسجد الضرار، بحجة أنه مسجد فيتفرقوا.

﴿وَإِرْصَادًا﴾ إعداداً للمنافق، أي أعدوا هذا البيان مسجداً ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ليأتي فيصلي فيه ومعنى حارب الله ورسوله نافق وحارب دين الله ورسوله وحرض على قتال رسول الله ﷺ كما

يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ

حكى هذا الشرفي في (المصابيح) عن (البرهان) ثم قال: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: في معنى هذه الآية: يريد سبحانه أنهم بنوا مسجداً للضرر على الإسلام، وجعلوه حُبالةً وحيلة لضعفة الأنام ليصلي معهم بعض المؤمنين، ويفترقوا بذلك عن خاتم النبيئين، وجعلوه شبكة لضعفه المسلمين، ومعونة ورصداً وطريقاً لمن حارب الله ورسوله» انتهى المراد، والحبالة، والشبكة: آلة توضع لإصطياد الصيد بها متى وقع فيها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): أبو عامر الراهب [يعني الذي حارب الله ورسوله من قبل] هو أبو حنظلة بن الراهب، قد حزب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم خاف فهرب إلى الروم ومصر، واستنجد هرقل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فبنوا هذا المسجد حتى إذا عاد من [عند] هرقل صلى فيه..» إلخ.

وقوله: «أبو» وفي نسخة «والد» وقوله: حزب، هي مهملة بغير نقط تحتمل: حزَّب، وخرب، ولأجل الغلط في الكتابة تركت نقل بقية الكلام.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ أي أقسم ليحلف ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ بذلك المسجد ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إلا الخصلة الحسنى، أو إلا الإرادة الحسنى، مثلاً: أردنا الثواب والتوسعة للمصلين، وتيسير حضور الصلاة للمجاورين له في الليلة الشاتية واليوم المطير ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في تلك الحلفة؛ لأنهم قد أرادوا الضرار وسائر ما ذكره الله في أول الآية.

﴿١٠٨﴾ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ لأنهم يرغبون في أن تصلي فيه أنت يا رسول الله ليحتجوا بصلاتك على أنه مسجد ثابت له حكم المسجد وحرمة المسجد، فلا تقم فيه إبطالاً لكيدهم، وتخييباً لأملهم.

خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مسجد أسس بناؤه على تقوى الله، لأنه بني على نية العمل بما يرضي الله وإقامة الصلاة فيه جماعة وجمعة، وإحياء الدين فيه بتبليغ القرآن وغيره وجمع المؤمنين، لذلك فهو أحق أن تقوم فيه للصلاة وللخطبة ونحوها.

﴿فِيهِ﴾ أي في هذا المسجد الذي أسس على التقوى ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ لصدق نيتهم في إقامة الصلاة، فهم أحق أن تصلي بهم ومعهم، وتعلمهم وترشدهم، وفيه دلالة على تفضيل جماعة الذين يحبون أن يتطهروا.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ للصلاة ولما وجب التطهر له، والمراد به: المتقون الذين يقبل منهم التطهر؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] كما أن المراد به التطهر المشروع، لا ما زاد عليه فلا فضل فيه ولا قربة به، ويؤخذ من الآية: أن الرجال هم الأصل في الكون في المسجد وفي الجماعة، فهم أحق من الصبيان بالمسجد، ومن النساء لو ضاق المسجد، وجماعة الرجال هي الأصل ينظم إليها الرجال والنساء؛ لأنها الأصل.

﴿١٠٩﴾ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا مثل لأهل المسجدين المسجد الذي أسس على التقوى وبنيان الضرار وتسميته بنياناً هي الصواب، لأن الذين اتخذوه مسجداً لم يقرّوا على اتخاذه مسجداً، فهو بنيان لا غير. لمسجد أسس ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾

قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى

هدى لها وعلمها بما أنزل على رسوله ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ من الله بتأسيس البنيان مسجداً، فهو ثابت وحكمه الثبوت، وله الحرمة الباقية لبنائه على الوجه الشرعي، وعلى رضوان الله به، أفأهل هذا البنيان خير أن تقوم فيهم، أم المنافقون الذين أسس بنيانهم على نفاق وعداوة لله ورسوله، فهو خطر على أهله يوقعهم في نار جهنم، كأنه بني ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ فسقط بمن أسسه ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

والجرف: تكون من الأرض في جانب الوادي قد أخذ السيل أسفلها ويقي أعلاها تحته فضاوة، فهو هارٍ حين بني مشرف على السقوط أو متساقط، وشفاها هو طرف أعلاها من جهة الوادي، فالبنيان الذي أسس على فجور وسخط من الله من شأنه أن يسقط، كأنه أسس على ذلك الشفا، ومن شأنه أن يهوي بصاحبه المؤسس له في نار جهنم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لأنهم على ظلمهم لا يستحقون الهداية ولذلك كان بنيانهم باطلاً.

﴿١١٠﴾ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال شكاً مقلقاً لهم في صدق الرسول والقرآن، أي لا يزال سبباً لعدم الإيمان واليقين في قلوبهم؛ لأنه منكر عظيم ارتكبوه فاستحقوا به الخذلان، وما زادهم إلا بعداً من الإيمان بما نزل فيه من القرآن وبهدمه المثير لغضبهم من الحق وتعصبهم للباطل.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ هذا تحقيق لالتصاق الريب بقلوبهم، بحيث لا يذهب عنها إلا أن تتقطع وتفنى، فيفنى تبعاً لفنائها فهو كالصباغ الثابت في الخرقة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو عليم بقلوبهم وما فيها، وهو قد حكم فيها وفيهم بالحق الذي هو مقتضى الحكمة.

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ

﴿١١١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ جعل أنفسهم وأموالهم لله ثمناً للجنة، ثم فسر تمليكهم لأنفسهم وأموالهم بهذا البيع، فقال تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فهذا معنى أنها ـ أي الأموال والأنفس ـ صارت لله بالجنة، أن عليهم أن يبذلوها لله وفي سبيله في القتال لنصرة دين الله وهو سبيله.

وقوله تعالى ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ تحقيق للقتال بما يترتب عليه من أن يقتلوا من أعداء الله ويقتل بعض المؤمنين في سبيل الله، ونسبة القتل إلى الجملة باعتبار كونه مصيبة لهم؛ لأنهم كالجسد الواحد، وقد مرَّ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] ومنه قول الشاعر:

أفتلك أم وحشية مسبوعة ... خذلت وهادية الصوار قوامها

مسبوعة، أي أصابها السبع بافتراس ولدها.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ وعد المؤمنين المجاهدين في سبيله الجنة ﴿وَعْدًا﴾ قد سبق في التوراة والإنجيل وهاهو في القرآن فهو وعد لكل جيل بالجنة لمن آمن منهم وجاهد في سبيل الله، ولذلك هو ثابت في الإسلام إلى يوم القيامة، وقد جاهد أئمة الهدى في سبيل الله راجين هذا الثمن الربيح، فجاهد الإمام زيد بن علي، وابنه يحيى، ومحمد بن محمد بن زيد بن علي، ومحمد بن عبد الله النفس الزكية، وأخوه إبراهيم، وأخوه إدريس، والحسين بن علي بن الحسين ـ صاحب فخ ـ ومحمد بن إبراهيم أخو القاسم بن إبراهيم، والهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم، والناصر الأطروش الحسن بن علي، وغيرهم.

قال الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول في فضل يوم الجمعة): «وعُصيتُ حين دعوتُ إلى الله فلم أطع، فقلت: رب إني لا أملك إلا نفسي فبعتها منه ومالي في جوف الكعبة البيت الحرام بما بذل لي من الثمن الربيح ذو الجلال والإكرام، حين يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ..﴾ الآية.

أتمها في (الأحكام) ثم قال عليه السلام: «ثم انتظرت أمر الله وأرصدت لذلك حتى يفتح الله، ويأذن في ما طلبت من إحياء حقه إذْنَ معونة بتسديد وتوفيق لذلك، وتأليف بين قلوب العباد..» إلخ.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ سؤال في معنى النفي لوضوح معنى النفي عند السامع، أي لا أوفى بعهده من الله؛ لأنه لا أصدق من الله قيلاً؛ لأنه عليم قدير غني حكيم فوعده للمؤمنين المجاهدين في سبيله حق لا يتخلف وسماه عهداً، لأنه كلام موثق بتسميته بيعاً، ليدل على استحقاقهم الجنة كما يستحق المبيعَ مَن اشتراه.

﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ هؤلاء الذين بايعوا طابقوا ببيعهم بيع الله ورضوا به فأمروا أن يستبشروا ببيعهم لما لهم فيه من الربح العظيم المحقق عند كل مؤمن فيحق للمؤمن أن يستبشر به.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ الظفر والفلاح مع السلامة من كل شر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه السعادة الدائمة في مقابل بذل النفوس والأموال في هذه الحياة الدنيا، فهي في جنب الخلود الأبدي في جنات النعيم شيء حقير تافه؛ لأنه في جنب الخلود الأبدي في النعيم العظيم والملك الكبير.

ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟

﴿١١٢﴾ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هؤلاء الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، هم ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ إلى الله، وهم الراجعون إليه، سواء كانوا قبل فساقاً أم كفاراً، أم هم مقبلون بقلوبهم وأنفسهم إلى الله تاركون لما يشغل عنه من أمور الدنيا، فكلهم راجعون إلى الله ومن رجوعهم إلى الله الإستغفار من الزلات الواقعة خطأً أو نسياناً.

وقوله: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ صفة ثانية لهم وهي تشمل طاعة الله في كل شيء بقلوبهم وألسنتهم وأبدانهم، ولا ينافي ذلك ما يعرض من الزلل الذي لا يصرون عليه؛ لأنهم بالتوبة يصيرون عابدين.

وقوله: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ صفة ثالثة، والحمد من شكر النعمة، وقيل: الحمد رأس الشكر، واستمرارهم عليه كما تفيده الجملة الإسمية يفيد أنهم يحمدون الله على كل حال يكونون فيه؛ لأنهم يعتقدونه خيراً لهم ونعمة ورحمة حتى المرض والفقر لما يرجون من حسن عاقبته، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] وحتى لو فرض أن ذلك لذنب؛ لأنه يدعو إلى التوبة والإستغفار ويكفر الذنوب فهو خير لصاحبه لحسن عاقبته.

وقوله: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ صفة لهم رابعة تفيد أنهم يؤثرون طاعة الله فيما أوجب من الجهاد الذين يخرجون له من ديارهم وغيره ولا يمنعهم حب الوطن

ولا حب مساكن يرضونها ولا حب تجارة يخشون كسادها ولا غير ذلك مما يرغّب في القعود عن الجهاد أو غيره مما فيه نصر لدين الله وإعلاء لكلمته.

وهذا المعنى هو المناسب للسياق، وما روي في الصيام أنه السياحة محمول على الترغيب في الصيام بتشبيهه بالسياحة لا على أنه تفسير للآية، وما روي تفسيراً لا يستحق اعتماده في العدول عن ظاهر الآية الذي هو المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي؛ لأنه غير معلوم، وكذلك روي في تلاوة القرآن عمل الحال المرتحل، وروي في انتظار الصلاة بعد الصلاة «فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» وكل ذلك ترغيب بالتشبيه بالسياحة وبالمرابطة في سبيل الله بالإعداد للجهاد وانتظاره في مظان لقاء العدو.

نعم وجعل ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ وصفاً لازماً لتكرر السياحة بتكرر الأسباب الموجبة للخروج واستعدادهم لها بالنية والإعداد، لما يتوقع فيما بين الخروج والخروج، فكانت السياحة بذلك كالصفة اللازمة.

وقد أخرج الحاكم في (المستدرك) [ج٢/ ٧٣] بإسناده عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، قال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وذكر السيوطي في (الدر المنثور): أنه أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في (شعب الإيمان) عن أبي أمامة فذكره.

ويناسب ما ذكرت في تفسير (السائحين) تفسير (السائحات) الذي ذكره الشرفي في (المصابيح) عن الهادي عليه السلام حيث قال: «فالسائحات: فهن المهاجرات إلى الله ورسوله، التاركات لأهل الكفر والجحدان، المهاجرات إلى دار السلام والإيمان» انتهى.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهاتان الصفتان الخامسة والسادسة للمؤمنين، الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم جعلوا راكعين ساجدين لمحافظتهم على صلاتهم ذات الركوع والسجود، أي لمحافظتهم على الركوع والسجود فيها.

﴿ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهاتان الصفتان السابعة والثامنة، والعطف بـ(الواو) من عطف الصفة على الصفة لموصوف واحد، كما مرّ في قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

ولعل المراد بالعطف: التنبيه على أنهم يجمعون بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي يفعلون كلاً منهما على ثقل كل واحدة على النفس، من حيث أنها تسخط المأمور أو المنهي، فقاموا بالمهمتين وتحملوا الثقيلين لإرضاء الله، مع ما بينهما من التقابل المناسب للعطف بينهما، وهاتان الخصلتان من صفات المؤمنين، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ حدود الله: هي التي تُحدُّ بها العبادات، والمعاملات، والمواريث، والديات، والأروش، ومقادير الحدود: كحد قطع يد السارق وشروطه، وعدد الجلد في الزنا، والقذف وشرب الخمر، فالمحافظة عليها من شأن المؤمن؛ لأنه ملتزم بامتثال أمر الله ونهيه وتطبيق أحكامه من غير زيادة ولا نقصان.

ويحتمل (حدود الله): ما شرعه من القطع والجلد ونحوهما، فهي تسمى حدوداً، وحفظها: إقامتها على من وجبت عليه من شريف ووضيع، وغني

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا

وفقير، وهي ثقيلة أثقل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو هي أثقل النهي عن المنكر؛ لأن الناس ينفرون عنها ويدافعونها ويتعصبون لمن وجبت عليه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب العظيم: «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» لطاعتهم لله في الجهاد والتكاليف الشاقة واجتنابهم لمعصيته.

﴿١١٣﴾ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي ما صح ولا استقام، كأنه لا يتصور منهم، فالنبي تمنعه نبوءته، والمؤمنون يمنعهم إيمانهم، كقوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾** [النساء:٩٢] وقوله تعالى: **﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾** [يونس:١٥] وقوله: **﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾** [الأعراف:٨٩].

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ لأنهم متى تبين لهم حكم الله عليهم بالجحيم حكماً حتماً، فالإستغفار عطف على من قد غضب الله عليه، وشأن النبي والمؤمنين إيثار أمر الله على العاطفة النفسية لذي القربى أو غيره.

﴿١١٤﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ والموعدة قول إبراهيم لأبيه: **﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾** [الممتحنة:٤] ولعله عليه السلام كان يطمع أن يهدي الله أباه للإيمان، فاستغفر له طلباً لهدايته، أي لا يعاقبه بالخذلان وأن يوفقه للإيمان.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ مصرٌ على الشرك معاند للحق، بعد ما وضحت له الحجة ودعاه ابنه فلم يقبل شيئاً ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ تبرأ من أبيه، وترك الإستغفار له.

وقد يقال: ألم يكن تبين لَه أنه عدو لله حين وجده مشركاً ؟

والجواب: أن المراد بالعداوة لله: العداوة لدينه، وهو وإن علم أنه مشرك على دين قومه وبلده فلعله لم يكن يظن فيه إلا الجهل والتقليد من دون ظنه لعداوة دين الله؛ لأنه كان جاهلاً بدين الله فحين عرّفه إبراهيم عليه السلام دينَ الله وتبين لَه بالحجة الواضحة ثم عادى دين الله، فقد صار عدواً لله بهذا المعنى أي عدواً لدين الله، والظاهر: أن إبراهيم عليه السلام كان يجوز في دينه الإستغفار لمن لم يحارب دين الله ليتوب بل هذا واضح والحجة فعله عليه السلام.

وحكى في (المصابيح) عن الناصر أحمد بن الهادي، وعن (صاحب البرهان) تفسير ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بموته على الشرك وإياسه من إيمانه، وذكرا أنه كان يرجو أن يُسلم، وعلى هذا لا يبعد أن يفسر قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بمن مات مشركاً أو ثبت أنه لن يؤمن، وهما مسألتان: **مسألة:** الإستغفار لمن يرجى له التوفيق للإسلام ليسلم، **ومسألة:** الوعد لَه بالإستغفار.

فالآيتان هنا في (سورة التوبة) في الإستغفار نفسه، والآية في (سورة الممتحنة) هي في قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [آية:٤] ولا يبعد اختلاف الحكم، فالإستغفار سراً بحيث لا يشعر به الكافر الذي يرجى إيمانه، لا ينافي إظهار العداوة له، أما وعده بالإستغفار فهو يعبر عن العاطفة، فهو لا يناسب إظهار العداوة، ويختص بالوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥] ـ والله أعلم.

يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ذكر من معاني الأوّاه: «المتضرع بالدعاء، ومنها: الموقن بالخشية» انتهى.

وفي (المصابيح) تفسير الشرفي: «قال في (البرهان): والأوّاه: الداعي المتضرع الخاشع، وأصل الأوَّاه من التأوُّه [أي قول القائل: آه] وهو التوجع، ومنه قول العبدي:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوَّه آهة الرجل الحزين

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الأوّاه: الخاشع المتضرع» وقيل: معنى كون إبراهيم عليه السلام أواهاً: أنه كان كلما ذكر لنفسه تقصيراً أو ذُكِر له شيء من شدائد الآخرة كان يتأوّه إشفاقاً من ذلك» انتهى المراد.

والحليم: الذي لا يقابل الإساءة بمثلها عند وقوعها؛ لرجاحة عقله أو حكمته، بل يتحمل الأذى عند الإساءة إليه. وقال الراغب: «الحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب» انتهى المراد.

ولما كان الإستغفار للكافر الذي يرجى إيمانه من معناه طلب أن لا يضله الله بالخذلان قال تعالى:

﴿١١٥﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ﴾ ليس من شأنه مع كرمه ورحمته وحلمه أن يضل ﴿قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ بإرسال الرسول، وإنزال الكتب، والدعوة إلى توحيده وعبادته، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧].

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يكشف لهم حقيقته ويوضحها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة:٩٠] ومن بيان ما يتقون بيان قبح المعصية وكونها سبباً للعقاب وكونها كفر نعمة ونحو ذلك من مفاسدها، فإذا تبين لهم قبح المعاصي وكونها سبباً للعذاب ثم تمردوا بعد ذلك فقد يخذلهم لتمردهم بعد البيان وهو البصير بعباده العليم بسرائرهم، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بمن يستحق الخذلان ومن يصلح للهداية والتوفيق للإيمان.

﴿١١٦﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فمن فيهما هم عبيده ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ متى شاء فمن أماته على الشرك لم يكن له حق في أن لا يميته الله، لأن الملك له في عباده والتصرف كيف يشاء ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من يحول بينه وبين التصرف فيكم كيف يشاء، بأن يتولى أموركم غيره ويكون أمركم إليه ليحول بينكم وبين أمر الله، أو بأن ينصركم ويدفع عنكم قضاء الله بل لله الحكم في عباده وحده.

﴿١١٧﴾ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ هذه توبة عظمى، ولذلك قرن الله بين النبي ﷺ و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ فهي توبة الرحمة والرضوان، وإعداد الجنات بعد الإبتلاء الشديد بغزوة العسرة (غزوة تبوك).

عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): «وهي (غزوة تبوك) قِبَل الشام كانوا في عسرة من الظَّهر [أي المركوب] كان الرجلان والثلاثة [يتعاقبون] على بعير، وفي عسرة من الزاد حتى ذكر أن الرجلين كان يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم فيمصها أحدهم ثم يشرب عليها من الماء ثم يمصها الآخر، وفي عسرة من الماء، وكانوا في التهاب الحرّ وشدته، وروينا في الخبر: أنه أصابهم يوماً عطش شديد، فجعلوا ينحرون الإبل، ويعصرون أكراشها فيشربون ماءها، فأمطر الله عليهم السماء بدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم...» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي اتبعوه من بعد ذلك، ومعنى ﴿تَزِيغُ﴾: تميل عن الهدى والصواب إلى الباطل كادت تزيغ، ولعل ذلك لشدة وقت الغزوة ولأجل العسرة في الظَّهر والزاد ولبعد المسافة، ولكون الإتجاه فيها لحرب الروم وهم أولو قوة عظمى، فكانت الصوارف عن الطاعة كثيرة ولأجلها كاد تزيغ قلوب فريق منهم فيتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقعدوا بعدما أمرهم أن ينفروا ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بلطفه وتوفيقه فلم يتخلفوا ولم تزغ قلوبهم.

﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ﴾ بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والذين اتبعوه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الراغب: «الرأفة: الرحمة» وقال (صاحب الصحاح): «الرأفة: أشد الرحمة» انتهى، فالجمع بين ﴿رَءُوفٌ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾ يحمل على الحالات المختلفة، ففي حالةٍ رأفة، وفي حالةٍ رحمة ـ والله أعلم.

﴿١١٨﴾ ﴿وَ﴾ لقد تاب الله ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ الذين قال فيهم: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ فهو تخليفهم عن حكم غيرهم من الذين تاب عليهم ومن المنافقين الذين سخط عليهم، فهؤلاء خلفوا بإرجائهم لأمر الله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي برحبها أي بسعتها وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وما بعده غاية لتخليفهم ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ لأنهم ندموا على التخلف، وأقروا أنه لا عذر لهم، فتركوا لم يحكم فيهم رسول الله ﷺ وانتظر أمر الله فيهم، قالوا: ونهى الناس عن أن يكلموهم فضاقت عليهم الأرض على اتساعها بسبب ذنبهم وما أدى إليه من إرجاء أمرهم، وضيق الأرض كناية عن سوء حالهم في محلهم، وعدم وجدانهم مكاناً غيره يتخلصون فيه من همهم وغمهم؛ لأنهم لا يريدون مفارقة رسول الله ﷺ ولا يرون ذلك مخلصاً لهم مما هم فيه، بل يزيدهم من الله بعداً.

﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ فلم يبقَ في أنفسهم اتساع وانبساط ولا مجال لعودة الحالة الطبيعية التي لا قلق فيها، والتي يكون معها بعض السرور لبعض الأسباب، فقد صارت أنفسهم لا مجال فيها لذلك، وهذه حالة نفسية شديدة على الإنسان.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ لأن الرسول ﷺ وقف أمرهم وأرجأهم لأمر الله فيهم وأمر الله فيهم إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، فقد علموا أن التوبة إلى الله هي طريق النجاة، وهي الملجأ من عذاب الله، وفائدة التشديد هذا أن يحذر الناس التخلف عن الجهاد ولا يتهاونوا به لثقله على النفوس، والجهاد ضروري لدفع الفساد في الأرض.

فلو كفى المتخلف أن يقول عند رجوع رسول الله ﷺ: قد تخلفت لغير عذر، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه، لكانت وسيلة لتخلف الكثير من الناس لذلك كان من الحكمة أن يتوقف قبول التوبة من التخلف على مشقة تعدل مشقة الجهاد حتى ينزجر الناس عن التخلف، ولهذا فلا يقاس على التخلف كل عصيان بل يؤدب العاصي لكل معصية بقدر ما يراه أهل الحكمة والرأي الصائب.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام تأديب مختلف لآكل الربا تحريق بعض حبِّه، وللزاني في نهار شهر رمضان جلد مع الحد، ولأهل الشطرنج تحريق رقعتهم وجعل رِجل كل واحد منهم في عقال، وذلك على ما تقتضيه الحكمة، لا على قدر الشهوة والغضب.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ عطف على ﴿خُلِّفُواْ﴾ وما يتصل به أي خلفوا لتلك الحالة التي صاروا فيها، ثم بعد ذلك التخليف تاب الله عليهم فهداهم للتوبة الصادقة ليتوبوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كثير التوب على عباده رحيم بهم، وقد مرّ أن الله هو يقبل التوبة عن عباده، فأغنى بيان توبتهم عن ذكر قبولها، وفي ذلك تنبيه على أن المهم أن يتوب الله على عبده المذنب ليتوب، وذلك يكون على ما تقتضيه الحكمة وعلى ما تقتضيه حال العاصي من استحقاق التوفيق أو الخذلان، وقد روي: «أن رابعة العدّوية سئلت هل مَن تاب تاب الله عليه؟ فقالت: لا، ولكن من تاب الله عليه تاب» انتهى.

وقولها: لا، إنما هو دفع للسؤال لا نفي لقبول توبة التائب، تريد: أن المهم هل يتوب الله على العاصي، فأما قبول توبة التائب فواضح.

﴿١١٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تمهيد لقوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ليدل على أن الكون مع الصادقين من التقوى، ومعنى هذه المعية: صدق الولاء للصادقين، ومشاركتهم في أمورهم العامة المهمة مثل: الجهاد، والنصح لله ورسوله، والدفاع عن الدين بالحجة الواضحة وبالسلاح.

بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ

والصادقون: المؤمنون الذين صدقوا في دعوى الإيمان وصدقوه بأعمالهم وجهادهم، والتزموا الصدق ولازموه حتى صار صفة لهم، فيطلق عليهم اسم الصادقين، قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٥-١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] فالواجب أن نكون مع هؤلاء، ومن ضمن هذه المعية: الجهاد في سبيل الله معهم، ولذلك عقب هذه الآية بقوله تعالى:

﴿١٢٠﴾ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ الذين فيهم رسول الله ﷺ سيد الصادقين ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين هم بجوارهم للمدينة يستطيعون الجهاد مع رسول الله ﷺ وتبلغهم دعوته إلى الجهاد، فما صح لهم ولا استقام ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟﴾ لأنه القدوة وفيه الأسوة لكل مؤمن؛ ولأن عليهم فرض من الله أن يكونوا معه ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي لا يرغبوا عن مصاحبته في الجهاد حفاظاً على أنفسهم من أن تكون كنفس رسول الله ومعها معرضة للقتل، هذا حاصل المعنى، فما كان لهم أن يتخلفوا ولا يرغبوا عن كونهم معه؛ لأنهم إن تخلفوا ورغبوا عنه فاتهم الخير الكثير والأجر العظيم، مع ما ينالهم من عقوبة التخلف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي كونه لا ينبغي لهم التخلف والرغوب بأنفسهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ مصحوب بأنهم أو بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذا جاهدوا مع رسول الله ﷺ إلا كتب لهم، والظمأ: العطش الذي يصيب المجاهد لعدم الماء أو تعذر الشرب، والمخمصة: المجاعة كذلك، والنصب: التعب والجُهد.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يطأون بأقدامهم أو أرجل خيلهم وضع الأقدام على أرضهم أو ما يغيظهم وطؤه ﴿مَوْطِئًا﴾ مصدر أي وطأ ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ لدلالته على عزة الإسلام وشجاعة المجاهدين، والغيظ: أثر في النفس لسبب مكروه، قال في (لسان العرب): «الغيظ الغضب، وقيل: الغيظ: غضب كامن للعاجز، وقيل: هو أشد من الغضب، وقيل: هو سورته وأوله» انتهى، أي لا يطأون ذلكٍ الموطئ إلا كتب لهم كما يأتي بعد هذه الجمل المتعاطفة.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ ﴿لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ﴾ لا يصيبون العدو في نفس أو مال أو غرض أو نحو ذلك، فقوله: ﴿نَّيْلًا﴾ لتأكيد العموم ليعم الشديد واليسير، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾ أي بما وقع من ذلك ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أي كتب لهم في كتاب عملهم عمل صالح وقع منهم، ووصفه بالصلاح يفيد أنه نافع لهم متقبل منهم لم يعارضه مفسد ولا محبط وكتابته دلالة على أنه لا يضيع أجره لأن الشيء يكتب ليحفظ، فالمحافظة عليه بالكتابة دليل على الإثابة، وأنه يراه صاحبه يوم القيامة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولذلك يكتب لهم وقوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إما للدلالة على أنه يقبل منهم لأنهم محسنون لا يعملون ما يحبطه، وإما للدلالة على أن تلك الأعمال هي من الإحسان الذي يتقبله الله ويثيب عليه، وإما للدلالة على مجموع الأمرين.

وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟

﴿١٢١﴾ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ في الجهاد أو طريقه ذهاباً أو إياباً ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهاب أو إياب وقطع المسافة بالسير من أولها إلى آخرها ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ فهو متقبل يثابون عليه.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فذلك الجهاد وما فيه من سبب الظمأ والمخمصة والنصب ووطء موطئ يغيظ الكفار والنيل من الأعداء وما ذكر في الآية الثانية كل ذلك يكتب لهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فهو أحسن ما كانوا يعملون أو هو من أحسن ما كانوا يعملون ففائدة التفضيل بيان: أنه أحسن ما كانوا يعملون، أو من أحسن ما كانوا يعملون، ولا ينافي ذلك جزاؤهم بالحسن من أعمالهم، أو المراد بالأحسن: القُرَب كلها وتفضيلها على بقية أعمالهم المباحة وغيرها؛ لأنها كلها مما كانوا يعملون.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿لِيَنفِرُوا۟﴾ ليخرجوا من بلدانهم إلى الرسول ﷺ ليكونوا معه في المدينة، فظروفهم لا تساعدهم على ذلك كلهم وليس من لازم الكون معه مجاورته في المسكن، بل يكفي اتباعه ومصاحبته في الجهاد وفيما دعاهم له.

والأعراب الذين هم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله ونحوهم، يكفيهم أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة ليتعلموا من رسول الله ﷺ دينهم الذي يأخذونه من القرآن وكلام الرسول ﷺ وأفعاله وتقريره، ولم يُذكر الرسول ﷺ في هذه الآية ولا في التي قبلها، لأنهما غير خاصتين به، ففيما بعده يقوم المؤمنون المتقون أهل العلم النافع مقامه في وجوب الكون معهم، وفي وجوب التعلم منهم، وأن ينفر إليهم ﴿مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ بما يبلغونهم من وعيد الله لمن عصاه ولمن أعرض عن كتابه واشتغل بالمال والأهل.

فأما قول من قال: إن هذه الآية ناسخة لوجوب الجهاد إلا على الكفاية فليس عندي قوياً؛ لأن وجوب الجهاد كان تابعاً لقول الرسول ﷺ للذين آمنوا انفروا في سبيل الله، فإن كان المراد: وما كان المؤمنون لينفروا للجهاد ولو دعاهم الرسول ﷺ لزم أنه نسخ لوجوب طاعة الرسول ﷺ وهذا خلاف المعلوم من الدين، وإن كان المراد: وما كان المؤمنون الذين لم يدعهم للخروج فلا نسخ؛ لأنهم في وقته ﷺ على هذا التقدير لم يؤمروا بالنفر، لأنه إنما لا يأمرهم لأنه غير واجب عليهم، لأن ظروفهم لا تساعدهم لأنهم ضعفاء أو نحوهم.

ثم إن التعليل بقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ لا يساعد على كون السياق في النفر للجهاد، بل هو قرينة أنه النفر لمجاورة الرسول ﷺ ومن معه من الصادقين، ولتعلم حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ فالمراد بقوله تعالى: ﴿لِيَنفِرُواْ﴾ أي إلى محل الفقه في الدين ومركز الصادقين، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ كالتعليل للإنذار.

فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾ وهذا أمر بالقتال مطلق عام فبطل قول من زعم أنه منسوخ إلا على الكفاية، ومتى تحصل الكفاية لأن القتال مكروه للطباع، وعلى فرض: أنه فرض كفاية يتواكل الناس، ويبطل الجهاد بعد الكفاية، فالأولى أنه واجب عام، إلا أن تدبيره إلى الإمام لتحديد من يأمرهم بالنفر إما العموم وإما الخصوص.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ يدل على وجوب البدء بهم لأنهم أقرب إلى الضرر على المسلمين، وقد قيل في تفسير ﴿ٱلْكُفَّارِ﴾ الحكام الحاكمون بغير ما أنزل الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] وهذا واضح في المتعمدين للحكم بغير ما أنزل الله الذين يجعلون الدين تبعاً لسياستهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أمر بالشدة عليهم والعنف في قتالهم، بحيث يعلموا قسوتكم عليهم وبعدكم من الرحمة لهم. قال في (لسان العرب): «الغلظة: ضد الرّقة في الخَلْق والطبع والفعل والمنطق والعيش ونحو ذلك» انتهى. والمراد الغلظة على الكفار الذين أمرنا بقتالهم، فلا يدل على قتل الأطفال، وبقر بطون الحوامل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تشجيع لهم على القتال؛ لأنه تعبير عن توليه لحسن رعايتهم فحيث يكون منها نصرهم ينصرهم، كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ

﴿١٢٤-١٢٥﴾ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أنزلَ الله سورة على رسوله ﷺ فبلغها ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من المنافقين وإن لم يذكروا هنا فقد مر ذكرهم كثيراً في السورة ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ عبارة جدال في القرآن وفي كونه من الله وفي كونه معجزاً يجب الإيمان به والإيمان بالرسول وما جاء به من أجل القرآن الدال على صدق الرسول ﷺ فالسورة التي هي معجزة، بدليل التعجيز بها في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة:٢٣] لا بد أن تزيد المؤمنَ إيماناً لأنها معجزة كاملة جديدة توجب الإيمان وحدها فإذا نفوا زيادتها للإيمان فقد نفوا كونها تسبب الإيمان وهو نفي لإعجازها.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لما فيها من زيادة العلم لهم والهدى والشفاء ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وارتياب وكراهة للدين ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ لأنهم ازدادوا ضلالاً بنفي كونها معجزة وجدالهم فيها بقولهم: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ فلما كان ازديادهم رجساً وقع بسببها، قيل: زادتهم، وهم الذين ازدادوا رجساً، والرجس: قذر معاصيهم فهي نجاسة معنوية.

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ بسبب تراكم أرجاسهم لم يوفقوا للتوبة، وقوله: ﴿وَمَاتُوا۟﴾ إما خاص بمن كان قد مات عند نزول هذه الآية، وإما عام للذين في قلوبهم مرض، وعبر بالماضي لموت بعضهم وتحققه من الباقين والمتحقق يعبر عنه بالماضي، مثل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف:٩٩] وهذا هو الصحيح لقوله تعالى:

يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

﴿١٢٦﴾ ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فلو كان الكلام فيمن قد مات لكان الأصل في التعبير أولم يروا أنهم كانوا يفتنون، والفتنة هاهنا: هي المصيبة يصابون بها، وهي تأديب وتعريض على التوبة في كل عام ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لأن قلوبهم قد بعدت من التوبة وصارت لا ينفع فيها نافع ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فما وقع عليهم من المصائب لا يبعثهم على التذكر كما ترى كثيراً من أهل الزمان إذا وقع زلزال أو نحوه نسبوا ذلك إلى الأسباب الطبيعية ونسوا التذكر بها.

فهؤلاء المنافقون تتابعت لهم أسباب التوبة فلم تنفعهم، فالرسول ﷺ عندهم يتلو القرآن وما فيه من المواعظ من الوعيد، وما فيه من زجرهم عن النفاق بكشف ما كشف من أسرارهم، وما فيه من التوبيخ لهم والذم لهم والأمر بالإعراض عنهم والمصائب التي تعرض لهم، ثم لا يتوبون بعد ذلك كله ولا هم يتذكرون.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ تفسير لقوله: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأنهم يفهمون من نظر بعضهم إلى بعض إرادتهم ترك الإستماع للسورة وإرادة التسلل من بين المؤمنين، فكأنهم يقولون عند التسلل: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي لا يراكم أحد فانصرفوا، فالإستفهام بمعنى: أن السامع يعلم أنه لا يراهم من أحد.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ بعد نظر بعضهم إلى بعض ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دعاء عليهم يعبر عن غضب الله عليهم واستحقاقهم الخذلان الذي لأجله ينصرفون عن الهدى ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الآيات والمواعظ والتحذير وغير ذلك لإعراضهم وكراهتهم للحق.

﴿١٢٨﴾ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ خطاب للذين آمنوا ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ أي شاق عليه، وفي كلام الإمام علي عليه السلام لأخيه عقيل شعر:

يعـزُّ عليَّ أن تُـرى بـي كآبـة فيشمـت عـادٍ أو يساءَ حبيبُ

وقوله تعالى: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ﴿مَا﴾ مصدرية و﴿عَنِتُّمْ﴾ بمعنى: أصابكم عنت وهو الضرر. قال في (لسان العرب): «العنت: دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة» انتهى.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ شديد الرغبة في المؤمنين وكثرتهم وبقائهم، لقوة رغبته في ظهور دين الله وانتشاره في الأرض ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو يشفق عليهم من كل مضرة، ويرفق بهم بقدر ما ينبغي، فهو رسول يحق اتباعه والكون معه والنصح له، ويقبح عمل المنافقين في إعراضهم عنه وتخلفهم عنه، وتثاقلهم عن طاعته، وتوليهم لأعدائه وما يصدر عنهم في شأنه.

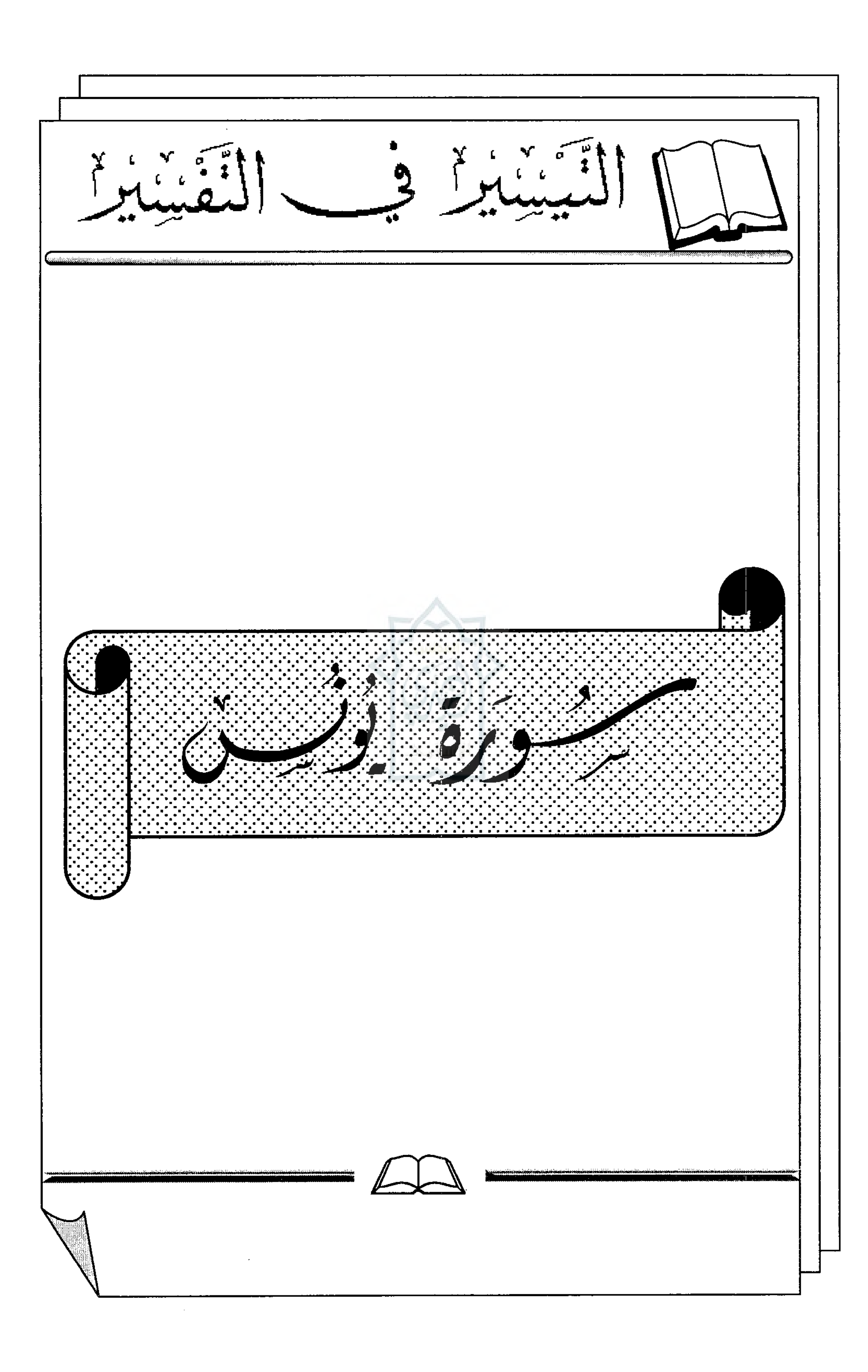
﴿١٢٩﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن اتباعك يا رسول الله والإيمان بك ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ كافيَّ الله فهو معي وهو ينصرني ويظهر دينه بغيركم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا أحتاج إلى غيره ولا ينصرني غيره.

﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في قيامي بأعباء الرسالة ودعوتي للناس وجهادي في سبيل الله وغير ذلك، وكلت أمري إليه وحده فما شاء قضاه لي وما قضاه لي رضيت به ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الملك الذي له الملك العظيم، فله الأمر في كل شيء وعلى كل مخلوق ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٤٠] و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١] ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] فهو حسبي ونعم الوكيل.






التيسير في التفسير
سورة يونس



سُورَةُ يُونُسَ

مكية — آياتها ١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى

تفسير (سورة يونس)

ومواضيعها مواضيع السور المكية

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الحروف التي يتركب منها الكلام ﴿الٓر﴾ وسائرها، ومعنى أنها آيات القرآن أنه مؤلف منها ولذلك فائدتان:

الأولى: أن الله تعالى أوحاه إلى رسوله ﷺ كلاماً ليس مجرد معناه فذكر الحروف لتحقيق أن الله أوحاه بكلماته وحروفه.

الفائدة الثانية: تعجيز العرب بهذا الكتاب الذي هو مؤلف من الحروف التي ينطقون بها فلو كانوا يستطيعون الإتيان بمثله لكان إتيانهم به أيسر من حيث أنه من جنس حروف كلامهم، فلما لم يأتوا بمثله تبين أنه كلام الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ وصف للكتاب بما يوصف به العالم الذي يدل على الصواب ويرشد إلى ما تقتضيه الحكمة؛ لأن هذا القرآن تستفاد منه الحكمة؛ لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ولكن الكفار كذبوا به وكذبوا الرسول الذي جاءهم به، فقال تعالى:

﴿٢﴾ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أي عجيباً، أو سبب عجب، والسؤال سؤال توبيخ لهم، ودلالة على أنه ليس عجباً؛ لأن هذا

الوحي تقتضيه الحكمة والرحمة وتستدعيه عظمة الله وعزته، فهو لم يخلق الناس عبثاً، فلا يهملهم وقبلهم الآخرة بما فيها من الجزاء العظيم، عذاب شديد تقتضي الحكمة إنذار الناس لئلا يقولوا في الآخرة: ﴿لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ [طه:١٣٤] ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

وثواب عظيم يستدعي تبشير المؤمنين ليعملوا ويصبروا في السعي له على المكاره، حتى يفوزوا به فليس الوحي بهذا عجباً، وهذا الثواب بسبب أن لهم قدم صدق عند ربهم، فإذا بشرهم أن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فهو يبشرهم بما يرغب فيه أهل الحب لله أعظم من رغبتهم فيما يترتب عليه من الجنة ونعيمها.

قال في (الكشاف) في تفسير ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: «أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة، فإن قلت: لم سميت السابقة قَدَماً؟ قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً» انتهى.

وأما الراغب فقال: «وقوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي سابقة فضيلة، وهو اسم مصدر» انتهى.

فجعل القدم نفس التقدم والزلفى والتفسير واحد، إلا أن صاحب (الكشاف) جعل القدم المعبر بها عن السعي عبارة عن المسبب الذي هو المنزلة الرفيعة.

﴿قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا﴾ القرآن الذي أوحيناه ﴿لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا دليل على أن له مَزِيَّة على كلامهم تستدعي الإيمان به فجعلوه سحراً لذلك وكَذَبوا لو كان سحراً لغلب المعاند كالوليد وأبي جهل وأبي لهب ولأحس المسحور بسلب حرية الاختيار أن بقي لَه عقل أو فارق العقلاء كمن خبّله السحر وصار لأجله من المجانين؛ ولعنادهم وجرأتهم على

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ

الكذب قالوا سحر مبين، وأكدوا كذبهم بـ(إن) و(اللام) وادعوا أنه بيّن كونه سحراً لا يخفى فأضافوا كذباً إلى كذب ولم يكن ينبغي لهذا القرآن الذي هو خير لمن آمن به وإنذار وتبشير أن يقابلوه بالمحاربة له؛ لأنه الحق ولأن الناس في أشد الحاجة إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور وينقذهم من النار ويهديهم إلى السعادة الدائمة.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هذا احتجاج على المشركين وبيان لبطلان الشرك ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ المالك لكم هو ﴿ٱللَّهُ﴾ فأنتم عباده وحده لا شريك له فيكم فكيف جعلتم له شركاء فيكم؟!

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فبين أن له الملكَ على كل شيء؛ لأن له الملك قبل كل المخلوقين فقد استحق الْمُلك ـ بضم الميم ـ وثَبَتَ له يوم خلق السموات والأرض.

وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يدل على قدرته العظيمة، وضلال الكافرين به الجاعلين له أنداداً، وهو الملك الحقيقي الذي معناه أن له أن يحكم ما يريد، وله الولاية المطلقة على كل شيء لأنه المالك لكل شيء؛ لأنه الخالق للسموات والأرض وما فيهما.

فترتيب استوائه على العرش على خلق السموات والأرض، يفيد: ثبوت الملك له الملك العظيم العام، وعلى سبق ملكه؛ لأنه خلق فملك فكان له

الْمُلك [بضم الميم] فتولى أمر ما خلق، وهو معنى ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ أما عطفه بـ(ثُم) فثم ليس للتراخي وإنما هو للدلالة على الترتيب مع تباين ما بين المعنيين الخلق والإستواء على العرش في علو الشأن أو لحكمة لا أعلمها.

وإذا كان لَه الْمُلك - بالضم - الملك المطلق، فله الحكم وحده ليس لأحد غيره، وهذا يثبت أن حكمه ببطلان الشرك هو الحق، وأن حكمه على عباده أن يعبدوه هو الحق فليس لمخلوق أن يشرع الشرك أو أن يتخذ لله شريكاً، وهذا نظير قول يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠].

وبهذا ظهر ارتباط قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ بسياق الآية الذي هو الدلالة على وجوب عبادة الله وحده وعلى بطلان الشرك بخلاف تفسير المخالفين له بمعنى مجهول فإنه لا يفيد في الإحتجاج على إبطال الشرك الذي كانوا عليه في الجزيرة العربية عند نزول القرآن.

أما قولهم: «الإستواء معلوم» فإنما أرادوا به: اللفظ معلوم، وله عندهم معنى مجهول وإن سموه معلوماً، فإنما ذلك بمعنى: أن الإستواء المجهول معناه الذي لا يسأل عنه هو معلوم عندهم، أي أنهم يعلمون استواء لا يفهمون معناه، وهذا يُصيِّر قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ أجنبياً عن سياق الآية لإيجاب التوحيد وإبطال الشرك؛ لأنه لا معنى للإحتجاج بالمجهول جملة وتفصيلاً، وأبعد من ذلك تفسير المشبهة الذين يعترفون بالتشبيه بأنه مثل استواء الناس على سررهم أي اعتدالهم مع قعودهم عليه.

يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يهيئ ويعد لمستقبل ما خلق على ما تقتضيه الحكمة مثل تقدير الأقوات في الأرض ليكون عاقبة ذلك انتفاع الإنسان وعيشه في الأرض فتدبير الأمر إعداده لعاقبةٍ تقتضيها الحكمة، والأمر: هو أمر ما خلق، وأمر استوائه على العرش الذي هو شأن تصرف الْمَلِك في مملكته فله الحكم وحده، وهو الذي ينبغي أن يُخشى ويُرجى ويُعبد ويُدعا ليدبر لعبده حياة طيبة في الدنيا والآخرة، وتدبيره تعالى للأمر يعترف به المشركون الذين كانوا حول الرسول ﷺ كما يأتي ذكره في هذه السورة إن شاء الله.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ بالشفاعة لأن الملك له وحده لا يشاركه فيه أحد وكل من في السموات والأرض عباد له، فبطل بذلك قول المشركين: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وحده لا شريك له في ربوبيته ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ إقراراً بأنكم عباده وأنه ربكم، وهذه عبادته وحده؛ لأنها هي التي يقبلها الله، أما مع الشرك فالعبادة له غير مقبولة فلا يعد صاحبها ممتثلاً لأمر الله تعالى في قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه ربكم وأنكم عبيده لا شريك له فيكم، وأنه الذي خلق السموات والأرض ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ حتى تعبدوه وحده وترفضوا شركاءكم.

﴿٤﴾ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَمِيعًا﴾ مجموعين في موقف العرض على الله.

جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي الوعد بالمرجع إليه وعده الله وعداً حقاً صادقاً لا يتخلف حقاً صواباً، ويحتمل ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ موعود الله أي المرجع إليه موعود الله حقاً ثابتاً لا يتخلف كما تقول: الموت حق، والعين حق، أي أنه أمر واقع فالوعد به صادق وإذا كان مرجعكم إليه وحده ما لكم من دونه من ولي ولا نصير فاتقوه واعبدوه وحده.

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لأنه على كل شيء قدير وقد علم الإبداء فدل على قدرته على الإعادة، فدل ذلك على صدق الوعد بالحياة الآخرة والمرجع إلى الله فيها.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل لأنهم أطاعوه فإعادتهم ليجزيهم بقدر ما يستحق كل واحد منهم مع أنه يزيدهم من فضله.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ الذين كفروا بالله إما لجحودهم وتكذيبهم بآيات الله الدالة على صدق وعده بالمرجع والجزاء، وإما لكفرهم بنعمة الله ففي هذه الثلاث الآيات ذكر الرسول والوحي إليه، ثم الدليل على أن التوحيد هو الحق، ثم ذكر الآخرة.

﴿٥﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ وهذه آية عظيمة تدل على قدرته ونعمته على العبيد تستدعي شكره عليها؛ لأنهم في ضياء الشمس يطلبون المعاش ولو استمر الليل لساءت حالتهم فجعلُها ضياء هو من تدبير الأمر يحتج به على المشركين لإبطال الشرك ولإثبات صدق الوعد بالآخرة.

لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ يخفف ظلمة الليل لمن احتاج إلى ذلك لسفر أو غيره ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي قدر القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ قدره صغيراً ثم يكبر ثم يصغر تبعاً لمنازله من البروج التي ينزل فيها فينزل في كل ليلة في منزلة حتى يتمها ويتم الشهر بتمامها ﴿لِتَعْلَمُوا۟﴾ بذلك ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي تعدادها بواسطة تعداد الشهور ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ ولتعلموا حساب الأوقات كالتاريخ الهجري والتاريخ الميلادي وغير ذلك.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه مما تقتضيه الحكمة ويطابقها فليس عبثاً بل هو مخلوق لما يترتب عليه من الفوائد للإنسان وغيره ومن الثواب والعقاب في الآخرة.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الدالة على قدرة الله وأنه ربكم وحده، وأن مرجعكم إليه، والجملة حالية، كما أن قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ فهي الآيات الكونية أو ما يعمها وغيرها، وتفصيل الآيات جعل بعضها منفصلاً عن بعضها الآخر لتعدد الدلالات بتعدد الآيات وتفصيلها، وتتضح كل آية بفصلها عن غيرها، وتفصيلها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ من أجل أن يعلموا دلالاتها على الله وهم الذين من شأنهم أن يعلموا لسلامة قلوبهم من العمى المسبب عن التمرد والعناد.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ ﴿ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تخالفهما فكل واحد يخلف

الآخر ويخلفه الآخر على نظام محكم وتقدير مناسب للحيوان وغيره ففي ذلك دليل على الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لعل المراد به الشمس والقمر والنجوم أو أعم من ذلك لمن يطلع على الملائكة وعلى كل ما في السموات ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وما خلق الله في الأرض من حيوان ونبات وجمادات وغيرها ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ إن في ذلك المذكور لآيات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ وخُص المتقون لأنهم هم الذين سلمت قلوبهم من توابع الخذلان المسبب عن التمرد والعناد، فهم يعرفون آيات الله ودلالتها على الله.

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «والرجاءُ: ظنٌ يقتضي حصول ما فيه مسرة، وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] قيل: ما لكم لا تخافون..» الخ.

وهو في الآية يمكن بقاؤه على أصله؛ لأن الكلام في الذين لا يؤمنون بالآخرة فهم لا يرجون لقاء الله خيراً ولا شراً، ولعل فائدة ذكر الرجاء إفادة أنهم لا يظنون لقاء الله، وإفادة أنهم لا يظنونه خيراً لهم لعدم عملهم ما يسبب للظن، ولقاء الله: حضور موقف العرض على الله تعالى، والسؤال والحساب.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أحبوها ورضوا بها بدلاً من الآخرة؛ لأن الدنيا عاجلة والآخرة لا يؤمنون بها، وقوله ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ﴾ إليها سكنت نفوسهم إليها غفلة عن تقلبها بأهلها، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ أي غفلة الإعراض عنها والاشتغال بالدنيا فهم كالناسين لآيات الله الدالة على صدق رسله.

مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ

﴿٨﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ الذي يأوون إليه في الآخرة.

﴿ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي جزاء بما تكرر منهم في الدنيا من جرائمهم المذكورة في الآية التي قبل هذه وسائر جرائمهم فيعذبون جزاء بها كلها يضاعف لهم العذاب بقدرها.

﴿٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وعد الله المؤمنين بعد وعيده للكافرين، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي بسبب إيمانهم أو هي (باء) الآلة مثلها في كتبت بالقلم فالإيمان سبب للهدى كما قد يكون الكفر سبباً للخذلان، والهدى للأعمال الصالحات بتعليمها وتحبيبها وتيسيرها.

وقيل: الهدى بمعنى الثواب بالجنة، وإذا كانت (الباء) سببيةً فيمكن دلالتها على الثواب بالهدى للأعمال الصالحات كما أن الخذلان يكون عقوبة عاجلة فيكون الهدى ثواباً عاجلاً، فأما جعل مفهوم الهدى هو الثواب فيحتاج إلى دليل غير هذه الآية؛ لأن احتمالها لما ذكرت يمنع الإستدلال بها على جعل مفهوم الهدى هو الثواب.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ على ما رجحت من تفسير (الهدى) أما على قول من جعل معنى ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ يثيبهم فهو خبر ﴿إِنَّ﴾ وقوله: ﴿تَجْرِى..﴾ إلى آخرها إما خبر ثان وإما حال من الخبر.

دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ

﴿١٠﴾ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ كلامهم الذي ألفوه واعتادوه في الجنة ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دعاؤهم لله التسبيح ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أي يا الله سبحانك أي نسبحك وذلك لرغبتهم في الدعاء والذكر لله، كما قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الآية [الحج:٢٤] ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿سَلَٰمٌ﴾ وهي التحية المباركة الطيبة والتحية كلمة تقال عند اللقاء. قال في (الصحاح): «والمحيَّى: الوجه» انتهى.

ولكونها كلمة طيبة تقال عند اللقاء سمى الضرب عند اللقاء تحية على المشاكلة؛ لأنه وضع موضع التحية في قول الشاعر:

تحيّـة بينهـم ضـرب وجيع

وجاء في المنافقين: تحيتهم لعنة؛ لأنهم يجعلونها إذا تلاقوا مكان التحية فتقوم مقامها في إدخال السرور على المنافق.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رغبة منهم في حمد الله الحميد لكثرة ما هم فيه من النعيم الذي يبعثهم على الحمد لله على ربوبيته للعالمين يختمون بها دعاءهم والحمد لله رب العالمين هنا مثله في آخر (سورة الزمر) ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [آية:٧٥] فهو حمد على قضائه في الآخرة والأولى في العالمين.

﴿١١﴾ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ ﴿وَلَوْ﴾ (الواو) عاطفة على ما سبق ذكره من كفر الكفار واستبعادهم الوحي

قَاعِدًا أَوْ قَآيِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن

إلى رجل من الناس فقد احتج عليهم وأنذرهم وهنا يشير إلى أنهم يستحقون تعجيل العذاب وهم يستعجلون الخير مع كفر أكثرهم لأنعم الله، فالمعنى: ولو يعجل الله للناس ما يستحقونه كاستعجالهم بخير الدنيا ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لمضى وانقضى أجلهم بالهلاك السريع، ولكن اقتضت حكمته إمهالهم.

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وقد مر تفسيره ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ في تجاوزهم الحد من الكفر وكفر نعم الله نتركهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون عمي القلوب في حيرة لا يهتدون سبيلاً.

قال الراغب: «العمه: التردد في الأمر من التحيّر» انتهى.

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآيِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ كالمرض ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي على جنبه ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآيِمًا﴾ أي على أي حالة كان عليها حين مسه الضر، أي دعانا لكشف الضر عنه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ مضى في سعيه لما يهوى غير ذاكر لنعمة الله عليه بكشف الضر ولا شاكر ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ لأنه استغنى ونسي افتقاره إلى الله حين كان يدعوه لكشف ضره فلم يعتبر بذلك بل أصر على إعراضه وتمرده.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ما استمروا عليه وتكرر منهم من العمل السيء كذلك كتركه في إعراضه ونسيانه شكر النعمة زين للمسرفين المتجاوزين للحد في كفر النعمة ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يتركونه لما يعرض لهم من التأديب.

قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا

﴿١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود؛ لما اجتمع فيهم ثلاث خصال:

الأولى: أنهم ﴿ظَلَمُوا﴾ بالشرك مثلاً والتكذيب بآيات الله وتكذيب الرسل.

الثانية: أنها جاءتهم الرسل القاطعة للعلة ببيان الحق وإقامة الحجة عليهم.

الثالثة: أنهم ما كانوا ليؤمنوا لو لم يهلكوا في بقية أعمارهم لإصرارهم وعنادهم وبعدهم عن الهدى فما صح ولا استقام أن يؤمنوا.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلك العذاب الذي عذبنا به القرون الماضية جزاء لظلمهم وإجرامهم ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ﴾ الذين أجمعوا على الإجرام أو فشى فيهم ولم يقبلوا نصيحة الرسل وما كانوا ليؤمنوا، فهي سنة الله في الأولين والآخرين أن يهلكهم أو يعذبهم عذاباً شديداً.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿خَلَائِفَ﴾ تخلفون القرون الماضية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تتمتعون فيها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لنختبركم في الأرض وفي خلافتكم للقرون الماضية نختبركم كيف تعملون أتعملون صالحاً أم سيئاً أي إنكم في مقام التكليف الذي يقع فيه الإحسان الذي هو سبب الثواب أو الإساءة التي هي سبب العقاب فأشبهت حالتكم حالة الابتلاء والاختبار، والله لا يخفى عليه ما سيكون منهم.

يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

﴿١٥﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هذا في الخلائف المكذبين الذين كانوا في وقت رسول الله ﷺ إذا تتلى عليهم آيات الله حال كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات تدل على أن القرآن من الله دلالة بينة، قال الجاهلون أو الغافلون الذين لا يتوقعون لقاء الله في الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ كفراً منهم بكونه كلام الله وزعماً أنه من كلام الرسول ﷺ وأرادوا أن يأتي بقرآن لا ينهى عن الشرك ولا ينكره، بل يقرهم عليه أو يتغافل عنه، والإتيان بقرآن غير هذا إتيان بقرآن آخر مع بقاء هذا القرآن منسياً، والتبديل: نسخه والرجوع عما فيه وكل ذلك تبديل؛ لأنهم أرادوا ترك هذا القرآن على كلا المعنيين والإتيان مكانه بقرآن آخر فردّ الله عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ﴾ كما طلبتم ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ يوحيه ربي ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة الذي لا ترجونه فلا بد لي من اتباع ما يوحى إليّ فما صح ولا استقام مني ما طلبتم مع إيماني بالآخرة وخوفي عذاب يوم عظيم إن أطعتكم، وفي هذا دلالة على أن المعصية سبب للعذاب في الآخرة وإن لم تكن من مشرك.

﴿١٦﴾ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا أتلوه عليكم

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ لأنه لو شاء لم يوجه إليّ أو لم يأمرني بتلاوته عليكم لكنه شاء أن أتلوه عليكم فتلوته عليكم بأمره ليس ذلك من تلقاء نفسي وكذلك لو شاء الله ما ﴿أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ لكن قضت حكمته إبلاغكم الحجة وعرض الهدى عليكم.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ﴾ بقيت ﴿فِيكُمْ عُمُرًا﴾ نحو أربعين سنة من قبل نزول القرآن عليَّ ومُضى الشباب الذي هو وقت الطموح في مدة طويلة لو كان من شأني الإفتراء على الله لكان العمر الماضي وقتاً له واسعاً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتنظروا بعقولكم نظر إنصاف وتعرّف للحق وتتركوا الإعراض والمسارعة إلى التكذيب بآيات الله قبل النظر فيما جئتكم به من الآيات نظر إنصاف وطلب للحق.

﴿١٧﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ بعد قيام الحجة بهذا القرآن ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إما أنا لو بدلت هذا القرآن بكلام مني وإما أنتم فيما تدعون على الله الرضى بدينكم من الشرك وتحريم ما أحل الله، وإما أي مكلف بلغه القرآن، فلا أظْلَمَ ممن افترى على الله كذباً ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾ بآيات الله وهي بينات واضحات الدلالة على أنها من الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ لا يظفر بالخير ولا يفوز به ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لأن الله غالب على أمره وهو على كل شيء شهيد، فكيف يترك المجرمين ينالون الخير بإجرامهم دون أن يفضحهم ويخيِّب آمالهم.

يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ

﴿١٨﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ فيعبدوه خوفاً ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فيعبدوه رغبة في نفعه لهم ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين يعبدونهم ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لمكانتهم عند الله فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله بزعمهم لئلا يعذبهم أولا يمنعهم الخير بسبب ذنوبهم، وهذا دعوى لا حجة له لا حجة لكونهم شفعاء ولا حجة لكون عبادتهم سبباً لشفاعتهم.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ سؤال توبيخ على قولهم هذا، فالله علام الغيوب الذي **﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾** [سبأ:٣] لا يعلم لَه شريكاً ولا شفيعاً كما يدعون، ولا يعلم هؤلاء الذين يعبدونهم إلا عباداً أمثالهم لا مشاركة لهم في ملك ولا مُلك **﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾** [النجم:٢٦].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عما يشركون تنزه عن أن يكونوا له أنداداً أو شركاء أو أكفاء ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ علو القهر وعلو العظمة وهذا التسبيح والتنزيه راجع إلى أول الآية ليس من مقول القول.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعة مجتمعين على دين واحد هو توحيد الله ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ من بعد ذلك، فليس الشرك إلا محدثاً

مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٣١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي

أحدثه المخالفون للدين الأصلي الذي كانوا مجتمعين عليه ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بحكمته ـ جل وعلا ـ أن لا يمهل المخالف للحق إلى حين تقتضي الحكمة إهلاكه؛ لقوله تعالى: **﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾** [الشورى:١٤] أو أن تكون هذه الدار دار ابتلاء واختبار والآخرة دار الجزاء ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين الناس حين اختلفوا لقضي بينهم: أي حكم وفصل ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ كله بنصر المحق وإهلاك المبطل حتى ينتفي الخلاف أو بإنهاء الخلاف بالقسر والإلجاء، وقوله تعالى: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يعم كل ما فيه يختلفون من التوحيد وغيره.

﴿٣٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي على رسول الله عليه وآله السلام ﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تدل على صدقه، فقد كذبوا بالقرآن وبسائر آيات الله ﴿فَقُلۡ﴾ لهم في مقابل كفرهم بآيات الله ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ فهو الذي يعلم ما يحكم به بيني وبينكم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ حكمه ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا لأنه قد جاءهم بالبينة الواضحة فكذبوا بها، كما مر من قولهم: **﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾** فالجواب في هذه الآية إنما هو عن تكذيبهم بآيات الله التكذيب الذي عبروا عنه بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾.

﴿٣١﴾ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ الرحمة بعد الضراء يكون لها وقع في النفس فتُسَرُّ بها النفوس وتكون نعمة ينتبه لها الغافل

ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا

فمن حقها أن يشكرها الإنسان، لكن الناس على خلاف الشكر يسارعون إلى المكر في آيات الله، والعمل لإبطالها في حين النعمة عليهم، وهذا أمر مفاجئ بالنسبة إلى المخلوق أن تحسن إلى الإنسان فيسارع إلى الإساءة إليك مع أنه لم يسبق منك إلا الإحسان.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ لأنه قد جعل الملائكة الحفظة يكتبون ما يمكرون ليروه يوم القيامة فيكون حسرة عليهم وسبباً لعذاب النار، فسرعةُ مكره إرسالُ الملائكة ليكتبوا ما سيقوله الكافرون قبل أن يمكروا، وسمي مكراً لغفلة الكفار عنه، وكونه تقدمة لكتابة مكرهم التي تترتب عليها ندامتهم يوم الحساب، ومن مكره بالحق خذلانهم فهو عقوبة عاجلة.

﴿٢٢﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ بما جعل لكم من قوة السير وما يسّر لكم من الدواب ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَ﴾ الفلك في ﴿ٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ﴾ غاية لتسييره لكم وجرين أي الفلك، وهي: السفائن ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ أي بالراكبين فيها أي ببعضهم، وفيه التفات من فوائده: أن القصة خاصة ببعض الكائنين في الفلك فلم يحسن الإستمرار في الخطاب العام.

ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ

وقوله تعالى: ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ فهي التي كانت تسوق السفينة في البحر فتجري براكبيها ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ سرتهم وأمنوا أن يغرقوا ﴿جَآءَتۡهَا﴾ أي جاءت الفلك ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ شديدة تحمل الماء وترفعه حتى يكون فوقها كالظلل وإذا نزل فيها أثقلها وغرقوا لا محالة.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ موج البحر ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي من الجهات كلها أي جهات الفلك ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي ظنوا أنهم صاروا في مهلكة لا مخلص لهم منها ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ قائلين في دعائهم لطلب النجاة ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ يا الله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ﴾ عبادك ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وهذا أبلغ مما لو قالوا: (لنشكرن) لأن الشاكرين وصف لمن شكروا وثبتوا على شكرهم والكون منهم يشعر بأن يكون الشاكر ثابتاً على شكره مثلهم من حيث أن من لم يثبت على الشكر وبدله بالكفر يخرج من اسم الشاكر.

﴿٢٣﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ نكثوا العهد بسرعة فاعتبر النكث مفاجئاً، وقوله: ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يفيد: انتشار بغيهم أو أن من شأنه أن ينتشر في الأرض ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ بل هو ظلم وفساد في الأرض وكفر نعمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إنما تبغون على أنفسكم حين تبغون على عباد الله، فقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبر ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾ وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ برفع ﴿مَتَاعُ﴾ خبر بعد خبر، وبنصب متاع حال، ومعنى كونه متاع الحياة الدنيا: أنه قليل يفنى وحسابه في الآخرة حيث الجزاء الدائم.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ في الآخرة ترجعون إلى الله وحده ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ننبئكم: نخبركم، لأنه لم يخفَ علينا شيء من عملكم ولم ننس منه شيئاً ولم نهمله فهناك الحساب والجزاء الأوفى، فأي فائدة للباغي في بغيه مع أن يوم المظلوم على الظالم شر من يوم الظالم على المظلوم؛ لأن عذاب الباغي دائم وبغيه متاع قليل.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ هذه الآية الكريمة تبين قصر مدة متاع الحياة الدنيا واغترار الناس بها مع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ﴾ التشبيه ليس بالماء وحده وإنما هو بجملة ما أفادته قصة إنزال السماء وما ترتب عليه من ظهور النبات ونموّه وإثماره وذهابه حين ظن أهله أنهم قادرون عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي نبتت الأنواع المختلفة بسبب المطر واختلطت بسبب اختلاط أصولها أو بذورها وهذه عادة الأرض بعد أن تحيى بالمطر تنبت نباتات مختلطة فهو يشير إلى قوة ريّها، وقوله: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ كالفجل، والبصل، والثوم، والكراث، والجرجير،

وكذلك ثمار الشجر الأخرى لأنها من النبات، قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا * وَعِنَبٗا..﴾ [عبس:٢٧-٢٨] وما تأكل ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ ظاهر؛ ولحصول المأكولَين يرغب الناس فيهما.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ جمالها عند اخضرار الشجر وتفتح الزهر ويناع الثمر ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ يشير إلى تكامل النبات وظهور ما تقوى فيه رغبة الناس من الثمر اليانع الذي تزينه ألوان ينعه المختلفة الدالة على ينعه، فكأن الأرض بإنتاجه امرأة أخذت زينتها ولبستها ليرغب فيها من يراها، فقوله: ﴿أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ استعارة مكنية، قرينتها قوله: ﴿أَخَذَتِ﴾ وقوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ يدل على المقصود بأخذ الزينة الذي هو التزين لمن يرى.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ لأنها في تلك الحال تحت تصرفهم ولا يعلمون ما في الغيب.

ويعجبني قول سيد قطب في تفسيره لهذه الآية من حيث نبه على بقية المعنى، فقال: «ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها حين يرضون بها ويقفون عندها ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى، هذا هو الماء ينزل من السماء وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر وها هي ذي الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وتتبرج وأهلها مزهوون بها يظنون أنها بجهدهم ازدهرت وبإرادتهم تزينت وأنهم أصحاب الأمر فيها لا يغيرها عليهم مغيّر ولا ينازعهم فيها منازع، وفي وسط هذا الخصب الممرع وفي نشوة هذا الفرح الملعلع وفي غمرة هذا الإطمئنان الواثق ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾» انتهى.

وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ كأن لم تكن باقية بالأمس.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التفصيل الذي بيّن صفة الدنيا وسرعة زوالها واغترار الناس بها ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ نبين الآيات بيان تفصيل ﴿لِقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ليؤديهم التفكر إلى معرفة ما به يهتدون.

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الجنة لسلامة أهلها من النار ومن كل شر فهو يدعو إليها ويبين لعباده طريقها، فمن أجاب داعي الله تسبب للهدى إلى صراط مستقيم، وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ دليل لمن أراد الهدى أنه من الله ليستهديه ويسبب لهداه بتقواه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

﴿٢٦﴾ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ آمنوا وعملوا الصالحات لهم ثواباً عليها ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الحسنة الزائدة في حسنها أو المثوبة الحسنى ﴿وَزِيَادَةٞ﴾ وهي تفضل من الله، كقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر:٣٠] ويحتمل أن الحسنى حسنة واحدة، والزيادة تسع حسنات معها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠] والأول أظهر.

ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والقتر: سواد يعتري الوجه عند حزنٍ شديدٍ، وأصل القتر الغبار قال الشاعر:

متـوّج بـرداء الملك يتبعـه ... موج ترى فوقه الرايات والكدرا»

انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي لا هوان وانكسار كما يكون لأعداء الله فالذين أحسنوا لا يغشاهم قترٌ ولا ذلة.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ وفي الجنة الحسنى والزيادة فكأن هذا تفسير لأول الآية، وهنا فائدة الدلالة على أنهم فيها لا يموتون فالنعيم دائم والملك الكبير لا يذهب.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي وللذين كسبوا السيئات ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ بمثلها أي ما يقتضيه العدل وهو أن يكون عذابه في شدته على قدر سيئته وليس معنى ذلك أنه ينتهي؛ لأنه لو كان المعنى: أن مدته في النار على قدر سيئته، لكان المشرك والمكذب بآيات الله وكل صاحب جريمة لا يبقون دائماً في النار.

فإن قيل: إن المشرك ونحوه ذنبه عظيم لا يقاس به غيره؟

قلنا: صحيح أنه عظيم، ولكن لا دخل له في الخلود إذا كان معنى المماثلة في مدة البقاء، وكانت مدة غير الشرك تنتهي.

فإن قيل: بل قبح الشرك يقتضي الخلود؟

قلنا: إن الخلود لا نهاية لَه وشرك المشرك منتهٍ؛ لأنه كان في أثناء الحياة الدنيا فتعذيب المشرك أطول من مدة الشرك.

فإن قيل: إن العذاب على قدر القبح لا على قدر مدة المعصية؟

قلنا: فإذا جاز أن يكون قبح الشرك يقتضي الخلود جاز في غيره أن يكون قبحه يقتضي الخلود، وإنما تختلف مراتب العقاب باختلاف مقادير شدته ومسألة الخلود لا مجال للعقل فيها وإنما تظهر الحقائق يوم القيامة ووعد الله حق؛ لأنه أحكم الحاكمين وأصدق القائلين.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ والعاصم المنجي ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:٤٣] فلا ينجيهم من الله شيء لا صنم، ولا مَلَك، ولا عيسى، ولا عزير، ولا نبي ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لشدة حزنهم وهول الموقف عليهم اسودت وجوههم، حتى كأنها أغشيت ظلم الليل في حال خلوه عن النور فلا قمر ولا غيره مما يخفف ظلمة الليل، وذلك يكون في ليلة كَفَر النجومَ غمامُها، وفي الآية تنبيه عجيب لتضمنه استعارة مكنية وتقييد الليل بالإظلام.

قال سيد قطب في (تفسيره): «ثم يرسم السياق صورة حسّية للظلام النفسي والكدرة التي تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعاً غشيت بها هذه الوجوه، وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته تبدو فيه هذه الوجوه ملفّعة بأغشية من هذا الليل البهيم» انتهى.

أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

وقوله: «ورهبة من رهبته» صواب العبارة: أن من محاسن هذا التشبيه وهذه الاستعارة اختيار سواد الليل لاشتماله على الوحشة والخوف، والله أعلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفة المذكورة ويحتمل أن الإشارة إلى المذكورين باعتبار القترة والسواد المذكور وكذلك الإشارة إلى الذين أحسنوا باعتبار أن وجوههم لا يرهقها قتر ولا ذلة، فيكون السياق هنا كالسياق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ..﴾ الآية [آل عمران:١٠٦-١٠٧] في إفادة: أن اللون يوم القيامة إما دليل الخلود في الجنة، وإما دليل الخلود في النار.

﴿٢٨﴾ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ ﴿نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات جميعاً مجتمعين في موقف السؤال ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف ولعل العامل فيه ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ..﴾ الآية ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم وقفوا لا تبرحوا حتى تسألوا أنتم وشركاؤكم.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ (زيلنا) فرقنا بينهم بسؤالهم في ذلك الموقف الرهيب التفريق متعدد فتفريق بينهم وبين شركائهم، وتفريق بين الأخلاء الذين كانوا متحابين على الشرك، وتفريق بين التابعين والمتبوعين، انقطعت العلاقات وانقلبت إلى عداوات وذلك لهول الموقف.

لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَّا كُنتُمْ﴾ تخصوننا بالعبادة لأنكم كنتم تعبدون الجن بها وهم الذين كانوا يأمرونكم بعبادتنا ويزعمون لكم أن عبادتنا حق وصواب، فالمسؤولية عليكم وعليهم، فنفي التخصيص بالعبادة تقدمة للتهرب من المسؤولية بدعوى أن عبادتهم كانت عبادة لغيرهم فلا تتعين المسؤولية على هؤلاء الشركاء، وهذه الآية تشبه آية (سورة سبأ) فتفسيرهما سواء وإذا لم تكونوا تخصوننا بالعبادة:

﴿٢٩﴾ ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ فالمسؤول غيرنا ونحن براء؛ لأنا لم نعلم بعبادتكم فلا أمرنا ولا رضينا فنحن نبرأ من عبادتكم لنا وهذا تمام التنصل والتخلص من مسؤولية شركائهم.

﴿٣٠﴾ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ في مكان السؤال والحساب يوم القيامة ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تختبر ما أسلفت من حسن أو سيء بمشاهدتها لجزائه وتعرف خُبْر عملها الذي أسلفت أي أمضته في الدنيا ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ أي المحشورون كلهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليحكم فيهم ما يريد ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ مالكهم الحق لا شركاء المشركين ولا قادة المتبوعين ﴿وَضَلَّ﴾ ضاع ﴿عَنْهُم﴾ هنالك ﴿مَّا كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ من الدعاوي والمبررات الباطلة والأماني الكاذبات الخادعة فلا شركاء ولا شفعاء ولا عاصم من أمر الله.

ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا

﴿٣١﴾ ﴿قُلۡ﴾ للمشركين ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من ينزل لكم المطر من السماء، ومن ينبت لكم الثمرات من الأرض وما تأكلون وتأكل أنعامكم.

﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ يجعلها لمن يشاء ويفقدها من يشاء فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ كالشجر من الحب والنوى ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ كالمولود الميت في بطن أمه ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أمر المخلوقات فيجعلها مؤدية لما يؤول إليه أمرها كتدبير أمر المطر بجعله مؤدياً إلى ري الحيوان والنبات وتدبير النبات لإنتاج الثمر وتدبير الثمر لتغذية الإنسان وغيره وكذلك التدبير للخصب وللجدب وللصحة وللسُقم وللغنى وللفقر وللحياة وللموت بتهيئة الأسباب والشروط ونحوها وغير ذلك.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ الذي يرزقنا وهو الذي يملك السمع والأبصار وهو الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وهو الذي يدبر الأمر.

﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله بترك الشرك وبعبادة الله وحده وقد عرفتم أنه الذي يرزقكم من السماء والأرض إلى آخر ما ذكر.

﴿٣٢﴾ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ ذلكم الذي له الصفات المذكورة ﴿رَبُّكُمُ﴾ ما لككم الحق، لا ما تعبدون من دونه فما يملكون من قطمير، فلا ربوبية لهم.

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ لأن ما بعد الحق خلاف الحق فهو باطل، واتباعه ضلال وغواية ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فمن أين ﴿تُصْرَفُونَ﴾ عن الحق الذي تقضي به فطرة العقول إلى الباطل الذي ليس عليه دليل.

﴿٣٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿حَقَّتْ﴾ صدقت وكانت صواباً كما حقت على المشركين المذكورين الذين قامت عليهم الحجة الواضحة في الآيات الماضية فلم يؤمنوا؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون و﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إخباره أنهم لا يؤمنون في حال فسقهم للتنافي بين الفسق والإيمان فظلمة الفسق على قلوبهم تمنع دخول نور الإيمان، وذلك الفسق هو تعمد الفجور والخبث والتمرد والعناد، لا الفسق العرفي الذي هو المنزلة بين المنزلتين إذا لم يكن معه عناد للحق ومحاربة للدين.

وعلى قراءة ﴿كَلِمَات﴾ يكون المراد بها الكلمات المتعددة في القرآن المفيدة لمعنى هذه الكلمة مثل ما مرّ في أوائل (سورة البقرة) وفي (سورة الأنعام) ومثل ما في (سورة يس) و(المطففين) ومثل ما يأتي في هذه السورة وغير ذلك.

﴿٣٤﴾ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ من يخلقه أول مرة ابتداء ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يخلقه تارة أخرى بعد إفنائه ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي الله وحده يبدؤ الخلق ثم يعيده

إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ

ومن سواه عاجز عن ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أين تقلبون عن فطرة العقول بإشراك من لا يخلق وجعله نِدّا للخالق.

﴿٣٥﴾ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وهذا احتجاج على المشركين بأن ليس في شركائهم من يهدي للحق؛ لأنها لا تكلمهم وهي جمادات لا تسمع ولا تبصر، أما الله سبحانه وتعالى فإنه ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بجعل العقول في القلوب وإرسال الرسل وإنزال الكتب وما جعل من الآيات الكونية والآيات المسموعة.

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فهذه قضية تعرفها فطرة العقل أن من يهدي إلى الحق أحق أن يتبع لوجوب التوصل إلى الحق واجتناب الباطل، أما الأصنام التي لا تهتدي فضلاً عن أن تهدي فلا يفيد اتباعها والإقبال عليها والتعبد لها شيئاً من الحق، بل هي سبب للضلال، فما لكم أيها المشركون تركتم حكم فطرة العقول وانصرفتم إلى الباطل، وهذا توبيخ لهم خاطبهم الله به، ثم التفت الكلام عن خطابهم إلى خطاب غيرهم لتمام الإحتجاج عليهم وعدم جدواه فيهم:

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ أكثر المشركين ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ فهم لا يعلمون أنهم

ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ

على حق وإنما يظن أكثرهم أنهم على حق لوسواس يؤدي إلى الظن مثل ما عبروا عنه بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] ومثل حسن ظنهم بأسلافهم واستبعادهم أن يتعمد أسلافهم الباطل ولكن ذلك لا يقاوم الدليل القاطع الدال على بطلان الشرك ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِى﴾ أي لا يكفي شيئاً ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي لا يدفع شيئاً من الحق، وهذا يدل على أن اتباع المعلوم هو الحق، وأن لا يعدل عن اتباعه إلى الروايات التي لا يعلم أن النبي ﷺ قال ما روي عنه فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ يبين أن الله تعالى أخبر أن أكثرهم إنما يتبعون الظن؛ لأنه عليم بما يفعلون فهو يعلم أنه اتباعٌ للظن أو على أي وجه وقع، وقوله: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ لعله يُخرج المقلدين المهملين للنظر بالكلية وإنما يقلدون لمجرد الهوى في اتباع آبائهم.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ الذي تسمعونه خارقاً للعادة في حكمته وإحكام بيانه، قال (صاحب الكشاف): «ومعنى وما كان أن يُفترَى، وما صح وما استقام أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى» انتهى.

يعني: أن هذا النفي مثله في ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [التوبة:٧٠] ونحوها مما فيه نفي الكون و(لام الجحود).

وعبارة (سيد قطب) في تفسير هذه الآية: «فهو ـ أي هذا القرآن ـ بخصائصه الموضوعية والتعبيرية بهذا الكمال في تناسقه، بهذا الكمال في العقيدة

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ

التي جاء بها، وفي النظام الإنساني الذي يتضمن قواعده، وبهذا الكمال في تصوير حقيقة الألوهية وفي تصوير طبيعة البشر وطبيعة الحياة وطبيعة الكون لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله؛ لأن قدرة واحدة هي التي تملك الإتيان به هي قدرة الله القدرة التي تحيط بالأوائل والأواخر وبالظواهر والسرائر وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص ومن آثار الجهل والعجز.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ما كان من شأنه أصلاً أن يفترى، فليس المنفيُّ هو الإفتراء، ولكن جواز وجوده هو المنفي وهو أبلغ في النفي وأبعد» انتهى.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتاب وهو التوراة والإنجيل، أي ولكن كان هذا القرآن تصديق الذي بين يديه، وكان هذا القرآن ﴿تَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي الفرض والإيجاب على عباد الله بما فيه من الأوامر وسائر أدلة الإيجاب، مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة:١٧٨] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦] ففي القرآن تفصيل بيّن ويحتمل شمول الكتاب لأمر الله ونهيه؛ لأن النهي يوجب الترك.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿لَا رَيْبَ﴾ في القرآن؛ لأنه الحق الواضح بالحجة المفيدة للعلم اليقين، وهذا القرآن ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم فهو يدعو عباده إلى دار السلام ويأمرهم وينهاهم؛ لأن له الحكمَ في عباده وعليهم أن يعبدوه كما علمهم.

﴿٣٨﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أيقول المشركون افترى محمد هذا القرآن تمرداً منهم وعناداً ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ

إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ إن افتراه كما زعمتم ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ في الحكمة وعظم الفائدة وإتقان البيان.

﴿وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ ليعينكم على الإتيان بسورة مثله فادعوا من استطعتم أن تدعوه لذلك ﴿مِّن دُونِ اللّهِ﴾ لأنكم قد زعمتم أنه من قول البشر حين قلتم افتراه محمد، فإذا كان من قول البشر فإنه لا بد أن تستطيعوا أن تأتوا بسورة مثله إن كان من قول البشر وكنتم صادقين في زعمكم أنه افتراه.

وقد بسط (قطب) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى﴾ بسط في ذكر ما يمتاز به القرآن بقدر مستطاع (سيد قطب) فليراجعه من أراد التوسع.

وذكر (الطباطبائي) في تفسير هذه الآية كلاماً مفيداً، وحاصله: أن التعجيز في هذه الآية وأمثالها بما في القرآن من العلوم النافعة المهمة والمتنوعة الواسعة التي يعجز البشر عن الإتيان بها ومع ذلك وقوعه في أعلى درجات البلاغة، وهو كلام مفيد فليرجع إليه من أراد التفصيل في هذا المعنى.

وقد جمع تلك المعاني قول الله تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢] فليطالع لفهم هذه المعاني ما في تفسير (قطب) وما في تفسير (الطباطبائي) وقد جادا بكثير مما يتطلبه العصر الحاضر في تفسيرَيهما.

والتعجيز في هذه الآية وفي غيرها من القرآن يكشف بطلان زعمهم أنه افتراه؛ لأنهم لم يأتوا بسورة واحدة مثله مع شدة حرصهم على إبطاله ومع أنه بلسانهم العربي المبين جاءهم به رجل نشأ بينهم فلُغَته لغتهم ولو أطاق

﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ

اختلاقه لأطاقوا مثله، ومع أن التعجيز بسورة منه مستمر في حياة الرسول ﷺ من حين جاءهم بالقرآن، وذلك نحو ثلاث وعشرين سنة وبعده فلم يأتوا بمثله، كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:٢٤].

﴿٣٩﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ استعجالاً منهم على رده وحرصاً على دفعه فكذبوا بأنه من الله، ولعلهم لو أحاطوا بعلمه على الكمال لعلموا أن قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ كلام في غير محله؛ لأنه كتاب فيه العلوم الواسعة والحكم البالغة والبيان الواضح المحكم، ومع ذلك فهو عزيزٌ لا مدخل فيه لطاعن، وسليمٌ من الإختلاف والتدافع والتفاوت الذي يكون في كلام البشر بسبب اختلاف حالتهم من قوة وضعف ونشاط وملل وانتباه وغفلة وانبساط وانقباض، كما قدمت في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ وهم يعلمون أنه رجل نشأ في بلد لا علم فيه ولا دراسة للكتب، وهو لا يقرأ كتاباً، ولا يخطه بيمينه، جهالة منهم وخبط عشواء.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ لما يأتيهم تأويله وهو مصداقه الذي يطابقه؛ لأنه عاقبة خبره عما سيكون ومآله فحين يأتيهم يؤمنون حين لا ينفعهم إيمانهم.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم كذبوا بآيات الله؛ لأنهم لم يحيطوا بها علماً؛ ولأنهم لما يأتهم تأويلها ولذلك أهلكهم الله.

مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمد أما هؤلاء المكذبون فإنهم لا يريدون أن ينظروا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين سارعوا إلى التكذيب بآيات الله من دون أن يحيطوا بها علماً عجلة بالسيئة قبل الحسنة واتباعاً لأهوائهم، وأصروا على التكذيب فما كانوا ليؤمنوا حتى يأتيهم تأويلها، فأخذهم الله ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ﴿وَمِنۡهُم﴾ ومن المكذبين اليوم ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ بعد اليوم، فقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ سؤال وليس يعم الذين لم يؤمنوا ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أبداً في دار الخيار؛ لأنهم مفسدون محاربون للدين، فاستحقوا الخذلان.

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فهو يجازيهم بكفرهم وإفسادهم وكل جرائمهم، فالكفار في أول تبليغ الرسالة كانوا فريقين فريقاً: كذبوا وهم أتباع للمفسدين مضلل عليهم، وفريقاً: كذبوا وحاربوا الرسالة بالصد عن الإيمان وإلقاء الشبهات وتعذيب بعض من آمن ونحو ذلك، فهؤلاء المفسدون مخذولون لا يؤمنون، وفائدة الإخبار بأن منهم من سيؤمن تهوين الأمر على الرسول ﷺ لقوة رغبته في إيمان الناس وقلة من آمن به في أول الرسالة أو ذلك من فائدة الإخبار بالفريقين.

﴿٤١﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ بعد إيمانهم فتبرأ من عملهم كقوله تعالى

تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً

في (سورة الشعراء): ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [٢١٥-٢١٧] ففي إعلان البراءة والمفاصلة إظهار القوة والتوكل على الله وعدم المبالاة بهم، وإبطال لكيد من كاده بإظهار الإسلام ثم الكفر، كما ذكر الله تعالى عن بعضهم في قولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢].

﴿فَقُل لِّى عَمَلِى﴾ فأنا ثابت عليه؛ لأنه لي ونفعه لي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ إما نافعاً وإما ضاراً ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ فلستم مسؤولين عن عملي ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلست مسؤولاً عنه ولا يضرني، وهذه كلمة متاركة ومقاطعة، ودلالة على أنهم إن كذبوه فإنما يضرون أنفسهم.

﴿٤٢﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ استماع تعجب أو إجابةً لداعي حب الإطلاع الطبيعي مع إصرارهم على الفسق.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فاستماعهم كاستماع الصم؛ لأنهم كارهون للحق معرضون عن التدبر فهو يمر على آذانهم قبل أن يتدبروه؛ لأن قلوبهم غير صالحة للتدبر لأنهم أهملوا عقولهم، فكأنه اجتمع عليهم الصمم وسلب العقول.

﴿٤٣﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ لأنك بينهم في مكة تدعوهم إلى الله ولكنهم مصرون على الكفر.

مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فنظرهم إليك كنظر العمي لأنهم لا ينتفعون به ولا يدعوهم إلى النظر الصحيح وطلب الصواب فلا تحرص على إيمان كل من استمع إليك أو نَظَر إليك؛ لأن بينهم وبين الإيمان مسافات بعيدة ولا تبالِ بهم.

﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فهم يوقعون أنفسهم في طريق النار، وهم يوقعون أنفسهم في حبائل الشيطان وما يترتب على الخذلان، وفي هذه دلالة واضحة لمن أنصف على بطلان دعوى أن الله هو الذي يوجد فعل العبد الذي هو المعصية التي يستحق بها النار، ففي هذه الآية نفيٌ لقولهم وإثبات لقولنا.

ولا يفيدهم تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ﴾ بأن فعله بهم لا يكون ظلماً ولو عذبهم بلا ذنب؛ لأن عطف قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يفيد: أن المقصود لا يظلمهم بأن يعذبهم بغير استحقاق منهم أو بفعل ما يوقعهم في العذاب أي لا يفعل ذلك، ولذلك عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي هم الذين يفعلون ما يوقعهم في النار، فأثبت لهم ما نفاه عن نفسه، ودل على أنهم هم الذين يوقعون أنفسهم في أسباب العذاب فيظلمون أنفسهم بذلك، فأي دليل أوضح من هذا لمن سلمت بصيرته؟!!

﴿٤٥﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الظرف

ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

منصوب بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾ أوبـ(اذكر) ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا وفي البرزخ يرون المدة قصيرة جداً؛ لأنها قد مضت، وذلك يسبب الندم على ما قدموا من أسباب العذاب ميلاً إلى الدنيا فبقيت عقوبته، فالمعنى ويوم نحشرهم مستقلين المدة الماضية ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ فيها ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي يستشعرون ذلك.

فقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ سواء كان حالاً ثانية أي نحشرهم يتعارفون، أو حالاً من يلبثوا داخلاً في المستثنى استثناء مفرغاً؛ لأن الآية على كلا التقديرين تفيد تعارفهم في الدارين.

فعلى *الوجه الأول*: يتعارفون يوم الحشر؛ فإذا تراءوا في الآخرة عرف بعضهم بعضاً لأنهم قد تعارفوا في الدنيا.

وعلى *الوجه الثاني*: كأن لم يلبثوا إلا ساعة يتعارفون فيها؛ لأنهم قد تعارفوا في الآخرة بسبب ذلك التعارف في الدنيا، فاستشعروا قصر مدة تعارفهم في الدنيا، وما كان في ذلك التعارف من أسباب العداوة في الآخرة والندم الطويل، وانقطاع الألفة في الآخرة ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ لأن دنياهم قد مضت وفاتهم في الآخرة كل خير وصار مأواهم النار ذلك هو الخسران المبين، فقد تحقق خسرانهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ في الدنيا كما كانوا يزعمون أن التكذيب هو الصواب، بل تحقق يوم حشر الله لهم أنهم كانوا ضالين.

﴿٤٦﴾ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي وإن أريناك بعض العذاب الذي نعدهم أريناك بأن عجلناه في حياتك وشاهدته، فقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا﴾ أصله (وإن ما) وهي (إن) الشرطية أدغمت في الميم و(ما) صلة تحسن القول.

ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نعذبهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ وحسبهم ذلك سواء عُجل لهم عذاب في الدنيا أم لم يعجل؛ لأن مرجعهم إلى الله وحده وهو الشهيد على ما يفعلون، والشهيد هو الحاكم فيهم، لا يفوتونه ولا يجدون منه ولياً ولا نصيراً.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ رسول من الله أرسله إليهم ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ يوم القيامة يخاصمهم بما كذبوه في الدنيا وآذوه وقاتلوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الرسول وأمته ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والحق ﴿وَهُمْ﴾ الرسول وأمته ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بل تجزى كل نفس بما تسعى، فيثاب رسولهم وينال ما وعده الله من الخير، ويعاقب أعداؤه جزاء سيئة بمثلها كما مر.

﴿٤٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالعذاب الذي وعدتمونا استعجالاً له لظنهم أن الوعد غير واقع، وقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ تحكم لأن المعنى إن كنتم صادقين أخبرونا متى يكون إن كنتم صادقين وإلا فلستم صادقين، وهذا كفر بالرسول وبالوعد حيث سووا بينه وبين من معه من المؤمنين فنسبوا الوعد إليهم على سواء والمطالبة لهم على سواء.

وإنما قلت: أنه تحكم لأنهم جعلوا شرط الصدق ما ليس شرطاً لأنه لا يجب إلا الدليل على صدق الوعد وقد بينه الله ورسوله فلم يقبلوا وكلامهم هذا ذكره الله في مواضع من القرآن وفي كل موضع جواب مناسب وجوابه هنا ما في الأربع الآيات التي بعد هذه.

يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا

﴿٤٩﴾ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فلا أملك تحصيل ما اقترحتم من تحديد وقت الوعد؛ لأن الأمر كله لله، فإن شاء حدد، وإن لم يشأ فلا يستطيع غيره أن يحدد، كما لا يستطيع أحد أن يعجل ما وعد الله به من القيامة وما فيها.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا تحسبوا إمهالكم وأنتم تكذبون بالآيات وباليوم الآخر إهمالاً لكم، إنما هو إملاء حتى يأتي أجلكم كما كان للأمم قبلكم، وهو أجل محدود لا تستقدمون قبله وإذا جاء لا تستأخرون، وبهذا يظهر: أن السياق في وعدهم بالعذاب من غير فرق بين أن يكون في الدنيا أو في الآخرة؛ لأنهم كافرون بالآخرة.

﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ عذابه عذاب الله الذي وعدكم جزاء على كفركم، وهو يشير إلى شدته بإضافته إلى الله ﴿بَيَٰتًا﴾ وأنتم نائمون فهو مباغت لكم في الليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ فلن تقدروا على دفعه وإن عاينتموه في النهار نازلاً عليكم ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ هل فيه شيء مرغوب يستعجله المجرمون المستحقون للعذاب بإجرامهم أي أنه عذاب ليس فيه أي مرغب يدعوا إلى استعجاله فلماذا تستعجلونه بقولكم: ﴿مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي تكفرون به وتستعجلونه ثم إذا ما وقع آمنتم به، آمنتم أنه العذاب الذي وعد الله به أو آمنتم بالرسول بسبب وقوع العذاب والأول أظهر، فهم مكذبون بالعذاب فقيل: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ بأنه حق كما وعدكم الله به.

بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ الآن يقبل إيمانكم حين قد وقع العذاب بعدما كذبتم به وكنتم به لفرط تكذيبكم به تستعجلون به أي أنه إذا وقع لم يرفع عنهم ولم ينفعهم إيمانهم.

﴿٥٢﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ثم بعد وقوع العذاب بياتاً أو نهاراً صرتم إلى عذاب الخلد، وهو العذاب الدائم الذي لا موت فيه فقيل لكم بسبب ظلمكم في الدنيا: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهو جرائمكم التي تكررن منكم في الدنيا فالعذاب العاجل تصيرون به إلى عذاب الخلد من أجل سوء الخاتمة لأنه أخذكم العذاب وأنتم ظالمون.

﴿٥٣﴾ ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ ﴿أَحَقٌّ﴾ ما وعد الله به من عذاب الخلد ﴿يَسْتَنْبِـُٔونَكَ﴾ يسألونك أن تنبئهم، أي تخبرهم أحق هو؟

﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِي﴾ أي نعم ﴿وَرَبِّيٓ﴾ أحلف به ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ واقع بكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله أي لا تدفعونه عن أنفسكم ولا يَعجَز الله عن تعذيبكم.

﴿٥٤﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ فكل نفس قد ظلمت في الدنيا لو أن لها عند حضور عذاب الآخرة ما في الأرض من الأموال ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ من سوء العذاب، أي لبذلته فديةً لها من العذاب.

حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ وذلك حين رأوه من مكان بعيد وعلموا أنه واقع بهم بما كسبوا في الدنيا فندموا وودوا لو أنهم أطاعوا الله ورسوله، فأما إسرار الندامة فلعل سببه الكبر فيما بينهم.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين أهل الموقف المفهومين من كل نفس ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالحق والعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فتجزى كل نفس بما تستحق لا يزاد في عذاب أحد فوق ما يستحق ولا ينقص على المظلوم شيء من إنصافه من الظالم.

﴿٥٥﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فهو يقضي بينهم ويحكم فيهم لا معقب لحكمه، ووعده حق؛ لأنه يتصرف تصرفاً حقاً في ملكه فلا صارف له عما وعد به ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لأنه قادر على كل شيء وعليم بكل شيء وغني عن كل شيء فلا أصدق منه قيلاً.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر الناس أو أكثر المكذبين الذين فيهم السياق؛ لأنهم لا ينظرون نظر طلبٍ لمعرفة الصواب بل يعرضون.

﴿٥٦﴾ ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو وحده ﴿يُحْيِۦ﴾ عادته الإحياء ﴿وَيُمِيتُ﴾ عادته الإماتة؛ لأنه على كل شيء قدير ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لأنه المالك لكم الذي أحياكم ثم يميتكم، ثم يحييكم تارة أخرى، يتصرف فيكم كيف يشاء، فإليه وحده ترجعون للحساب والجزاء.

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ

﴿٥٧-٥٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿قَدْ جَآءَتْكُم﴾ سببُ النجاة من العذاب والفوز بالجنة بما في هذا القرآن من الموعظة التي تزجر عن معصية الله وتبعث على طاعة الله، وما فيه من الشفاء ﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من الريب وسائر عيوب القلب، فهو يؤدي إلى سلامة القلب من العيوب لتسببه للإيمان، واحتقار الدنيا، والعمل للآخرة، ونهيه عن عيوب القلب ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو حقيق بأن يَرْغَبَ فيه الناسُ ويُقبِلوا على تعلُّمه وتدبر آياته والتمسك به وأن يتركوا الجدال فيه والمكابرة والتكذيب؛ لأنه نعمة وخير عظيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد جاءكم هذا الخير العظيم ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ متلبساً بفضل الله، مثل: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] ومثل: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠] فبفضل الله على الناس ورحمته لهم جاءهم هذا الكتاب الذي هو الخير العظيم ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الذي جاءكم متلبساً بفضل الله ورحمته ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ فهو الحقيق بأن يفرحوا به؛ لأنه ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لأنه يهدي إلى السعادة الدائمة وإلى النجاة من الشقوة الدائمة، فالفرح به والإطمئنان إليه حق وصواب، ليس كالفرح بالدنيا الذي هو اغترار.

﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى

﴿٥٩﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمكذبين بالقرآن ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ وعطاء لتنتفعوا به ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا﴾ كما هو مذكور في (سورة الأنعام) فلم تشكروا نعمة الله فيه وتبقوه على ما جعله الله عليه.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بذلك التحكم بالتحريم والتحليل أو بذلك التحريم والتحليل ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فتحكمون بغير ما أنزل الله افتراءً على الله واختلاقاً وذلك هو الباطل الواضح الذي أنتم متمسكون به، ثم بهذا القرآن تكذبون وهو يدعوكم إلى الحق وترك أباطيل الجاهلية.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فيه لفت لأنظارهم إليه، وإعدادٌ للسؤال عنه، كأنه يقول: أخبروني عما أنزل الله لكم من رزق؟

﴿٦٠﴾ ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿مَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ﴾ ما يظنون يوم القيامة أيظنونه سهلاً عليهم؟ هيهات بل هو الداهية الدهيا والشقاوة التي ليس لها منتهى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين وإنزال الكتب تهدي إلى طريق النجاة ودعوة الناس إلى التوبة وإمهال الناس ليذّكروا وغير ذلك من نعمه سبحانه وتعالى التي تهيئ لهم أسباب السلامة والكرامة في يوم القيامة ﴿وَلَـٰكِنَّ﴾ أكثر الناس ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يكفرون نعم الله ويكذبون بالنذر.

شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا

﴿٦١﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وأنت يا رسول الله في تبليغك لهؤلاء الذين يفترون على الله وصبرك على تحمل أعباء الرسالة والقيام بشئونها ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أيِّ شأن ﴿إلا﴾ والله يشهد ما تكون فيه ﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾ يا محمد من هذا القرآن ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ قليل أو كثير ﴿إِلَّا﴾ والله يشهد ما أنت فيه ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ كلُّكم أنت ومن آمن ومن كفر أيَّ عمل صالح أو فاسد حسن أو سيئ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إذ تندفعون وتسترسلون فيه لا يخفى علينا منه شيء.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿مَا يَعْزُبُ﴾ ما يبعد ولا يغيب عنه، قال في (الصحاح): «وعَزَبَ عنّي فلانٌ، يعزُب، ويعزِب: أي بَعُدَ وغاب» انتهى.

فالمعنى: أن الله شهيد على كل شيء حتى مثقال الذرة في الأرض ومثقال الذرة في السماء.

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿لَا أَصْغَرَ﴾ من مثقال ذرة إلا وقد أحاط به علم الله فلا يفوته ولا ينساه، فكل إنسان وكل عمل لا يخفى على الله ولا ينساه، وذِكْرُ الكتاب هنا تمثيلٌ للإحصاء والإحاطة والحفظ.

إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ

﴿٦٢﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإحصاء أعمالهم صغيرها وكبيرها لا يضرهم؛ لأن أعمالهم صالحة، وسيئاتهم ممحوة بالتوبة، وصغائرهم مكفرة باجتناب الكبائر فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿٦٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ هذا تفسير لأولياء الله فلا يُقرِّب أحداً عند الله إلا الإيمان والتقوى.

﴿٦٤﴾ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وحدهم دون غيرهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إما بمثل رؤيا مبشرة، أو كرامة خارقة للعادة، أو بشرى الملائكة عند حضور الموت قبل خروج النفس.

﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ من حين يبعثون ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لوعد الله لهم بالبشرى، ولكل وعد وكل وعيد، كما قال تعالى في (الوعيد): ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:٢٩] فكل ما وعد الله به أو أوعد فلن يتخلف أبداً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي هو السلامة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والكرامة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وقد قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠] فلهم ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ النجاة والظفر بالجنة والخير العظيم.

إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ أي لا تحزن لتكذيب المكذبين بوعد الله وبآيات الله.

﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فلا بد من الجزاء الأوفى ونصر أولياء الله وإهانة أعداء الله، فتكذيب المكذبين وَبالٌ عليهم ولن يضروا الله شيئاً ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولهم ولكل قول ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بإجرامهم وبكل شيء فلا بد لهم من الجزاء الأوفى.

﴿٦٦﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فمرجعهم إليه وحده وهو يحكم فيهم ما يريد وعليهم إن يعبدوه وحده ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أيُّ شيء يتبعونه؟ وأيُّ شيء يحتجون به لشركهم؟.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ ليس لهم حجة وليس لهم دليل يتبعونه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وما هم ﴿إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ بما يقولون كما يقول خارص التمر في رؤوس النخل: «قدره كذا كيلاً» وعلى هذا فليس لهم أن يعارضوا الحق الثابت بكتاب الله بظنونهم وخرصهم.

﴿٦٧﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ فربكم المنعم عليكم هو المستحق للعبادة، ذكَر هنا منفعةَ الليل وهي السكون والراحة

لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى

من أعمال الجسد والفكر لتعود القوة لليوم الثاني ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ والبصر نعمة وفائدته واضحة وهي السعي للمعاش وحاجات الحياة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في جعل الليل ليسكنوا فيه وجعل النهار مبصراً ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عديدة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أما من يعرض حتى كأنه لا يسمع فهو لا يهتدي بآيات الله، ففي الليل والنهار الدلالةُ على قدرة الله وعلمه والدلالة مِلكه لعباده من حيث إنعامه عليهم وتربيتهم بجعل الليل والنهار خِلفةً والدلالة على فضل الله ورحمته، وفي إقبال الليل بعد النهار آية، وفي طلوع الفجر بعد الليل آية، وفي طلوع الشمس آية، وفي الضحى آية، وفي العصر آية، وفي غروب الشمس آية، فهي آيات تدل على متصرِّف في الكون مدبرٍ لأمور عباده.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ كأنهم أرادوا أنه اتخذ الملائكة بناتٍ لا بمعنى أنه ولَدَهم، بل بمعنى التبنّي ليكونوا له قرة عين ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ له عن كل نقص وعن كل عيب ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ فلا يحتاج إلى اتخاذ الولد، وإنما يتخذ الولدَ من يحتاج، والله المنزَّه عن مشابهة المخلوق لا يحتاج.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فكلهم عبيد ليس فيهم ولد ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ ما عندكم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة ﴿بهذا﴾ القول على الله ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سؤال إنكار عليهم وتوبيخ.

ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ

﴿٦٩-٧٠﴾ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ يفترون الكذب يختلقونه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينالون بافترائهم خيراً إنما لهم ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة ولا يرجعون إلى من زعموا أن الله اتخذهم ولداً ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ بأنعم الله أو يكذبون بآيات الله ويجحدون رسالاته التي قامت بها الحجة عليهم وبينت بطلان قولهم فلم يقبلوها فاستحقوا العذاب الشديد بسبب كفرهم بها.

﴿٧١﴾ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ ثقل عليكم وشق عليكم ﴿مَّقَامِى﴾ بتبليغ رسالة ربي والدعوة إلى عبادته وحده ونفي الآلهة إلا إياه ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ لكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على صدقي في دعوتي وتبليغي ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ مقابل صعوبة ذلك عليكم وبغضكم لي وكونكم تريدون التخلص مني فأنا أكل أمري إليه ليعصمني منكم إن شاء، وحسبي ذلك من الإستعداد لما تريدون من الإيقاع بي، وبعد توكُّلي عليه ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ مع شركائكم الذين تزعمون أنهم ينصرونكم.

أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

قال الشرفي في (المصابيح): «والواو في قوله: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ بمعنى (مع) أي وأجمعوا أمركم مع أوثانكم واستعينوا بها في هلاكي» انتهى.

ومعنى إجماعهم أمرهم: تقريرهم لقرارهم، وتأهُّبهم لإنفاذه واستعدادهم، كما قال الشاعر:

أجمَعوا أمرهم عِشاءً فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ
من منادٍ ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل وبين ذاك رغاءُ

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ثم لا يغمكم أمركم الذي تقررونه وتريدون إنفاذه ولا تبالوا به وامضوا له بجد وصرامة، ومنه قول طَرَفة في معلقته:

لعمرك ما يومي علي بغمّة ... نهاري ولا ليلي عليّ بسرمد»

انتهى.

يعني: أنه ماضي العزيمة، قال (شارح القصيدة): «وتلخيص المعنى أنه تمدّح بمضاء الصريمة وذكاء العزيمة» انتهى.

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ أنهوا إلي، وأوصلوا أمركم ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني إن استطعتم فهذه أوامر تعجيز للكفار، فهي متى عجزوا عنها كانت دليلاً على صدقهِ وكانت معجزةً تدل على نبوته.

﴿٧٢﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فلا علة لكم في التولي بأن تقولوا ثَقُلَ علينا أجرُ نوح ولولا خوف المغرم لاتبعناه

بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلني إليكم ولا يفوتني أجره بتوليكم فضرر توليكم عليكم وحدكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لله وجهي ونفسي فلا أعبد ما تعبدون من دون الله.

﴿٧٣﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فالمنذَرُون الذين آمنوا واتبعوا رسولهم نجاهم الله من العذاب مع رسولهم وصاروا معه خلفاء الأرض، والمنذَرُون الذين كذبوا رسولهم وكذبوا بآيات الله أهلكهم.

وقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي نجيناهم من العذاب الذي هو الغرق نجيناهم ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي في السفينة، وهذه آية من آيات الله، أي الفرق بين من آمن ومن كذَّب بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

﴿٧٤﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد نوح ﴿رُسُلًا﴾ مثل: هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]. أرسلهم الله إلى قومهم، وذلك أبلغ في الحجة لمعرفتهم لرسلهم من قبل الرسالة.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ جاؤوا قومهم بالآيات البينات في دلالتها على صدقهم، وأن الله أرسلهم فكذبوهم وكذبوا بآيات الله وأصروا على ذلك حتى خذلوا ﴿فَمَا كَانُوا۟﴾ بعد الخذلان ﴿لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾

وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ

ما صح ولا استقام، كأنه صار محالاً أن يؤمنوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ لأن تكذيبهم لرسلهم من قبل أفسد قلوبهم، وباعدهم عن الإيمان، حتى كأنه لا يتصور منهم أن يؤمنوا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الطبع على قلوبهم ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بالإفساد في الأرض ومحاربة الدين والصدِّ عن سبيل الله، فالتكذيب الأول جرّهم إلى الإعتداء، والإعتداء أوقعهم في الخذلان المعبر عنه بالطبع على القلوب، كأنه خَتْمٌ مانع من دخول الإيمان إلى القلوب؛ لأنه يترتب على الخذلان تسلط الشيطان على المخذول وتزيينه له الباطل وإفسادُه لقلبه بغروره وخِدَعِه حتى يصير قلبه كالمطبوع عليه.

﴿٧٥﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل المذكورين آنفاً ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ جماعته المعاونين له على أمره ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بعثنا موسى وهارون مصحوبَين بآياتنا ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وأنِفوا من قبول الحق والإيمان بهما وبما جاءا به من الآيات ﴿وَ﴾كان هذا شأنهم؛ لأنهم ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أهل جرائم فـ(الواو) هنا بمنزلة (واو) الإعتراض كما في قول الشاعر:

رأيت رؤيا ثم عبّرتها وكنت للأحلام عبّارا

وقد أثبتها الزمخشري في (كشافه) وإن أنكرها بعض النحاة بناء منهم على تسميتهم لها (واو) الاعتراض.

مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ

قلنا: الخلل في التسمية، أي في تسميتها (واو) الإعتراض وهو اصطلاح لا حجّة فيه مع أنه يمكن تسميتها (واو) الإعتراض لاعتراضها في بعض الحالات بين الكلام.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الحق وهو الآيات الدالة على صدقهما ﴿قَالُوٓاْ﴾ مع أنها الحق من عند الله جرأةً على الله وعناداً منهم ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي نشاهده في العصى وفي يد موسى ونحو ذلك ما هو إلا سحر وتخييل ﴿مُّبِينٌ﴾ أي بيّنٌ كونُه سحراً لا خفاء فيه، فهو أمر لا حقيقة لَه فلا عصاه صارت ثعباناً ولا يده صارت بيضاء، وهذا غاية العناد.

﴿٧٧﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ سؤال إنكار وتوبيخ على جرأتهم بأن يقولوا في الحق الذي جاءهم هذا القول دفعاً للحق: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟ سؤال بمعنى النفي أي كيف يكون هذا الحق الواضح سحراً والسحر لا حقيقة لَه إنما هو تخييل وهذا الذي جاءكم أمر حقيقي رباني تعلمون أنه ليس تخيلاً لمعرفتكم السحر ومشاهدتكم لهذا تعرفون بها أنه الحق الواقع، ولذلك تخافون الثعبان، وتعجبون في أنفسكم لبياض اليد، وإن جحدتم بألسنتكم ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ فإن كنت ساحراً فإنه لا بد أن ينكشف وتبطل دعوى الرسالة.

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ لتحوّلنا وتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا﴾ وشاهدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ جعلوها قضية تعصب لآبائهم، وقولهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ يريدون أن ذلك هو الباعث لهما على دعوى الرسالة، كما قال قوم نوح: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤] وهو تجاهل وتغافل؛ لأن العمدة الدليل الصحيح وكلامهم على الإرادة والقصد من باب:

سألته عن أبيه؟ فقال خالي شعيب

وهي منهم دعوى عاريةٌ عن الدليل ولا يعلمون الإرادة؛ لأنها غيب في الصدور.

وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ تعبير عن إصرارهم على باطلهم وأنهم لا يقبلون من موسى وأخيه أيَّ دليل، فهو لطلب اليأس وترك الخوض، والراجح: أن (الهمزة) في أول الآية للإنكار عليه، وأنهم أرادوا: كيف جئتنا لطلب ما لا يكون لطلب أن تلفتنا وتحوّلنا عما نحن عليه ورثناه من آبائنا، فهم يعنون أن التحول عن الأمر المألوف ثقيل، ومع ذلك أنهم وجدوا عليه آباءهم.

فطَمعُ موسى في تحولهم طمع في أمرٍ بعيد، وأيضاً: إن غرضه بزعمهم أن تكون له ولأخيه بذلك الكبرياءُ في الأرض فينقلبوا بعد سيادتهم تحت رئاسة موسى وأخيه، فكيف يتصور عندهم أن يتجشّموا الأمر الثقيل عليهم لأجل غرضه الذي هو ضد غرضهم؟ ومع ذلك أنهم لا يؤمنون لهما، فكيف جاء موسى مطالباً فيما لا يتصور بزعمهم أن يكون؟ فهم يعيبون عليه ذلك.

فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ

وجوابه واضح، ولكنه يكفيه التمسك بالحجة الواضحة والآية البينة، فأما تحولهم عن المألوف، فإنه وإن شق على أهل الجمود الذين لا يطلبون الحق فإنه سهلٌ على طالب الحق لينجو من عذاب الله ويفوز برحمة الله، وكذلك ترك التعصب للآباء؛ لأن إنقاذ النفس من النار أهمُّ، وكذلك كون الكبرياء لرسل الله لا يهمُّ مَن يتقي النار، وهذا على فرض أنه غرض الرسل وليس كذلك، وأما أنهم لا يؤمنون فإن ذلك لا يمنع من تبليغ موسى وأخيه لرسالة الله؛ لأنهما أطاعا ربهما ولا يضرهما امتناع المرسَل إليهم من الإيمان.

﴿٧٩﴾ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ ليباري بينهم وبين موسى وأخيه ويظهر بزعمه إذا غلبوا موسى وأخاه أنهما ساحران، وهي حيلة لمدافعة موسى وأخيه في تلك الحال التي تجلَّت حجتهما وتبيَّن صدقُهما، وكأنه ظنَّ أنه سيعارض بسحر السحرة، وسيدعي أنه الغالب حتى لا تنتهي مدافعته للحق ومراوغته.

﴿٨٠﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ لأنهم قالوا: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥] ليلقي عصاه في الأرض، أو يلقوا حبالهم وعِصيَّهم.

﴿٨١﴾ ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ﴾ هو ﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ لا ما جئتُ به؛ ولكون ما جئتم به هو السحر فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ لأنه عمل فساد ومحاربةٍ للحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ليضلوا الناس بإصلاح عملهم؛ لأن الله يريد إظهارَ دينه فلا يصلح ما يؤدي إلى قوة الباطل ويجعله أهلُ الباطل حجةً لهم.

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن

﴿٨٢﴾ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿يُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ يثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته ودلائله، سميت المعجزات كلماتٍ، إما لدلالتها كما يدل الكلام؛ وإما لأن الله يوجدها بقوله: ﴿كُن﴾ أي أنها تسهل عليه كما لو لم توجد إلا بمجرد قوله: ﴿كُن﴾ فسميت كلماتٍ كما سمي عيسى ـ صلوات الله عليه ـ كلمة من الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ إحقاقَ الحق؛ لأن الله غالب على أمره وقد أحق الله الحق وأبطل سحر السحرة، كما هو مذكور في غير هذه السورة.

﴿٨٣﴾ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ أولاد من قومه ليسوا من الآباء ولا الشيوخ؛ ولعل السبب أن الكبار قد ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] وتمكنت في قلوبهم هيبةُ فرعون ومحاذرة بطشه لكثرة ما قد جربوا في الماضي من ظلمه وطغيانه ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ آمنوا مع خوف شديد ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ جماعتهم المجمعين على طاعة فرعون وهم من بني إسرائيل، فهؤلاء الذين آمنوا أفراد من الأولاد هداهم الله للإيمان والمخاطرة بأنفسهم لأجل طاعة الله ورسوله، فآمنوا على خوف من فرعون ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يعذبهم ليرجعوا عن إيمانهم بموسى إلى الكفر وخوف من ملائهم أن يخبروا بهم فرعون فيفتنهم أي يعذبهم ليرجعوا عن إيمانهم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أي غالب قاهر متجبر طاغ» انتهى. وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على انتشار علوه وطغيانه في الأرض ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين حد غيرهم في الظلم والفساد فلذلك خافه من آمن بموسى من بني إسرائيل.

كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ

﴿٨٤﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ للذين آمنوا له على خوف من فرعون ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ وحده فإليه ارجعوا أمركم وعليه اتكلوا؛ لأنكم قد أرضيتموه بالإيمان فارضوا بما قدر لكم من نصر أو شهادة وكِلُوا أمركم إليه ليدبر لكم ما شاء ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ له أنفسكم ووجوهكم.

لأن شأن من أسلم نفسه لله وأخلصها لربه أن يكِل نفسه إلى مالكها ليدبر لها ما شاء وأن لا يريد لنفسه خلاف ما يريده لها ربُّه وأن يطيعه وحده لا يشرك في طاعته عدوَّه، فالإيمان بالله يستلزم معرفة قدرته، وعلمه، وغناه، وكرمه، وفضله، ورحمته، ومعرفة ربوبيته، وإحاطة ملكه بعباده وتدبيره لشؤونهم، فإذا نظر المؤمن إلى ذلك كان من شأنه أن يتوكل على ربه في كل ما كلفه؛ لأنه يعلم أنه لا يخفى عليه حالُ عبده ولا ينساه ولا يهمله، وأنه مدبر أموره ولذلك فلا يمنعه الخوف عن الإيمان.

﴿٨٥-٨٦﴾ ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿فَقَالُواْ﴾ لموسى تعبيراً عن طاعتهم لأمره ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ومع ذلك دعوا ربهم أن لا يُمكّن الظالمين من ظلمهم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: المعنى لا تجعلنا فتنة لهم، ولا تخلنا ولا تذرنا من نصرك وتفتنهم بنا، فيكون هلاكنا بأيديهم محنة لهم، ولكن أعنا وانصرنا عليهم، وتحتمل الآية معنى آخر» انتهى المراد، وهذا المعنى الذي نقلته هنا هو الراجح.

مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ

وقولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ موافق للمعنى الأول الذي حاصله: طلب النجاة من فرعون وقومه، إلا أنَّ الأول طلب النجاة من تمكين عدوهم من ظلمهم من حيث أن ذلك غيظ على المؤمن وشديد عليه أن يسلط عليه عدو الله، فهو من معنى بغض أعداء الله وكراهة أن ينالوا غرضهم في المؤمنين.

وأما الثاني فقولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ فهو طلب النجاة برحمة من الله عاجلة من حيث هي رحمة للمؤمنين بالنجاة من القوم الكافرين، وذكر الكافرين لأن كفرهم يبعثهم على الظلم والتعدي على المؤمنين.

﴿٨٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿تَبَوَّءَا﴾ اتخذا لأنفسكما مباءة بيوتاً تبوئون إليها لقومكما حيث يتعين لهم مقركما فيأوون إلى ناحيتكما بمصر حيث العدوّ إلا أن مصر واسعة المجال فهم في هذه الحالة في حالة الخوف والاستعداد لما يأمرهم به موسى وأخوه.

ومقتضى هذا الأمر: الاستقرار في ناحية معينة ثقة بوعد الله وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص:٣٥] وتخيرُ بيوت لا البقاء في البادية الخالية عن البيوت، وهذه طريقة تسهّل اجتماعهم حول موسى وهارون للتعلم منهما وأخذ التربية الروحية وإقامة الصلاة معهما كما هي تغيظ فرعون وملأه من حيث يفهمون منها عدم مبالاة موسى وقومه بهم؛ ولذلك أرسل ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء:٥٣-٥٥].

فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ

﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ أي متجهة إلى القبلة أو متقابلة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان:٦٢] أي متخالفين كل واحد يخلف الآخر، وجعلُ البيوت قبلة هو أقرب للتلاقي بينهم والتوحد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أنت وقومك؛ لأن المقصود بإنقاذ بني إسرائيل وإرسالكما هو أن تعبدوا الله، كما قال موسى في دعائه: ﴿هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٣٠-٣٤] والصلاة محل الذكر أفضل من غيرها كما يفيده قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ترغيب في ثبات قوم موسى على إيمانهم في تلك الحال الشديدة ليثبتوا ويصبروا رغبةً في حسن العاقبة، وإبهام البشارة يدل على عظمها؛ لأنها من ملك الملوك.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ ﴿رَبَّنَا لِيَضِلُّوا﴾ قيل: هي من المتشابه فيؤوّل، وقيل: يجوز العقاب بما يؤدي إلى الضلال، وإرادة الضلال في العقاب ليست إرادة له من حيث هو ضلال، وإنما هي إرادة له من حيث هو سبب العقاب، كما قال: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ والله سبحانه وتعالى منزّه عن إرادة القبيح.

ويحتمل وجهاً ثالثاً: أنه عليه السلام أراد أن لا يكون صورة هذا الدعاء صورة الاعتراض لو قال: فضلوا عن سبيلك، فجاء بـ(لام) التعليل ليبين أن الله أنعم عليهم وهو يعلم أن ذلك يؤديهم إلى الضلال ليس غالطاً في الإنعام عليهم، فقال: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ ليدل على أن الله تعالى أنعم عليهم، وهو غير غافل بل هو عالم أنه يؤديهم إلى الضلال، فشبه ذلك بالغرض المقصود.

والحاصل: أن التعليل مجاز، وإنما شبه ذلك بالغرض فاستعمل فيه عبارة الغرض مجازاً، تنزيهاً لله عن الغلط في التصرف، وتأدباً عن جعل الكلام في صورة الإعتراض.

وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾ قال في (الصحاح): «الطموس: الدروس والإمحاء، وقد طمس الطريق يطمُس وطمِس وطمسته طمساً يتعدى ولا يتعدى، وانطمس الشيء وتطمس: أي امّحى ودرس، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي غيّرها» انتهى المراد.

قلت: ويدل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ**﴾ [يس:٦٦].

وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «ثم قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اسلب المعونة لهم فيبقون على الضلالة، فيهلكون كفاراً، وينالهم عذاب الآخرة» انتهى.

ولعل هذا حاصل المعنى، والأصل: واشدد العقد على قلوبهم، على طريق التمثيل كذكر الختم والطبع، ولذلك فرّع عليه قولَه: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾.

قال (سيد قطب): «أما دعاؤه بأن يشد الله على قلوبهم فهو دعاء مَن قد يئس من صلاح هذه القلوب ومِن أن يكون لها توبة أو إنابة، دعاء بأن يزيدها الله قسوة واستغلاقاً حتى يأتيهم العذاب، وعندئذ لن يقبل منهم الإيمان» انتهى المراد.

سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ

﴿٨٩﴾ ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قُبلت وسيكون ما سألتما ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على ما أرسِلتُما له من الدعوة وإقامة الحجة، فلم ينتهِ عملكما بهذه الإجابة، وكذلك استقيما على طاعة الله في كل شيء، والإستقامة: ضد الإعوجاج، فهي الإيمان، والتقوى، والثبات على ذلك.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا تسأما من الثبات والصبر ولا تعجلا على ما طلبتما قبل أجَلِه، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي الذين يجهلون؛ لأن الجهل بثواب الصبر قد يؤدي إلى الجزع، والجهل سبب الضلال أو كالسبب في كل شيء لأن العلم النافع دواء لأمراض القلب وغيره.

﴿٩٠﴾ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في هذه الآية والتي بعدها ذكر نهاية فرعون وقومه بالعذاب العاجل الذي لم ينفعهم عند رؤيته إيمانٌ، والآية هذه تبيِّن سوءَ خاتمتهم بالبغي على رسولَي الله ومن معهما.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي جعلناهم جائزين للبحر حيث فرقنا بهم البحر فأتبعهم فرعون وقومه وهذا من أعجب الضلال أن يتبعوهم وقد رأوا البحر انفلق لهم، فهي آية عظمى يحق لها أن يخروا سجداً لو كان عندهم أيُّ استعداد للحق ولكنهم قد خذلوا وأجيبت فيهم دعوة موسى

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ساروا بعدهم ليدركوهم فيأخذوهم أو يقتلوهم، وقوله تعالى: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أي البغي والعَدو عدوان وطغيان» انتهى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ لحقه الغرق وأحاط به العذاب الأليم ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي إلا الله، وكأنه قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ليعلن أنه معهم على دينهم ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المتبرئين من الشرك.

﴿٩١﴾ ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ ينفعك الإيمان ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي قبل هذه الحالة التي أنت فيها مضطر إلى الإيمان لطلب النجاة من الغرق أي أينفعك الإيمان الآن؟! دخلت همزة سؤال إنكار على ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ لأن ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ محل الإنكار حيث أن ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ وقت الاضطرار الذي لا تنفع فيه توبة، كأنه قيل: هل الآن ينفعك الإيمان وقد عصيت ربك قبل الآن وكنت على الفساد في الأرض مكرراً له لا تتورع ولا تتقي، فكنت من المفسدين؟!

ومن محاسن النظم: حذف المسؤول عنه كأن المنكر لَه يكره ذكره لشدة إنكاره لَه، ومن هذا: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٢-٣] أي أئذا متنا وكنا تراباً نرجع.

﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ (٩٣) فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ

---

(٩٢) ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ (الفاء) للتفريع على قوله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ أي لا ينفعك إيمانك ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ والسياق يرشد إلى أن المراد ﴿نُنَجِّيكَ﴾ جسداً بلا روح ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ حين تكون جسداً خاوياً، فيذكرون ما كنت فيه من الطغيان وما صرت إليه من الذلة والهوان جثة هامدة مفردة عن الأتباع والأنصار.

فقوله: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من النجاة، باعتبار إنقاذ الجثة من الضياع في البحر وإخراجها للناس، وقيل: من النجوَة، أي نجعلك على نجوةٍ خارج البحر، والنجوة: المكان المرتفع، وقيل: ببدنك بدرعك.

والراجح: التفسير بالمعنى المشهور فهو الظاهر ﴿نُنَجِّيكَ﴾ ننقذك من البحر بجسدك، وقد بلغ أن جسده باقٍ اليوم في مصر في متحف للآثار القديمة، وبهذا تمت العبرة في فرعون وقومه المكذبين بآيات الله.

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ فهو جسد يتعجب منه في المتحف مع الغفلة عن الاعتبار به، وهكذا يغفل كثير من الناس عن آيات الله.

(٩٣) ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بعد أن كانوا مستضعفين يتيهون في الأرض ليس لهم وطن بوّأهم الله مسكناً جيداً وهو فلسطين، وذلك حين كان دينهم الإسلام كما قدمنا في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [آية:٢١] في (سورة المائدة).

يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ

ولعله حين دخلوا القرية التي ذكرها في القرآن بقيادة يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام، فعند ذلك كان لهم بلدة طيبة فيها بركات وفيها الماء والثمرات ونحو ذلك من الصفات التي يصلح بها البلد مع عزتهم في بلدهم وأمنهم الذي لا يتم الإستقرار إلا به ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فعظمت عليهم النعمة بتيسير الدين وحاجات الدنيا.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ﴾ علم الدين وعرفوا الحق فلم يختلفوا عن جهل، بل لأجل اختلاف الأهواء كما هو شأن أهل السياسة أن يضللوا من لم يكن معهم، ويدّعوا أنهم هم أهل الحق ويتمسكوا بالشبهات والدعايات المضلّلة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فليس بالأمر السهل ولا هو الإجتهاد والخطأ فيه، وهكذا اختلفت هذه الأمة فـ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وكما اختلف بنو إسرائيل من بعدما جاءهم العلم كتم كفارهم ما جاءهم في (التوراة) من علم رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلاماته الدالة عليه اتباعاً للهوى.

﴿٩٤﴾ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ ﴿فَإِن كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآن وسائر الوحي لم تتيقن أنه صدق وحق من الله، ﴿فَسْـَٔلِ﴾ القراء من أهل الكتاب وهم الذين يتلونه حق تلاوته ولا يكتمون الحق، وهذا فرض وتقدير، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] وفائدته: بيان أن علم رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتصديق ما أنزل الله إليه موجود عندهم في الكتاب الذي يقرؤونه.

مِنَ ٱلْخَسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ والحق ما أنزل الله إلى عبده ورسوله محمد ﷺ يقول الله له: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي ليس محلاً للريب ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين المترددين في أنه الحق من ربك، وفي قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تنبيهٌ على وجوب قَبُوله واتباعه؛ لأنه من ربه المالك المنعم.

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَسِرِينَ﴾ هذا نهي من الله لعبده ورسوله ووعيد له إن كذَّب وهو تعبد من ربه يؤجر ويثاب إن أطاع ويعاقب إن عصى كسائر عباد الله، وحاشا رسول الله ﷺ من أن يعصي ربه متعمداً أو يشك فيما أنزل إليه أو يكذب بآياته لكن ذلك لا يمنع من أمره ونهيه تعبداً له كسائر عباد الله.

﴿٩٦-٩٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ﴿كلمات رَبِّكَ﴾ إما كلماته الدالة على أنهم يعذبون، كقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ**﴾ [الزمر:١٩] ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ وقعت عليهم وصدقت عليهم لأنهم مجرمون مصرون لا يتوبون أبداً، فشملهم الوعيد بالعذاب، وإما كلماته أنهم لا يؤمنون على اختلاف دلالتها المتفقة في أنهم لن يؤمنوا مثل ما مرَّ في هذه السورة ومثل ما مرَّ في (سورة الأنعام) حول قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ..**﴾ الآية [١١١] ومرجع المعنيين واحد، فيمكن شمول هذه الآية لهما معاً.

قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي العذاب الذي لا يُقبَل الإيمانُ عند رؤيته، وفائدة هذا الخبر أو من فائدته أن لا يشغل رسولُ الله ﷺ نفسَه بالطمع في إيمانهم ومحاولةِ أن يؤمنوا أكثر مما قد وقع منه ﷺ.

﴿٩٨﴾ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ كلام في القُرى الماضية الذين أهلكهم الله بكفرهم ولم ينفعهم الإيمان حين رأوا العذاب ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاَّ ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ في حين الاختيار وقبل نزول العذاب، ومعنى هذا أنهم أضاعوا فرصة النجاة وكانت ممكنة لهم، فهو يُعِيبُ عليهم ذلك بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ وفائدة ذلك تحذير الأحياء من أن يصيروا مصير الماضين.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ استثنى قومَ يونس لدخولهم في عموم ما قبله؛ لأنه في معنى النكرة في سياق النفي، لأنه يفيد أنها لم تؤمن قرية آمنت فنفعها إيمانها، فصح استثناء قوم يونس وفي استثنائهم ترغيب في إيمان الكفار الأحياء لينفعهم الإيمان النفع العاجل، وهو كشف العذاب العاجل في الدنيا مع التمتيع بالعيش ولذاته إلى حين، فأما نفع الإيمان بالنجاة في الآخرة فهو يتوقف على أن يكون الإيمان خاتمةَ الحياة فليس السياق فيه، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مُجمَل ولعله الأجل المسمى لكلهم أو لبعضهم.

﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا

﴿٩٩﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ لما بين تعالى أن بعض الكفار لا يؤمنون، وأفاد أن بعض الماضين لم يؤمنوا في وقتِ نفع الإيمان، وأن قوم يونس آمنوا في وقتِ نفع الإيمان فنفعهم إيمانهم بيَّن في هذا أنه لم يُعْصَ مغلوباً وأن من لم يؤمن إنما بقي على كفره؛ لأن الله أراد تركه على ما يختار لنفسه ولو شاء الله لم يتركه على ما اختار لنفسه، ولكنه اقتضت حكمته تمكين المكلفين من الطاعة والمعصية فترك كلاً على ما اختار لنفسه؛ لأنه غني عن طاعة المطيع والعاصي ولا تضره معصية العاصي؛ ولذلك تركهم مختلفين منهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء لجعلهم جميعاً مؤمنين مجتمعين على الإيمان، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ عمن أبى الإيمان أن لا يأسف عليهم لأن الله لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لجعلهم ولكنه شاء تركهم على ما اختاروا لأنفسهم.

﴿أَفَأَنتَ﴾ مع هذا ﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ على ما يصيرون به مؤمنين مختارين للإيمان موصوفين بالإيمان حقيقة هذا لا تستطيعه فهوِّن على نفسك من محاولة إيمان من لا يؤمن.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ﴾ أي ما استقام، كأنه لا يتصور أن تؤمن إذا لم يأذن الله أن تؤمن؛ وذلك لأن الإيمان يتوقف على النظر في آيات الله والسلامة من أسباب الخذلان.

فمن استعمل عقله بالنظر في الآيات وكان سليم الفطرة، فقد أذن الله أن يؤمن لأنه يسَّر له الإيمان أما من أهمل عقله وأعرض عن آيات ربه فالإيمان

تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

بعيد منه لتركه النظر في الدلائل التي يتوقف الإيمان عليها وعدم استعداده لقبول ما دلت عليه، لأنه كاره له تأباه نفسه وترفضه فما كان له أن يؤمن وإن كان إيمانه ممكناً لو اختاره بأن يستعد في نفسه لقبول الحق، وينظر في آيات الله بحيث يحصل شرط الإيمان ويذهب المانع، لكن ذلك لا يكون ولا يقع ممن خذل وسلطت عليه الشياطين عقوبة له بتمرده وإفساده واستحقاقه للخذلان، فبهذا يظهر خطر العناد على صاحبه، وأن الله غني عن إيمانه، وأفاد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ قذر الخذلان واعتبر قذراً؛ لأنه تحصل معه أقذار المعاصي وسلطان الشيطان.

﴿١٠١﴾ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ﴿ٱنظُرُواْ﴾ تفكروا بعقولكم ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من آيات الله ودلائل قدرته وعلمه.

﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَمَا تُغۡنِي﴾ حاصله: ما تدفع عنهم ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ لا تنقذهم من النار وأسبابها ﴿عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ ليس من شأنهم أن يؤمنوا لأنهم معرضون عن آيات الله فلا تنفعهم كثرة الآيات في السموات والأرض كما لا تفيد الأعمى كثرةُ الأنوار؛ لأنه ليس من شأنه أن يبصر ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ جمع نذير، فهي لا تنفعهم؛ لأنهم يكذبون بالنذر.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ حين لم تنفعهم الآيات والنذر وأصروا على تكذيبهم بآيات الله وعنادهم ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ بعد آيات الله ونُذُره ﴿إِلَّا﴾ العقاب العاجل و﴿أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أيام العذاب النازل بالأمم الماضين.

﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

وانتظارهم لذلك إما مجاز بمعنى أنهم كالمنتظرين له؛ لأنه متوقَّع نزوله عليهم وهم مسببون له، وإما مجاز بمعنى: أنهم مطالِبون به، كقولهم: ﴿مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فكأنهم منتظرون له، ومثل هذا في مواضع من القرآن قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس:٤٩] ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [ص:١٥].

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أي إن كنتم تنتظرون ﴿مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ فانتظروا نزوله بكم، أي أنتم أهل أن تنتظروا، أو هو مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] لأن انتظارهم له بمعنى الاستمرار على التكذيب بالآيات والنذر والمطالبة بالعذاب إن كان النبي صادقاً ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزول العذاب عليكم الذي يخصّكم وينجو منه المؤمنون.

﴿١٠٣﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمّا كان قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ..﴾ إلى آخر الآية تفيد: نزول العذاب على الأمم الخالية، وأن ذلك سنة الله في الذين خلوا عَطَف عليها بيان أن مِن سنة الله إنجاءُ الرسل ومن معهم من المؤمنين.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي حَقَّ علينا حقاً أن ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن الله كتب على نفسه أن ينجي المؤمنين، وهو وعد مؤكد، ولم يذكر الرسل في آخرها؛ إما لأن العلة في النجاة هي الإيمان والرسل هم أول المؤمنين؛ وإما لأن المراد ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في المستقبل إن نزل العذاب في المستقبل وهو لا ينزل مع وجود الرسول ﷺ فيهم.

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

﴿١٠٤﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله بعد الإحتجاج الكامل على صدقك وعلى بطلان الشرك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ فلا أشك في بطلان دينكم ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فأنا بريء من دينكم.

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ فلا تنجيكم آلهتكم من الموت فأي الفريقين أحق بالأمن فأنا أعبد الله الذي بيده نفوسنا، وأنتم تعبدون من دونه ما لا برهان لكم به.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنا في طاعته بإيماني، ولم تؤمروا بالشرك فانتبهوا لتوقنوا أنكم على باطل.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي ﴿وَ﴾ أمرت ﴿أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ الذي هو الدين؛ لأنه الدين النافع.

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ قيل في تفسير (الحنيف): الخاشع أو الخاشع المحب، وهو أقرب من تفسيره بالمائل، وأقم وجهك للدين: اجعل وجهك قيماً مستقيماً للدين، لا يعوج عن العمل لله سبحانه أو لا يعوج عن إقباله على الدين وقبوله له وصلاحه له واستعداده له.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نهي مؤكد عن الشرك أي قل يا أيها الناس ذلك القول ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل تبرأ منهم وباينهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ ولا تطلب من دون الله لما لا يقدر عليه إلا الله كشفاء مريض، ونصر على عدو، وبركة في

لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ

مال أو ولد، وحفظ من الأمر الغالب، والقرينة لإرادة هذا هي السياق والحال، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ فكل ذلك يدل على أن المعنى لا تفعل كما يفعل المشركون الذين يدعون من دون الله شركاءهم ويرجون منهم ما يطلبون وهم لا ينفعون ولا يضرون.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ ذلك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ﴿إِذًا﴾ تأكيد للشرط وهذا تعبّد من الله لعبده ورسوله ﷺ وتحذير لسائر الناس من الشرك من حيث دلالته على أن رسول الله ﷺ لو أشرك لكان من الظالمين المستحقين للعذاب بظلمهم الذي هو الشرك.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أما شركاء المشركين فلا يكشفونه ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يجعله لك ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ لأنه الغالب على أمره، وهذا يدل على كفاية الله لعبده، وأنه لا فائدة لعبادةٍ من دونه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ..﴾ [الزمر:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي بفضله ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي من الناس وغيرهم، وفيه تنبيه على أن الله يصيب بفضله من يشاء من الناس لأنهم عباده وهو ربهم الذي خلقهم والذي يرزقهم، ففيه تنبيه على بطلان الشرك.

مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

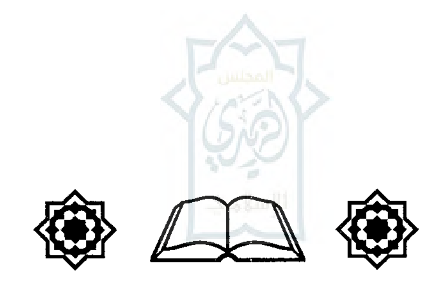
وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لأنه يصيب بفضله المطيعَ والعاصي، فكأن الإنعام على العاصي نوع من المغفرة والرحمة، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كقوله تعالى: في (سبأ): ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [آية:١٥].

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿قَدْ جَآءَكُمُ﴾ في هذا القرآن وفيما بلغتكم عن الله ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ المالك لكم الذي له الحكم فيكم وعليكم وبينكم ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ قَبِل الحقَّ وآمن به واتبعه فـ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾ اهتدى؛ لأن نفع الإهتداء له.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ وغوي عن الحق ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي على نفسه؛ لأن ضر الضلالة عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فلست مسؤولاً عن ضلال مَن ضل؛ لأني لست عليكم بوكيل، فلم يوكل إليّ أمرُ هدايتكم وضلالكم ليس علي إلا البلاغ، وليس علي هداكم، وهذا في خواتم هذه السورة من أحسن ما يختم به الحجَاج.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من ربك ﴿وَٱصْبِرْ﴾ لحكم ربك على تبليغ الرسالة وما يكون معه من العناء والجهاد وأذى الأعداء ولطاعة ربك في كل أمر ونهي وعلى بلائه ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بينك وبين من أرسلك إليهم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنه يحكم بالحق لا يحيف ولا يغلط؛ لأنه العليم القدير الغني، فاصبر حتى يحكم الله فتنال الثواب العظيم والسعادة الدائمة، ويُجزَى المكذبون العقابَ الشديد الدائم، فتلك عاقبة لك وعليهم تستحق منك الصبر في هذه الحياة الدنيا، فهو قليل بالنسبة إلى العاقبة الدائمة، فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].





سورة هود



سورة هود

آياتها ١٢٣ — ترتيبها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ

تفسير (سورة هود) وهي (مكية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ﴿الٓر﴾ قد مرَّ الكلام في هذه الحروف في تفسير (سورة الأعراف) و(سورة البقرة) ﴿كِتَٰبٌ﴾ لم ينزل من السماء مصحفاً مخطوطاً ولكن أنزل الله القرآن على رسوله الذي لا يقرأ مخطوطاً ولا يخط كتاباً، نزل به الروح الأمين على قلبه ﷺ أنزله إليه على أنه كتاب يكتب ليحفظ وتتوارثه الأجيال فسمّاه (كتاباً).

﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ جعلت آياته كما تقتضيه حكمة قائله، محفوظة من كل نقص ومن كل عيب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ دلائله الدالة على سبل الهدى، وبعد إحكام معانيها فصلت في تعبيرها فجعلت بالتفصيل وهو جعلها ذات فصول تتمايز بها جملها وكلماتها حتى يتيسر تفهمها كلمة كلمة وجملة جملة، وإن كان بعض هذا التفصيل تابعاً لكونها بلسان عربي مبين فهي بينة لمن يتدبرها سليمة من التعقيد، والترتيب بين الأحكام، والتفصيل إنما هو متأخر في الرتبة لا في الزمن.

وقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ كالدليل على أنها أحكمت آياته وأنها (فُصِّلَتْ) لأن قائلها حكيم جعلها مطابقة لمقتضى الحكمة ومقتضى خبرته بإفهام عباده وما هو أصلح لتفهيمهم وماهم به يفهمون كما أنه خبير بالعبارات بيِّنها وغامضها وغير ذلك من شأنها.

يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ

﴿٢﴾ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ هذا من تفسير الكتاب وبيان مضمونه جملة وخلاصة معانية، وقد أجري التعبير فيه عن الرسول ﷺ لأنه والكتاب كالشيء الواحد، فكأن ذكر الكتاب ذكر للرسول وقد مر اعتبارهما كالشيء الواحد، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ..﴾ [الطلاق:١٠-١١] ونظير جعل التعبير عنه ﷺ قوله تعالى في الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يفيد: النهي عن الشرك في العبادة، وتشريع العبادة لله وحده، وأتبعه بقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ﴾ أي من الله ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ لأنه ينذر المشركين بعذاب شديد كما هو مبين في موضع آخر من الكتاب، بل وينذر المكذبين بآيات الله وسائر المجرمين المصرين بعذاب النار ويبشر المؤمنين المتقين بجنات النعيم، كل ذلك مبين في الكتاب وعلى المرسَل إليهم تفهم ما أوجزه هنا طلباً للنجاة مما أنذرهم، فهو أمر تدعو إليه فطرة العقول، والعبادة تشمل طاعة الله في العبادات، والمعاملات، والمواريث، والأخلاق، بامتثال أمره واجتناب ما نهى عنه، وتشمل اتباع ما أنزل على رسوله ﷺ.

﴿٣﴾ ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ وهذا بيان معطوف على البيان الأول، وقوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ دعوة للمشركين وهم عامة الناس وجمهورهم يوم نزول الكتاب لم ينج منه إلا القليل وكان الفساد ظاهراً بسبب الجاهلية بالشرك على اختلاف أنواعه وبغيره من المنكرات.

فالمخاطبون بهذا محتاجون إلى طلب المغفرة من ربهم الذي لا يغفر الذنوب إلا هو، وطلب المغفرة يستلزم التخلي عما يستغفرون منه من الشرك وغيره؛ لأن الطلب الجاد الذي هو المراد شأنه ترك الإصرار على ما يستغفر منه الطالب وإلا كان لغواً وهو خلاف المراد، ولذلك رتب عليه وعلى التوبة ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي ثم ارجعوا إليه تشبيه للعبد العاصي بالعبد الآبق، فإذا خرج عن العصيان بالإقلاع عنه والعزم على الطاعة والندم على ما مضى والشروع في الطاعة كان كالعبد الذي كان آبقاً فرجع إلى سيده مطيعاً، فظهر أن التوبة تتضمن الطاعة لله ورسوله، فأفاد الإستغفار النطق بالشهادتين في حق من كان كافراً، وأفاد ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ الطاعة لله ورسوله وذلك لفوائد:

الأولى: أفادها قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وذلك يتضمن النجاة من العذاب العاجل الذي يتعرض له الكافرون.

والثانية: الثواب على الإيمان والعمل الصالح والطاعة وذلك هو الفضل الذي به يتفاضل الناس ويؤتونه يوم القيامة بأن يوفوا أجره وهو يعم الواجب وكل قربة وهذا لأنه مع الإستغفار والتوبة يكون مقبولاً بخلاف عمل المجرم فلذلك رتب الوعد المذكور على الإستغفار والتوبة.

الثالثة: أفادها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وإن تدبروا عن الطاعة ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ﴾ النار وهو عذاب اليوم الكبير يوم القيامة، وصف هنا بأنه كبير، وفي سورة عظيم؛و ذلك لما فيه من القضاء الكبير بثواب لأولياء الله عظيم دائم

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا

وعذاب لأعداء الله شديد دائم، وما فيه من الأهوال على أعداء الله والبشرى لأولياء الله، وما فيه من جمع الناس كلهم والحكم فيهم لكل نفس بما أسلفت.

﴿٤﴾ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ هذا تمام البيان الذي بدأ بـ(أن) المفسِّرة في قوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾حث على الحذر من اليوم الكبير لأنهم إلى الله وحده مرجعهم لا يجدون من دونه ولياً ولا نصيراً ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فهو قدير على إعادتهم بعد الموت وعلى تعذيبهم إن لم يتوبوا وعلى كل شيء، فعليهم أن يحذروا بأسه ويطلبوا رحمته؛ لأنه يفعل ما يريد، ففي هذه الآيات دعوة ينبغي لكل عاقل أن يصغي لها سمعه ويفكر بقلبه ليؤمن بربه ويعبده وحده ويستعدّ لمرجعه إليه فقد أفادت التوحيد والقيامة والنبوة وغير ذلك من مهمات الدين كما ترى.

﴿٥﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه وكأن سببه التعجب من إعراض الكفار عن النذير الذي ينذرهم العذاب الشديد، فإن من شأن العاقل أن يحذر ما يُنذَر، ولكونه أمراً ينبغي التعجب منه أكده بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ﴾ من حيث أن شأنه أن يكون بعيداً وقوعه يستبعده السامع.

وقوله تعالى: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي يردّون صدورهم مدبرين بعد إقبالهم [كذا] وراجعين عن القرآن مستخفين منه لئلا يسمعوه» انتهى.

فجعله من ثناه، بمعنى: صرَفه، وقال الراغب: «ويقال لِلاوي الشيء: قد ثناه، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾» انتهى المراد، وله معنيان: ثناه بمعنى: عطفه، وبمعنى ردّ بعضه إلى بعض، وهذا لا يتصور في الصدر، وثناه بمعنى: لواه وصرفه وحوله، وهو الراجح هنا.

وقوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ يحتمل: أن الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ للقرآن فالمعنى فيه: يتحولون بصدورهم ووجوههم ليستخفوا أي لئلا يسمعوه، أو أن الضمير للرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند تلاوته للقرآن يثنون صدورهم وهم بين الناس ليستخفوا من الرسول حتى لا يعرفهم لئلا يعلم أن قد سمعوا القرآن وقامت عليهم الحجة به، والأقرب أن المعنى أنهم يكرهون سماع القرآن فلكراهتهم لَه يحولون أعاليهم عن وجهته ليتخبئوا منه كراهة لاستماعه كما يستغشون ثيابهم لهذا الغرض.

وعلى هذا: فهم يحولون أعاليهم ويحنون ظهورهم، كما في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) وَحَنْيُ الظَّهْر يفهم من قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ وعلى هذا، فالضمير في ﴿مِنْهُ﴾ للقرآن أي ليتخبئوا من استماعه كراهة له.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ كما فعل قوم نوح، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وعيد لهم بسبب ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في تلك الحالة من كراهة القرآن والإصرار على الإعراض عنه، وعلى الكفر ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من ثني صدورهم واستغشاء ثيابهم.

وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ

﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌۢ﴾ بما هو أخفى من ذلك ذات ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ التي لا تظهر منها إلى اللسان أو الوجه أوالجوارح بل لم تزل مخبوة في الصدور، ولعلها التي تخفى على صاحبها ولا ينتبه لها تحقيق لإحاطة علمه بكل ما يخفى وكل ما يعلن ـ والله أعلم.

۝٦ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فيها فوائد راجعة إلى ما مرَّ:

فمنها: إفادتها أنه تعالى الرازق فهو المنعم الذي يستحق أن يعبدوه شكراً على نعمه وأن لا يعبدوا غيره من شركائهم؛ لأنهم لا يرزقونهم ولا يملكون لهم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق.

ومنها: إفادتها سعة علمه بأحوال عباده فهو يعلم ما يحتاجون ويعلم إن دعوه لحاجة يعطيها أو لكشف مهمة، فهذه تناسب قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾.

ومنها: مناسبتها لقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فخلقه لكل دابة وتكفله برزقها دليل على سعة علمه وقدرته، فهو قادر على البعث بعد الموت لكل فرد، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فهو يعلم مستقر كل حيوان كبير أو صغير من الذرة إلى الفيل يحيط علمه بأحوالها أين تستقر من ظهر الأرض، أو بطنها، أو في الجبال، أو في الشجر، أو في أوكار الطيور، أو في الماء، كل دابة على حدة يعلم مستقرها ومستودعها.

وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ

والمستقر: المسكن الذي يسكن فيه الحيوان، أما المستودع: فالراجح أنه محله بعد وفاته من قبر أو غيره سمي مستودعاً لأنه أودع فيه ليبقى إلى يوم البعث، فعلم الله تعالى محيط به أينما كان.

وقال الشرفي في (المصابيح): «ومستودعها: حيث كانت مودعة من صلب، أو رحم، أو بيضة» انتهى، وقد عطف المستودع على المستقر هنا وفي (سورة الأنعام) فيرجح تقدم المستقر قبل المستودع ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي معلوم لا ينسى، كقوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

قال الشرفي في (المصابيح): «ثم قال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿كُلٌّ﴾ أي من الدواب والأرزاق والمستقر والمستودع ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي في علم الله العليم، ولكنه ضرب المثل بالكتاب المبين، كذا عن القاسم، والهادي، وغيرهما من أئمتنا (عليهم السلام)» انتهى المراد.

﴿٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ وهذه تناسب قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ من حيث دلالتها على قدرته على البعث، وتناسب قوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ من حيث دلالتها على قدرته وعلمه.

وقوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تنبيه على عظم قدرته حيث خلقها على كبرها في ستة أيام، أي مقدار ستة أيام، وحمل الأيام على أيام الأرض المعهودة أرجح لأنه المتبادر عند العرب؛ ولأنه أنسب للسياق من حيث دل على عظم قدرة الله تعالى حيث خلقها في المدة القصيرة على عظم السموات والأرض.

وكذا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:٩] خطاباً للعرب الذين ينكرون قدرته تعالى على إعادتهم بعد الموت، وتأويلها بأيام من أيام غير الأرض خلاف الظاهر، وتفسيره بمطلق الأوقات يبطل فائدة التحديد بيومين ثم بأربعة أيام، بل لا يبقى لذكر الأيام فائدة تذكر؛ لأن خلقها لا موجب لذكر وقته إذا لم يكن له حد محدود مفهوم يؤدي إلى معرفة عظم قدرته تعالى، وتأويله بأطوار الخلق خلاف الظاهر؛ لأن أطوار الخلق من الخلق لا من زمانه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ المعنى: كان سلطانه وأمره على الماء، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: العز والسلطان» انتهى.

وفي (مصابيح الشرفي) رحمه الله: «قال القاسم عليه السلام: تأويله وكان [ظن] كل ملك الله على الماء، إذ ليس إلا الماء كما ملكه اليوم على الأرض والسماء وعلى جميع ما فيهما من الأشياء» انتهى.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ تعليل لخلق السموات والأرض، وبيان أنه تعالى خلقهما ليبلو أي ليختبر الناس أيهم ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ويترتب على هذا الإبتلاء الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢] ولكن الجزاء للعمل الحسن والأحسن هو بالثواب عليهما، فثواب المحسنين غاية مستقلة مقصودة بخلق السموات والأرض، وذلك أي خلق السموات والأرض من دلائل البعث؛ ولذلك عطف قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ

فهم مكابرون مكذبون بالقرآن الدال بإعجازه على أنه من الله ليس سحراً، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينذرهم عذاباً شديداً، ويبين لهم دلائل قدرة الله وعلمه المحيط بكل شيء فيجحدون البعث والجزاء الذي من أجله خلق الله السموات والأرض فما أضلهم وما أبعدهم عن نفع أنفسهم.

﴿٨﴾ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ وهذه منهم حماقة عجيبة؛ لأنهم قد تعرضوا لعذاب الله ولو قد نزل لندموا حين لا ينفعهم الندم وليس بالأمر السهل.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ معناه: أجل معدود» انتهى.

ومعنى: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ما يمنع نزوله وإصابتهم به؟ وهو استهزاء بوعد الله ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ينادي بغفلتهم المهلكة لهم ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب لا يرتد عنهم ولا يصرفه عنهم صارف لا إيمان عنده ولا قوة ولا ناصر ولا شافع ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أحاط بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وضع يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على جهة الإستهزاء» انتهى.

ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ * وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ ﴿أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ نعمة شأنها أن تبعثه في كل حال على رجاء الخير منا؛ لأنها رحمة مبتدأة فمن حقه لو استعمل عقله أن يرجو من ربه مثلها وأمثالها ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ نزعنا منه تلك النعمة فمصائب الدنيا كلها إنما هي نزع نعمة.

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾ كثير اليأس والقنوط من رحمة الله ﴿كَفُورٞ﴾ لنعمة الله فهو ينساه ويغفل في حالة اليأس عن كون الخير من ربه ينعم به على عبده ابتداءً وقد كان في نعمته قبل نزعها فكيف لا يرجو منه الخير ﴿كَفُورٞ﴾ يحتمل كفور لنعمة ربه، ويحتمل ﴿كَفُورٞ﴾ بقنوطه: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧] وصح بعد قوله: ﴿لَيَـُٔوسٞ﴾ لتعدد المفهوم، فكأنه قال: يؤوس كفور بقنوطه.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ﴾ قد وجد لذتها وتحققها ﴿بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ من فقر أو غيره ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ ذهب عني ما يسوءني وصلحت حالتي لا يهمه إلا نفسه، فإذا زالت عنه الضراء ووجد لذة النعماء لم يشكرها بل يفرح بها ويفخر على غيره بها فيقول: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ سروراً بها واطمئناناً إليها وفخراً على من ليس له مثلها، وما كان ينبغي للإنسان إلا أن يصبر عند البلاء، ويشكر ربه عند الرخاء.

يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ

وقد استثنى الله المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لأنهم يصبرون على بلاء الله وتقواه ويعملون الصالحات شكراً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفات ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لخطيئاتهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على أعمالهم الصالحات، فبشرهم بالنجاة من العقاب والفوز بالثواب وهذه الأيات تدل على أن الإنسان أقرب إلى الكفر والغرور منه إلى الإيمان والشكر ولذلك رتب على ما حكى عن الكفار من العناد قوله تعالى:

﴿١٢﴾ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ﴾ فثقيل عليك تبليغهم حتى كأنك تعجز عن بعضه مع شدة كتمانه عليك وضيق صدرك بحيث إنك تطلب التنفس بتبليغه من جهة ضيق صدرك عن كتمانه ويثقل تبليغهم من جهة عنادهم وبعدهم عن قبوله وكراهتك أن يقولوا كفراً وجدالاً بالباطل ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿كَنزٌ﴾ لأنه لا يهمهم إلا الدنيا وأغراضها ويعتبرونها الخير كله ومن قولهم الذي تحاذره ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ رسولاً إلينا احتقاراً لمحمد ﷺ لقلة ذات يده وقلة أتباعه في أول الإسلام فيرونه ليس أهلاً للرسالة وحده ولو كان معه ملك لكان عندهم أهلاً أن يؤمنوا به لمكان الملك.

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ تنذرهم العذاب الشديد فلا تحتاج إلى كنز ولا إلى مقارنة ملك رسول معك؛ لأن الإنذار يتم بدون ذلك،

ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ

ولا تدعي أمراً يتوقف على الكنز أو المَلَك، وقد تم الإنذار بآيات الله الدالة على صدقك ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ فأمرهم إليه وإليه مآبهم وعليه حسابهم فكِل أمرهم إليه واثبت على إنذارهم وتبليغهم.

﴿١٣﴾ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ إضراب عن توقع قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ إلى السؤال أيقولون: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي افترى هذا القرآن على الله وليس من الله.

﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله فإن كنتُ افتريتُه ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ في الحكمة والإحكام ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ تفترونها أنتم وغيركم، فإنه إذا أمكن أن افتريه أمكن غيري أن يأتي بمثله مفترى، وهذا جواب مسكت؛ لأنهم أرادوا أن القرآن ليس معجزة، فإذا لم يكن معجزة فليأتوا بمثله.

وقوله ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ تعجيز لهم بأن يأتوا بحديث مثله في حكمته وإحكامه وإنما تذكر السورة والعشر لتوضيح عجزهم، وإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فهم عاجزون عن الإتيان بعشر، ولا تعارُض لأنهم إذا عجزوا عن الإتيان بعشر، فقد عجزهم في موضع آخر بسورة فلو استطاعوا سورة وجاءوا بها لأبطلوا التعجيز بسورة.

وإذا بطل التعجيز بسورة بطل التعجيز بعشر؛ لأن ما كان من مقدور البشر لا يختلف فيه السورة الواحدة والعشر في إمكان الإتيان به غاية ما في الأمر أن تحتاج العشر إلى وقت أطول أو إلى أعوان أكثر فلوا استطاعوا السورة لاستطاعوا العشر.

ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

فإن قيل: فما فائدة ذكر العشر؟

فالجواب: إن المكابر يصلح له ما هو أوضح في عجزه لإسكاته مع أن التعجيز بالعشر صحيح؛ لأنه لو كان القرآن قول البشر لاستطاعوا العشر لأنه لم يحدد لها وقتاً ولا عدداً من الناس أو غيرهم، بل قال: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ أي ليعينكم على تحصيل العشر السور، وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يطابق قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ لأنهم أرادوا ليس من الله فعجّزهم أن يأتوا بعشر ليست من الله، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي في قولكم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي من دعوتموهم لمعاونتكم على الإتيان بعشر سور من مثله لم يستجيبوا لكم إلى الإتيان بعشر والمعاونة عليها؛ لأنهم آيسون من ذلك لعلمهم أن هذا القرآن معجز.

﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أيها الكافرون بوضوح الدليل القاطع أنه من الله أنزله بعلمه بالحكمة والإحكام الذي يعجز البشر عنه لقصور علمهم وعلمه تعالى محيط بكل شيء بالحكمة التي لا يحيط بها البشر والإحكام الذي يعجز عن مثله البشر ومحيط بقلوب البشر ونفسياتهم وما هو أحسن أثراً فيها من أسلوب التعبير وغيره لمن يهتدي بالقرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي واعلموا أن لا إله إلا هو؛ لأن الله قد بيَّن في القرآن أن لا إله إلا هو، وقد صح أن القرآن كلام الله أصدق القائلين، فالحجة هذه تثبت أن القرآن كلام الله وتثبت بطلان الشرك وأن لا إله إلا الله.

ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن

وقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي بعد وضوح هذه الحجة هل أنتم مسلمون لله وجوهكم مخلصون له العبادة؟ لأنكم قد دعوتم من استطعتم ليعينوكم ممن هو مظنة إسعادكم لمشاركته لكم في الكفر وحرصهم على حماية دينهم وإبطال دين محمد ﷺ فأبوا وهذا طبيعي أن لا يدعوا إلا من هو عندهم مظنة إسعادهم دون المؤمنين.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يريد أن يعيش في هذه الحياة العاجلة ﴿وَزِينَتَهَا﴾ يريد المال والبنين وسائر ما تتزين به الحياة الدنيا من شهواتها، والمراد إرادتها القوية التي تكون أرجح من إرادة الآخرة، فالمعنى من كان يختار ويؤثر الحياة الدنيا وزينتها، بدليل المقابلة بينه وبين من يريد الآخرة في غير هذا الموضع ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ نوصل إليهم ثمرة أعمالهم وفائدتها على ما جرت به سنة الحياة الدنيا تمهيلاً لهم واستغناءً عن عملهم للآخرة فإذا حرث أحدهم وبذر نال ما يناله غيره من الزرع، وهكذا سائر الأسباب وإن إختلف الناس في تحصيل مطالب الحياة بسعيهم، فليس المراد إلا أن اختياره للدنيا وزينتها لا يمنع في الغالب من تحصيل ما جرت به سنة الحياة وأسباب الرزق والمطالب، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى:٢٠] وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨] وما حصل من فائدة عمله فهو توفية عمله قليلاً كان أو كثيراً؛ لأنه ثمرته وفائدته.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون في الدنيا شيئاً من سعيهم لها، وهذا مطلق مقيد بما إذا استحق عقوبة عاجلة واقتضت الحكمة تعجيلها فهو عارض بالنسبة إلى العادة، وذلك مثل ما أصاب آل فرعون من النقص في الثمرات لعلهم يذكرون، ومثل ما أصاب أصحاب الجنة المذكورين في سورة نون، وما هو مشاهد مما يصاب به الناس في أموالهم مما ظهوره للسامع يغني عن استثنائه في الكلام.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فهم الأوَّلون المذكورون بالميل إلى الدنيا وزينتها والرضى بما فيها من زخرفها دون ما هو خير منها، فأخبر الله سبحانه أنه لا نصيب لهم في الآخرة..» إلخ.

وفي هذه الآية دلالة على أنهم لا يدخلون الجنة ولا يخرجون من النار، وقوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي حبط في الآخرة ما صنعوا في الدنيا فلم ينفعهم في الآخرة وإن كان من عمل الخير كالإحسان إلى الناس والأعمال الدينية التي لم يعملوها إلا للعادة والعرف وللحذر من أن يعيب الناس عليهم تركها لا للتقرب إلى الله والإخلاص له أو كانت مقرونة بالجرائم والإصرار عليها فلم تكن مقبولة.

وقوله تعالى: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الباطل هنا مثله في قول موسى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٩] فالمراد: أن عمارة الدنيا وخدمتها التي ضيعوا أعمارهم فيها وأتبعوا أنفسهم فيها قد ضاعت وصارت كأن لم تكن من حيث بطلان نفعها ومصيرها كالأحلام، وهاتان الآيتان تضمنتا وعيد القائلين: ﴿افْتَرَاهُ﴾ لأن الباعث لهم على الكفر إيثار الدنيا وزينتها.

قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ

﴿١٧﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قلتم فيه: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وهو على بينة من ربه بينت لَه أن القرآن هو الحق من الله ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يتبعه في أنه على بينة من ربه ﴿شَاهِدٌ﴾ بصدقه شهادة مبنية على بيِّنة من ربه، وهذا الشاهد هو الإمام علي عليه السلام جعله الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كما جعل لموسى هارون ردأً يصدقه، ويدل على أنه الشاهد قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٤٣] فقد دل على أن من عنده علم الكتاب شهيد بصدقه صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام هو الذي عنده علم الكتاب جملة وتفصيلاً.

أما جملة: فعلمه أنه من الله، وأنه الحق يهدي إلى التي هي أقوم، ونحو هذا من صفاته جملة، وأما تفصيلاً: فلإحاطته بمعانيه على التفصيل، أما دلالة الكفار على صدق شهادة علي عليه السلام فهي سلوكه في اتباعه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وجِدّه في نصرته، وصبره على تحمل الشدائد في ذلك في حال قلة المؤمنين وضعف حالهم، مما يدل على أنه على بصيرة من أمره، وبينة من ربه، ورسوخ في إيمانه، فهو شاهد لَه بالصدق؛ بعمله وتفانيه في نصرته، مع شهادته لَه بلسانه.

وهذا مع الروايات الواردة في أنه عليه السلام هو الشاهد، وفي أنه الذي عنده علم الكتاب: ففي (الدر المنثور) للسيوطي: «أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وأبو نعيم في (المعرفة): عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: «أما تقرأ (سورة هود): ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ رسولُ الله ـ صلى الله عليه ـ على بينة من ربه، وأنا شاهد منه».

وأخرج بن مردويه، وابن عساكر: عن علي رضي الله عنه في الآية قال: «رسول الله على بينة من ربه، وأنا شاهد منه».

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ «أنا» ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: «علي» انتهى، وقد أورد روايات مخالفة بعيدة لا تناسب قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أو قوله: ﴿شَاهِدٌ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح) بعد ذكر الأقوال المخالفة في تفسير (الشاهد): واعلم أن الأقوال كلها ملفقة ضعيفة، بل هي تشكيك في معنى الآية لا بيان، والحق: أن المراد بالشاهد علي عليه السلام كما مر دليل ذلك يتلو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي يتبعه شاهد على الأمة منه، أي من لحمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا تفسير أئمة الهدى أهل البيت عليهم السلام، ومروي عن علي عليه السلام وغيره.

من ذلك: ما روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتابه (شواهد التنزيل) بإسناده إلى المنهال بن عمرو، عن عبد الله، عن علي عليه السلام: «﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: أنا الشاهد منه» قال الحاكم: وله طرق عن الأعمش وطرق عن المنهال والحارث عنه أي علي عليه السلام.

وروى الحاكم ـ أيضاً ـ بإسناده إلى ابن عباس: «﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: هو علي بن أبي طالب عليه السلام» ذكر الحاكم روايات كثيرة تضمّن هذا المعنى.

وقوله: «رسول الله ﷺ على بينة من ربه» موافق لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨].

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وكتاب موسى هو (التوراة) ﴿إِمَامًا﴾ قائداً متبوعاً ﴿وَرَحْمَةً﴾ نعمة وهدى فهو مصدق لرسول الله ﷺ بالتبشير به وذكر علاماته، ويحتمل أن المراد أن الله قد أنزل التوراة على موسى ليتّبعها ويهتدي بها بنو إسرائيل، فكيف لا ينزل القرآن على محمد ﷺ إماماً ورحمة، والعرب في أمس الحاجة إليه، أو من قبله كتاب موسى، وهذا القرآن مصدق لذلك الكتاب، مطابق له في أصل الدين، كقوله تعالى في (سورة الأحقاف): ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [آية:١١-١٢] وهذا الوجه أقرب عندي ـ والله أعلم.

ويمكن الجمع بين الوجهين الأخيرين وهما يفيدان معنى الوجه الأول، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي من كان على بينة من ربه مؤكَّداً بالشاهد منه وبمكانة كتابه من كتاب موسى يؤمن به أي بالقرآن، وإن قال المكابرون: ﴿افْتَرَاهُ﴾.

ووجه الجمع مع كون مدلوله فرداً: أن الكلام فيه خرج مخرج الإبهام الذي يصلح للكثير والقليل، وفائدته: التعليق على الصلة وما عطف عليها من غير نظر إلى أنه محمد ﷺ فمفهومه غير محدود بفرد، وإنما كان مدلوله فرداً لأنه الذي صدق عليه الكلام وحده فناسبه الإتيان بعبارة الجمع في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ولعل من هذا الباب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ فالنار مكانه الذي وعد الكون فيه، و ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ جمع حزب يعم أحزاب الكفار من قريش ومن معهم ومن اليهود ومن النصارى وغيرهم.

قال الراغب: «الحزب: جماعة فيها غلظ، يعني كثرة» وفي (الصحاح): «حزب الرجل: أصحابه ـ ثم قال ـ : والأحزاب: الطوائف التي تجتمع على محاربة الأنبياء عليهم السلام» انتهى، وفي (لسان العرب): «الحزب: جماعة الناس، والجمع: أحزاب، والأحزاب: جنود الكفار، تألَّبوا وتظاهروا على حزب [كذا] النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم: قريش، وغطفان، وبنو قريضة ـ ثم قال ـ : وحزب الرجل: أصحابه وجنده الذين على رأيه والجمع كالجمع..» إلخ.

فظهر: أنه يستعمل مفيداً لمعنى التحزب والتعاون، أو اتحاد الطريقة.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن أي اثبت على يقينك به وإيمانك، وإن قال الكفار: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وإن كثر الكافرون به وقل المؤمنون ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ولهذا تكون به محقاً والكافرون به مبطلين فأنت على الحق والكافرون على الباطل، فلا تلتفت إلى كلامهم في القرآن ولا إلى كثرتهم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فسبب كفرهم عدم صلاحيتهم للإيمان لميلهم إلى الباطل واتباعهم أهوائهم لا كون القرآن محل مرية، فإعجازه المعلوم يدفع ذلك وكذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يكون في مرية منه لأنه معصوم وهو أول المؤمنين ولكن هذا تعبد له يثاب على الطاعة فيه وليستفيد به غيره ـ والله أعلم.

أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يفيد: أنه الحق من المالك المنعم فلا خيار لعبده في قبوله أو ردّه أو في الإيمان به أو الكفر به.

﴿١٨﴾ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾؟ سؤال في معنى النفي يفيد أنه لا أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذا الظلم ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ يوم القيامة ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ يوم الحساب والجزاء ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ وهم الأنبياء شهود على من عرفوه في عصرهم والهداة من بعدهم في كل أمة شهيد منهم، ولعل من الأشهاد الملائكة الكاتبين لأعمال الناس وتأديتهم للشهادة تنديد بالظالمين وفضيحة لهم وتوبيخ.

﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ مستمرة ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي طردهم من رحمة الله ففي الدنيا طردوا من رحمة الله بأن لم يوفقوا للتوبة وخذلوا حتى ماتوا مطرودين من رحمة الله وحشروا ملعونين وعرضوا على الله ملعونين لا نصيب لهم من رحمة الله.

﴿١٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ هذا تفسير للظالمين الملعونين اللعنة المذكورة ولا ينافي أن غيرهم ملعون إذا استحق مثل لعنتهم وإنما السياق في المكذبين بآيات الله الذين ﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فخصهم بالذكر زجراً لهم وتحذيراً لغيرهم ـ والله أعلم.

مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

وقوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن كان يصدون الذي مصدره الصد فمعناه يصدون غيرهم وهو أظهر هنا؛ لأنه أوفق للسياق، وإن كان من الصدود فمعناه يعرضون، وسبيل الله دينه الذي ارتضاه لعباده.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ يتطلبون لها عوجاً والعوج ضد الإستقامة والإستواء وذلك بجدالهم فيها أي في سبيل الله وتقوّلهم فيها، ولعل تكرار الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأَخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ للتأكيد من حيث أن السياق في ذكر أسباب لعنتهم الدائمة لفتاً للسامع إليهم ليكونوا عبرة لغيرهم والله أعلم.

﴿٢٠﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ هذه الآية الكريمة تمثل حالهم في موقف العرض على الله حين تذكّر بما كانوا عليه من كراهتهم للحق، وإعراضهم عن سماع آيات الله وإبصار دلائل الكون، بسبب كراهتهم للإيمان، واستكبارهم عنه، حتى كأنهم ما كانوا يستطيعون ولا كان لهم بصر يبصرون.

وتبيّن الآية استحضاراً لذلك الموقف أنهم لم يكونوا معجزين في الأرض فلو شاء لعجل لهم العذاب في أول كفرهم لكنه لحكمته أخرهم حتى انتهى أجلهم الذي أجل لهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ كما كانوا يزعمون في الذين اتخذوهم من دون الله أولياء فلم يكونوا في الدنيا ينفعونهم ولا هم في الآخرة ينفعونهم فاليوم يضاعف لهم

ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ

العذاب بتضاعف جرائمهم وصدهم غيرهم عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣].

﴿٢١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ وهذه الآية تستحضر حالهم يوم القيامة كالتي قبلها ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ اليوم لأنهم لم يبعثوا إلا للجزاء لا لأي متاع لهم فحياتهم وأنفسهم ليست لهم إنما هي للنار ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ ضاع عنهم ما كانوا يفترونه في الدنيا، فلا شركاء ولا شفعاء، ولا شيء مما كانوا يمنُّون أنفسهم.

﴿٢٢﴾ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ لأنه خسران بفوات كل خير والخلود في العذاب الشديد الدائم فأي خسران أعظم من هذا مع أنهم مفضلون على غيرهم في العذاب يضاعف لهم على قدر جرائمهم ففضلوا بذلك في التعبير عن الخسران بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾ الإخبات لله شأن كل مؤمن، ولعله ذكر هنا ليقابل وصف الكافرين المعاندين المتمردين، فهؤلاء خاشعون لله متذللون وإليه متقربون، والكفار على عكس ذلك.

كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ

قال في (الصحاح): «الخبت: المطمئن من الأرض فيه رمل، والإخبات: الخشوع، يقال: أخبت لله» انتهى المراد، والراجح: أنه مضمن معنى الرجوع إلى الله والتقرب إليه فعدي بـ﴿إِلَىٰ﴾ وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾ معناه: أنابوا وتواضعوا».

﴿٢٤﴾ ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ أي الكفار المذكورون سابقاً، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ كالذي اجتمع عليه العمى والصمم، وفائدة العطف الإشارة إلى تعدد أسباب الضلال عن الطريق على الأعمى كأنه قيل أعمى وانضاف إلى عماه أنه أصم، ففي هذا نوع بلاغة ليس في قولك أعمى أصم، وكذلك قوله تعالى في مقابل ذلك ﴿وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ فقد تعدد سبب اهتدائه للطريق فالعطف في الموضعين، كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

والعطف في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَصِيرِ﴾ عطف المقابلة بين الشيئين أي هو عطف لازم لاختلاف الأعمى الأصم والبصير السميع، فهو عطف وصفين لواحد على وصفين لواحد، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ فجعل الأعمى والأصم واحداً والسميع والبصير واحداً، والتباين بين الفريقين على هذا أوضح وأقوى.

قال الشرفي في (المصابيح): «فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ المؤمنين والكافرين ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ فقوله: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ تشبيه للكافرين بمن جمع بين العمى والصمم في عدم الإنتفاع

إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ

بما يُسمَع ويُبصَر من دلائل الهدى، وقوله: ﴿وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ تشبيه للمؤمنين بمن جمع بين الصحة [كذا] والبصر والسمع لانتفاعهم بما يُسمَع ويُبصَر من دلائل الهدى والحق» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ سؤال يفيد النفي أي لا يستويان في الصفة، فالأعمى الأصم مظنة الضلال والغلط والتيه في سيره بغير هدى، والبصير السميع سبيل الهدى ميسر له، فهكذا الكافر والمؤمن العامل الصالحات المخبت إلى ربه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تذكرون بالتذكير أم أنتم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات:١٣] والتذكُّر الإنتباه لما كان منسيًّا أو حضوره في الذهن، فأما الذكر فيكون لبقاء الشيء في الذهن مع عدم نسيانه من قبل أو بعد نسيانه.

﴿٢٥﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ هذا ابتداء قصص بالحق فيه عبرة للمكذبين بخاتم المرسلين ﷺ وفيه تسلية له ﷺ ليتأسى بالرسل الأولين الذين كذِّبوا فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ تفسير لما أرسل به إلى قومه وهي كلمة مهمة تلفت أنظار العقلاء وتدعوهم إلى النظر في صدقه طلباً للنجاة مما أنذرهم على تقدير صدقه وهو الواقع، فالحكمة أن يبدأهم نبي الله بها في تبليغ الرسالة، وقوله:

﴿٢٦﴾ ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ كالتفسير لما ينذرهم وهو العذاب ولسببه وهو ترك عبادة الله وحده، ووصف يوم العذاب بأنه أليم تعبيراً عن شدة ذلك وهوله العظيم.

أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ

﴿٢٧﴾ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ ﴿فَقَالَ﴾ عطف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾ قابلوا كلامه بمجرد التعبير عن الشك الذي لا تبطل به حجة النذير.

وقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ استبعاد لإرسال بشر إليهم، أي لو أرسل الله رسولاً لجعله ملكاً، وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي أنك لو كنت على حق لكنا أولى به فكنا أتباعك لأنا أعرف بالحقائق، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١] وقولهم: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ إحتقار لهم؛ لفقرهم أو نحوه لا غير.

قال في (الصحاح): «الرذل: الدون الخسيس» انتهى، وقال الراغب: «الرذل، والرُّذَال: المرغوب عنه لرداءته، قال تعالى: ﴿وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل:٧٠]» انتهى المراد، وأراذل: جمع أرذل، ففيه مبالغة لتحقير أتباع نبي الله.

وقوله: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أي بسبب رأي بدا لهم لا لأنهم نظروا نظراً كاملاً، وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي تستحقون به أن تكونوا متبوعين ونكون تابعين لكم، وهذه مبالغة في الجدل، جعلوا اتباع النبي عليه السلام اتباعاً لمن قد اتبعه بعد أن جعلوهم الأراذل ليبعِّدوا اتباعهم للنبي عليه السلام.

وقولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ جعلوه واحداً من أهل الدعوة لهم تكذيباً منهم له وزعماً أنه هو والذين اتبعوه سواء ليس له مزية الرسالة، وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ﴾ مبالغة في الجدل بإسناده إلى

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَآ أَسْءَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم

مشاهدتهم وإلى قلوبهم زعماً أنهم لا يعملون صدقه بقلوبهم ويجحدونه بألسنتهم، ونظيره قول فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١].

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ هذا لفتٌ لأنظار قوم نوح وتنبيه لهم لكي يتركوا الإعراض عن النظر الصحيح ويفكروا فيما جاء به من البينات الدالة على صدقه في أنه رسول من الله ونذير لهم.

﴿يَقَوْمِ﴾ أخبروني عن حالكم وشأنكم في إعراضكم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ تدل على صحة ما جئت به وصدقه، افرضوا هذا وقدروا لتعرفوا ما أنتم عليه من الخطر العظيم وتعرفوا أن السبب في جهلكم من عندكم، وبسبب إعراضكم عن الآيات البينات إذا فكرتم فيها ونظرتم نظر إنصاف وطلب للحق.

﴿وَءَاتَىٰنِى﴾ ربي ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ وهي هداه لي ولمن تبعني إلى طريق الحق وعبادته وحده ورفض الشرك، افرضوا هذا وقدِّروه لتعرفوا أنكم على خسارة بفوات ذلك إذا نظرتم، أو تعرفوا احتمال أنكم على خطر عظيم بسبب ترك النظر والإنصاف.

فشأن العاقل: أن ينظر ليتخلص من هذا الإحتمال؛ لأن النظر ممكن، وإنما أظلمت عليكم طريقه لفرط كراهتكم له المانعة من النظر والداعية إلى الإعراض، أنلزمكم رحمة الله التي آتاني من عنده حتى تعرفوا الحق وتؤمنوا بي وتعبدوا الله وحده بإلصاق ذلك منا في قلوبكم وألسنتكم وأعضائكم.

مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن

﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ تأبون الإصغاء لما أقول والنظر في صحته بإنصاف، ولقد رفق بهم في هذا الجواب ودعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة فيما مضى منه وما يأتي.

﴿٢٩﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فلا عذر لكم بخوف مغرم يثقلكم إن اتبعتموني ما أجري إلا على الله الذي أرسلني وكلفني تبليغ الرسالة.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فليس ذلك جزاؤهم في إيمانهم بي وبما جئت به من الله ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فأمرهم إليه وحده ليحاسبهم ويجزيهم بما عملوا إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولا دخل لي في ذلك ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ بالإساءة التي هي من الجهالة والسفاهة وبمقابلة الآيات بالإعراض والعناد.

﴿٣٠﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾ لأنه لا ذنب لهم يوجب طردهم، لأن الفقر وضعف الحال لا يوجب طردهم، والإيمان لا يوجب إلا تكريمهم، فلو طردتهم لعصيت الله بظلمهم، ولم يكن لي ناصر يدفع عني عقوبته ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتذكرون وإن ذكّرتم ما تقضي به العقول وتحكم به الفطرة مثل ما ذكرتكم في هذا الكلام الماضي والآتي.

يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا

﴿٣١﴾ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ فقولكم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ لا حجة لكم فيه، لأني لا أدعي امتيازاً عليكم بأن عندي خزائن الله التي يرزق منها عباده، ولست أعلم الغيب حتى أدعي امتيازاً بعلم الغيب ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ لكم ﴿إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتى تعارضوني بقولكم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا﴾ إنما أمتاز بما قد ذكرت لكم من الرسالة وما إخباري لكم ببعض المغيبات لأني أعلم الغيب.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ تحتقرهم أعينكم لضعف مظاهرهم لفقرهم وضعف حالهم لا أقول فيهم ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالله يؤتي الخير من آمن واتقى.

ولا دخل للمال والولد والمظاهر الدنيوية في التقريب إلى الله، فلا يصح أن أقول: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾ وظاهرهم الإيمان والتقوى الذي هو سبب الخير؛ لأن الله هو الذي يعلم ما في أنفسهم إن كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لو قلت: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾ لأنه ظلم لهم وقول على الله بغير علم وبهذا تمت الحجة عليهم وانقطعت معاذيرهم.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا يفيد إصرارهم على الكفر والإعراض عما ذكرهم به وعما احتج عليهم به، فركنوا إلى ما يدعو إليه الجهل والكبر من هذا التعجيز ليوهموا أنهم على معرفة بأنهم على الحق فخاطروا بأنفسهم باستعجال العذاب حماقة وسوء نظر لأنفسهم ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من عذاب يوم أليم.

يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فهذا جواب عن قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وهو إنما أنذرهم عذابَ الله، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي أنتم لا تدفعون العذاب بقوة فلا تُعجِزُوا عن تعذيبكم إذا شاء الله أن يأتيكم به، وقد يؤخذ من إطلاق قوله: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ أنكم ما أنتم بمعجزين، سواءً أتاكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا جواب عن قولهم: ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ يفيد: أن جداله لهم نصح لهم، لكنه لا ينفعهم إن كانوا قد استحقوا من الله عقوبة الخذلان الذي تترتب عليه غوايتهم لا محالة، حتى كأن الخذلان هو الإغواء نفسه، فهو كقول نبي الله هود لقومه: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١].

إلا أن هوداً عليه السلام قال: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ ونوحاً عليه السلام قال: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ وكيف لا يترتب على خذلان العبد غوايته، والشيطان مسلط على من اتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢] فالإغواء مرتب على طاعتهم للشيطان، ومحاربتهم لدين الله بالجدال في آيات الله.

وليس إغواء ابتداء، بل عقوبة اتباع الشيطان، والتمرد على الله، خذلوا فدعاهم الشيطان إلى ما تهواه أنفسهم، فأجابوا لاتباع هواهم باختيارهم، فلذلك كانت الغواية لازمة لخذلانهم وتركهم للشيطان الذي هو

عقوبة التمرد على الله ومحاربة دينه، فلهذا لا يكون نبي الله نوحاً يدعي معارضته لمراد الله الذي أرسله إلى قومه لينذرهم، ولكنه اختصر الكلام ليبين أنه لا سبيل لنفع النصح إن كانوا قد خذلوا وعبر عن ذلك بإغواء الله ليفهموا أنه أمر لا ينفع معه نصح؛ لأنه لا سبيل إلى تخليصهم من الخذلان لأنه أمر الله الغالب على أمره.

فالحاصل: أنه أراد أن يُفهِمهم أنه لا ينفعهم نصحه إن كان الله يريد أن يغويهم ليعلموا أن السبب غوايتهم لا عدم الحجة عليهم ولم يكن بصدد بيان كيف كانت غوايتهم المنسوبة إلى الله؛ لأنهم كفار لا يقبلون منه التفصيل ولا يلتفتون إلى التطويل في التعليل لبيان أن هذا الإغواء لا ينافي عدل الله وحكمته؛ لأن الإغواء هو التسبيب للغواية والتسبيب حق لأنه عقوبة وهو مجرد الخذلان وكونه سبباً ليس موجباً للمسبب بل ترتب عليه باختيارهم لطاعة الشيطان فلذلك كان سبباً، وقد يكون الشيء الواحد سبب هدى وسبب ضلال؛ لأن المهتدي جعله سبب هدى، والضال جعله سبب ضلال؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦].

ومثال ذلك: النعمة يستعين بها المؤمن على طاعة الله ويجعلها سبباً للشكر، ويستعين بها الكافر على الباطل ويجعلها سبباً للطغيان والبطر، فكانت النعمة سبباً غير موجب، وصاحبها هو الذي جعلها سبباً فكذلك الخذلان وإن كان لا يصلح سبباً للخير، وليس الإغواء في اللغة إلا التسبب للغواية، كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص:٦٣] فأما دعوى أن الإغواء خلقُ الغواية فهي مخالفة للغة العرب ولا دليل عليها ولكنه التسبيب ولا يكون من الله إلا بالحق كما بينت.

إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ

وأما قوله عليه السلام: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي مالككم، فهو يبين: أنه أولى بهم من نبيه، وأنه يفعل فيهم ما يشاء من العقوبة التي استحقوها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه لا إلى غيره من شركائكم ولا غيرهم ترجعون ليجزيكم بما قدمتم فلم يترككم على غوايتكم إلا لأنه يجزيكم بعقابها فلا بد من عقابكم فلا تستعجلوه بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ فهذه قصة قوم نوح حين جاءهم الرسول وكذبوه وما دار من الجدل بينهم وبينه وإصرارهم وطلبهم تعجيل العذاب.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أيقول الكافرون بك يا محمد ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي افترى هذا القصص الذي هو حق وعبرة لهم، ودليل على أن الله أوحى إليك هذا الذي قد علمته من أخبار الأمم الماضيين ورسلهم وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك بل نشأت في الأميين فلم تعلمه إلا بوحي من الله وقد رد الله عليهم فيما مر قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي هذا القرآن.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد إن افتريت هذا القصص وهذا القرآن ﴿فَعَلَيَّ﴾ وحدي ﴿إِجْرَامِي﴾ أي ذنبي وجنايتي ليس عليكم منه شيء وأنا بريء مما تجرمون متكرراً منكم من الشرك وغيره من إجرامكم ليس علي منه شيء ولا أرضاه ولا أشارككم فيه بوجه لأني قد نهيتكم ونصحتكم وأبلغت جهدي في ذلك فلم تقبلوا مني فلا يضرني ما تجرمون.

ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن

وبعد هذا تأتي (قصة نزول العذاب على قوم نوح عليه السلام) وقد تخلل بين القصتين الفصل بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ لأنهما قصتان كل واحدة مستقلة بفائدتها وما سيقت له، ولولا الفصل لكانتا قصة واحدة، فالأولى تفيد: دعوة الرسول قومه إلى توحيد الله، وإنذاره لهم من عذاب الله، وإخباره أنه رسول من الله، فهي تفيد مهمات من أصول الدين، وتفيد تسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين كذب قومه بما جاء به، وقالوا ﴿افْتَرَاهُ﴾ بأنَّ من قبله من الرسل كذبهم قومهم، والقصة الثانية تفيد نزول العذاب بالمكذبين على التفصيل المذكور فيها، وتفيد ذكر مقدمات نزول العذاب وكيف نجا منه المؤمنون وكيف عم المجرمين.

﴿٣٦﴾ ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ فما بقي موجب أو سبب لتأخير العذاب العام لمن لم يؤمن لأنه لم يبق فيهم من يؤمن فيؤخر العذاب حتى يؤمن ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ فلا تبتئس لا تحزن حزن بائس ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ من الشرك والظلم والتكذيب الذي استمر منهم زمناً طويلاً؛ لأن الله منتقم منهم ومنزل عذابه العاجل، فقوله: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ تقدمة للأمر بصنع السفينة لينجوا من الغرق ويهلك من لم يؤمن.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفينة، وقوله تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ تحت رعايتنا وتدبيرنا لك ووحينا لك كيف تعملها، ومن أي أجناس الخشب تعملها، وكيف تجعلها ألواحاً عراضاً، وكيف تجعل غلظ كل لوح، وكيف تنظم بعضها إلى بعض بالمسامير، وكيف تجعلها حتى لا يدخلها الماء لا من تحتها ولا من أي جهة، ونحو ذلك.

تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ الخطاب القول الموجه إلى المقول له، فهو يتضمن النهي عن المطالبة بتأخير العذاب أو بإنجاء بعضهم، ويتضمن النهي عن السؤال عن تعذيبهم أو تعذيب أحد منهم كيف لم يكن أو كيف لم يعجل أو غير ذلك من السؤالات، وهذه عبارة غضب ودلالة على أن الحكم له فيهم لا يسأل عما يفعل، وهي مقدمة لقوله: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لئلا يخاطبه بعد قوله له: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فليس له أن يجادله مثلاً فيهم أو في بعضهم.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ تنبيه على أن العلة في الغرق وغضب الله عليهم هي ظلمهم الواقع منهم بالشرك والتكذيب والجدال في الحق وغير ذلك الجملة كل جرائمهم فهي ظلم وجور استحقوا بها العذاب العاجل لكونها ظلماً أي حيفاً وجوراً.

﴿٣٨﴾ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ ﴿وَيَصْنَعُ﴾ مضارع لاستحضار الحال الماضية كأنها واقعة الآن ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾ جماعة أو جماعة من كبراء قومه ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ استجهلوه واستهزؤا به مثلاً، كما روي يقولون: صرت نجاراً وكنت نبياً؟ ويقولون: كيف تصنع سفينة عظيمة في البر بعيدة من البحر، ولا يمكن نقلها لعظمها وما تصنع بسفينة في البر حيث لا ماء.

﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ نستجهلكم حيث تسخرون من هذه السفينة

وهي معدّة لنجاتنا من العذاب الذي ينزل عليكم وقد كتب لكم العذاب وقرب منكم وأنتم تلعبون، فأنتم أحق أن يُسخَر منكم؛ لجهالتكم، واستمرار سكرتكم.

قال الشرفي في (المصابيح): «فإن قيل: السخرية من أمهات المعاصي فكيف تليق بالأنبياء؟ قلنا: إنما سمي الثاني سخرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠]».

قلت: ليس تحريماً عقلياً، ويمكن أن يختلف حكمها باختلاف المسخور منه، وباختلاف سببها، فلا يجب أن تكون كلها جهالة، وحيث لا تكون جهالة ولا ظلماً يمكن أن يبيحها الله لمن يشاء كالتهكم ـ والله أعلم.

(٣٦) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿فَسَوْفَ﴾ عطف على ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ فسوف تعلمون عند نزول الغرق عليكم ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ أنتم أم أنا، فمن أحق بالسخرية هو من يأتيه عذاب ﴿يُخْزِيهِ﴾ ويفضحه ويذله وهو اليوم يلعب ويسخر ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قال في (الصحاح): «وحلَّ العذاب يَحِل ـ بالكسر ـ أي وجب» انتهى. وفي (لسان العرب): «وحَلَّ عليه أمر الله، يحل حلولاً: وَجَبَ» انتهى، وحكى في (لسان العرب) ـ أيضاً ـ مثل ذلك عن الزّجّاج، وجعلَه من حلول الدين بمعنى وجوب تسليمه مستقيمٌ، حلّ أي وجب تسليمه لانقضاء أجله، فأما الحلال بالبلد فمضارعه يَحُل ـ بضم الحاء ـ فالظاهر: أنه لا يصح تفسير حلول العذاب المذكور هنا به، فقوله: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ هو العاجل المهلك.

ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ

وقوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ أي باق وهو عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**﴾ [المائدة:٣٧] ووجوبه عليهم إما وجوبه حين يأتيهم ولا ينظرون، وإما وجوبه بهلاكهم عند الغرق مستوجبين لعذاب الآخرة؛ لأنهم يُعلمون بذلك عند هلاكهم ـ والله أعلم.

﴿٤٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لسخرية قومه بسبب صنع السفينة وجوابه فما زال ذلك حتى جاء أمر الله، وبدأ ظهور الماء من الأرض فنبع، وارتفع من التنور التي هي من قبل للنار فصارت منبعاً من منابع الماء ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾ جواب الشرط ﴿فِيهَا﴾ أي في السفينة أي اجعل فيها ليحمله الماء ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ﴾ من الحيوان أي نوعين ذكر وأنثى ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ فردين لإنقاذهما من الغرق ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ أي واحمل فيها أهلك.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ إلا من كان ظالماً سبق عليه القول إنه مغرق في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾ ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ واحمل فيها من آمن ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ﴾ مع نوح ﴿إِلَّا قَلِيلٞ﴾ وفي هذا دليل على أن أهل الحق قليل وأن الكثرة لا تدل على أن الكثير هم أهل الحق.

﴿٤١﴾ ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾ فهو الذي يجريها كيف يشاء

كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ

﴿وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ فهو الذي يرسيها متى شاء ليس لأهلها أن يجروها ولا أن يرسوها؛ لأنهم في داخلها ومجراها ومرساها بغير فعلهم، بخلاف سفائن البحر، وهذا لا ينافي التسمية على كل نعمة من الله، فمعناها: أن السبب نعمة الله، أو إني أفعلها بأمر الله، أو نحو ذلك لكل شيء بما يناسبه، فإذا لَبست قلت: (باسم الله) لأنه الذي كساك، وإذا أكلت قلت: (باسم الله) لأنه الذي أطعمك، وهكذا سائر النعم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي ولمغفرته ورحمته حملنا في السفينة، وأنجانا من الغرق ونجانا من القوم الظالمين، وهذا تعبير عن كون ذلك بفضل الله ورحمته ودفع للإعجاب بأنفسهم.

﴿٤٢﴾ ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ هذا تصوير لجريها في الموج واستحضار للحال تلك، بقوله: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ والموج الماء الكثير المرتفع فوق الماء، قال تعالى: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ**﴾ [النور:٤٠] قال في (لسان العرب): «الموج: ما ارتفع من الماء فوق الماء» انتهى، وعبارة الأصفهاني في (تفسير المفردات): «الموج في البحر: ما يعلو من غوارب الماء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلۡجِبَالِ﴾ يفيد: ارتفاع هذا الموج وعلو سمكه، فهو على ظهر الماء كالجبال، ترفعه قوة تزخر الماء على وجه الأرض واضطرابه بكثرة مصادره الغزيرة من الأرض والجو وسرعة نبوعه من الأرض ونزوله من السماء، والسفينة تجري بهم في ذلك الموج بأمر الله.

لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿وَنَادَىٰ﴾ دعى بصوت رفيع ليسمع ابنه مع صوت المطر والأمواج ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي وكان ابنه في معزل اعتزل فيه عن أبيه، ولعله كان اعتزل موافقة للكفار، ودلالة لهم على أنه غير مؤمن بأبيه، ولذلك قال أبوه: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولعله كان يوهم أباه أنه مؤمن، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿قَالَ﴾ ابنه ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ استمراراً على انعزاله عن أبيه ﴿قَالَ﴾ أبوه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ ﴿لَا عَاصِمَ﴾ لا جبل ولا غيره يعصم ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو إغراق أعداء الله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي لكن من رحم الله ويسر نجاتهم وعصمهم بالسفينة فهم الذين ينجون، ولعل نوحاً يقول هذا لابنه ليلجأ إلى السفينة على معنى الرجوع إلى الله والتعرض لرحمته ليتهيأ له بلوغ السفينة.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ الماء المرتفع ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ أي ﴿فَكَانَ﴾ ابن نوح ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ لم تنقذه عاطفة أبيه ولا نجّاه نسبه، وفي هذا دلالة على أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمانُ والتقوى، وأنه لا ينفع النسب بدون الإيمان والتقوى.

﴿٤٤﴾ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أي أمَر الله الأرض أن تبلع ما عليها من الماء فتجعله في بطنها كما تقول: ابلَع اللقمة، وهذا الأمر

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ

لعله أمر تكوين ليس قولاً ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أوقفي واتركي إنزال الماء إلى الأرض لتنضب وتصلح لسكنى الإنسان.

قال في (الصحاح): «والإقلاع عن الأمر: الكفّ عنه» انتهى.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ غاضت الأرض الماء الذي عليها فزال عن وجهها ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الذي هو: تعذيب قوم نوح وإهلاكهم، وإنجاء نبي الله ومن آمن بالله معه.

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ واستقرت السفينة واعتدلت ﴿عَلَى﴾ الجبل الذي اسمه ﴿ٱلْجُودِىِّ﴾ وذلك بتقدير الله تعالى استواءها عند نضوب الماء، وقد كان يمكن عند نضوب الماء أن تقع غير مستوية بوقوع بعضها على مرتفع وبعضها على منخفض أو تسقط متجهة إلى أسفل الجبل.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿بُعْدًا﴾ أي هلاكاً» انتهى، ومعناه: الدعاء عليهم تعبيراً عن السخط عليهم والرضى بهلاكهم، وموافقته لغرض الداعين، كما يقال سحقاً لهذا المعنى، وفي التعليق على ظلمهم دلالة على أنه السبب في هذا القول، وأنهم بظلمهم استحقوا العذاب والهلاك.

﴿٤٥﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ﴿نَادَىٰ﴾ دعى ربه ولعله جعل دعاؤه نداء لإلحاحه في الدعاء وجدّه في الطلب لقوة الباعث عليه فهو في مشكلة دينية راجعة إلى العقيدة فطلب من ربه حلها واستهداه الهدى للصواب، فهو يرى

صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ

أن الله قد وعده نجاة أهله، وأن ابنه من أهله ولم ينجُ، وأن وعد الله حق لا يتخلف وأنه أحكم الحاكمين، ويظهر: أن سبب المشكلة تغرير ابنه وإيهامه أنه مؤمن، وأن أباه كان يظنه مؤمناً ويحمله في انعزاله على السلامة، فكان يعتقد أنه ممن وعد الله نوحاً بنجاتهم، ولو كان ابنه يصارحه بالكفر ما أشكل عليه إغراقه؛ لأن الله قد استثنى من سبق عليه القول منهم.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ﴿عَمَلٌ﴾ مصدر عبر به في وصف ابنه مبالغة كأنه نفس العمل، فلعله كان يبالغ عند أبيه في إظهار الإيمان فكان حل المشكلة بأن يخبره أن عمله ذلك غير صالح بل هو فاسد لأنه مجرد رياء ولم يكن مؤمناً فهو ممن سبق عليه القول، وقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لا يعني نفي النسب، وإنما المعنى ليس من أهلك الذين وعدناك نجاتهم.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ لا تطلب مني ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أهو صواب أم غير صواب مثلاً لا تسألني إنقاذ ابنك من الغرق وأنت لا تعلم إنقاذه صواب أم لا من حيث أن الله أعلم بسره وحقيقة عمله وهو لم يكن قد طلب ذلك، والنهي عنه لا يدل على أنه قد وقع.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تأكيد للنهي، قال الراغب: «الوعظ: زجر مقترن بتخويف» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لئلا تكون من الجاهلين أي من أهل الجهالة والسفاهة، وفي هذا دلالة على أنه لا شفاعة لمن حكم الله بتعذيبه.

وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ

﴿٤٧﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ ألجأ إليك لتعصمني من ﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هي (إن لا) أدغمت النون في اللام أي وإن لا ﴿تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

فإن قيل: هذا طلب للمغفرة فما هو الذنب؟

قلنا: لعله استعجاله بعرض مشكلته وهو لا يخلو إما أن يكون ابنه ممن وعده الله بنجاته فهو لا بدّ أن ينجو، وإما أن لا يكون منهم فلا إشكال، فإن كان قد علم أنه لا ينجو إلا من ركب في السفينة وأن ابنه لم يركب فعلم أنه لا ينجو فهو لا يعلم حقيقة ابنه وباطنه فكيف يشكل عليه إهلاكه بناء على ظاهره، وهو يعلم أن الله أعلم بحقيقة ابنه منه، فكانت الزلة استعجاله بقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي الذين وعدت بنجاتهم وهو غالط في ذلك، فاستغفر لأجل ذلك، وإن كان قد تأدب حيث لم يقل: الذين وعدتني بنجاتهم.

﴿٤٨﴾ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ يظهر أن هذا القول كان عند إقلاع السماء وابتداء نضوب الأرض فهو هبوط السفينة تبعاً لهبوط الماء، فالأمر بمعنى الخبر عن هبوطه من ذلك الحين بشارة له بالعودة على قرار الأرض بسلام لم يلحقه بأس في السفينة ولا بهبوط السفينة على الجبل ولا بعد خروجهم منها ونزولهم في قرار الأرض فلا وَحَل يضرهم ولا وباء من أثر الماء وفرط الرطوبة ولا غير ذلك مما هو من مثل ذلك.

أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا

﴿وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ في (لسان العرب): «عن الزجاج: البركة: الكثرة في كل خير» انتهى، فالبركات على نوح الدينية: زيادة الهدى والنور، وتيسير العبادة والقوة عليها، والبركات الدنيوية، مثل: العافية، والصحة، وزيادة القوة، وذلك يستلزم الرزق وما يحتاجه من اللباس والمسكن والفراش وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ الأمم: جماعات من ذريات من معه، أي وبركات على أمم ممن معك وهم الصالحون من ذريتهم وهي تشملهم أي من معه من باب الأولى؛ لأن العلة الإيمان وقد ثبت إيمانهم أو لأن البركة على الآباء توزّعت وتفرّعت على الذرية، وهذا يفيد أنهم يلدون كلهم لأن (مِن) ابتدائية فلعل من عدا أبناء نوح انقطع نسلهم من بعد ما كان لهم نسل فصارت ذريته هم الباقين.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَأُمَمٌ﴾ جماعات أي ممن معك ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ وإن لم يكونوا مؤمنين كالذين بارك الله عليهم فلهم متاع في الدنيا ينتهي ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ من الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة أو في الدنيا والآخرة.

﴿٤٩﴾ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ تلك الآيات الماضية التي فيها قصة صنع السفينة ونجاة نوح ومن آمن معه وهلاك من لم يؤمن من أولاده وقومه على ما فيها من التفصيل

مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ

الكامل هي من أنباء الغيب أي من أخبار الغيب المهمة أخبر الله بها وأوحاها إليك في جملة أنباء الغيب يوحيها الله إليك من أخبار الأمم الماضية والأشياء الماضية وأخبار ما سيكون.

وكلها ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾ يا محمد ﴿أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾ الذين نشأت فيهم وتتلو هذا القرآن عليهم أي على التفصيل وإن كان خبر السفينة التي نجا فيها نوح وهلاك قومه بالغرق مما توارثته الأجيال ما كنت تعلمها أنت ولا قومك على التفصيل من قبل هذا القرآن، وفيه دلالة على نصر الله لأنبيائه وعلى هلاك الكفار المعاندين لهم.

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فمدة الصبر تنتهي بالنصر لك ولمن معك من المؤمنين الصابرين المجاهدين، وهذا يعين على الصبر، وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ كالتعليل للصبر والراجح أنها غير مخصصة بالدنيا بل إما في الدنيا والآخرة وإما في الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم:٦٠] فدلالتها على النصر في الدنيا بواسطة دليل آخر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ وأرسلنا إلى عاد ﴿أَخَاهُمۡ هُودًا﴾ فهو عطف على قوله تعالى: ﴿نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ وعادٌ بعد قوم نوح، وكأنهم أحدثوا الشرك بعد طهارة الأرض منه بإهلاك المشركين من قوم نوح.

ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ بأن تعبدوه وحده ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ نفي مؤكد بـ(مِن) ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ مختلقون كذباً حيث جعلتم له شركاء، والإفتراء الكذب المتعمد، بدليل قولهم فيما حكاه الله: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ:٨] قال في (الصحاح): «وافتراه: اختلقه، والإسم الفرية» انتهى.

﴿٥١﴾ ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ما أرسلت به من أمر الله بعبادته وحده وغير ذلك ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ لا أطلبكم ﴿عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ فاستمعوا لقولي واصغوا لما جئت به من آيات ربكم وفكروا في صحتها حتى تعلموا أني صادق فهذا احتجاج عليهم في إعراضهم وتكذيبه بدون نظر، فإنه غير متّهم بغرض دنيوي وهو ينذرهم ويعلمهم أنه لا يستحق عليهم أجراً إنما أجره على الله، وهذا تأكيد لدفع التعلل باحتمال أنه يريد منهم أجراً، وفيه فائدة أخرى وهو أنه لا عذر لهم بخوف المغرم لو كان يريد منهم أجراً.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ تنبيه لهم على أنه ليس من شأن العاقل الإعراض عن النذير المنذر بالخطر العظيم لمجرد الهوى أو الكبر أو الحسد أو الإستعباد مع إمكان النظر في صدقه والتأمل لحجته الدالة على صدقه.

﴿٥٢﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ اطلبوه مغفرة ذنوبكم لتنجوا من العذاب العاجل فقد تعرضتم له بما قدمتم من الشرك وغيره.

نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ثم ارجعوا إليه بالطاعة له وتقواه وهي من استغفاره ولكن بدأ بذكر الإستغفار تنبيهاً على أنهم بذنوبهم قد استحقوا العذاب بحبس المطر عنهم أو غيره، فالإستغفار لمحو الماضي المانع من الرحمة، والتوبةُ لإصلاح المستقبل تعرضاً للرحمة وهما في أول أمرهم شيء واحد ولكنه تعدد لاختلاف الإعتبار وأتى بـ(ثم) للترتيب المعنوي بين طلب مغفرة الذنوب الماضية الذي هو التخلص من ماضيهم والرجوع إلى الله الذي هو إصلاح حالهم ومستقبلهم للتعرض لفضل ربهم.

وقوله: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ﴾ أي من أجل الإستغفار والرجوع إلى الله بطاعته وتقواه ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ كثيرة المطر متتابعته، وهذه صفة لها إذا أرسلها الله كثيرة المطر متتابعة الأمطار النافعة مستمرة على ذلك كأنها تمطر، ومن شأنها أن تمطر لأنها مدرار كالبهيمة الحلوب، وفي التعبير بالمدرار إشارة إلى أنه مطر خير وفائدة كما هو معهود من در البهيمة الحلوب ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ بنزول البركات وغير ذلك.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عن ربكم وهذا التولي ضد الرجوع إليه، وقوله ﴿مُجۡرِمِينَ﴾ تحذير لهم من عاقبة التولي؛ لأنهم مجرمون قد استحقوا العذاب فإذا تولوا على هذه الحالة فقد تعرضوا للعذاب بجرائمهم السابقة مع جريمة التولي والإمتناع من الإيمان والتقوى والإصرار على الشرك وسائر جرائمهم.

﴿٥٣﴾ ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ تكذيب بالبينة التي جاءهم بها

جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ

كقول الكفار بمحمد ﷺ: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس:٢٠] ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك في تركنا لآلهتنا أي لا نتركها بسبب قولك، وهو يشير إلى كفرهم بأنه في قوله مبلغ عن الله فلو أطاعوه أطاعوا الله وكانوا تركوها عن أمر الله تعالى، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ نفي بليغ بـ(ما) مع (الباء) لتأكيد أنهم لن يؤمنوا برسالته.

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ ما نقول إنك رسول صادق بل نقول ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أي غشيك وأصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي بخلل في عقلك أو بضعف في عقلك.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿بَرِىٓءٌ﴾ مقاطع لها لا علاقة لي بها يعلن التبري منها تحدياً لهم ولما يشركونه أي يجعلونه شريكاً لربهم فيهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي يتخذونهم أقرب إليه من الله لغفلتهم عن الله ونسيانهم له.

وقوله: ﴿فَكِيدُونِى﴾ تصريح بالتحدي لقومه ولشركائهم الذين زعموا أنهم قد ضروه في عقله، وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين متعاونين على كيدي أي اعملوا ما دبرتم من سوء خفي كتهيئة قتلي ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ثم لا تمهلوني، وهذا كقول نوح عليه السلام السابق في (سورة يونس) فهو ينفي قولهم: ﴿ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ كأنه عليه السلام قال: إن كانوا اعتروني بسوء فليفعلوا أشد منه كيدي وهلاكي وأعينوهم على ذلك فأنا هذا أعلن البراءة منهم لله ربي وأشهدكم على ذلك، ولكنهم لا يضرون ولا ينفعون كما تزعمون.

أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ

﴿٥٦﴾ ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ وكلت أمري إليه فيما بيني وبينكم، وفي تبليغ رسالته إليكم فلا يردني عن التبليغ تخويف في سبيل الله، بل أمضي لما أمرت به وأرضى بما كتَب لي وما أراد لي في طاعته، ولا ينالني إلا ما كَتَبَ لي؛ لأنه ربي وربكم مالكنا ومالك التصرف فينا.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ (الناصية): مقدم شعر الرأس، وهذا مجاز عن كون كل دابة في قبضة الله وتحت تصرفه أي فأنا وأنتم في قبضته كما كل دابة في قبضته، فلا تتصرف إلا في حدود إقداره لها وتخليته وتمكينه، فإن شاء نصرني وإن شاء غير ذلك فهو الغالب على أمره.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريقة قيّمة وسنة مطابقة للعدل والحكمة فما دبره لي فهو حكمة وصواب وما دبره لكم فهو حكمة وصواب ذكّرهم بالله وبأنه الذي يستحق أن يخشى ويرجى ويتوكل عليه المتوكلون.

﴿٥٧﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ فإن تتولوا يا قومي ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ فقد قمت بواجبي في رسالتي إليكم فلا يضرني توليكم؛ لأنه ليس علي إلا البلاغ وليس علي أن تهتدوا.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويستخلف قوماً غيركم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ لا بمعصيتكم ولا بهلاككم.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يستخلف للإيمان والطاعة غيركم، كقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾ [محمد:٣٨] فالمعنى يستخلف لطاعتي واتباعي ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ فهو يحفظني والذين آمنوا معي ولا يلحقنا عذابكم حين يهلككم ربي؛ لأنه على كل شيء حفيظ، فلا يهلك إلا ما أذن بهلاكه ولا يهلك شيء على طريق الصدفة.

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾

وهذا المعنى لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ هو أنسب لقوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ﴾ من حيث ارتباطه بالإستخلاف، ولقوله: ﴿رَبِّي﴾ فإنه يناسبه تعلق الإستخلاف بهود، فكأنه قال: ويستخلف لي ربي قوماً غيركم، وذلك بتكثير ذرية هود والذين آمنوا معه في حياة هود فيكثر أتباعه بحيث يكونون قوماً، أو أنهم قوم من قبل هلاك الهالكين.

﴿٥٨﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ ﴿أَمۡرُنَا﴾ عذاب قوم هود ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾ أي من ذلك العذاب ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ هو العذاب النازل على قوم هود غليظ شديد، ووصفه بالغلظة إما لتضعيف الشدة فهو مثل عظيم وكبير، وإما لوصفه بالقسوة على أعداء الله، كقوله تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة:١٢٣] ومن شدته وغلظته أنه عذاب يهلكهم على كفرهم فيؤديهم إلى عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ أي بسبب رحمة منا أو كان الرحمة آلة لنجاتهم أو نجاة متلبسة برحمة منا وهي رحمته تعالى للرسل ومن آمن معهم أو رحمتهم ورحمة من يهتدي بهم من بعد هلاك قومهم واستبدال غيرهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ﴾ إشارة إلى القبيلة المذكورين ﴿تِلۡكَ﴾ مبتدأ و﴿عَادٞ﴾ خبره، وهو توطئة لوصفهم بقوله تعالى: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ فدل على كذبهم في قولهم: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ ﴿رُسُلَهُۥ﴾ هود ومن قبله من الرسل لأن دعوتهم واحدة إلى توحيد الله وعبادته وحده عامة للناس شاملة لمن في عصرهم ومن بعدهم ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ فهذه صفتهم فقد استحقوا العذاب الغليظ.

وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟

قال في (الصحاح): «والجبار: الذي يقتل على الغضب» انتهى، ثم قال: «وتجبر الرجل: تكبَّر» انتهى، وقال الراغب: «ويقال للقاهر غيره: جبار، قال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥] انتهى.

وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «فالجبار: المتكبر عن عبادة الله تعالى، والجبار: العظيم الفتَّاك في غير حق، والجبار: القاهر والعنيد الجائر العادل عن الحق» انتهى.

وقال الراغب: «والعنيد: المعجب بما عنده، والمعاند: المباهي بما عنده» انتهى، وقال في (الصحاح): «وَعَنَدَ يَعْنِد ـ بالكسر ـ عنوداً أي خالف، وردَّ الحق وهو يعرفه، فهو عنيد وعاند» انتهى، فظهر: أن الجبار هنا الظلوم الفتاك في غير الحق، وأن العنيد المعاند للحق ولو عرفه.

﴿٦٠﴾ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد هلاكهم ﴿لَعْنَةً﴾ من الله، فكان من عقابهم سوء الذكر في الدنيا لعنة من الله عقوبة في الدنيا بسوء ذكرهم، إما بلعنتهم فيما أنزل على الرسل، وإما به وبشرع لعنتهم من الملائكة والناس أجمعين ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يطردون من رحمة الله، فيصيرون إلى عذاب الأبد.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ ﴿كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ جحدوه بجحدهم قدرته على كل شيء بقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] أو كفروا به بمعنى المقاطعة له مثل: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] وهو بعيد؛ لأن كفروا ربهم عدي بنفسه والكفر الذي بمعنى المقاطعة والمباينة يستعمل بالباء وجعله من نزع الخافض تأويل.

ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ

وقد حكى أهل اللغة: كافرني حقي، فاستعمل متعدياً بمعنى الجحد والإتيان بحرف التنبيه (ألا) في هذا السياق لعل سببه أن كفرهم يستبعد وقوعه كأنه لا يتصور أن يجحدوا قدرة الله عليهم وهو الذي خلقهم، فأتى بحرف التنبيه وأكده بـ﴿إِنَّ﴾.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ صورته دعاء عليهم بالبعد لكنه كما يقال بعداً وسحقاً وهو دلالة على استحقاقهم للعذاب الذي نزل بهم، وعبارة عن غضب الله عليهم، وقوله: ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لإخراج عاد الأخرى، وقول (صاحب الكشاف): «إن عاداً الأخرى هي عاد إرم» فيه نظر؛ لأن الراجح: أن عاد إرم هي عاد الأولى قوم هود ـ والله أعلم.

والتنويه بهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ مرتين دلالة على غضب الله عليهم وإرادة التنديد بهم حيثما بلغ القرآن وإلى آخر الزمان ما دام القرآن.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ أي يا قومي بزيادة الياء ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ مرَّ تفسيره ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ أوجدكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من حيث أن الله تعالى بدأ خلق الإنسان من طين، ومن حيث أن النطفة تخلق من الغذاء، وأصل الغذاء من نبات الأرض، وفي ذلك أي خلقهم دلالة على أن الله هو ربهم لا ما يعبدونه من دونه وفي التنبيه على أن أصلهم من الأرض دفع لتكبرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي وهو استعمركم فيها، وعمارتها إحياؤها وإصلاحها للإنتفاع بها، ومعنى استعمركم جعلها صالحة معدّة للعمارة وجعلكم قادرين على عمارتها، فأما إعدادها للعمارة فإنه جعل التربة تصلح للإنبات وتصلح للبناء فيها، وبعضها تصلح للبناء بها، ومنها يجعل الآجرّ كما أعده لذلك، وكذلك جعلها صالحة للعمل فيها للزراعة وللغرس وللبناء، وصالحة للسفر فيها للتجارة وغيرها.

وأما إعداد الإنسان فبجعل يديه معدّتين للعمل بهما بما لهما من قوة العمل وما فيهما من الكفّين والأصابع والمفاصل في الأصابع ومفصل الكف ومفصل المرفق ومفصل العضد أعلى اليد، وبجعل ظهره صالحاً للإنحناء حال العمل، وبجعل البقر صالحة للحرث ومسخرة للإنسان ليعمل بها ويسقي الحرث، وكذلك الإبل فهو الذي أعدّ للإنسان تحصيل رزقه من الأرض بعمارتها، فهو الخالق الرازق المستحق للعبادة وحده لا شريك له تعبداً له وشكراً لنعمته فقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ تنبيهاً على وجوب عبادته وحده لا شريك له، وأن عبادة غيره ظلم عظيم.

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ من الشرك الماضي وغيره من الذنوب لتنجو من العقاب عليه، ثم ارجعوا في المستقبل إلى الله لتصلحوا مستقبلكم، والتوبة: الرجوع، فالطاعة كلها من التوبة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾ بخلاف ما تتوهمون من بُعْدٍ عنكم، فلا تحتاجون إلى وسائط بينكم وبينه تقربكم إليه أو تبلغه عنكم ﴿مُّجِيبٞ﴾ لدعوة الداعي، فادعوه يستجب لكم، واستغفروه يغفر لكم، وقد مر في قول هود: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ

﴿٦٢﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ قد كنا نرجو خيراً لقومك فيك ﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾ قبل أن تدعونا لعبادة الله وحده فلما دعوتنا لهذا خاب أملنا فيك، وهو اعتراف له برجاحة العقل والخصال الكريمة التي معها ينفع الرجل قومه.

وقولهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ إنكار عليه بناء منهم على أن الصواب عبادة ما يعبد آباؤهم، وليس لهم في ذلك حجة ولكنهم جعلوا عبادتهم تعصباً لآبائهم وهي لا تفيد آباءهم شيئاً بل تضرهم من حيث أنهم سنوا لهم الشرك ومع أن المهم إنقاذ أنفسهم من النار.

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من عبادة الله وترك الشرك أهو حق أم باطل في شك مريب مقلق لأنفسنا لا تطمئن إليه، وقد أخطأوا وضلوا ضلالاً بعيداً لأنهم إن إردوا أنهم في شك من عبادة الله ربهم، فكيف يشك عاقل في أنها حق وهو الذي خلق ورزق، وإن أرادوا في شك من عبادة شركائهم فليس مقتضى الشك فيه أن يستمروا عليه، لأن تركه مع الشك أحوط من فعله مع الشك؛ لأن الفعل إقدام بغير دليل والترك توقف فكلامهم هذا مجرد جدل بألسنتهم.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ آية بينة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ تدل على أني

أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ

رسول من الله إليكم لأنهاكم عن عبادة ما كان يعبد آباؤكم من دون الله ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ بما أوحاه إليّ وعلمني من الهدى لعبادته وحده وامتثال أمره واجتناب ما نهى عنه ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من يدفع عني عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ إن لم أبلغكم ما أمرت تبليغه ولم أنهكم عن الشرك كما أمرت بنهيكم ولم أدعكم إلى عبادة الله وحده كما أمرت أن أدعوكم.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ على الكفر برسالتي ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ لي لو أطعتكم لأنها خسارة رحمة ربي ورسالته باستبدال معصيته الموجبة لعذابه.

﴿٦٤﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافها إلى الله لأنها عظيمة عِظماً خارقاً جعلها آية تدل على صدقه.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «يروى: أن قومه خرجوا في عيدٍ لهم، فسألوه أن يأتيهم بآية، وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة، فدعا صالح ربه فخرجت كما سألوا..».

قال الشرفي: «واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه:

أحدها: أنه تعالى خلقها من الصخرة.

وثانيها: أنه تعالى خلقها حاملاً من غير ذكر.

وثالثها: أنه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة.

ورابعها: ما روي إنه كان لها شرب يوم، وكان للقوم شرب يوم.

وخامسها: أنه كان يحصل منها لبن كثير يكتفي الخلق العظيم به، وكل واحد من هذه الوجوه معجز قوي» انتهى.

قلت: قد دل القرآن الكريم على أنها آية ويكفينا ذلك؛ لأن الله أصدق القائلين، وقد دل القرآن على عظمها؛ لقول الله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وقوله: «يكتفي الخلق العظيم به» يعني الناس الكثير، أي قومه، فقد روي أنها كانت تكفيهم لبناً في اليوم الذي تشرب فيه ماء بئرهم.

وقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي اتركوها تأكل في أرض الله فهو يكفيها المرعى ولا تكلفكم مغرماً ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لا ضرب ولا جرح ولا قتل يبعثكم عليه عداوتكم للحق والرغبة في إخفاء آيته التي غاظتكم ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ إن فعلتم وهذا إنذار لهم من نذير صادق قد دلت الآية العظمى على صدقه ولكنهم لتمردهم ومعارضتهم للحق بالجدال فيه قد خذلوا.

(٦٥) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي فقتلوها بفعل بعضهم وأمر ورضى الباقين.

قال الشرفي في (المصابيح): «يحتمل: أنهم عقروها لإبطال تلك الحجة، وأن يكون لأنها ضيقت الشرب على القوم، وأن يكون لأنهم رغبوا في لحمها وشحمها».

قلت: الوجه الأول أقرب وأنهم طمعوا في أن يقتلوها ولا يعذبون فينكشف كذب الوعد، وأنه كان مثل تحدي قوم نوح له حين قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ انتفعوا بحياتكم ومطالبها الموجودة عندكم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ فلن ينزل العذاب في الثلاثة الأيام، وفائدة هذا أن لايتوهموا أن العذاب قد تخلف، وأن قوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ تخلف أي لا يسارعوا إلى تكذيبه في هذا الوعد.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ إما الوعد بالنجاة المحدودة في الثلاثة، وإما منطوق الوعد ومفهومه أي أن العذاب ينزل فوراً بعد الثلاث لا يتأخر، وقوله: ﴿غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ لعله من قولك: كذبه الحديث، كما قال الجاحظ:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك أي ثوب خليع كالجديد من الثياب

وأفضل من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٩٠] قال الراغب: «ويقال: لا مكذوبة: أي لا أكذبك وكذبتك [كذا] حديثاً» انتهى.

فعلى هذا: يكون المعنى: لم أكذبكم الوعد المذكور، فهو نظير: صدقه الحديث، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ..﴾ [آل عمران:١٥٢] ويحتمل: أنه مصدر، بمعنى غير كذب، والأول أرجح عندي، ومؤداهما واحد.

﴿٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ﴿أَمۡرُنَا﴾ أي عذابنا الذي أنزلناه ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ وهي تيسير سبب النجاة كالهجرة من بين قومهم ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ ونجينا صالحا والذين معه من خزي يومئذٍ أي يوم إذ جاء أمرنا ونزل عذابنا.

فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ فهو يفعل ما يشاء من تعذيب ومن إنجاء من العذاب ومن غير ذلك فإن يشأ ينزل بقومك مثل ما أنزل بقوم صالح وغيرهم وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينال فلا يهمل العصاة المفسدين بل لم يمهلهم حتى عصوا وعاندوا إلا لأن الجزاء معدٌّ لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤].

﴿٦٧﴾ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ صوت شديد، وفي (سورة الأعراف) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [آية:٧٨] فيظهر من مجموع ذلك: أنها صيحة شديدة رجفت منها الأرض فهلكوا من الرجفة، ونسب هلاكهم إلى الصيحة؛ لأنها هي ولَّدت الرجفة.

وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ قال الراغب: من جثم الطائر إذا قعد ولطئ بالأرض. قلت: هو كناية عن هلاكهم الذي أدى إلى جثومهم على الأرض.

﴿٦٨﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ كأن لم يسكنوا ديارهم أحياء فلا ترى في ديارهم حركة ولا تسمع صوتاً ولا ترى أثراً من آثار الأحياء ولا تسمع صوت دابة ولا تجد شيئاً حياً من توابع القوم كالكلب أو الهر، وقد جمع هذا قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أي جحدوه» انتهى، وهو موافق لما قدمت في قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ دعاء عليهم تعبير عن الغضب عليهم وإرادة هلاكهم مثل سحقاً، قال تعالى: ﴿فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١١] وهذا هو البُعد

قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ

ضد القرب مثل: السحق، فأما بمعنى الهلاك فهو البَعَد ـ بفتح الباء والعين ـ كما أفاده في (الصحاح) و أما الراغب فقال: «والبُعْد والبَعَد يقال فيه [أي في الهلاك] وفي ضد القُرب» انتهى، ولعل الأكثر في ضد القرب البُعْد ـ بالضم والسكون ـ والأكثر في الهلاك البَعَد والله أعلم، وبُعْداً مصدر منصوب بإضمار الفعل، أي أبعدهم الله بعداً.

﴿٦٩﴾ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ هذا الكلام في الخليل عليه السلام كالتقدمة لقصة هلاك قوم لوط والبشرى لإبراهيم بإسحاق ومن وراء اسحق يعقوب، والرسل هنا ملائكة.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «ومعنى ﴿سَلَٰمًا﴾ سلَّمنا عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي أمري سلام» انتهى، أي سلام عليكم.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٍ﴾ ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي أسرع بالعجل ليأكلوا منه، وهذا أعني الإسراع بنُزُل الضيف من كرم الضيافة، كما قال حاتم:

فقلت له أهلا وسهلاً ومرحباً رَشِدتَ ولم أقعد إليه أسائله

فأطعمته من كبدها وسنامها شواءً وخير البِرّ ما هو عاجله

والحنيذ: قال الراغب: «قال تعالى: ﴿جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٍ﴾ أي مشوي بين حجرين» انتهى المراد، وفي (الصحاح): «حنذت الشاة أحنذها حنذاً، أي شويتها وجعلت فوقها حجارة محماة لتنضجها فهي حنيذ».

إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا

قلت: هو فعيل، بمعنى مفعول، يقال للمذكر والمؤنث كما أفاده في (الصحاح) و(لسان العرب).

قال الشرفي رحمه الله: «﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ أي فما أبطأ ولا أقام حتى جاء بعجل مشوي، والحنيذ هو المشوي، والعرب تقول: حنذنا الجراد وحنذنا الشِّواء، وإنما أتاهم بالقِرى وهو يظن أنهم أضياف من الآدميين، فبادر إليهم ولم يلبث ولم يبطء بكرامتهم» انتهى.

وعندي: أن تقديره: فما لبث عن أن جاء، أي ما تأخر عن أن جاء وما أبطأ فهو نفي للّبث ليدل على الإسراع ـ والله أعلم ـ وقد وصف العجل هنا بأنه ﴿حَنِيذٖ﴾ ليدل على الإسراع به، ووصفه في (سورة الذاريات) بأنه ﴿سَمِينٖ﴾ [آية:٢٦] ليدل على كرمه من ناحية سمن العجل.

﴿٧٠﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَآ﴾ إبراهيم عليه السلام أيدي الأضياف لا تصل إلى الطعام الذي هو العجل الحنيذ ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ أنكرهم، وخطر بباله أنهم ليسوا أضيافاً وإذ ليسوا أضيافاً فلماذا أتوا وهو لما يعلم أنهم ملائكة؛ لأنهم تمثلوا له بشراً ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أضمر منهم خوفاً ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ أي لإهلاكهم ليفهم أنهم ملائكة وليعلم ما قضاه الله في قوم لوط.

﴿٧١﴾ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ إما استعداداً لخدمة الأضياف، وإما لسماع المحاورة بينهم لاهتمامها بتركهم الأكل ﴿فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ (ضحكت) لعل الضحك من سرورها بالأضياف

إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ

الكرام حين علمت أنهم ملائكة قد جاءوا إبراهيم عليه السلام زوجها في صورة البشر يقرِّب لهذا الترتيب بـ(الفاء).

وتفسير (الضحك): بالحيض، خلاف الظاهر، وترتبت بشارتها بالولد على أنهم ملائكة بلغوها عن الله تعالى، والبشارة بالولد تغني عن ذكر الحيض؛ لأنه أمارة للولد ضعيفة والبشارة صريحة ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ أي بشرها الملائكة عن الله تعالى أو فبشرها الله ﴿بِإِسْحَٰقَ﴾ وبيعقوب من وراء إسحاق، وما قيل من أنه سمي يعقوب لأنه عقيب إسحاق في الولادة لأنه ابنه محل نظر؛ لأن الأقرب أنه اسم أعجمي ولهذا منع من الصرف.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ استغاثة من شدة؛ لأنها تذكرت شدة الولادة من حيث أنها تتقدمها الأوجاع والخوف من الموت وهي عجوز قليلة التحمل لمشقة مقدمات الوضع، فلذلك قالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ لا يولد لمثله فلم تنجني شيخوخته، ويحتمل أنها خافت عيب السفهاء من الشباب عليهما، ويحتمل الأمرين، وأما قولها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فترتيب بغير عاطف لأنه أمر آخر ترتب على ولادتهما.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ سؤال إنكار لِعَجَبِها من ولادتها وهي عجوز وبعلها شيخ؛ لأنه ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وهو قادر على كل شيء، وهذا لا ينافي العجب والذي ينافي العجب لو تذكرت أنها في محل البركات والرحمة،

فلهذا قالوا لها: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ فليس عجباً أن ينالكم الخير الخارق للعادة بفضل الله الحميد المستحق للحمد المجيد ذي الكرم والجود والعظمة.

قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «المجد: السعة في الكرم والجلال» انتهى، وقال (صاحب الصحاح): «المجد: الكرم، والمجيد: الكريم» انتهى.

قلت: وصفة الكرم تدل على الجود والحلم وغير ذلك، وقد قال القاسم عليه السلام في (تفسير الفاتحة) ما يدل على اتفاق المجد والجود في المعنى، ولعله من حيث اتفاقهما من حيث أن المجد الكرم.

فائدة: قول القاسم عليه السلام: المجد من الجود محمول على اتحادهما في المعنى لا على الإشتقاق الإصطلاحي ولم يقل مشتق منه، فهو كقول إبراهيم عليه السلام: **﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾** [إبراهيم:٣٦] وقول طالوت عليه السلام: **﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾** [البقرة:٢٤٩].

قال (صاحب لسان العرب): «ورجل ماجدٌ مفضال: كثير الخير شريف، والمجيد: فعيل منه للمبالغة» انتهى، وهو أوفق لكلام القاسم عليه السلام فهو أرجح؛ لأن القاسم عليه السلام عربي محقق في العربية، وفي تفسير القرآن وغيره، وقال تعالى: **﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾** [البروج:٢١] فوصف القرآن به لكثرة خيره ونفعه وفوائده، فوصف بالجود كما يوصف به البحر والسحاب، ويقويه قول زهير في (معلقته) إحدى (السبع المعلقات) يمدح هرم بن سنان، والحارث بن عوف؛ لإصلاحهما بين عبس وذبيان القبيلتين بتحمل الديات، بقوله:

ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً ... بمال ومعروف من القول نَسلمِ

فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين في عُلْيا معَدّ هديتما ... ومن يستبح كنزاً من المجد يعظمِ

فجعل الجود والمجد سببا للعِظَم.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ الفزع الذي سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات:٢٨] والبشرى كذلك البشرى بابنه وابن ابنه ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ يجادل الملائكة ﴿فِي﴾ أمرنا بهلاك ﴿قَوۡمِ لُوطٍ﴾ وهو جواب لما جيء به بصيغة المضارع تعجيباً من جداله فيهم.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ لا يعجل على معاقبة المسيء إليه والإنتقام من عدوه ﴿أَوَّٰهٞ﴾ كثير التأوه حزناً إما على ما فاته مما نواه من عمل الخير ولم يدركه؛ لأن المؤمن ينوي كثيراً من الخير ويتلهف على ما فاته كما في الحديث، وإما لفساد عباد الله وطاعة أكثرهم للشيطان، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢] ﴿مُّنِيبٞ﴾ راجع إلى الله في كل أحواله.

﴿٧٦﴾ ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ﴾ أي عن هذا الجدال في قوم لوط أمره الله بتركه سواء أوحاه إليه أو بلغته الملائكة الحاضرون لديه ﴿أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ أمره بعذابهم وإنهم بأمر الله ﴿ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ لا يرده شافع ولا ناصر ولا شيء.

وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا

﴿٧٧﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾ الملائكة المرسلون لتعذيب قوم لوط وهم في صورة البشر كما كانوا عند إبراهيم عليه السلام ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ ساءه وجودهم لديه؛ لأنه ظنهم أضيافاً من البشر ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ قلّ احتماله لهذه المصيبة ولم يجد نفسه تطيقها؛ لأنه يتوقع هجوم قومه عليهم وهو لا يستطيع حمايتهم ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد ذو شر تصعب مدافعه.

﴿٧٨﴾ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ جاءوا ليواجهوه بالإساءة ورفض احترامه في أضيافه ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون كأنهم يساقون بعنف أو يسوقهم الشيطان ويهرعهم أي يسوقهم بشدة.

قال في (الصحاح): «وجاءه قومه يهرعون إليه ، قال أبو عبيدة: يستحثُّون إليه، كأنه يحث بعضهم بعضاً» انتهى.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي من قبل مجيئهم إلى نبيهم وأضيافه ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المعاصي القبيحة معتادين لها مستمرين عليها فلا يتبادر إلى ذهن نبيهم حين جاءوا، إلا أنهم أرادوا عمل الفاحشة، وهذه سيئة منهم مع سيئاتهم من حيث ساءوا نبيهم، ومن حيث هموا بالفاحشة فقد بلغت الشدة على نبيهم أقصاها؛ لأنه خبير بقومه وعنادهم وخبثهم.

لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ليس عرضاً لبناته لعمل الفاحشة بهن حاشاه ولكنه إيهام يكشف لهم عن غاية اهتمامه بدفعهم عن أضيافه وشدة غمه وألمه وهمه لعلهم يراعون حاله وقد استعطفهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وبإيهام عرض بناته عليهم وقاية لأضيافه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ بعمل الفاحشة بأضيافي، فقوله: ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾ أي بذلك ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ فيعينني وينصحكم لتتركوا ما قد هممتم به.

﴿٧٩﴾ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فكيف نرضى بهن وقاية لأضيافك، وهذا بناء على توهمهم أن قد عرضهن عليهم وهو يعرف منهم أنهم لا يريدونهن؛ لأنهم يتركون نساءهم من أجل شبقهم على اللواط لا لأنهم يتحرجون من الحرام، وقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ إيهام لتورعهم من الحرام ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنك لتعلم أنا نريد أضيافك فلا تغالطنا بعرض بناتك.

﴿٨٠﴾ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿قَالَ﴾ نبيهم تنبيهاً لهم على عظم المصيبة في نفسه يستعطفهم ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ ليت لي بكم طاقة أي ليتني أطيق دفعكم، كقول أصحاب طالوت: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] أي لا نطيق دفعهم عنا وغلبتهم ﴿أَوْ ءَاوِيَ﴾ أي أنظم ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ﴾ قوي ﴿شَدِيدٍ﴾ يعينني وينصرني ويكون لي قوة كالحديث الشريف «سلام الله عليك أبا الريحانتين فعن قليل ينهدّ

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا

ركناك» أو كما قال، وأصله من ركن البناء لأنه قوة للبناء فيجعل قوياً ليقوى به البناء ولذلك رشحه في الحديث بقوله ﷺ «..ينهدّ..».

قال في (الصحاح): «وركنُ الشيء: جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد: أي عِزٍّ ومَنَعَة» انتهى.

وفي الآية: ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي ركن قوي يصعب عليكم دفعه، فالركن يفيد القوة ووصفه بالقوة يفيد قوة إلى قوة، وهذا يدل على التحسر من ضعف الحال في حال شدة الحاجة إلى القوة، وإذا بلغت النوائب حدَّها زالت.

﴿٨١﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة المرسلون لتعذيبهم ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة الذين أرسلهم ربك وهذا يشعر بأنه متوقع لنزول العذاب بقومه فالرسل بالعذاب أمر معهود في نفسه ﴿لَن يَصِلُوٓاْ﴾ أي قومك ﴿إِلَيْكَ﴾ لا بضر ولا بإخزاء ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أمروه بما هو من الإعداد لنزول العذاب على قرية قوم لوط ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أخرجهم من القرية في الليل ﴿بِقِطْعٍ﴾. قال الراغب: «﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بقطعةٍ» انتهى، أي بقية من الليل أي بسَحَر.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لا ينظر إلى ما وراءه ولا يميناً ولا شمالاً بل كل واحد يقبل بوجهه إلى أمامه سارياً، لعل ذلك ليسرعوا السير ولا يصيب أحدهم نكبه بسبب الإلتفاف ـ والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال القاسم بن ابراهيم عليه السلام: معنى ﴿لَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لا يتأنى ولا يتراخى» انتهى.

جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ استثناء من المجرور أي لا تسر بها دعها نائمة أو عازمة على ترك الخروج أو موافقة على البقاء ولو كرهاً ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ نفس العذاب الذي أصابهم أي قومه، فلا بد أن الحاصب أدركها وقتلها بالأحجار.

﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ أي وقت هلاكهم الموعود به ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ وهذا يناسب ضيق صدره منهم فهو يحب تعجيل عذابهم كلهم، وتعجيل هلاكهم كلهم فكأنه استبطأ الصبح فقيل له: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾؟!

﴿٨٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا﴾ أي القرية ﴿سَافِلَهَا﴾ والأقرب عندي أن الرجفة أسقطت أعالي المباني؛ لقوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ**﴾ [الحجر:٧٣-٧٤] ولذلك بقيت آثارها، كما يفيده قول الله تعالى: ﴿**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] وهذا يفيد: بقاء آثار القرية ليعتبروا بهم إذا مروا بها وذكروهم.

وقوله تعالى في (سورة الحجر): ﴿**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ..**﴾ [الحجر:٧٤] يفيد: أخذهم بالحجارة، مع أخذهم بالصيحة، ولعل معنى الأخذ بالصيحة: سيطرتها عليهم، وحبسهم بشدتها أي بشدة رجفتها؛ لأنها إذا اشتدت الرجفة أزالت العقل.

ويدل على أخذهم بالحجارة أي قتلهم، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٢-٣٣] فعذابهم ثلاثة أصناف: طمس الأعين، والصيحة، والحجارة، فما يروى أن جبريل عليه السلام أخذ قراهم، قالوا: وهي سبع بجناحه، وقلبها مشكل فالله أعلم بصحته، والمذكور في القرآن الكريم قرية، ولو كانت سبعاً لكان من شأنها أن تذكر في القرآن لزيادة العبرة فيها، وهي تذكر ليعتبر بها الكافرون.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ ﴿عَلَيْهَا﴾ لما عم العذاب القرية ولم يخص الأفراد ناسب إسناده إليها جملة، وقد أسند إليهم في غير هذا الموضع ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ حجارة أصلها طين مستحجر، والأقرب أن معنى ﴿سِجِّيلٍ﴾ أنها ذات خطوط امتازت بها عن بقية الأحجار.

وقوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أجزاء الحجر منضودة ليس فيه تخلخل ولا له تجويف بل أجزاءه مرصوصة صلب ثقيل الوزن، قال في (لسان العرب): «ونضد الشي: جعل بعضه على بعض متسقاً أو بعضه على بعض» انتهى.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ (٨٣) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ ذات علامات فيها، والسمة العلامة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ جعل هو تلك السمات لتدل على معناها عند ربك، ولعله جعلها للملائكة الذين أرسلوا بها تدل على أنها جعلت لعذابهم وعلى الملائكة أن يحصبوهم بها بعينها تعبداً لهم، ويحتمل أن كل حجر كتبت لشخص تصيبه وجعل للملائكة عليهم السلام فهم معنى سِمَتها.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وما تلك الحجارة ﴿بِبَعِيدٍ﴾ من الظالمين أي المجرمين الذين كذبوا رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم ظالمون مستحقون لها بظلمهم فليس إرسالها عليهم ببعيد في قدرة الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ

﴿٨٤﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى مدين، قال الشرفي ﷺ في (المصابيح): «اعلم أن مدين اسم ابنٍ لإبراهيم صار اسماً للقبيلة، قال في (البرهان): لأنهم بنو مدين بن إبراهيم فقيل: مدين، والمراد: بنو مدين، كما يقال: مضر، والمراد بنو مضر» انتهى دعاهم إلى عبادة الله وحده كما دعا من قبله قومهم.

﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ نهاهم عن الخيانة في الكيل والوزن عند البيع أو نحوه مما ينقص ماهو مستحق على صاحب المكيال والميزان ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ في نعمة ورخاء ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ لكفركم نعمة الله وتعرضكم لنقمته ﴿يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ يعمكم بعذابه ولا ينجو منه أحد منكم، والأقرب: أنه يحذرهم عذاباً عاجلاً يؤديهم إلى عذاب الآخرة.

﴿٨٥﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ ﴿أَوْفُوا۟﴾ تأكيد للنهي عن النقص بحيث لايكفي عدم تحقق النقص بل لا بدَّ من تحقق الوفاء بالقسط بالعدل والحق.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟﴾ ولا تنقصوا ﴿ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ المستحقة لهم، والنقص يكون نقص العين ونقص الصفة.

ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ

ومثال نقص الصفة: تعويض (ألف) من العملة اليمنية كان في ذمته قبل هبوط سعر تلك العملة بـ(ألف) بعد هبوط العملة إلى مستوى متدنٍّ جداً، ومن أمثلته: إعطاء الرديء بدلاً عن الجيد في وعاء مختوم أو وجهه من الجيد وأسفله من الرديء، ومن أمثلته ذم سلعة الغير لئلا تشترى مثلاً أو بنته لئلا تتزوج، وله أمثلة كثيرة، وقد يخلط الشيء بما يمحقه فيكون من نقص العين ونقص الصفة معاً، مثل مزج اللبن بماء ضار فيه سبب البلهارسيا أو نحوه، كأن يودِع رجل لبناً خالصاً فيسرق الوديع بعضه ويبدله بالماء المذكور، فيجمع بين معصيتين وخيانتين.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا تفسدوا في الأرض أشد الفساد ﴿مُفْسِدِينَ﴾ مسببين لانتشار الفساد أو ثباته، فالفساد الأشد ما يباشرونه كوقوفهم على الطرق لمنع من يريد الإسلام وإيعاده وصدهم عن سبيل الله فهو فساد يفسدون به لمنعهم من انتشار دعوة النبي ﷺ وظهور دينه، فقد أجملت هذه الجملة ما فصّله قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٦] ـ والله أعلم.

﴿٨٦﴾ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ إبقاؤه لكم ولنعمتكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تأخذون من الحرام بالبخس والنقص في الكيل والوزن؛ لأنكم قد تعرضتكم لسخط الله وأخذه وسلبه لنعمتكم.

أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم: معناه [كذا] بقيةُ الله خير، أي بقيته وسلامته لكم خير من إهلاكه وتدميره عليكم، قال الشاعر:

قال البَقِيَّةَ يا قيساً فقلت له ... اصبِر حذيفُ فأنت السيِّد الصَّمَدُ

أي قال: استبقني بقاء ولا تهلكني» انتهى.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بما قلت لكم وبرسالتي إليكم فإنكم حينئذ تعلمون ذلك، ونظيره: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١] أو إن كنتم مؤمنين فبقية الله خير لكم، أي إن بقية الله تكون لكم إن كنتم مؤمنين، فهي في حال الإيمان خير لكم مما تجمعون من الحرام، ومؤدَّى المعنيين واحد؛ لأنه إما أن يكون الإيمان شرطاً في علمهم بأن البقية خير، فإذا آمنوا فقد علموا أو إذا علموا تركوا الحرام وهم مؤمنون، وإما أن يكون الإيمان شرطاً في بقية الله التي هي خير فليؤمنوا لتكون لهم البقية، فمؤدى الكلام الدعوة إلى الإيمان على كلا المعنين؛ لأن الإيمان شرط في البقية، وشرط في العلم بأنها خير.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ ليس عليَّ حفظكم من سبب هلاككم، ما علي إلا الإنذار وهذا يؤكد تفسير البقية بالسلامة من الهلاك.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ كفروا برسالة شعيب وبدينه وتهمكوا بصلاته لله وحده، وزعموا أنه لا داعي لما يأمرهم به من ترك الشرك ونقص المكيال والميزان؛ لأنهم قالوا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ﴾ فكأنهم قالوا: لا موجب لذلك فهل صلواتك تأمرك وهم لا يرون أنها

إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن

تأمره حقيقة ولا مجازاً إنما أرادوا التهكم بها؛ لأنهم مشركون لا يرون لصلاته فائدة ولا يرون فيها ارتباطاً بينها وبين أمرهم بالترك للشرك والنقص في المكيال والميزان بل هم يجحدون ذلك، فلذلك سألوه سؤال إنكار وعيب منهم عليه، فإسناد الأمر إليها تهكم بها وبه مستندين في ذلك إلى أنهم على دين آبائهم، وإلى أن لهم الحرية في التصرف في أموالهم يتصرفون فيها كيف شاءوا من تطفيف أو غيره بزعمهم.

فقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ الراجح فيه أنه تهكم وأنهم يعنون سفيه غاو، ولو قالوا قد كنت حليماً رشيداً فكيف تأمر بذلك لناسب حمله على الحقيقة، وكذلك لو قالوا أتأمرنا بذلك وأنت الحليم الرشيد لساغ ذلك أيضاً فأما على هذا السياق، فإنما قولهم ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قرار بنوه على قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ فهو تهكم مبني على تهكم وتسفيه له، كما قالت عاد: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف:٦٦] وقال قوم نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف:٦٠] فقد جمعوا بين إنكارهم للحق، وبين التهكم به، ولكن مهمة الرسول بيان الحق وتبليغ الحجة، وليست مهمته الرد على التهكم إلا ببيان أنه على الحق.

﴿٨٨﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ على حجة بينة تدل على أنه أرسلني إليكم وعلى صدق ما بلغتكم من إبطال الشرك والتطفيف وغير ذلك فهل رأيتم إن كنت هكذا وأنتم تجحدون ذلك وتتهكمون به فما تكون عاقبتكم وقد أمعنتم في الكفر وتمردتم، وهذا لفت لأنظارهم إلى التفكير فيما جاء به من الآيات والنظر الصحيح، ليتخلصوا من الخطر الذي ينذرهم.

يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى

﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي رزقني ربي رزقاً حلالاً قنعت به وكفاني ولم يشغلني عن عبادة ربي، فلا أحتاج إلى أن أحتال لأجر منكم على ما جئت به أو أن أسألكم معونة عليه، فأنتم لا تخشون مغرماً أكلفكم ولا داعي لي إليه؛ لأن رزقي يكفيني فلا أدعوكم إلى طاعتي توصلاً إلى مال.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ ما أريد الفساد الذي أنهى عنه، فمن العيب على من ينهى عن الأمر المنكر أن يخالف بارتكاب ما ينهى عنه.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ بدعوتي لكم إلى عبادة الله وحده وترك الشرك والتطفيف ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ إلا إصلاحكم، وإصلاح معاملتكم، وإصلاح مجتمعكم ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ما دمت أستطيع الإصلاح وبقدر ما أستطيع.

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما توفيق الله لي إلا بالله، فهو الموفق للصواب وهو مسبب التوفيق بتهيئته للتوفيق، بتحصيل أسبابه، وصرف موانعه، وبهدايتي لأسبابه التي هي من فعلي. قال الشرفي ـ رحمه الله ـ: «والمعنى: أنه طلب ربه التوفيق وفي ضمنه تهديد للكفار» انتهى.

قلت: هو يفيد اللجوء إلى الله فيفيد الطلب، وأما التهديد فلعله في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وحده فأنا أمضي في تبليغي لرسالته والدعوة إليه وإبلاغ حجته لتوكلي عليه فهو تهديد باستمراره على عمله، ولعل هذا مراد الشرفي رحمه الله، حيث قال في ضمنه تهديد للكفار ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع إليه وحده وأقبل على طاعته وحده.

﴿٨٩﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ خطاب يعبر

رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ

عن عاطفته عليهم ليحذرهم أن يصيبهم عذاب مثل عذاب إحدى الأمم الماضية قبلهم الذين شاقّوا وعادَوا رسل الله إليهم فأنزل بهم العذاب، والمراد بقوله ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملكم بسبب الجريمة ﴿شِقَاقِيٓ﴾ أي شقاقكم لي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ عذاب ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ أو من بعدهم.

وأصل معنى ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم مِن جَرَم بمعنى كَسب أي لا يكسب لكم شقاقي عذاباً من الله مثل ما أصاب قوم نوح ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي أو قوم لوط، فهم هلكوا في زمن قريب منكم مع أنهم في مكان قريب من قوم شعيب أيضاً مع قرب الزمان المعلوم عندهم قد علمتم ما أصابهم ولم تنسوه فاعتبروا بمن قبلكم لتسلموا من عذاب الله.

﴿٩٠﴾ ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي احذروا شقاقكم لي ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ المالك لكم المستحق لأن تعبدوه وحده ليغفر لكم ما قدمتم من شرك وغيره ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ثم ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة ليرحمكم ويحبكم ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ الذي هو ربكم ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي لمن استغفره وتاب إليه، وقد مرّ معنى العطف بـ(ثم).

قال بعض المفسرين: «وكان حق الكلام أن يقول في تعليله إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلاً ثناء على الله سبحانه وقد أثبت سابقاً أنه رب القوم أضافه ثانياً ليفيد الكلام بمجموعه معنى إن ربكم وربي رحيم ودود» انتهى المراد.

قلت: ومن فائدة ذلك تحقيق أنه عنى بقوله: ﴿رَبَّكُمْ﴾ الله تعالى الذي هو ربهم لا رب لهم سواه وإن كانوا قد جعلوا غيره شريكاً في الربوبية.

﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (٩١) قابلوا عطفه عليهم بالجفاء، وقولهم: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ تعبير عن إعراضهم عن كلامه والإستخفاف به، ومعنى ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهم لغموض معنى كلامك وتركنا لتفهّمه فلا نجيب عما لم نفهم، وقولهم ﴿كَثِيرًا﴾ يدل على أنه قد أطال في الإحتجاج عليهم والإنذار وبيان طريق نجاتهم لو استعملوا عقولهم وتركوا الكبر والتعصب لآبائهم ودين آبائهم.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أرادوا به أنهم قادرون على رجمه، وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي لولا قرابتك وإن كان الرهط يستعمل في القوم والقبيلة فهو يستعمل في القرابة كما في (لسان العرب) قال: «قال أبو منضور: وإذا قيل: بنو فلان رهط فلان، فهو ذو قرابته الأدنون» انتهى.

وهو واضح في الآية؛ لأن قوم شعيب قالوا له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ﴾ ولا يصح أن يكون معناه: ولولا قومك أو قبيلتك؛ لأنهم قومه وقبيلته فما بقي إلا أن المراد: ولولا قرابتك.

وقولهم: ﴿لَرَجَمْنَـٰكَ﴾ أي بالحجارة أو نحوها كناية عن قتله ليستريحوا من مطالبته لهم بالرجوع إلى الله، وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي لو قتلناك ما اعتبرنا هلاكك خسارة علينا ولا بالينا به؛ لأنك غير كريم علينا، قال في (الصحاح): «وعززت عليه ـ أيضاً ـ كرمت عليه» انتهى، ومثله في (لسان العرب).

أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ

﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ﴾ أي شعيب ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنكر عليهم قولهم: ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ لأن معناه: أنه لا يمنعنا من رجمك إلاَّ كرم قرابتك علينا، ومعنى هذا أنهم لا يبالون بمعصية الله العظمى التي هي قتل نبي الله من حيث هي معصية لله، ولكن من حيث هي تسوء قرابته فكان معناه: إن قرابته أعز عليهم من الله.

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ واتخذتم الله ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ جعلتموه منسياً لا تقبلون إليه ولا تلتفتون إليه بل اتخذتموه متروكاً، وحقق هذا المعنى بقوله: ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ وفي قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أنهم جعلوا ذلك طريقة لهم ومذهباً كما عليه كفار العصر الذين يقولون: إن القرآن حجر عثرة في طريق التقدم وجعلوا ذلك أساساً للإعراض عن الإسلام.

والحاصل: أنهم جعلوا الإعراض عنه وترك طاعته أصلاً يبنون عليه سلوكهم، فقوله ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٠١].

وقوله: ﴿ظِهْرِيًّا﴾ نسبة إلى الظَّهر وكسر الظاء من تغييرات النسب، وفائدة النسبة كفائدة الإتخاذ تفيد لزومه للوراء تعبيراً عن نسيانه، قال في (الصحاح): «والظِّهْرِيُّ ـ أيضاً ـ الذي تجعله بظَهْر أي تنساه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾» انتهى، ومثله قال الراغب الأصفهاني في تفسيره لـ(مفردات القرآن).

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لم يفت علمه شيء منه ولا يفوته أي فهو يجازيكم عليه.

تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾

﴿٩٣﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ قد مرَّ تفسيره في تفسير (سورة الأنعام) ويأتي قريباً في أواخر هذه السورة، وهو جار مجرى التهديد، ولذا رتب عليه قوله: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾.

وقوله: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ أي انتظروا، وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ قال في (الصحاح): «والرقيب: المنتظر» انتهى، وهو في هذا السياق مستقيم فهو الراجح، والمراد: انتظار عاقبة عمله وعاقبة عملهم.

وقوله: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ منكم أو مني يخزيه أي يهينه ويفضحه، وقوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ أي منكم أو مني.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي عذابنا الذي أمرنا به، إما بأمره تعالى للملائكة، وإما ﴿أَمۡرُنَا﴾ كناية عن العذاب لوجوده بأمره تعالى، أي قوله: ﴿كُن﴾ وهو تمثيل لسرعة وجوده بدون أي كلفة ﴿نَجَّيۡنَا﴾ من العذاب ﴿شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ برحمة خاصة من الله خصهم بها فنجاهم بها من العذاب، ولعلها السبب الذي جعله الله لنجاتهم كأمرهم بالخروج من البلد كما أمر لوطاً.

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ إما عبارة عن العذاب النازل المهلك كائناً ما كان، وإما صيحة

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ

حقيقية رجفت بها أرضهم رجفة عنيفة سريعة أهلكتهم، وفي (سورة الأعراف) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف:٧٨] وهو مرجع للمعنى الثاني مع كونه الحقيقة.

قال الشرفي في (المصابيح): «وإنما ذكر الصيحة بالألف واللام إشارة إلى المعهود السابق، وهو صيحة جبريل عليه السلام» انتهى. قلت: لعله يعني بالسابق صيحة ثمود؛ لأنه ذكر أن الله عذبهم بمثل عذاب ثمود.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ أي لا يتحركون في الصباح كما كانوا يتحركون لحاجاتهم وأغراضهم بل هم في ذلك الوقت جثث هامدة، قال الشرفي: «الجاثم: اللازم لمكانه الذي لا يبرح ولا يتحول» انتهى، ومثله في (لسان العرب) ولعله خاص بلزوم المكان على الصدر أو الركب، أي المعنى الحقيقي ـ والله أعلم، وقد حكى نحو هذا عن بعضهم (صاحب لسان العرب) فهو قريب من معنى جثى.

﴿٩٥﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ قال في (الصحاح): «غَنِيَ بالمكان: أي أقام وغنِي أي عاش» انتهى، وقال الراغب: وغَنِيَ في مكان كذا: إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره بغِنَىً، قال: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ وهو قريب من قول (صاحب الصحاح) عاش، وهو تحقيق لهلاكهم وهلاك ما كان معهم كما قدمت.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أصله دعاء بالهلاك، وهو تعبير عن الغضب عليهم، قال الشرفي في (المصابيح): «البُعْد: بمعنى البَعَد، وهو الهلاك، كالرُّشد بمعنى الرشَد» انتهى.

فِرۡعَوۡنَ ۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

ثم أفاد: أن البعد بمعنى الهلاك أصله البَعْدُ، إلا أن المراد به البُعْد الحاصل بالهلاك لا بعد المسافة أو الزمان فجعلوا ما كان بمعنى الهلاك في بَعِدَ في الماضي ليمتاز عن بعد المسافة.

قلت: ومضارعة يَبْعَدُ ـ بفتح العين ـ ونظير ما في الآية الكريمة قول الشاعر:

يقولون لا تبعَد وهم يدفنونني ... وأين مكان البعد إلا مكانيا

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ تحقيق وتأكيد للمعنى.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي التسع الآيات ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ قوة وهيبة، كما قال تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بيِّن واضح فقد هابهما فرعون حتى بلَّغا رسالة ربهما وأقاما حجته على فرعون وملائه بتسليط الله لهما بهذا الشأن.

﴿٩٧﴾ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ ۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي أرسلناه إلى فرعون ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وملؤه كبراء قومه المتولون لإعانته كالوزراء ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ أي ملأه ﴿أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ ولم يلتفتوا إلى ما جاءهم به موسى من الآيات والإبلاغ الكامل وقيام الحجة على فرعون وعليهم ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ نفي مؤكد بـ(ما) و(الباء) وكأنه ردّ لقوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:٧٩] وهو ـ أيضاً ـ تمهيد لقوله تعالى:

بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ

﴿٩٨﴾ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ وقد قام هذا البيان مقام أن يقال: بل أمر فرعون في أقصى الغواية؛ لأنه كان سبباً في وروده النار وورود أتباعه معه وهو أوردهم النار بأمره الذي أطاعوه ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ الذي وردوه ليس فيه ريّ من ظمأ ولا برد من التهاب إنما هو عذاب النار.

قال الراغب في (تفسيره): «الورود: أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره، ثم قال: والماء مورود، وقد أوردتُ الإبلَ الماءَ ـ ثم قال ـ: والورد الماء المرَشَّح للورود..» إلخ. ونحوه في (لسان العرب) فالورد في الآية هذه النار، ويشهد لَه قوله تعالى: ﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ فدل على: أن الورد هنا بمعنى: اسم المفعول، فهو النار التي يردونها.

﴿٩٩﴾ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في هذه الدار التي تتعاقب فيها الأجيال ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يلعنهم من بعدهم في هذه، ويلعنهم الله ويوم القيامة يُلعنون اللعنة الكبرى.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ الرفد: العطا والمعونة في الأصل، واستعماله في اللعنة تهكم بهم، وقوله: ﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾ إما بمعنى أن الرِّفد نفسه مرفود؛ لأنها لعنة متواصلة يمد بعضها بعضاً، وإما بمعنى بئس الرفد الذي رفدناهم ومرجع المعنين واحد.

﴿١٠٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من قصة رسول الله نوح وهلاك قومه وقصة من بعده من رسل الله وهلاك قومهم، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ كناية عن أهلها الذين دمرهم الله ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ أي نقص ذلك النبأ، أي نقصه نحن فهو الحق.

ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ

﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾ من القرى قائم أي بقايا بناء المساكن ﴿وَحَصِيدٞ﴾ قد سقط وتهدم شبههم بالزرع الحصيد لما كان هلاكهم جَماعِيّاً، وقد عاد الضمير إلى بقايا جدران مساكنهم لما فيها من العبرة لمن مَرَّ عليها وراءها وهو يرجح أن القرى كناية عن أهلها، والكناية استعمال الكلمة في معناها الحقيقي لإفادة لازِمه، فعاد الضمير إلى المعنى الحقيقي لبقائه.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ وهذا من أوضح الأدلة القرآنية الدالة على إبطال قول المجبرة كما قدمت في نظير هذه الآية من (سورة التوبة).

﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ﴾ ما دفعت عنهم ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ من عذاب الله لا قليلاً ولا كثيراً، وذهب دعاؤهم لها ضائعاً باطلاً.

﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ لأنه الغالب على أمره، فلا دافع لأمره ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ ومازادهم شركاؤهم ﴿غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ خيبة وخسار؛ لأنهم كانوا سبباً في عذابهم وهو مجاز، كقوله تعالى حاكياً: ﴿أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦].

﴿١٠٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ كذلك أي كأخذ قوم نوح، فالأمم المذكورة بعدهم ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ لمن يأخذه، وبطشه بمن بطش به في هذه الدنيا، فليحذر الكافرون بك أن يأخذهم ذلك الأخذ ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ﴾ سبحانه ﴿أَلِيمٞ﴾ مؤلم ﴿شَدِيدٌ﴾ قوي ليس فيه إبقاء ولا رحمة.

يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ

﴿١٠٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي أخذه في العاجلة آية لمن يظن أن الله لا يجازي المجرمين، وذلك ظن كثير من الذين كفروا، وقوله تعالى: ﴿لِّمَنْ خَافَ﴾ أي أنهم الذي ينتفعون ويعتبرون بعذاب الأمم الخالية؛ لأن الخوف من عذاب الآخرة يبعثهم على النظر الصحيح.

فإن قيل: فما فائدة النظر إذا كانوا قد آمنوا بالآخرة؟

قلنا: إن الخوف يحصل للعاقل سليم الفطرة بمجرد الإنذار بعذاب الآخرة فيبعثه الخوف على النظر في الآيات ويعتبر بالأمم الخالية المعذبة فيعرف أن الله يعاقب المجرمين لم يهملهم ليفعلوا ما شاؤا وهو لا يجزيهم، ولو كان مهملاً لهم لما عذب القرون الخالية.

وفي قوله تعالى: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ انتقال من ذكر عذاب الدنيا إلى ذكر الآخرة وما يكون فيها فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الآخرة، وتذكير الإشارة باعتبار المعنى؛ لأنه قابل للتذكير والتأنيث ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ واليوم هنا بمعنى الحادث العظيم كما يقال: يوم الجمل، ويوم صفين، وإن كان وقته أطول من يوم واحد، فهو كناية عن حوادث يوم الحساب وأهواله.

قال في (لسان العرب): «وقال شمر: جاءت الأيام، بمعنى الوقائع والنعَم، وقال: إنما خصُّوا الأيام دون ذكر الليالي في الوقائع لأن حروبهم كانت نهاراً، وإن كانت ليلاً ذكروها، كقوله:

ليلة العرقرب حتى غامرت جعفر يُدعَى ورهط ابن شكل»

انتهى المراد.

﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ

وفي قصيدة عمرو بن كلثوم، وهي إحدى (المعلقات السبع):

وأيام لنا غُرٌّ طوالٍ عَصَينا الملك فيها أن نُدينا

قال شارحها: «الأيام الوقائع الغر، بمعنى المشاهير، كالخيل الغر لا شتهارها فيما بين الخيل» انتهى، وقال في شرحها ـ أيضاً ـ «نخبركِ بوقائع لنا مشاهير، كالغر من الخيل» انتهى.

ويؤكد هذا المعنى في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ فهذا اليوم بمعنى الزمان، ولا يظهر أن يكون المعنى يوم يأتي يوم بمعنى الزمان وهو ظاهر إذا كان بمعنى يوم يأتي ذلك الحدث العظيم، ويؤكده ـ أيضاً ـ أن الناس يجمعون لما في اليوم من الحساب والجزاء ونحو ذلك.

ومعنى ﴿مَّشْهُودٌ﴾ يشهده الناس كلهم والجن والشياطين والملائكة وكل من يمكن منه أن يشهده، أي يشهد ذلك الحدث العظيم والخطب الكبير الذي هو البعث بعد الموت وما يكون معه من الأهوال.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ ﴿لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ لمدة محدودة لا يتأخر عنها ولا يتقدم قبل انتهاء الأجل، فالأجل هنا بمعنى المهلة التي منها هذه الحيوة الدنيا أو هي الحيوة الدنيا، والراجح: أن اللام في قوله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ﴾ هي (لام) التعليل أي لأجل أجل معدود قد جعلناه أجلاً وسبقت كلمتنا به فلا يأتي مادام ذلك الأجل.

﴿١٠٥﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ اليوم المجموع له الناس ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فليس لها في

﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا

الآخرة من الإختيار كما لها في الدنيا فجدالها عن نفسها إنما هو بإذنه، وشفاعةُ من يشفع إنما هي بإذنه ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ الناس قسمان: شقي، وسعيد، يوم يأتي ذلك اليوم.

﴿١٠٦﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ في ذلك اليوم بما قدموا من جرائمهم فلأجلها شقوا في الآخرة، فهم في النار ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وهو صوت يصحب خروج النَّفس ﴿وَشَهِيقٌ﴾ صوت يصحب جذب النَّفَس، أو الزفير عند جذب النَّفَس والشهيق الصوت مع إخراج النَّفَس اختلِف في ذلك، وحاصلة: أن لهم أصواتاً كنهيق الحمير، وقيل: الزفير من أنينهم، والشهيق صوت رفيع جداً، وقيل غير ذلك.

وقد اتفقت الأقوال: أن الزفير والشهيق أصوات أهل النار من ألم العذاب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا..﴾ الآية [فاطر:٣٧] فدل على أصوات مختلفة، وقال: ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧].

﴿١٠٧﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ باقين فيها لا يموتون كما هو شأن الحيوة الدنيا أن تذهب لشدة العذاب، وقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ تعبير عن طول المدة واستمرارها ودوامها، كقول الشاعر:

لن تزالــوا كذلكـم ثم لا زِلــ ـــتُ لكـم خالداً خلود الجبال

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام: هي سموات الآخرة وأرضها، وليست سموات هذه الدنيا ولا أرضها التي هي زائلة فانية.

وأما ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فهو إخبار عن قدرة الله على إفنائها إن شاء، وذلك فهو كذلك إذ كان هو الذي خلق وأنشأ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يبقي شيئاً بتخليده وإبقائه، إلا من يقدر على أن يفنيه فلم يشأ سبحانه إفناءه ولكن يشاء تخليده وإبقاءه، وأخبر بقدرته إن شاء على الإفناء كما قدر على الإبقاء، وأن أهل الجنة بإبقائه لهم فيها باقون خالدين [كذا] فيها أبداً لا يفنون كما لا تفنى أرضهم فيها ولا سماؤهم» انتهى.

قال الشرفي: «ومثل هذا ذكر المرتضى عليه السلام، قال الفراء، والزجاج: إن هذا الإستثناء هو مثل قولك: أريد أن أفعل، إلا أن أشاء غيره وأنت مقيم على ذلك الفعل، والمعنى لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ولكنه أعلمهم أنهم خالدون فهو لا يخرجهم» انتهى.

قلت: قوله إلا أن أشاء يفيد أنه جعل (ما) مصدرية غير مدِّيَّة بل بمعنى (أن) المصدرية، وهو محتمل، وإذا كانت مدِّيَّة فهو يصح الإستثناء من قوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ لأول يوم يأتي فالمدة المستثناة هي مدة خروجهم من القبور وسوقهم إلى موضع الحساب ووقوفهم للسؤال والعرض على الله صفاً وحسابهم.

وقد قال تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج:٤] وإذا لم يكن هذا المقدار إلا مقدار خمسين يوماً فهو يستحق الإستثناء ويبيِّن أن أهل النار لم يكونوا فيها من أول يوم يأتي وكذلك أهل الجنة لم يكونوا فيها من أول اليوم، وكان مقتضى السياق لولا الإستثناء أن يكون أهل النار فيها من أول يوم يأتي وأهل الجنة فيها من أول يوم يأتي، واستثناء أول المدة صحيح كما يصح استثناء وسطها وآخرها.

وعلى هذا: فأقل أحوالها أن تكون من المتشابه؛ لإجمال المدة المستثناة، والمجمل لا يعارض المبيّن، والمتشابه لا يعارض المحكم، وقد قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ..﴾ [الزمر:١٧-١٨] وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٥] وقال في (التوراة): ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] ولا إشكان أن المحكم والمبين أحسن من المتشابه والمجمل وإن كان القرآن حسناً كله.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع فهو بخلاف عطاء الدنيا فهو ينقطع، فالعنب والتين ونحوهما تثمر في بعض السنة ثم تنقطع، والشباب ينقطع، والقوة والصحة تنقطع، والحياة تنقطع.

فإن قيل: ما الفارق بين آية الأشقياء وآية السعداء، حيث قال تعالى في آخر الأولى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ وقال تعالى في آخر آية أهل الجنة ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؟

فالجواب: أن المشركين يقولون فيمن يعبدونهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] فرد الله عليهم، وبيّن أنه لا يتدخل أحد يومئذ لتحويل حكم الله على أعدائه، فكرر في القرآن ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠] ونحوها، وكرر نفي الشفاعة أو نفي نفعها، وكرر أنه تعالى ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ هنا، وفي (سورة البروج): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [آية:١٢-١٦] وفي (سورة الحج): ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آية:١٨] وقال تعالى في (سورة المعارج): ﴿..بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [آية:١-٢] وفي (سورة الطور): ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [آية:٧-٨] فأما السعادة فليس في أوهام المشركين أن شركاءهم تدفعها أو تشفع لهم في فواتها.

يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ

وأما قوله تعالى في الجنة: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ فهو ترغيب فيها ليرجحها العاقل على الدنيا، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا..﴾ [الرعد:٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣] فجاء في كل واحد من السياقين ما يناسبه.

فأما قول بعض المخالفين: إن قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ يفهم منه أن العذاب مجذوذ؟

فالجواب: أنه لا وجه لهذه الدعوى وليس هذا محل مفهوم من المفاهيم التي ذكرها أهل الأصول، ويلزمهم في فاكهة السابقين أن يفهموا انقطاعها، لأن الله تعالى قال في فاكهة أصحاب اليمين: ﴿لاَ مَقْطُوعَةٍ﴾ ولم يقل ذلك في فاكهة السابقين.

﴿١٠٩﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾ في شك وتردد من أصنام المشركين أو من شركهم أي لا تتردد في بطلانه، وتفريع هذا على ما مر في السورة من إرسال الرسل المذكورين إلى قومهم وأمرهم لهم بعبادة الله وتدميرهم لإصرارهم على الشرك وتكذيبهم لرسلهم، فذلك يدل على أن دين الله في الأولين والآخرين هو عبادة الله وحده واجتناب الشرك وأن الشرك باطل.

أما قوله تعالى: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ﴾ فهو يبين أنه لا برهان لهم يعتمدونه، ولا وحي من الله يتبعونه وإنما هؤلاء المشركون مقلدون لآبائهم في باطلهم.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ يناسب ذكر اتباعهم لهم واقتدائهم بهم، ويبين أن قوله: ﴿يَعْبُدُ﴾ المراد به في الماضي وإن كان بلفظ المضارع ولعل سببه أن هؤلاء المشركين يستحضرون عبادة آبائهم لشركائهم في أذهانهم فيتبعونهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي إنا سنوفي هؤلاء وآباءهم نصيبهم من العذاب ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ مما يستحقون بل كامل موفور وفي لفظ النصيب ولفظ منقوص تهكم بهم، مثل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

﴿١١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ الخلاف فيه إما بين أهل الكتاب وغيرهم من أهل الديانات القديمة وإما بين أهل الكتاب أنفسهم في بعض تفاصيله بسبب ما يحدث من بعضهم من كتابة ما ليس منه ودعوى أنه منه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧٨] أو بسبب الخلاف في أنواع الكلام منه كما اختلف في الأمر مثلاً هل هو للوجوب، وفي ألفاظ العموم، وفي دلالة بعض الكلام على بعض الأحكام توصلاً إلى الخلاف في الدين لأغراض سياسية.

وعلى الأول يكون قوله تعالى: ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ حيث اختلف الناس في القرآن فمنهم من آمن ومنهم من كفر كما اختلفوا في التوراة من قبل، فأما الثاني فهو خاص بأهل الكتاب وفيه تسلية عنهم.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ ﴿كَلِمَةٞ﴾ أي الحكم بإمهالهم وإمهال غيرهم لمدة الإختبار إلى أجل، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف:٣٤] وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف:٢٤] ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بين المختلفين.

﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ ﴿مُرِيبٖ﴾ مقلق لهم؛ لأنه شك يهمّهم لتردده بين أمرين مهمين أو أحدهما مهم، قال الشاعر:

لقد رابني من عامر أن عامراً بعين الرضى يرنوا إلى من جفانيا

قال (صاحب لسان العرب): «ورابني فلان يَريبني: إذا رأيتَ منه ما يريبك وتكرهه» انتهى، ومثله في (الصحاح).

وقال في (الكشاف) في تفسير أول (سورة البقرة): «وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه: ما روى الحسن بن علي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة وإن الصدق طمأنينة» أي فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن ومنه ريب الزمان وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه، ومنه أنه مر بظبي حاقف فقال لا يربه أحد بشيء» انتهى.

فظهر: أن الريب: هو القلق الذي يحدث من الشك في الشيء، وأنه أظهر من تفسير الريب بالشك نفسه، فأما على تفسير الريب بالشك، فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ المبالغة في شكهم كما لو قيل: ريب مريب، وفي صحته نظر؛ لأنه يحتاج إلى تصحيحه في اللغة والمعهود في المبالغة أنها تكون مع اتفاق اللفظ في الإشتقاق مثل: ليل أليل، ومثل قول الشاعر:

مروان يا مروان لليوم اليمي

كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ

فإن قيل: فما المانع أن يكون معنى ﴿شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ شك يحدث شكاً آخر حقيقة لا مجرد مبالغة؟

فالجواب: أن الشك الآخر لم يذكر متعلقه أي لم يذكر فيماذا الشك المتولد من الشك وبذلك تقل فائدة ذكره أو يكون التعبير ضعيفاً والقرآن منزه عما لا فائدة فيه وعن ضعف التعبير فهذا الوجه ضعيف، نعم والضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكٍّ﴾ للمختلفين فيفيد: أن الكافر والمقر بالتوراة كلاهما في شك، وهذا على الوجه الأول في ذكر المختلفين.

أما على الثاني: فيفيد: أن أهل الكتاب أنفسهم في شك منه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى:١٤] فيفيد: أنهم غير مؤمنين به إيماناً صادقاً عن يقين، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] رداً على قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:٩١] ونسبة الشك إليهم بالنظر إلى الجمهور لأن منهم المؤمنين.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ ﴿كُلّٗا﴾ أي كل المختلفين ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي جزاء أعمالهم (واللام) في ﴿لَّمَّا﴾ هي الموطئة للقسم إن كانت (إن) هي المخففة من الثقيلة (واللام) في قوله تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾ لام جواب قسم مقدر أي أقسم ليوفينهم ربك أعمالهم، وأعمالهم يعم الخلاف وغيره، لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي فلا يفوته شيء من أعمالهم ولا من خُبْرها وباطنها، ولذلك فهو يوفيهم كل أعمالهم بقدر ما تستحق من الجزاء.

﴿١١٢﴾ ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ تفريع على الوعد بتوفية الأعمال أو تفريع ما مر في السورة من القصص وغيره مما هو

ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ

باعث على الثبات على الحق، والإستقامةُ ضد الإعوجاج أي اثبت على الحق حتى لا تميل عنه أدنى ميل ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ كما أمرك الله، فهو يبين لك الإستقامة على الحق؛ لأنها هي العمل بما أوحاه الله إليه من التكاليف كلها ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فليستقيموا كما أمروا ومن تاب هم المؤمنون، وقوله ﴿مَعَكَ﴾ أي مصاحبين لك في التوبة إلى الله ملازمين لك، فهو خاص بهم كما خص رسول الله ﷺ بقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ ولعل فائدته أنهم هم مظنة الثبات وأنهم الذين يفيدهم هذا الحث دون المنافقين ومن لم يؤمن ممن أسلم.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تتجاوزوا حد العبودية بظلم عباد الله أو التكبر عليهم أو نحو ذلك ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي إن الله ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لعلمه به وبمقدار ما يستحق من الجزاء وعلمه بما هو خطأ يستحق العفو ونحو ذلك من أحوال العمل التي توجب اختلاف حكمه.

﴿١١٣﴾ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ الركون: الميل اليسير، قال في (الصحاح): «ركن إليه: أي مال إليه وسكن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾» انتهى باختصار، ومثله في (لسان العرب) وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: ولا تميلوا» انتهى.

وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الركون إلى الدنيا مع ما تعاين منها جهل» أي الإطمئنان، وفي هذه الآية دلالة على تحريم الركون إلى الذين ظلموا وإن لم يبلغ حد الموالاة، وليس من هذا مجرد المجاملة والمداراة ومكافاة

الإحسان بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:٨] فالميل إليهم رغبة في النفس وحب لمجالسهم أو عاداتهم أو زيهم أو نحو ذلك من لوازم الرغبة في طريقتهم أو في دنياهم والإطمئنان إليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ وعيد بالعذاب؛ لأنها إذا مست أحرقت، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ حال من (تمسكم النار) أي تعذبون في حال أنه مالكم من دون الله من أوليا يتولون رعايتكم ليحولوا بينكم وبين عذاب الله ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ من عذاب الله لا ينصركم أحد.

(١١٤) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ﴿وَأَقِمِ﴾ عطف على النهي، أو على ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ و﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أوله فهو وقت لصلاة الفجر وآخره وقت لصلاة العصر، وللعصر والظهر إذا أخرت الظهر فهو وقت لهما ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ساعات منه، واحدها: زلفة» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ جمع زلفة، والزلفة المنزلة، فكأنه قال: ومنازل من الليل أي ساعات من الليل وهي ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قرَّبه» انتهى.

قلت: لعل الأصل: أو هي ساعاته، بدليل قوله: من أزلفه إذا قربه، ففي كلامه ذكر احتمالين: أنه من الزلفة بمعنى المنزلة، وأنه من أزلفه إذا قرّبه، فعلى الأول ساعات من الليل غير مقيد، وعلى الثاني ساعات من الليل قريبة ـ والله أعلم.

لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ

ولعل الأقرب الأول، وجعلت زلفاً لأنه زُلَف لمن أحياها بالقيام، أي درجات يرقى فيها وقُرَب يتقرب بها أي بقيامها وسهرها إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يحتمل يمحون السيئات، ويحتمل ينهين عن السيئات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ..﴾ [الأحزاب:٣٣] وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ..﴾ [العنكبوت:٤٥] وعلى الإحتمال الأول يخص الخطأ ونحوه؛ لأن العمد يخرج صاحبه عن كونه من المتقين فلا تقبل منه حسنة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وعلى الإحتمال الثاني يكون المعنى إن الحسنات لطف في ترك السيئات كما روي في صيام أيام البيض إنها تذهب وَحَر الصدر.

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر والنهي، ولعل الإشارة إلى ما سبق من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ وما بعدها ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وموعظة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ غير الغافلين والذاكر ضد الناسي، فالذاكرون الذي يتقبلون الذكرى وينتفعون بها.

﴿١١٥﴾ ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على كل التكاليف التي حملتها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأجرك لا يضيع فأنت بأعمالك تعمل لنفسك وتتجر تجارة لن تبور بل ربحها عظيم.

﴿١١٦﴾ ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ (لولا) بمعنى هلا، وحاصله الإنكار عليهم

حيث لم يكن فيهم بعض منهم صالحون ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم ﴿عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حتى لا يهلكوا كلهم بالعذاب العام ثم بعذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ في معناه هنا خلاف بين أهل اللغة والراجح منها الإبقاء على أنفسهم كما قال الشاعر:

قال البقيــة يا قيسـاً فقلت له صبراً حذيـف فأنـت السيد الصمد

ومن جهة المعنى أنهم بنهيهم عن المنكر يقون على أنفسهم أي ينقذونها من الهلاك، كما قال تعالى: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف:١٦٥] فالمعنى: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي إيمان وتقى وطاعة لله ولذلك ينهون عن الفساد في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء لأجل النفي المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾ فكأنه قيل فما كان من القرون أولوا بقية، وعمومه ينفي القليل والكثير، فاستثنى القليل لأنهم بنهيهم نجوا أنفسهم وإن لم ينقذوا قومهم كما لو كانوا كثيراً يستطيعون التغيير.

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾ يدل على أنهم بعض من أنجاه الله فمَن هو البعض الآخر؟

والجواب: أنه مَن ترك النهي لعذر صحيح.

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من القرون لم يوجد منهم من ينهاهم عن الفساد بحيث يحول بينهم وبينه، واتبعوا أموالهم التي أترفوا فيها وشهواتهم، فجعلوها هي السعادة واستكبروا في أنفسهم بسبب إحرازها وعظمهم الجاهلون بسببها فاستحقروا الرسل وأتباعهم وأنفوا من الإنقياد لهم.

لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ معناه: ما تكبروا فيه)) انتهى، وهو تفسير بحاصل المعنى، وعلى هذا فالمراد بالذين ظلموا كبراء الأمم الماضيين وقادتهم إلى الفساد ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ فانقادوا للكبر وهوى النفوس.

قال الراغب: ((الترفه: التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((التَّرَف: التنعم، والتُّرْفَة: النَّعمة)) انتهى المراد.

﴿١١٧﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾ نفي مؤكد يفيد: أنه ليس من شأنه تعالى ولا يليق بجلاله أن يهلك ﴿ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ وهو تأكيد للدلالة على أن سبب هلاك القرون الأولى هو الفساد في الأرض فما أخذهم الله إلا بذنوبهم وهذا ليعتبر بهم الباقون بعدهم.

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ غير مختلفين في الدين لكنه غني عن عبادتهم، وقضت حكمته التمكين لعباده من الطاعة والمعصية، وتركهم يختارون ما شاؤا، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] مع أنه قادر على أن يضطرهم إلى التوحد على عبادته.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لا يزالون في المستقبل ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ لأنه مكنهم أن يختاروا لأنفسهم ما شاؤوا فمنهم من يتبع هواه، ومنهم من يتبع عقله.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فهم لا يختلفون في الحق، بل يتوحدون على دين واحد بهداية الله لهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ..﴾ [البقرة:٢١٣] والسياق يرشد إلى أن المراد بالإختلاف ما به يكون بعضهم مطيعاً مصلحاً وبعضهم عاصياً مفسداً لا لمجرد الإختلاف في فروع المسائل مع تحري كل طرفي الإختلاف للحق ومع اتفاقهم على تقوى الله والإيمان الذي لا يعذر بتركه أحد، والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ..﴾ [الأحزاب:٥] وقوله تعالى حاكيا مقرراً: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إن كانت الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فالمعنى: وليرحمهم بالهداية والتوفيق خلقهم؛ لأنه خلقهم لعبادته وهي ملزوم الهداية والرحمة ولازمهما فلا إشكال، وإن كانت الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ فهي من المتشابه.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): (قال القاسم عليه السلام ـ هو القاسم بن إبراهيم ـ : فلن يزالوا كما قال الله سبحانه مختلفين؛ لأن الإختلاف لا يزال بين المحقين والمبطلين وهو خبر من الله عما يكون، وأنهم لن يزالوا يختلفون فيما يستأنفون، فالإختلاف منهم وفيهم، ولذلك نسبه الله إليهم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يريد من المؤمنين فإنهم في دينهم مؤتلفون غير مختلفين.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يقول سبحانه للمكنة [من] ما يجب به الثواب والعقاب من السيئة والحسنة، ولولا خلقه لذلك على ما فطرهم عليه من ذلك لما اختلفوا في شيء ولما نزل بهم أمر ولا نهي ولا كان فيهم مسيء ولا محسن ولا فيهم كافر ولا مؤمن ولكانوا كالموات الذي لا يسيء ولا يحسن ولا يفجرعند الله ولا يتقي» انتهى.

وقد يقال: كيف صحت الإشارة إلى المكنة وهي غير مذكورة؟

والجواب: قد ذكر لازمها فكأنه قيل: ولكونهم لا يزالوان مختلفين خلقهم لأنه أراد أن يخلقهم ليمكنهم من التقوى والفجور وهو يعلم أن ذلك يستلزم أن يختلفوا، فالتعليل بكونهم لا يزالون مختلفين راجع إلى سببه أي لأنه مسبَّب عن التمكين، وفائدة هذا التعبير الدلالة على أنه تعالى غني لا يمنعه كونهم سيختلفون عن خلقهم كما قلت في ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧] ولذلك كانت من المتشابه وقد قضت حكمة الله أن يجعل القرآن منه آيات محكمات وأخرمتشابهات، ونظير التعليل بلازم العلة قولك قصَرت الصلاة لأني مسافر، فالمراد لأن المسافر شرع له القصر والمراد بالتعليل قصرت لأنه شرع لي القصر.

هذا وقد ذكر الشرفي تفسيراً آخر، فقال: «وما أحسن قول الهادي عليه السلام حيث قال: والذي أراه أنا في ذلك أنه سبحانه أراد أنه خلق المؤمنين لمخالفة الكافرين؛ لأن مخالفة الكافرين في كفرهم أعظم الطاعة لرب العالمين، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] فأخبر أنه لم يخلق الخلق إلا لعبادته، فمن خالف عبادته وطاعته فمخالفته في ذلك فرض من الله على من يخالفه ولا مخالفة لأعداء الله ولا مفارقة أكبر من

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٠ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢﴾

ضرب وجوههم بالسيف وسفك دمائهم ومجاهدتهم على مخالفتهم الحق، وهذا فهو أكبر فرائض الله على خلقه وأعظم ما افترض الله على عباده؛ ولهذا خلق الخلق لأنه أفضل عبادته، فإذا صح المخالفة للفاسقين على المؤمنين والجهاد لهم فقد صح أن لتلك المخالفة التي افترضها عليهم خلقهم وإليها دعاهم وبها [في الأم من تفسير الشرفي: وبما وهو غلط واضح تمت منه] في أعدائه أمرهم» انتهى.

وقال في (البرهان): «﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ من أهل الحق فلم يختلفوا ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾ أي للرحمة خلقهم» انتهى، قال الشرفي: «وهذا قول ابن عباس وهو اختيار جمهور المعتزلة» انتهى، وقد بسط الشرفي في تقوية هذا التفسير الأخير.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ ﴿تَمَّتۡ﴾ من التمام ضد النقصان وهو التمام المعنوي، ومعناه: أنها حقت، أي أنها حق وصواب، وقوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ تفسير لكلمته التي حكم لها بالتمام، وكل كلماته تعالى حق وصواب فكلها تامّة.

۝١٢٠ ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ ﴿وَكُلّٗا﴾ حذفُ المضاف إليه وعوّض بتنوين العوض، وفسره قوله تعالى ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أي وكل ذلك القصص المذكور، فحذف لأنه كفى عنه قوله تعالى: ﴿نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أي أخبارهم، أي الإخبار عنهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ﴾ أي نقصُّ ما نثبت به ﴿فُؤَادَكَ﴾ أي نثبت نطمئن قلبك على ما

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

أوحيَ إليك وما كلفته حتى لا يكون قلقاً مضطرباً مع كثرة المخالفين لك وقوّة الخلاف بينك وبينهم المؤدي إلى القتال.

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ السـورة ﴿ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فكل ما في هذه السورة من القصص وغيرها هو الحق، وإن خالف في بعضها الكافرون وجاءك فيها موعظة كذكر اليوم المجموع لـه الناس وما يكون فيه، والأمر بالإستقامة، والتحذير من الطغيان ومن الركون إلى الظالمين، والوعيد المذكور في السورة كله، وقوله تعالى ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي تذكير للمؤمنين الذين تنفعهم الذكرى.

﴿١٢١-١٢٢﴾ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۞ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما جئت به من القرآن، أو من هذه السورة ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ إما على تمكنكم أي على ما أنتم عليه من التمكن والقوة، وإما على اتّئادكم غير معجلين، أي نترككم وشأنكم ونحيلكم إلى حكم الله فيكم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على ما نحن عليه.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ الجزاء من ربكم ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لجزائه لكم العاجل، أو منتظرون لجزائه لنا على عملنا وستعلمون من يأتيه عذاب يخزيه.

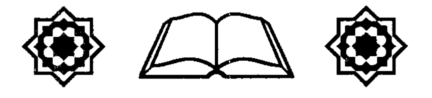
﴿١٢٣﴾ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو العليم بما غاب عنا فيهما ومنهما ومن شأنهما، ويعلم موعد الجزاء لعباده، ويعلم الأعمال ظاهرة وباطنة لا تخفى عليه خافية.

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ لأنه القادر على كل شيء والعليم بكل شيء فأرجع أمرك وأمر قومك إليه وإلى تدبيره لشأنك وشأنهم وإلى جزائه وحكمه بينكم.

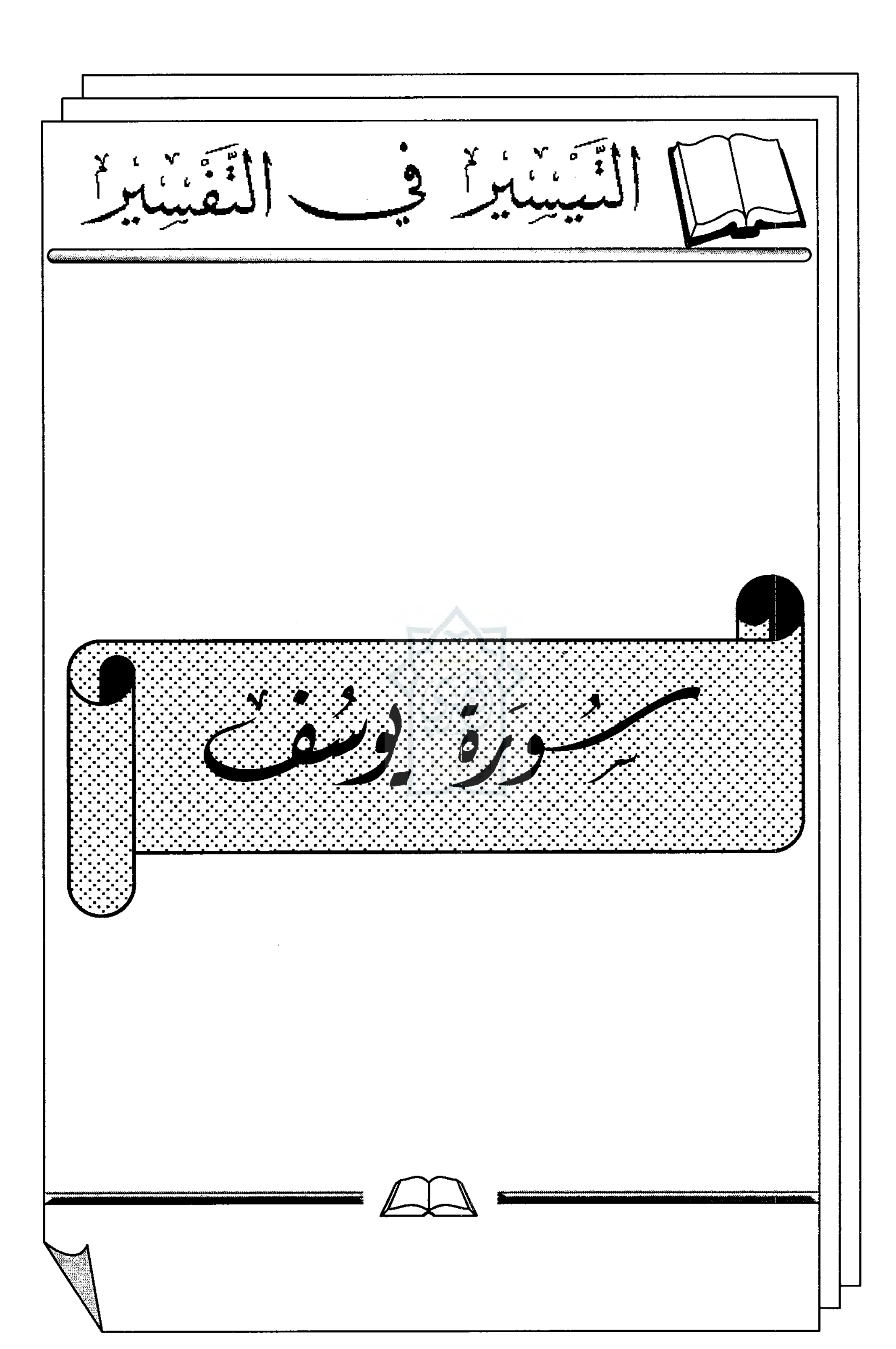
﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ فيما بقي من عمرك كما عبدته فيما مضى ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ في عبادتك لَه وطاعتك لتكاليفه من تبليغ الرسالة وغيره، أي كِل أمرك إليه فامض على ما أمرت به اعتماداً على حفظه وعونه لك وتدبيره لشأنك.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أنت ومن معك ومن عاداك وكذبك فاكتف بذلك في ثباتك على طاعته وعنايتك بتقواه ومراقبتك لَه وصبرك على ما كُلِّفتَ من تبليغ الرسالة، والمجاهدة لأعداء الدين وغير ذلك.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه
وصلى الله على محمد وآله وسلم.

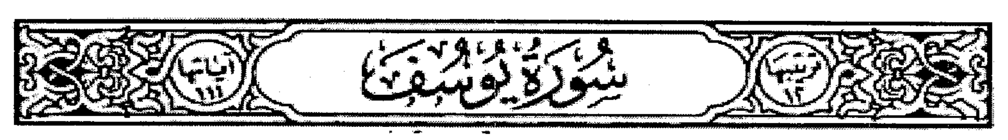






التيسير في التفسير
سورة يوسف





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا

ابتداء تفسير (سورة يوسف)

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «سورة يوسف عليه السلام مائة وإحدى عشر آية، قال الإمام الناصر ـ أبو الفتح الديلمي ـ عليه السلام: (سورة يوسف) مكية كلها» انتهى.

﴿١﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓر﴾ قد مرّ في تفسير أول (سورة الأعراف) بحث في هذه الحروف ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة والراجح أن المشار إليه هذه الحروف المذكورة في أوائل عدة من السور، وفي ذلك فائدتان:

الأولى: أن هذا الكتاب المعجز هو في أصله مؤلف من الحروف التي تنطق بها العرب فما عجزُهم عن الإتيان بمثله مع أنه من جنس الحروف التي ينطقون بها إلا من أجل حكمته وإحكامه.

الثانية: الدلالة على أن الكتاب هو مؤلف من الحروف أوحاه الله لا الكلام النفسي ولا مجرد المعاني بدون ألفاظ فهو تحقيق لوحيه بحروفه وكلماته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ أي الذي يبين المعاني فلا يحتاج العرب إلى ترجمته، ولا في دلالته غموض كمسائل المعاياة بل معناه بيّن، ولا ينافي ذلك أن المعنى البين يوصل من أحرزه إلى فهم معنى كان غامضاً؛ لأنه قد حصل بيان ما يبين الغامض.

ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ

ويدل هذا على بطلان قول من يدعي من الإمامية: أنه لا يفهمه إلا الإمام، وقول بعض الصوفية: أنه لا يفهمه إلا الشيخ، وقول بعض منتحلي السنة: أنه يحتاج إلى البيان بالسنة، وبنوا على ذلك قولهم: «إن السنة حاكمة على القرآن» وقد رددتُ عليهم في (تحرير الأفكار).

﴿٢﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿إِنَّآ﴾ أي إن الله ذو العظمة والجلال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي أنزلنا الكتاب ﴿قُرْءَٰنًا﴾ يقرؤه الناس لينتفعوا به ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعقلون المراد به الذي هو معناه وفوائده؛ لأنه بلسانكم فتفهموه وتحفظوه.

﴿٣﴾ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ لأنه صدق لم يختلط بكذب، وصوابٌ ليس فيه خطأ، ومفيد للعِبَر النافعة، ليس كالأقاصيص التي يضيع بها الوقت ولا تفيد فائدة نافعة، فالله جل جلاله عالم الغيب وأصدق القائلين هو الذي قصَّه عليك يا رسول الله قصه عليك ﴿بِمَآ﴾ أوحى ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي بوحي هذا القرآن، الجامع لبيان ما يحتاج إليه في الدين من أصول المسائل وكثير من فروعها وهذا القصص وغيره ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ قبل هذا القرآن ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عما فيه من العلوم لا تدري بفرائضه وحلاله وحرامه وكثير مما يحتاج البشر إلى علمه، ولا ينافي ذلك علمه ﷺ بالله الذي يحصل للعقلاء بالنظر في المخلوقات؛ لأن ذلك لا يكفي عما يحتاج الإنسان إلى علمه فهو غافل بالنظر إلى غير العقليات القريبة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن

ويحتمل عود الضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ إلى ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فيكون المعنى: وإن كنت من قبله لمن الغافلين عن معناه، فالأولى تمننٌ على رسول الله وتذكير له بنعمة الله، ويصلح دليلاً على نبوته من حيث أنه تنبيه على علمه بما لا يعلمه إلا بوحي من الله، والثاني أظهر في هذا المعنى الأخير ويشير إلى ذكر نعمة الله عليه.

﴿٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ ﴿رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا في المنام ﴿سَٰجِدِينَ﴾ اعلم أن السجود تذلُّل وتعظيم وإجلال، فإن كان على معنى الإعتراف بالعبودية فهو عبادة؛ لأن اسم العبادة تابع للعبودية، قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ..﴾ الآية [النساء:١٧٢] فأقام قوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ مقام عن: ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا﴾ فدل على: أنهما كالشئ الواحد، وأن العبادة لازم العبودية، وإن كان السجود لمجرد التعظيم والتذلل، لا على معنى الإعتراف بالعبودية فليس عبادة.

فالسجود على المعنى الأول لا يقع من نبي الله يعقوب، ولا يرضى به نبي الله يوسف، فلا بد أن معناه السجود من أجله لله وهو سجود الشكر لله، فاللام في قوله: ﴿لِى سَٰجِدِينَ﴾ لام التعليل، وهذا تأويل لتعذر الحقيقه وإن كان السجود لمجرد التعظيم فهو بعيد أن يكون من أب لابنه؛ لأن الإبن وإن كان نبياً يستحق التعظيم، فالأب هنا نبي والحق للأب على ابنه فجعل السجود ليوسف حقيقة مشكل على كلا المعنيين.

والجواب: أنه في الرؤيا غير مشكل؛ لأن تأويلها خلاف ظاهرها فيصح هذا المعنى أي السجود لمجرد التعظيم له في الرؤيا؛ لأنه ليس على ظاهره، وتأويله تعظيم يوسف بسجود الشكر لله على نعمة الوصول إليه وعلى هذا فلا مانع أن يكون في الرؤيا على المعنى الحقيقي سجود ليوسف لمجرد التعظيم والإجلال، ولذلك تعجب منه مع صغر سنه وأخبر به أباه.

وأما في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ فهو إما السجود لله شكراً أو السجود له لمجرد التعظيم تواضعاً من الأب، ويأتي مزيد تفسير عند ذكر قول الله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

قال الشرفي ـ رحمه الله ـ في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: المعنى في ذلك: أن الكواكب هي الأشراف من الرجال وهم إخوة يوسف، والشمس هي أمه، والقمر أبوه، وذلك أنهم سجدوا لله من أجله حين مَنّ الله عليهم بوصوله وجمع شملهم به بعد حين من الزمان».

قال الشرفي: «ومثل هذا ذكره الهادي عليه السلام في معنى السجود مع احتمال أن يراد به التواضع كما في قوله:

ترى الأُكْمَ فيها سُجَّداً للحوافر

قال: إلا أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة» انتهى.

أقول: الراجح في قوله: إلا أن الأصل..إلخ، أنه من كلام الشرفي ـ والله أعلم ـ ولا يبعد أن السجود للتواضع كان معتاداً من الناس للملِك كما يفعل الركوع أو قريب منه في هذا الزمان للتعظيم، فرجح ذلك استعمالَ يعقوب وأولاده لما هو معتاد مألوف تواضعاً من يعقوب وأمّ يوسف وإنصافاً من إخوة يوسف، وهذا وإن كان بعيداً في عرفنا لا يبعد إذا كان عرف ذلك الزمان؛ ولذلك جوزه الإمام الهادي عليه السلام كما هوظاهر حكاية الشرفي.

أما قول الشرفي: إلا أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة، ففيه نظر لاحتمال أنها حقيقة عرفية حادثة بين المسلمين، والقرآن لا يجب حمله على الحقيقة الحادثة من بعده.

قال في (لسان العرب): «ابن سيدة: سجد، يسجد، سجوداً: وضع جبهته بالأرض، وقوم سجّد وسجود، وقوله عز وجل: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ هذا سجود إعظام لا سجود عبادة ـ ثم قال صاحب لسان العرب ـ : قال الزجّاج: إنه كان من سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يُسجَد للمعظَّم.

قال: وقيل: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي خرّوا لله سجداً من أجله، قال الأزهريّ: هذا قول الحسن، والأشبه بظاهر الكتاب أنهم سجدوا ليوسف دلَّ عليه رؤياه الأولى التي رآها حين قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فظاهر التلاوة: أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له، من غير أن أشركوا بالله شيئاً، وكأنهم لم يكونوا نُهُوا عن السجود لغير الله» انتهى المراد من (لسان العرب).

وقد فسّر غيره السجود بالتذلل وبالخضوع وهو صالح للتذلل بدون عبادة، قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤].

(٥) ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ هذه الرؤيا أي لا تخبر بها إخوتك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيدبروا لك بحيلة سوءاً أيّ تدبير لما يقع في أنفسهم من الغيرة التي تبعثهم على أن يكيدوا لك لئلا يقع لك تأويل هذه الرؤيا.

تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى

قال الشرفي في (المصابيح): «وكان يعقوب عليه السلام شديد الحبّ ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب، وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة [قلت: أو بالوحي من الله قال:] فلما ذكر يوسف عليه السلام لأبيه هذا الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له قال: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ أي لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي فيحتالوا لك حيلة في هلاكك» انتهى المراد.

وقوله: في هلاكك، غير متعيّن عندي.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يريد ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يوسوس لإخوة يوسف بما يحرك الغيرة، ويقوي رغبتهم في الكيد لك، ويزينه لهم عداوةً منه لك ولإخوتك؛ لأنه ﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي بيّن العداوة، فينبغي للإنسان أن يحذره.

﴿٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ الإجتباء: التأهيل بتزويده بالعلم والحكمة وغير ذلك مما تتطلبه المهمة المنوطة به، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: يختار» انتهى.

وفي (الصحاح): «واجتباه: أي اصطفاه» انتهى، وفي (لسان العرب): «واجتباه: أي اصطفاه، وفي الحديث أنه اجتباه لنفسه أي اختاره واصطفاه» انتهى المراد.

وقوله تعالى حاكياً: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ﴾ أي كما رأيت في الرؤيا سجود الكواكب المذكورة والشمس والقمر لك يختارك ﴿رَبُّكَ﴾ ويصطفيك لشرف عظيم ورئاسة، وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ كما هو شأن من اصطفاه الله أن يرزقه علماً وحكماً، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ومن العلم علم تأويل الأحاديث، أو علم بعضه.

و﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ يعم علم تأويل قصص الرؤيا وتأويل بعض الحديث كما في التفاؤل ببعض الكلام، فهو أعم من تأويل الرؤيا، ومن هذا معرفة مخبر الإنسان بكلامه، وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «المرء مخبوّ تحت لسانه، فإذا تكلم ظهر» أو كما قال، ويدخل في ذلك علم تأويل كتب الله التي نزلت على إبراهيم ووحيه إليه وإلى إسحاق ويعقوب وغير ذلك، وتأويل الرؤيا: ما تؤول إليه، كأنها عبّرت عنه فكان عاقبتها ومآلها.

وقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ آل يعقوب أولاده أو هو عام ليعقوب نفسه بالتغليب، كما قدمت في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣] وهو الراجح عندي، ولعله أراد بإتمام النعمة على يوسف تمكين دينه له وبإتمام النعمة لهم تمكين دينهم وجمعهم عليه بتوبة إخوة يوسف.

وقوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ﴾ أي كما أتم نعمته على أبويك من قبل أي في عهدهما بإظهار دينهما على دين المشركين ونصرهما على المشركين، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ دون (إن ربنا) أو (إن ربي) لأن ما ذكر من إتمام النعمة على آل يعقوب تابع لاجتباء يوسف، فمن حكمة الله تعالى يسّر تمام نعمته على آل يعقوب على يدي يوسف.

يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كالتعليل لما ذكر في تأويل هذه الرؤيا، وهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِه﴾ [الأنعام:١٢٤] فالله تعالى بحكمته وعلمه اجتبى يوسف وعلمه من تأويل الأحاديث وأتم عليه نعمته وعلى آل يعقوب.

﴿٧﴾ ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فالآيات في يوسف مثل: تأدية صبره على البلاوي التي تتابعت عليه منذ صغره وفي شبابه إلى شرف الدنيا والآخرة، وتأدية حلمه عن إخوته إلى صلاحهم وسجودهم له، وتأدية علمه إلى خروجه من السجن، ووضوح براءته من امرأة العزيز، وتأدية علمه وعفافه، وطهارته وصدقه وأمانته إلى ما صار فيه من المنزلة الرفيعة والولاية على خزائن الأرض.

وأما الآيات في إخوة يوسف فمثل ما أدتهم إليه الغيرة والحسد من التعدي على يوسف، وعقوق أبيهم وإيقاعه في الحزن الطويل الأمد الذي لأجله أبيضت عيناه بالفراق ليوسف، ثم ما وقعوا فيه من رميه بالسرقة ومن قولهم لأبيهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وقولهم: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

ثم ما وقعوا فيه من العناء لطلب الميرة، وما صاروا إليه من نقص المنزلة، واعترافهم ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وقولهم لأبيهم: ﴿يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ وكل ذلك نتائج الاتباع لهوى النفوس الذي قادت إليه الغيرة والحسد، ففيهم عبرة كما في يوسف صلى الله عليه.

ﭐطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ

وتقديم هذه الآية على تفصيل قصتهم يشير إلى أن المقصود بالقصة ما فيها من الآيات والعبَر مع ما فيها من العبرة لأولي الألباب المشار إليها في آخر السورة وهي الدلالة على أن هذا القرآن وحي من الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي للسائلين عن قصصهم الذين يريدون معرفته؛ لأنهم هم الذين يصغون لها دون الكفار المعرضين عن سماع القرآن.

﴿٨﴾ ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ ﴿لَيُوسُفُ﴾ فيه تأكيد باللام؛ لأنه عندهم أمر مستبعد يحتاج مثبته إلى تأكيده، وقولهم: ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ قال الراغب: «والعصبة: جماعة متعصبة متعاضدة» انتهى، وقال في (الصحاح): «والعُصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين» انتهى، ومثله في (لسان العرب).

قال في (الكشاف): «يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كُفاة نقوم بمرافقته، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما» انتهى، وهو صحيح.

وقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أرادوا أنه غالط مخالف للصواب كمن يمشي غاوياً عن الطريق، ومعنى ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ﴾ في غي، أي غواية، ومعنى ﴿مُّبِينٍ﴾ أي غي بيّنٌ واضح لا يخفى.

﴿٩﴾ ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ ذهبت عاطفة الأخوّة بسبب الغيرة والحسد،

بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ

وذهبت عاطفة البنوة كذلك، وغلب الحسد فدبَّروا الحلّ ليستريحوا مما في نفوسهم من الغيرة والحسد، ولا يهمهم تضييع أخيهم وحزن أبيهم عليه.

وقولهم: ﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ أرادوا أرضاً يضيع فيها ولا يهتدي لعودة إلى أبيه أو تقتله السباع، وقولهم: ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ أي لا يبقى فيه التفات ولا توجه إلى غيركم بل هو فارغ الإلتفات إليكم والتوجه إليكم، وقولهم: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ أرادوا من بعد يوسف أو من بعد قتله أو طرحه أرضاً ترغيب في المعصية بتمني التوبة بعدها، وكأنه لا يهمهم انكشاف أمرهم بعد تضييع يوسف فأبوهم نبي ومن البعيد أن لا يفضحهم الوحي؛ لأنهم بزعمهم سيكونون قوماً صالحين، فلا بد أن يقبل توبتهم إذا تابوا.

﴿١٠﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَٰتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «والغيابة: ما غاب عنك، والجب: البئر الذي لم يطم» انتهى كذا، ولعل الأصل: لم يُطْوَ، أي لأنه إذا لم يُطْوَ يكون فيه غيابات من أثر الأمطار.

وقد ذكر الشرفي قولين في تفسير الجب: أحدهما: أنه البئر البعيدة، والثاني: مالا طيٌّ له من الآبار، وفي تفسير الراغب لـ(مفردات القرآن): «﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾: أي بئر لم تُطْوَ» انتهى، ومثله في (الصحاح).

والمراد بـ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ المسافرون الذين يسيرون في الأرض ولو ركباناً، فصاحب هذا الرأي أراد الجمع بين غرضهم وبين ترك قتل يوسف، وذلك بتضييعه في غير مهلكة.

﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ حث على العمل بهذا الرأي، مثل: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

﴿١١﴾ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ بدأوا مكرهم بقولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ كأنهم يرون له حق الأبوة، وقولهم: ﴿مَا لَكَ﴾؟ سؤال عن سبب عدم أمنهم على يوسف كأنهم لا يعلمون سبباً ومن البعيد أن لا يأمنهم لغير سبب.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ تغليط له في عدم أمنهم على يوسف وهي مقدمة لطلب إرساله معهم، وكأنه عليه السلام مال إلى الرفق بهم وترك المصارحة لهم بأنه يخاف أن يكيدوا ليوسف؛ بسبب الغيرة منه، أو لم يكن يظن أن قد بلغت بهم الغيرة إلى أن يكيدوا ليوسف؛ لأن إقباله إلى يوسف وأخيه في حال صغرهما يبرره صغر سنهما وكون العطف على الصغير طبيعياً، وقد عطفَ على كل واحد منهم في صغره، والعطف على الصغير لا يغار منه الكبير في العادة فلذلك رجّح أن لا يردّ عليهم هذا القول.

﴿١٢﴾ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ﴿يَرْتَعْ﴾ يأكل من شجر البرّيّة وسمّوه رتاعاً لمشابهته رتاع الأنعام في أكله من الشجر التي تأكل منها وهذا على قراءة ﴿يَرْتَعْ﴾ ـ بسكون العين ـ فأما على قراءة ﴿يَرْتَعِ﴾ ـ بكسر العين ـ فأصله يرتعي: أي يرعى، وكلمة يرعى تصلح لأكل المرعى، وللراعي الذي يرعى الأنعام.

﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿يَرۡتَعۡ﴾ أي يفتعل في وزن الكلمة ومقدارها وهو يرعى الماشية» انتهى.

وهو مبنى على قراءة ﴿يَرۡتَعِ﴾ - بكسر العين - وقولهم: ﴿يَرۡتَعِ وَيَلۡعَبۡ﴾ تغطية على غرضهم بدعوى أن غرضهم راجع لمصلحة يوسف، وكذا قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي نحفظه من الضياع ومن السباع ونحو ذلك.

﴿١٣﴾ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾ ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ﴾ يشير إلى أنه يخاف إخوة يوسف عليه؛ لأنه علّق الإحزان على ذهابهم به ولم يعلقه على مجرد ذهابه أو غيابه من عنده ولكنهم فيما أعتقد تغافلوا عن هذا فلم يجيبوا عنه جواباً مستقلاً، وقد أمعنوا في الإحتيال، وكأنهم استحقوا أن يوليهم الله ما تولّوا لجرأتهم على عقوق أبيهم فلم يحذر أباهم بوحي.

﴿١٤﴾ ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فهذا جواب غير مطابق لقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لأنه لم يقل: وأخاف أن يغلبكم الذئب، إنما قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

وقولهم: ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ لا يفيد أنهم لن يغفلوا عنه وخصوصاً مع ضعف العاطفة لو كانت عندهم بقية من عاطفة، فإن من الجائز عليهم أن ينشغلوا عنه فيغفلوا عنه لاشتغالهم بأغراضهم.

وقولهم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ لعلهم أرادوا به خسران الجنة ليوهموا أباهم حرصهم على دينهم ويوهموا أنه لا يأكله الذئب إلا لتفريط منهم وهم يشاهدونه يأكله فلا يستنقذونه منه وهم يستطيعون إنقاذه؛ لأنهم عصبة فيكونوا قد أثموا واستحقوا عذاب الآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وعلى هذا فالجواب عن قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ﴾ قد ضمنوه ما يُذهِب خوف أبيهم منهم إذا ذهبوا به وحزنه لذلك، وهي طريقة دهاء وعمق احتيال؛ لأنها تفيد في سياق الجواب عن قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ أعني تظاهرهم بالخوف من الخسران، ولو قالوها رداً على قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وأظهروا أنهم قد فهموا أنه يخافهم على يوسف لكان ردهم بأنا نخاف خسران الآخرة، مجرد دفاع عن أنفسهم والفاجر لا يعجز عن مثل ذلك الدفاع في سبيل توصله إلى غرضه، فكان تأثير ذلك لهم بعيداً بخلاف ما إذا تغافلوا عن قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وكأنهم لم يفهموا أنه يخافهم فإن تظاهرهم بالدين والخوف من خسران الآخرة ليس في صورة الدفع لخوفهم على يوسف وحزن أبيهم لذهابهم به فكان تأثيره في أبيهم أقرب.

(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بيوسف وهذا يفيد: أن أباهم وافقهم على إرساله معهم، فذهبوا وأجمع رأيهم أن لا يقتلوه، بل يجعلوه في الجب أي البئر ليلتقطه بعض السيارة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي إلى يوسف ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ وهو يفيد تقوية رجائه للسلامة وصلاح حاله في المستقبل كما أفادته الرؤيا.

﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي بوحينا، والراجح أنه وحيٌ إخبار من الله لـه، ولذلك قال: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لأنه كلام لم يسمعوه، ولو كان مجرد إلهام لكان من شأنه أن لا يشعروا بـه، وكان قولـه: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لا موجب لـه، فلما قال: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ كان قرينة أن الوحي هـذا كـلام، ولا يلزم منه نبوءة يوسف عليه السلام في ذلك الوقت؛ لأنـه لـيس وحيـاً بشـريعة، والإشارة بقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا﴾ إلى ما فعلوا بيوسف من جعله في غيابات الجب ومقدماته، وقد أغنى قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ..﴾ إلى قولـه ﴿..وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أغنى عن ذكر جواب (لَمَّا) مع قولـه: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ فلم يبق موجب؛ لأن يقول فعلوا ذلك.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ ﴿عِشَآءٗ﴾ في ظلمة الليل ﴿يَبۡكُونَ﴾ تغطية لجريمتهم وتوصلاً إلى قبوله لعذرهم وظنه صدقهم ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ ﴿ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي ذهبنا متسابقين أي ذهبنا من عند متاعنا ومن عند يوسف وقد أغنى عن هذا قولهم وتركنا يوسف عند متاعنا أي عند أدواتنا مثل بعض الملابس الذي يطرح عند السباق.

وقولهم: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ أي بحيث هلك ولم يبق منه رأس ولا يد ولا رجل ولا شيء؛ وهذا لأنهم لو أدركوا منه شيئاً على فرض أنهم صادقون لكان ينبغي أن يأتوا به معهم إلى أبيهم ليدفنوه وليطلعوا أباه عليه إن شك في صدقهم.

بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ

وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ﴾ أي بمصدق تصديق إذعان وقبول لكلامنا أي وذلك من سبب بكائنا، وقولهم: ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي ما أنت بمؤمن لنا في حال من الأحوال وفي حال لو كنا صادقين، ولعل قولهم: ﴿وَلَوۡ﴾ بدل أن يقولوا: «وإن كنا صادقين» يقرب من الإقرار أنهم غير صادقين.

﴿١٨﴾ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿وَجَآءُو﴾ أي إخوة يوسف جاءوا ﴿بِدَمٖ﴾ على قميص يوسف وهو دم ﴿كَذِبٖ﴾ لأنهم جعلوه شاهداً على أن يوسف قد أكله الذئب وهو لم يأكله، فكان الدم كذباً تعبيراً عن أكل الذئب ليوسف وهو غير مطابق للواقع ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ أي ما أكله الذئب، بل سولت لكم أنفسكم وسهلت وهوَّنت، أو زيّنت أمراً.

قال في (الصحاح): «سولت له نفسه أمراً: أي زيَّنته له» انتهى، وقال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «والتسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب).

وقوله: ﴿أَمۡرٗا﴾ لعله أن يغيبوا يوسف عن أبيه ليخلو لهم وجه أبيهم أو هو جعله في غيابات الجب ليلتقطه بعض السيّارة فيصير مجهول المكان، والمعنى متقارب ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الخليل: الذي أفعله صبر جميل» انتهى المراد.

دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ

وقوله: ﴿جَمِيلٌ﴾ إما لأنه صبر على ما لا سبيل إلى دفعه؛ وإما لأنه يصبر على الحزن ولا يكثر التوجع والتظلم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي أستعين الله ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ لأنه كلام موجع لعلمه أنه كذب منهم وفساد وهم أبناؤه كان حريصاً على أن يكونوا صالحين فيؤسفه تعمدهم للكذب لتغطية ظلمهم ليوسف وعقوقهم لأبيهم وكذلك يضجر من كلامهم؛ لأنه يعلم أنه كذب يريدون به تغطية الجريمة الموجعة المتحققة.

﴿١٩﴾ ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَا بُشْرَايَ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَجَآءَتْ﴾ الجب الذي فيه يوسف ﴿سَيَّارَةٌ﴾ مسافرون ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء أرسلوه ليجيء لهم بماء ﴿فَأَدْلَىٰ﴾ في الجب ﴿دَلْوَهُۥ﴾ ليأخذ فيه ماء، والدلو: وعاء ينزع فيه الماء من البئر بحبل يربط به ويرسل في البئر ﴿قَالَ﴾ الوارد ﴿يَا بُشْرَايَ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ أي وجد يوسف في الجب فقال ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ تعبير عن سروره بيوسف، وإعلان لاستبشاره به ليأخذه فيبيعه ويستفيد ثمنه ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ لعله خاطب بهذا مرافقيه الذين أرسلوه للماء، وأفاد الراغب: أن الغلام الذي طر شاربه أي ابتدأ نبات شاربه، ولعل هذا أول ما يسمى غلاماً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي أخفوه حرصاً عليه لئلا يكون له أهل حول الجب يتنبهون له ﴿بِضَٰعَةً﴾ أي مجلوباً للبيع ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ حين أخذوا يوسف وأسروه بضاعة وبكل ما يعملون من أعمالهم ولو شاء لخلصه من أيديهم قبل أن يبيعوه أولم يطلع عليه الوارد.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي وباعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ ناقص ﴿دَرَٰهِمَ﴾ من الفضة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ لقلتها ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لأنهم لا يريدون اقتناءه، ولعلهم كانوا معجلين على بيعه قبل أن يرجعوا من سفرهم، وقبل أن يطلع عليه أهله، والزهد: ضد الرغبة.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مَثْوَىٰهُ﴾ مسكنه ومقرّه الذي يقيم فيه، وهذا الكلام يفيد أنه قد أراد اقتناءه وترغيبه بإكرامه الذي كنى عنه بإكرام مثواه أو هو حقيقة والمراد أن تجعل مقامه كريماً نزيهاً طيباً حسن التهوية مرغوباً فيه مرضياً، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ يريد نقتنيه ونرغبه فيقرب أن ينفعنا بأعماله التي نحتاجها ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ نسرّ بحضوره ومجالسته وكانت هذه كبداية تخليصه من الرِّقّ وتمكينه في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وكذلك التمكين مكنا ليوسف في الأرض بما جعلنا له في القلوب من الإحترام والإجلال والمحبة فكما جعلنا له المكانة في قلب الذي اشتراه من مصر مكنا له في الأرض من بعد ذلك كما يأتي في السورة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ عطف على تعليل مقدر كأنه قيل لحكمة في تمكينه هذا ولنعلمه.

﴿٢٣﴾ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ

وقد مرَّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ..﴾ الآية بعض فوائد تمكينه في الأرض، ومر تفسير ﴿تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ فقوله تعالى ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يفيد: أنه مكن لـه في مثواه عند الذي اشتراه ليعلمه من تأويل الأحاديث، وذلك أنه يعيش في بلوى رغد العيش وتكامل الفتوة، وبلوى الحاجة إلى النكاح، ومع ذلك يصبر ويشكر النعمة ويتقي ربه، فيكون من المحسنين، ويكون أهلاً لأن يؤتيه الله حكماً وعلماً، ومن ذلك علم ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ يشير إلى نجاته من شر إخوته وأن حسدهم لم يدفع ما كتب الله ليوسف من رفع الدرجات ومن كرامة المثوى وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهلهم بالله وغفلتهم عنه، فهم لا يعلمون أنه غالب على أمره، ولذلك قد يحاولون ما هو كالمغالبة لله تعالى فيُغلَبون.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي قوة بدنه وعقله ومعانيه حين شب وكبُر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: انتهاء سنّه وشبابه وقوّته من قبل أن يأخذ في النقصان» انتهى.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي علمناه الحكم وهو أعم من حكمه نفسه وحكمه بين الناس فهو يدل على إيتائه الحكمة وفصل الخطاب، وقوله تعالى: ﴿وَعِلْمًا﴾ يشمل علم النبوة وما يهدي إليه ويتفرع عنه.

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ

وأما العقليات، فلعله قد أوتيها من قبل، ولذلك كان ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم أوتي الحكم والعلم جزاء على إحسانه، وفي هذه دلالة على أن الإحسان الذي هو الإيمان والتقوى، وحسن الخلق هو من أسباب العلم، فينبغي لطالب العلم أن يتوصل إليه بالصبر والتقوى والثبات على ذلك في كل أحواله والله المستعان.

﴿٢٣﴾ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ قالت: وعملت ما هو كالمطالبة بجماعها، وكأنها مأخوذة ومشتقة من الرود، قال الراغب: «الرود: التردد في طلب الشيء بِرِفْق» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ ولم يقل هنا: (امرأة العزيز) وفيه فائدة الدلالة على عظم البلوى؛ لأنها راودته ومطلوبها متيسر له، من حيث أنه في بيتها، والصبر متعسر من حيث استمرار الخلوة بها وطول مدة البلوى، ولعل فيه إشارة إلى أنها هي فتنت به لكونه في بيتها.

وقوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ كذلك فيه دلالة على شدة البلوى؛ لأن الشهوة تقوى مع الثقة بخفاء مطلوبها والأمن من اطلاع زوجها، وقوله: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ كذلك دلالة على شدة البلوى بها حيث طلبته ولم تبقِ شكّاً في مطلوبها.

قال الشرفي في (المصابيح): «ثم دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي هلم وأقبل إلى ما لا يحسن ذكره ـ قال ـ: وهيت في اللغة العربية: هَلُمّ وأقبِل، قال الشاعر:

أبلـــغ أمـــير المـؤمنيـــ ـــن أخا العراق إذا أتيتا
أن العـــــراق وأهلـــه عُنُـــق إليـــك فهيت هيتا

أي فهلم هلم» انتهى.

وفي (الصحاح): «وقولهم: هيت لك، أي هلم لك، قال الشـاعر في علـي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أبلـــغ أمـــير المؤمنيـــ ـــن أخـــا العـراق إذا أتيتا
أن الـعـــراق وأهلـــه سلـم إليـــك فهيت هيتـــا

أي هلم وتعال ، يستوي فيه الواحـد والجمـع، إلا أن العـدد فيمـا بعـده، تقول هيت لكما وهيت لكنّ» انتهى، ونحوه في (لسان العرب).

واللام في ﴿لَكَ﴾ إما للدلالة على أنـه المخاطـب ـ بفـتح الطـاء ـ وإمـا للدلالة أنها تريد العمل لأجله ليلتذّ به كما يقال: كل لك، واشرب لك.

وقول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ يعني أعوذ بالله معاذاً، ومعنى أعوذ بالله: ألجأ إلى الله ليعصمني ويعينني على نفسي.

وقولـــه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَ﴾ أي إن الله ربـــي مـــالكي ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَ﴾ أنعم عليَّ بتيسير هذا المثوى الـذي أنـا فيـه الـذي سـخر لـه العزيـزَ وحببه إليه، حتى قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَاهُ﴾ وخلَّصني به من تبادل أيدي التجار، وفيه وجهان: إما أنه يريد أرجوه أن يعصمني كما أنعم علي بإحسان مثواي، وإما أنـه يريد أنه أنعم علي بإحسان مثواي فلا أكفر نعمته بمعصيته، وفيه إفـادة أن الحـق لله علي أعظم من حق غيره ليدفع توهمها أنه فتاها عليه أن يطيعها.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ تعبير عن حذره سوء عاقبة المعصية لله؛ لأنها ظلم عاقبته وخيمة، والفلاح: الظفر بالخير والنجاة من الشر، وفيـه قول الشاعر:

﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

لـــو أن حيّـاً مدرك الفلاح أدركـــه ملاعـــب الرمـــاحِ

يريد الخلود والنجاة من الموت.

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي أرادته وأرادها وكانت إرادته ـ صلى الله عليه ـ إرادته [كذا] منازعة الطباع ولم يُزْمِع كما أَزْمَعَتْ هي على الجماع، وإنما خطر على باله الشهوة والهوى ولم يطع هواه إلى الدنُوّ منها» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي رأى يوسف حجة ربه عليه القاطعة لعذره لو ارتكب الفاحشة ولكنه رأى برهان ربه فانصرف عما هـمَّ به وهرب، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لعل الإشارة إلى مدلول قولـه: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا برهان صرفه عنها فرأى برهان ربه ثانياً كذلك، والراجح: أنها آية حدثت لـه ورآها.

وقولـه تعـالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي أريناه البرهـان لنصرِفَ عنه السوء والفحشاء، والسوء الشر وهو نوعان:

سوء المعصية وما فيها من وجوه القبح من حيث هي زنا، ومن حيث هـي خيانة للعزيز في أهله وكفر لإحسانه إليه في تربيته.

النوع الثاني: تَبِعَة المعصية واستحقاق فاعلها للعقاب العاجل والآجل.

﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ هي البالغة في القبح مبلغاً شنيعاً وهي الزنا، وصدق عليه السوء من حيث هو شر على فاعله يسقُطُ به قدرُهُ وشرفه ويستحق به الإهانة والعقاب، وصدق عليه الفحشاء لشدة قبحه، وأيضاً الراجح: أن المراد لنصرف عنه السوء كله مدى الحياة أي المعاصي المتعمدة كلها والفحشاء كذلك، فالسُّوء يُصرَف عنه ولولم يكن فحشاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لعصمته من السوء والفحشاء كما يَزيد الله من اهتدى هدى، والمخلَصِين الذين جُعلوا خالصين من عيوب المعاصي وإخلاصهم منها بتوفيق الله وهدايته؛ ولأنهم استعملوا عقولهم وأكثروا ذكر الآخرة، ولعله معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٦].

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥)

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ حاول كل منهما أن يسبق الباب الذي هو باب الدار، فيوسف يريد أن يسبقه ليخرج، وهي تريد أن تسبقه لئلا تتركه يفتحه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ لتردّه في حال فراره فقدَّتْه بجذبه إليها ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وجدا سيدها عند الباب.

﴿قَالَتْ﴾ لسيدها ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ تعني أنه أراد بها الزنا ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عقوبة له على إرادته ﴿بِأَهْلِكَ﴾ فهي هنا تثبت حرمة أهله لكونها أهله، وبهذا تحاول صرف التهمة عنها، وكذلك بإيجاب جزائه بالسجن، أو العذاب الأليم، على هذه الإرادة بامرأة العزيز، أي لمكانة زوجها ووجوب احترام ساحته.

قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي

﴿٢٦-٢٧﴾ ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي﴾ لا أنا راودتها ففي العبارة قصر قلب، وقوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ أي قميص يوسف قُدَّ من قبله ﴿فَصَدَقَتۡ﴾ لأن ذلك قرينة أنه يريد رفعه وجذبته إلى أسفل لئلا يكشف عن ذكره ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لدلالة ذلك أنه هرب منها، وأنها جذبت ثوبه من خلفه فقدته.

﴿٢٨﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ يحتمل سيدها ويحتمل الشاهد، والأرجح سيدها ﴿قَالَ﴾ سيدها ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾ أي من احتيالكُنَّ الضار، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ إما للقدِّ، وإما للحادث المتنازع عليه فكله مستقيم، وفي إضافته إليها وإلى عامة النساء رفق بها في الحكم عليها وتقوية للحكم بأنها مظنته من حيث هي امرأة، وقوله: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ دلالة على أنها مظنته وإن عظم.

﴿٢٩﴾ ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ يا﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾ فلا تطالب بجزائها واكتمه ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ يقول لامرأته: استغفري لذنبك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ

ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ

ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ فهذا زجره لها، وقد كان ينبغي لـه أن ينقل يوسف من ساعته إلى محلٍ لا تصل إليه امرأته لكنه قَليلُ الغِيرة وأنه قد وثق باعتصام يوسف، وأنه لا يطاوعها أبداً ولم يهمه ما يلحق يوسف من مشقة الإستعصام، والخاطئ فاعل الخِطْء ـ بكسر الخاء، وسكون الطاء ـ وهو الذنب المتعمد.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إنكار منهن على امرأة العزيز يعنين أنها تنازلت عن درجتها في الشرف بمراودتها لعبدها، والفتى: الحَدَث الشاب، و﴿شَغَفَهَا﴾ أصاب شِغاف قلبها أي حِجابَ قلبها، وكان هذا منهن احتيال ليرَين يوسف؛ لأنه يَبْلُغها كلامُهن فيها فتطلبهن لتعاتبهن على هذا الكلام وتعتذر مما وقع منها.

﴿٣١﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ امرأة العزيز ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي أخبرت به ومكرُهُنَّ كلامُهُنَّ الذي هو حيلة للتوصل إليها ورؤية يوسف ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ ليأتينها ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ﴾ أي وأعَدّت لهن ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ فراشاً يتكئن عليه عندها ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ

سِكِّينًا﴾ ليقطعن الفاكهة من تفاح أو نحوه أو أرادت أن توهمهن أنها تأتي بالفاكهة، والأول أظهر.

﴿وَقَالَتُ﴾ ليوسف ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ يفيد هذا أنه كان في مكان داخل إما داخل في منزلها، وإما أن متكأهن كان في حجرة المنزل فخرج بإذن الله له؛ لأنه نبي ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ عظم في نفوسهن وكَبُر لجماله وكماله ونور النبوة والفضل في الدين ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين غلطاً وذلك لما وقع في أنفسهن عند رؤيته.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: فروي أنهن قطعن أيديهن، وذلك معروف في طباع الآدميين إذا اشتغلت قلوبهم وضلت من الهموم عقولهن [كذا] عبثت حينئذ وتحركت جوارحهم وقلقت أيديهم عند قلق نفوسهم فمنهن [كذا] من يخط في الأرض ومنهم من يعبث بيده ولحمه لما داخله من همه وزوال عقله.

ثم قال: ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله وهي كلمة تنزيه الله من صفات العجز وتعجباً من خلق مثله حتى قلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي من جملة البشر؛ لما شاهدْنَ من حسنه البارع، وجماله البديع، ودلائل الخير، وأمارات الصدق، وعلامات النبوة، وآثار الصفوة» انتهى.

قلت: الأقرب أنهن كُنَّ يحاولن قطع الفاكهة مع اشتغال أبصارهن وقلوبهن بالنظر إلى يوسف فقطعن أيديهن، فقد بلغْنَ مرادهُنَّ برؤية يوسف، ولم يستفدن إلا الهوى فيه، والرغبة في مثل ما رَغِبَت فيه امرأة العزيز، والله عاصم له.

فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ اي يوسف ﴿ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ﴾ بقولكن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ كما قال: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ فهو صادق ولا أزال في محاولة أنْ يفعل.

وقولها: ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ أي توصل إلى ما يعصمه أي ينجيه امتناعاً وفراراً مما أريد ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ﴾ وايستُ من ان يطيعني فيما آمره ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ تهدِّده بالسجن ظنّاً منها أنه يكبر عليه بعد عيشه في المثوى الكريم ورَغَد العيش ﴿وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ لما عرفت أن من شأنه طلب العلا ظنت أن تهديده بالصغار يؤثر فيه والصَّغار الذلّة.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ لحبي لطاعتك وبغضي لمعصيتك، وقوله: ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ يفيد: أن النسوة المذكورات عاونّ امرأةَ العزيز وطلبْنَ منه أن يطيعها.

وقوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي﴾ أصله (إن) الشرطية و(لا) النافية أدغمت النون في اللام فصار (إلا) والقياس أن تكتب (وإن لا) وقوله: ﴿أَصۡبُ﴾ من الصَّبوة حذفت واوه للجزم، قال في (الصحاح): «والصِّبا ـ أيضاً ـ من الشوق، يقال منه: تَصابَى وصَبَا يَصْبو صَبْوَةً وصُبُوّاً، أي مال إلى الجَهْل والفُتُوَّةِ وأصبَتْه الجارية» انتهى.

كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ

فالمعنى: إن لا تصرف عني أَمِل إليهن وأطاوعهن، وهذا لجوءٌ إلى الله ليعصمه، ومعناه: الدعاء أن يصرف الله عنه كيدهن واحتيالهن عليه ليفتتن.

﴿٣٤﴾ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهذا مما يرغّب في الدعاء لحفظ الدين والسلامة من مضلات الفتن وإن كان لا بد من ابتلاء الله لعبده ليتبين ويظهر صبره فيكون أهلاً للُّطف والوقاية من مضلات الفتن.

﴿٣٥﴾ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿بَدَا لَهُم﴾ تجدد لهم رأيٌ لم يكن من قبل وفسر هذا الرأيَ قولُه ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أو بدا لهم هذا القول ولعلهم أرادوا بسجنه أن يغيبوه عن امرأة العزيز للتخفيف عنها حيث اشتدت رغبتها فيه، وظهر افتتانها به مع ضغط الظروف عليها وشدة امتناع يوسف؛ لأن حضوره لديها ومشاهدتها لجماله وفتوّته يزيد من محنتها، فأما تفسير سجنه بأنهم أرادوا المغالطة وإيهام الناس أنه هو الذي راودها فبعيد عندي بعد اشتهار الأمر الواقع.

وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي الآيات الدالة على براءة يوسف من مُراودتها وهو يدل على أن قد كانت له من الآيات غير قدّ القميص مادل على براءته، وقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي غير دائم، وإنما هو أمد حصول الغرض من سجنه.

ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿٣٦﴾ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ دخلا معه مسجونَين مثله، وقوله: ﴿أَرَىٰنِىٓ﴾ هو من الرؤيا، وقولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ أي أخبرنا بتأويل ما رأيناه.

﴿٣٧﴾ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ وأنتما عندي ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ بتأويل ذلك الطعام، وتأويله إما ما يؤدي إليه، وإما ما يدل عليه، فالطعام يرزقانه من جهة مَن حبسهما وكيفيته يستدل بها على نيَّة الحابس لهما وإرادته فيهما من عفو أو عقاب أو رضى أو سخط أو تطويل حبس أو تقصيره أو تشديده أو تيسيره، ولكن هذه الدلالة يختص بها يوسف.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ أي علم تأويل الطعام، وقوله ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ تعليل أي علمني ربي بسبب أني تركت ملة قوم.. إلى آخر الآيتين، وهذا الترغيب في علمه تقديم لدعوتهما إلى التوحيد ليصغيا إليه ولذلك أخّر الجواب عن سؤالهما عن تأويل رؤياهما وذلك من الحكمة في الدعوة.

فقوله: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يبين لهما أنهم أي القوم على ملَّة باطلة لا يرضاها ربه وعدم إيمانهم بالله لشركهم أو لإنكار البعث استبعاداً للقدرة على إحياء الموتى.

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَٱتَّبَعْتُ﴾ عطف على قوله: ﴿تَرَكْتُ﴾ أي علمني ربي بسبب ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ وأني ﴿ٱتَّبَعْتُ﴾ وهذا موافق لقول الله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ﴾ نفي مؤكد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ [يونس:١٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] أي لا يليق ذلك بحالنا، وقد مرَّ نظيره في قوله تعالى حاكياً: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف:٨٩].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي تحريرنا من عبادة المخلوق وأمرنا بإخلاص العبادة لله هو نعمة من الله وفضل علينا وعلى الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فليس لكما أن تقتديا بالمشركين الذين أهملوا عقولهم فتركوا شكر ربهم.

﴿٣٩﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي صاحبيَّ بسبب السجن الذي جمعنا ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ كما يزعم المشركون ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ خير لا شك أن أربابهم المتفرقين ضعفاء لا يقدرون على نفع ولا ضر، ولذلك كانوا متفرقين تبعاً لتفرق العابدين لهم، وكون ربوبيتهم المزعومة تابعة لجعل عابديهم لهم أرباباً، ولذلك قال بعد هذا الإحتجاج:

وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ

﴿٤٠﴾ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ وليست كما تسمونها فهي مجرد أسماء منكم بلا مسمى؛ لأن المسميات ما زالت كما كانت قبل أن تسموها أحجاراً أو تماثيل من أي جنس من نحاس أو غيره ولم يحصل لها إلا مجرد الأسماء بدون معنى الأسماء، وهذه التسمية لا صحة لها بل هي باطلة؛ لأن الحكم لله ليس لكم أن تحكموا بأنها أرباب.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وذلك لأن عباده مملوكون ليس لهم أن يحكموا في ملكه بما شاؤوا بل الحكم لله المالك لهم وللسموات والأرض فالحكم له في حال أنه ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فهو الحكم من المالك لعباده على عباده فهو الحق.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾ الذي يُدِين به العبادُ ربهم ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾ الذي لا عوج فيه؛ لأنه الحق الذي لا يشوبه باطل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الحق بل خيم عليهم الجهل وتصرفوا بلا علم فضلوا فلا تقتدوا بهم، وبهذا تمت دعوته لصاحبي السجن إلى التوحيد وترك الشرك واجتنابه كله بحجةٍ واضحة قريبة لفهمها ثم أول رؤياهما فقال:

فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ

﴿٤١﴾ ﴿يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

﴿رَبَّهُۥ﴾ أي سيّده، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ﴾ قال الراغب: «والصلب الذي هو تعليق الإنسان للقتل» انتهى، والأظهر: أنه شدُّ الإنسان مربوطاً إلى خشبة أو نحوها، وقد مرَّ تفصيل القول فيه في تفسير (سورة المائدة).

وقوله: ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ يظهر منه: أنه يترك مقتولاً مصلوباً حتى تأكل الطير من رأسه؛ لأنه ليس من عادة الطير أن تأكل من الإنسان قبل موته، ويظهر: أن هذا تأويل رؤيا الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه.

وقوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي تطلبان الفتوى فيه، وهو تأويل رؤياهما طلباً أن يفتيهما فيه ما هو، وفائدة قوله: ﴿فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ تعريفهما أن هذا هو تأويل رؤياهما؛ لأنه لو قال: قضي ذلك لما تعيَّن أنه أراد أنه تأويل رؤياهما لطول الفصل بينه وبين قصصهما للرؤيا وطلبهما أن ينبأهما بتأويل ما رأياه.

وفيما حكاه الشرفي: عن الحسين بن القاسم، أنه قال في تفسير قوله ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: «أي قضى الملك الأمر الذي عنه تسألان، وهو هلاك أحدهما ونجاة الآخر» انتهى، وقوله: ونجاة الآخر أي حتى يسقي ربه خمراً؛ لأن تأويل رؤياه أنه يسقي ربه خمراً لا أنه ينجو على الإطلاق.

رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا

﴿٤٢﴾ ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الذي أفاد أنه يسقي ربه خمراً، وسبب ظنه لنجاته ظهور رضى الملك عنه، وسبب عدم القطع بنجاته احتمال أن يقتله الملك عقيب سقيه، إما لسكره، وإما لتجدد غضبه، واحتمال أن يُقتل بغير أمر الملك ولو تعدياً، فلا إشكال فيه بعد قوله: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾.

وقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ أي قال يوسف: اذكرني ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي عند سيدك، ولعله كان عبداً للملك فقال عند ربك كما يقال: رب الدار، وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي تذكير ربه في شأن يوسف؛ لأنه كان السجن على أنه لمدة محدودة ريثما يحصل الغرض به وقد حصل الغرض فلو ذكر الملك لأخرجه من السجن لكنه نسي، فالمعنى: فأنساه الشيطان هذا الغرض الذي هو تذكر ربه فلم يُذكِّره، ويحتَمل: فأنساه الشيطان ذكر يوسف لربه كما أمره، فأضيف الذكر إلى ربه اختصاراً لوضوح المعنى من السياق، والأول أقرب عندي؛ لأنه غرض الشيطان حين أنساه ليبقى يوسف في السجن عداوةً له.

وقوله: ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ قالوا في تفسير البضع كما ذكره الشرفي: «من ثلاث إلى سبع، وقيل: من ثلاث إلى تسع، وقيل: من ثلاث إلى اثني عشر» انتهى، ورجح الراغب ما بين الثلاث إلى العشر، قال: «وقيل: بل هو فوق الخمس ودون العشرة» انتهى، ولم يذكر غير ذلك.

ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ

فأما (صاحب الصحاح) فلم يذكر إلا (ما بين الثلاث إلى التسع) وليس على المفسر تعيين هذه المدة، فإن صح أنها سبع سنين بدليل صحيح ترجح ذلك وإلا فالوقف أولى، ويكفي إثبات البضع وقد اشتهر في تفسيره فوق الثلاث وهي مدة طويلة، ومع أن ما فوقه يسمى كل عدد بضعاً إلى السبع أو إلى التسع أو إلى العشر، فلا يفيدنا ذلك زيادة في تحديد المدة، فلا موجب للإشتغال بتحديد أكثر البضع؛ لأن ما دونه يسمى بضعاً بلا إشكال فالتردد باق.

﴿٤٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي سبع بقرات عجاف، قال في (الصحاح): «العَجَف بالتحريك: الهزال، والأعجف: المهزول» انتهى المراد.

و(السنبلات): جمع سنبلة وهي ما يبدو في الزرعة ويكون فيه الحب ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي وسنابل أخر يابسات قابل بين الخضر واليابسات؛ لأن لون السنبلة من البر والشعير الخضرة حتى تيبس فإذا يبست تغير لونها.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ لعله يعني وزراءه، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ لم يكلفهم ما لا يعلمون وعبر الرؤيا أي فسرها بما يناسب ظاهرها أي إن كانت عادتكم أن تعبروا الرؤيا.

﴿٤٤﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ ﴿أَضْغَٰثُ﴾ جمع ضِغث، قال الراغب: «الضغث: قبضة ريحان أو حشيش أو قضبان» انتهى أرادوا لفيف أحلام لا يستحق أن يُطلَب له تأويل، ثم اعترفوا بعدم العلم بتأويل الأحلام.

أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا

﴿٤٥﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ ﴿مِنۡهُمَا﴾ من صاحبي السجن ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ تذكر يوسف وتذكر قوله: ﴿**ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾ وعلمه بتأويل الرؤيا، فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾ أي آتيكم بنبأ تأويله ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ إلى يوسف فعنده علم تأويل الرؤيا، وقوله: ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد مُدَّة.

﴿٤٦﴾ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿يُوسُفُ﴾ أي يا يوسف ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي يا أيها الصدّيق أي كثير الصدق أو البليغ في الصدق وهذا الرسول قد عرف صدق يوسف بما جرب منه مما قال له في السجن، وفي الكلام إيجاز والمعنى فأرسلوه فقال ليوسف.

وقوله: ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ..﴾ إلى قوله: ﴿.. يَابِسَٰتٖ﴾ أي رؤيت في المنام أي أخبرنا بتأويلها، وقوله: ﴿وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ يفيد وجودها لا غير فالملك رآها موجودة أو حاضرة حوله وليس فيه أكثر من ذلك.

وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ترغيب ليوسف في تأويل الرؤيا ليعلمها الناس لما في ذلك من مصلحة الناس؛ لأن العلم خير من الجهل وبالعلم يطلب الخير ويُتّقى الشر أو يستعدُّ له.

فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي

﴿٤٧﴾ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ قوله: ﴿دَأَبًا﴾ أي دائبين على أن تزرعوا في السنين لا ينقطع زرعكم لجدب أو نحوه بل يستمر في أوقاته طوال السبع السنين، وقد قيل: إنه أمرهم بترك الحب في سنبله لئلا يأكله السوس، وهذا عندي غير صحيح؛ لأن ذلك لا يمنع من السوس، وهذا معلوم من خلال التجربة والمشاهدة.

وقوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ فما قطعتم من الثمر ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ فاتركوه في سنبله لا تخرجوا الحب من السنبلات ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في السبع وحولها، وفائدة ذلك أن يدخر بسنبله؛ إما لأن الشدة والجوع يحوجهم إلى أكل بعض السنبل وذلك معروف في سنبل الذرة؛ وإما لأنهم متى استخرجوا الحب من السنبل في وقت الشدة حافظوا على الحب من التبذير أكثر من محافظتهم عليه في وقت الخير وسعة الرزق وتساهلهم بما يتساقط منه.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي سبع سنين شداد لا زرع فيها ولا مطر يرفع الشدة ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي تأكلون فيهن ما أحصنتم وحفظتم لهن في السنين السبع الأولى ونسب الأكل إليهن فلعل فيهن جوعاً هو من معنى شدتهن، وذلك أن غلاء الحب قد يكون معه جوع غالب زائد على المعتاد، وقد يكون الغلاء مع السلامة من الجوع وهو أهون.

مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

﴿٤٩﴾ ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يرزقون وتكشف عنهم الشدة ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ لكثرة الفواكه التي يعصرون منها مثل العنب، أو لكثرة العنب إن كانوا لا يعصرون غيره، والمراد التنبيه على رجوع الخصب وتوفر الثمر في ذلك العام، وإثبات أنهم يعصرون زائد على تأويل الرؤيا فلا بد أنه بوحي من الله.

﴿٥٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ أي بيوسف، ولعله أراد أن يبقيه لديه لتأويل الأحلام ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ﴾ قال يوسف للرسول ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى سيدك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي ما بالهن قطعن أيديهن، أو ما بالهن دعون يوسف إلى الفاحشة ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ﴾ ليوسف ﴿عَلِيمٞ﴾ وكيدهن دعوتهن له إلى الفاحشة.

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ قال الملك

وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ

للنسوة: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ أي ما هو الباعث الكبير على مراودة يوسف عن نفسه ﴿قُلۡنَ﴾ للملك ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً لله الذي عصم يوسف ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ فليس سبب المراودة سوءاً علمناه منه كأن الغالب على المراود أن لا يراود إلا من قد سبق منه فعل الفاحشة معه أو مع غيره فيتجرّأ بذلك على مراودته فلذلك فهمنَ من سؤال الملك ما خطبكن هل قد علمتن منه سوءاً؟

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ حال الحضور عند الملك وسؤاله وغياب يوسف ﴿حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي وضح الحق؛ لأني الآن أعترف بالحقيقة ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ لا أنه راودني عن نفسي ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله هي راودتني.

﴿٥٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإقرار بالحقيقة ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ يوسف ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وهو غائب عني وأنا غائبة عنه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ أي ولأن الله لا يهدي ﴿كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فلا يجعل الله لهم بكيدهم خيراً خالصاً، بل يكون عاقبة كيدهم ضراً عليهم أي لا يجعل الله كيد الخائنين طريقاً إلى الخير ووسيلة له.

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ عطف على قولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ﴾ تأكيد لإقرارها، ورجوع عن تبرئة نفسها فيما سلف، حين قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ﴾.

قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ

وقولها ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾ أي كثيرة الأمر بالسوء، بسبب ما تهواه ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ من الأنفس فعصمها عن الأمر بالسوء أو إلا مدة رحمة ربي للنفس ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فبمغفرته ورحمته يعصم النفس ويلطف بها، والمغفرة هنا إما لما قد تاب منه العبد فيعصمه بعد التوبة؛ لأنه قد قبلها وغفر الذنب، وإما للصغير الذي لا يؤدي إلى استحقاق الخذلان والحرمان من اللطف، ونعني بالعصمة هنا اللطف، وكلامها على النفس التي هي الجنس العام للنفوس تجميل لاعترافها بأن غالب البشر هكذا؛ لأن النفس أمارة بالسوء.

﴿٥٤﴾ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ فأبقيه لمعاونتي على أمري خالصاً لا يشاركني فيه أحد، وفي هذا أنه لا يرجع لخدمة امرأة العزيز، ولا يعمل لأحد غير الملك، وفيه إخراجه من السجن وإيصاله عند الملك ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ يوسف حين أتى قال له الملك ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ مكين: لك عندنا مكانة ومنزلة قريبة رفيعة، أمين لما مرَّ عليك من التجارب التي أثبتت أمانتك.

قال الشرفي في (المصابيح): «وتقدير [وتقرير/ ظن] الكلام أن الملك عَظُم اعتقاده في يوسف لوجوهٍ:

أحدها: أنه عظم اعتقاده في علمه وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مَالَ الطبع إليه.

وثانيها: أنه عَظُمَ اعتقاده في صبره وثباته؛ وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج لم يسارع إلى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أوّلاً ما يدل على براءة حاله من جميع التهم.

وثالثها: أنه عَظُمَ اعتقاده في حسن أدبه؛ لأنه اقتصر على قوله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وكان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها وتعرض لأمر سائر النسوة، مع أنه وصل إليه من جهتها أنواعٌ عظيمة من البلايا، وهذا من الأدب العجيب.

ورابعها: براءة حاله من جميع التهم فإن الخصم أقرَّ له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم.

وخامسها: أن الساقي وصف له جِدَّه في الطاعات واجتهاده في الإحسان إلى الذين كانوا في السجن.

وسادسها: أنه بقي في السجن بضع سنين مع أنه لم يكتب إلى الملك ولم يلتمس منه تخليصه من السجن.

فهذه الأمور كل واحدة منها توجب حسنَ الإعتقاد في الإنسان فكيف مجموعها، فلهذا السبب حَسُنَ اعتقاد الملك فيه، وإذا أراد الله شيئاً جَمَع أسبابه» انتهى.

قلت: أما الثالث، فالراجح: أنه من جودة الرأي والتدبير.

(٥٥) ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف للملك ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾ والياً ﴿عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأموال المخزونة العامة، والمراد بالأرض ما تحت دولة الملك منها.

وقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ بيان لكفاءته لهذه الولاية فهو يحفظ ما تحت يده، وهو عليم كيف يتصرف في المال لمصلحة الشعب، وعليم بما يحتاج

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ

من الحساب، وعليم بالكتابة وغير ذلك، ولا إشكال أنها كانت له ولاية شرعية صح لأجلها أن يأخذ الولاية من الملك وصح لأجلها أن يعمل في مصلحة الشعب توصلاً إلى إصلاحه أو تمكين الدين فيه، ولعل ذلك كان بوحي من الله تعالى، يبيّن له تحقق المصلحة العظيمة الدينية بسبب ولايته وعمله في مصلحة الشعب، ويرخص له في مباشرة العمل لمصلحتهم، توصلاً إلى إصلاحهم أو إصلاح جمهورهم، ولو من جهة التوحيد وترك الشرك، وعزة الدين وخمول الباطل، وترك المجاهرة بالمنكرات ـ والله أعلم.

﴿٥٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التمكين الذي هو جعل يوسف على خزائن الأرض ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد هذا التمكين ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ يتخذ مَباءة مقرّاً ومسكناً ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ لتمكنه رحمة له.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ ولا يستطاع دفعها؛ لأن الله غالب على أمره، ولا يستفيد حاسده أو عدوّه إلا الغمّ ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولذلك ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ولا تنقص عليه رحمتنا له بالتمكين في الأرض لا تضيع عليه شيئاً من أجره.

﴿٥٧﴾ ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أجر الآخرة: الثواب في الآخرة خير من أجر الحياة الأولى للذين استحقوه بالإيمان والتقوى المتكررة في الحياة الدنيا التي ختم لهم بها، وهذا في غير المعصوم لعموم الآية.

فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ

فأما المعصوم فتكرر التقوى منه بتكرر الإبتلاء والإختبار؛ لأنهم كانوا ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] أو كلما أذنبوا تابوا ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون.

﴿٥٨﴾ ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ عرفهم أنهم إخوته وعرَف كل واحد منهم، ولعل ذلك بزيادة ذكائه وحفظه، وكونه فارقهم وهم شباب ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لا يخطر ببالهم أن يتأملوا فيه ويتعرفوا لمكان ملكه وتمكينه في الأرض وهم فارقوه صغيراً.

﴿٥٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ﴿جَهَّزَهُم﴾ يوسف للسفر بعد أن وفّر لهم الطعام الذي جاءوا له أو أن توفير الطعام من جملة الجهاز لترتب سفرهم عليه، وقوله: ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ أي الذي قد أعطاهم أو الذي يليق بحالهم ويحتاجون إليه.

﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ لأعطيه مثل ما أعطيت الواحد منكم من الطعام وأنزله مثل إنزالي لكل واحد منكم، وفي تنكيره دلالة على أنه لم يسبق فيه كلام بينه وبينهم، خلاف ما تظنَّنَ بعض المفسرين؛ لأنه لو سبق بينه وبينهم ذكره ووصْف حاله كما زعموا لقال يوسف: ((بأخيكم)).

وقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ترغيب لهم في العودة للميرة وفي الإتيان بأخيهم ليزدادوا حِمل بعير من الحب، ويحتمل أنه اكتفى بقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ليوهمهم أنه

تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ

طلب أخاهم لهذا الغرض إيهاماً ومراده خلافه أي تخليصه من بين إخوته بإذن الله، وهذا هو الراجح، والنُّزُل: ما يُهَيَّأ للضيف من الطعام وغيره، والمنزلون المضيفون.

﴿٦٠﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ﴿بِهِۦ﴾ بهذا الأخ المطلوب ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ لا أكيل لكم طعاماً ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فلا حق لكم في الضيافة بعد هذا.

﴿٦١﴾ ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ نحاول منه إرساله معنا كما راودناه عن يوسف ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ لنأتيك به كما أمرت فقد جربناه لا يمنعنا أو إذا منعنا سرقناه فجئنا به لضرورة إطعام أهلنا.

﴿٦٢﴾ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ وقال يوسف لخدمه الشباب أو عبيده الشباب ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي جاءوا بها اجعلوها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ ليَردوها معهم، و(الرحال): أقتاب الإبل وما عليه من أوعيتهم ونحوها، والراجح: أن البضاعة كانت خفيفة لا يضر الإبلَ حَملُها مع الْحَب، وذلك يُقرّب إلى معرفة أنها كانت من الجلود الخفيفة.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي فيعرفوا أنها ردت إليهم، وفي هذا ترغيب في العودة إن كان معهم أخوهم؛ لأنه يشير إلى سماحة عظيمة؛ لأنها كانت عوض الْحَب الذي معهم فقد أخذوه مجاناً، ويفيد: أنه يعطيهم بها الحب متى رجعوا،

يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ

وفيه ترهيب من أنه لا يقبلهم إن رجعوا وليس أخوهم معهم؛ لأن إرجاع بضاعتهم يقطع أملهم؛ لأنه يدل على أنه لا رغبة في بضاعتهم.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنه احتياط لرجوعهم إليه؛ لأنهم إذا لم يكن بقي عندهم ما يمتارون به فقد يتركون لذلك الرجوع لعدم البضاعة وليس عندهم ثمن غيرها فإرجاع بضاعتهم احتياط لئلا يعجزوا عن العودة التي رغبهم فيها بالميرة.

﴿٦٣﴾ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ كان اتجاههم إلى أبيهم ليراودوه عن ابنه، فهو مهمتهم مع أنهم راجعون إلى أهليهم وبلدهم ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا﴾ مستعطفين له بقولهم: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ بدأوا بالحجة التي لأجلها يطلبون إرسال ابنه ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ ونحن لا بُدَّ لنا من الطعام الضروري للحياة ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ هكذا أخانا إظهاراً للعطف عليه؛ لأنه أخوهم لئلا يخافهم أبوهم على ابنه بعدما قد فرطوا في يوسف ليكتالوا وقالوا: ﴿إِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ فضلاً عن أن نعتدي عليه نحفظه من الضياع ومن عدوان غيرنا.

﴿٦٤﴾ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حفظا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ﴾ لا آمنكم ﴿عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ﴾ فإني لم آمنكم على أخيه

رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ

لقولكم: ﴿إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ إنما أمنتكم لثقتي بالله أنه يحفظه ويجتبيه فأرسلته معكم؛ لأني ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ ليوسف ولأخيه ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لهما ولي ولمن أراد رحمته، وحاصل هذا الجواب أني لا آمنكم عليه لوعدكم بحفظه، بل إن أرسلته معكم فلرجائي أن يحفظه الله؛ لأني ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ ﴿مَتَٰعَهُمۡ﴾ أوعيتهم التي فيها بضاعتهم المردودة عليهم ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ فازداد جِدُّهم في طلب أبيهم لإرسال أخيهم ليكتالوا بالبضاعة التي ردت إليهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي﴾ ما نطلب إذا لم نرجع إلى مصر إلى عزيز مصر أنطلب القوت من غيره فلن نجده أم نختار أكل الأنعام وترك الحب أم نجد سبباً غير ذلك نطلبه.

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ فلا نتكلف للعودة بضاعةً أخرى ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ نشتري لهم الحب ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ فالذي نطلبه خير خالص لا شَرَّ فيه ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ لأخينا أي نكتال زيادة حمل بعير أي كيل حمل بعير من الحب ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ سهل؛ لأن البضاعة نكتال بها على عدد إبلنا أحمال حب فإذا زادت الإبل زاد الحب من دون زيادة البضاعة.

ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ يعقوب لبنيه ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ﴾ أي لن أرسل أخاكم ﴿مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ما يوثق به ويعتمد عليه في حكم الله وتشريعه وهو العهد الذي جعله الله موثقاً بين عباده ﴿لَتَأْتُنَّنِى﴾ بأخيكم هذا ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلا تُغلبوا وتقهروا فتعجزوا عن إتياني به، ولعل أصل استعمال الإحاطة في الأمر الغالب إحاطة العدوّ بالإنسان بحيث يعجز عن التخلص منهم ثم استعمل في الأمر الغالب المهلك، قال تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس:٢٢] وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة:٨١].

قال في (لسان العرب): «وأحيط بفلان: إذا دنا هلاكه فهو محاط به، قال الله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:٤٢] أي أصابه ما أهلكه وأفسده، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي تؤخذوا من جوانبكم» انتهى المراد، وقال الشرفي في (المصابيح): «أي تغلبوا على أمركم أو تموتوا» انتهى.

وفائدة أخذ العهد عليهم: أن يأتوا به؛ لأنه لا يريد مجرد حفظه وإن بقي غائباً عنه كيوسف فهو يعلم أن يوسف محفوظ ولكنه يحزنه غيابه، ويخاف أن يغيب عنه أخوه وإن بقي في حفظ الله، كما أن فائدة العهد: إلزامهم الدفاع عنه إن عرض عدوان عليه وإن أدّى الدفاع إلى قتلهم أو أسرهم إن استطاعوا الدفاع، وهذا فائدة قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ لم يقل موثقاً أو الموثق وأضافه إليهم؛ لأنه غرضهم للتوصل إلى إرسال أخيهم معهم، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي قال أبوهم الله على ما نقول وكيل أي على عهدكم وما قلتُ لكم فأكِلُ إليه أمركم في رعاية العهد وأمري في أخذه عليكم.

﴿٦٧﴾ ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ لا تدخلوا القرية من باب واحد وادخلوها ﴿مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إن عصيتم أمري فدخلتم من باب واحد؛ لأن هذا حكم الله عليكم حيث أمركم بطاعتي، فاتقوه وراقبوه ولا تتهاونوا بأمري، وليس لكم الخيار في حكم الله، أو أن تحكموا برأيكم وتعدلوا عن حكمه، فهذا تأكيد لنهيهم عن الدخول من باب واحد، ودلالة على أنهم إن خالفوه عصوا الله وتعرضوا لعقابه.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي في إرسالي إياكم وإرسالي ابني معكم وفي كل أموري ﴿وَعَلَيْهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لأنه الذي لا يغفل عما وُكِل إليه ولا يعجز عن رعايته وهو على كل شيء وكيل.

﴿٦٨﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ﴾ امتثلوا أمره

فدخلوا من أبواب متفرقة في حال أن أباهم ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وإن دخلوا من حيث أمرهم أبوهم فطاعته في هذا لا تكفيهم ولا بد لهم من تقواه في كل أمرهم، فلم يأمرهم من أجل أن يغني عنهم إن امتثلوا أمره من الله شيئاً لكن أمرهم لحاجة في نفسه قضاها بهذا الأمر، وقد أبهمها البارئ، فليس لنا أن نتطفل فنُبيّنها ما هي.

وقد قيل: إنها سلامتهم من العدوان عليهم والعدوان لا يختص بحال الدخول وهم مجتمعون في سفرهم وبعد دخولهم، وإذا كان في الظن إرضاء للقارئ فأظن أن حاجته أن لا يفوتهم يوسف لو دخلوا من باب واحد وخرج من الباب الآخر؛ لأن أباهم كان يعلم أن يوسف ما زال موجوداً وسيأتي أمره لهم بأن يتحسسوا من يوسف وأخيه.

وأما قوله تعالى: ﴿قَضَىٰهَا﴾ فيحتمل أن المعنى قضاها الله، وقد مر ذكر الجلالة قريباً وهذا يناسب إذا كان المراد قضى الله حاجته بسلامتهم من العين أو غيرها، ويناسبه قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا﴾ ويناسب إذا كان المراد قضى الله حاجته بوجدان يوسف ثم بالجمع بينهما.

ويحتمل: أن الضمير ليعقوب عليه السلام أي قضى يعقوب الحاجة التي في نفسه بنهيهم عن دخولهم من باب واحد، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، فالمعنى: أنه كان محتاجاً إلى نهيهم المذكور وأمرهم المذكور فقضى بالنهي والأمر حاجته، وهذا يوافق في المعنى تفسير من قال: إنه خاف عليهم العين، أي أنه احتاج إلى استعمال السبب ليحفظهم الله، ويوافق تفسير الحاجة بتحصيل يوسف، أي أنه كان محتاجاً إلى أمرهم ونهيهم لقوّة رغبته في أن يتفقوا بيوسف عند دخولهم أو في القرية.

نعم.. والمشهور بين المفسرين: أنه خاف عليهم العين، وأن الحاجة سلامتهم منها، قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: هذا أمر يعقوب ـ صلى الله عليه ـ لجماعة بنيه حين خرجوا عنه مسافرين فخاف عليهم من النفس، وعيون الناظرين، فأمرهم عند دخول القرية بأن لا يدخلوا جملة واحدة لما كانوا عليه من كمالهم وكثرتهم وجمالهم، وكانوا أحد عشر رجلاً لم يُرَ مثلهم جمالاً ولا كمالاً، فخاف عليهم وأشفق ـ صلوات الله عليه ـ من أن يراهم أهلُ تلك البلدة مجتمعين جماعة واحدة على ما هم عليه من كمالهم وحسنهم وجمالهم، فأمرهم أن يتفرقوا، وأن يدخلوا من أبواب متفرقة؛ شفقةً عليهم من العين والنفس، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ يخبر سبحانه أن الحذر للنفس والعيون لا ينفع إلا بدفاع الله وتوفيقه ولطفه وحفظه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي وإن يعقوب صلى الله عليه لذو علم لما علمه الله، ولذلك كان يعلم أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً وأن الله هو الذي يحتاج عبادُهُ أن يتوكلوا عليه فينفعهم التوكل عليه، وكان عنده من علم النبوة ما علمه الله و(اللام) في قوله تعالى ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ تحتمل لام التعليل و(ما) مصدرية، وتحتمل لام التقوية لإيصال ﴿عِلْمٍ﴾ إلى معموله ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأكثرهم جاهل بأن الله غالب على أمره لا ينظر إلا إلى الأسباب الظاهرة، وهو غافل عن الله، وكذلك لا يعلم وجوب التوكل على الله ونفعه للمتوكلين عليه.

إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ

﴿٦٩﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ أي إخوة يوسف ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ جعل مأواه ومقرّه إليه في مسكن يوسف، قال لأخيه من أمه وأبيه، ويقال: اسمه بنيامين ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أي يوسف فخصه من بينهم بإيوائه إليه وبتعريفه أنه أخوه يوسف، ليطمئن قلبه على أخيه يوسف، وتسره سلامته ونعمة الله عليه، ويذهب عنه ابتئاسه، أي تأثره وغمه وضعفه بسبب ما كان إخوتهما يعملون.

وقوله: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ نهي عن ابتئاسه في المستقبل؛ لأنه قد زال السبب وصارا في عز ونعمة وتحرَّرا من إخوتهما ولعلهم قد ظلموهما فأراد ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إساءتهم إليهما إلى يوسف من قبل وإلى أخيه من بعد فيما مضى.

قال في (الصحاح): «ولا تبتئس: أي لا تحزن، ولا تشتك، والمبتئس: الكاره والحزين، قال حسان بن ثابت:

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس ... منه واقعد كريماً ناعم البال»

﴿٧٠﴾ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ ﴿جَهَّزَهُم﴾ أي للعودة إلى أبيهم ﴿بِجَهَازِهِمۡ﴾ الذي هو الحَب وما يحتاجون في استعدادهم للسفر وفي السفر ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ إناء يُشرب به ويستخدم للكيل، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «وهي مكيال يكال به ويشرب فيه» انتهى.

صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ

وهذا واضح من تسميته (صواعاً) وتسميته (سقاية) ﴿فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ في أداة السفر التي مع القتب، فهو الوعاء الذي فيه الحب ﴿ثُمَّ أَذَّنَ﴾ دعا بصوت رفيع ﴿مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ أي يا أهل العير أي الإبل الذاهبة ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ وهذا كلام يوجعهم ويحرك هممهم للتخلص من التهمة.

﴿٧١-٧٢﴾ ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي إخوة يوسف ﴿وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم﴾ على المؤذن ومن معه ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ ما الذي غاب عنكم ولم تجدوه فزعمتم أنا سرقناه.

﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ جعالة كالأجر لمجيئه بالصواع أي حمل بعير من الحبّ، والبعير يستعمل للواحد من الإبل ذكراً كان أم أنثى، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ أي وأنا به كفيل.

والجمع في ﴿قَالُواْ﴾ والإفراد في ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ لأن المؤذن قال عن نفسه وعمن حوله فشاركوه بالرضى فنسب القول الأول إليهم جملة، وأفرد في قوله ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ لأنه قاله عن نفسه خاصة، تأكيداً لالتزامه به وليرضي إخوة يوسف بوحدة غريمهم الملتزم بحمل بعير.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ أن مجيئنا للميرة لا ﴿لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بأخذ المكيال ولعله كان يحافظ عليه الملك؛ لأنه معيار للمكاييل في البلد، فإذا ضاع لم يعرف الناقص من المكاييل وكان ذلك سبباً لبخس الناس أشيائهم فهو فساد عام، وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ تنزيه لأنفسهم مما نسب إليهم.

إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي جزاء الصواع أي جزاء أخذه، أو فما جزاء سارقه ؟ ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ بانكشاف الصدق حين نبحث عنه في متاعكم ونعرف أنه مع أحدكم.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي إخوة يوسف ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي الصواع أو آخذه ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾ تأخذونه عبداً لكم عقوبة لـه ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ فقولهم: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ خبره محتمل أنه الموصول أي ﴿مَن﴾ وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي الجزاء الذي يستحقه، ويحتمل: أن ﴿مَن﴾ اسمُ شرط وهي وفعلُها وجوابها خبر المبتدأ، أي جزاء السرقة من وجدت في رحله فهو جزاؤها، والأول أظهر.

وقـولهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي نشـدد في عقوبـة الظـالمين أي عادتنا التشديد عليهم؛ لأننا ننكر الظلم ونحاربه.

﴿٧٦﴾ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف بأوعية إخوته لأبيه ففتحها يوهمهم أنه يبحث عن السقاية ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لأبيه وأمه فتمت الحيلة لأخذ أخيه وإبقائه عنده.

والذي أعتقد أن يوسف عليه السلام عرف أن أخاه كان مظلوماً بسبب غيرة إخوته وجرأتهم على أذية أبيهم، وأنهم كانوا يضربون بنيامين مثلاً ويتعللون بتأديبه أو نحو ذلك.

وكان يشق على أبيهم ظلمه جداً ولا يدري كيف يصنع؛ لأنه إن شدد عليهم في النكير ازداد حنقهم على بنيامين وخاف أن يدبروا حيلة لقتله فكان أبوهم يضطر إلى مصانعتهم فكان تخليص بنيامين من إخوته مطابق لغرض أبيهم، وكانوا يستحقون ما لحقهم من الغم بسبب التدبير من يوسف لأخذه والحيلة التي غمتهم أمداً يسيراً حتى تبين أن السقاية في رحل أخيه، أما أخوهم فقد عرف يوسف وأحب إيواءه له، فالحيلة لا تحزنه بل هي مطابقة لغرضه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي كدنا ليوسف مثل هذا الكيد ليخلص أخاه ويبعده عن ظلم أخوته، فهذا كيد ظاهر وحيلة ضد إخوته، الذين قالوا سابقاً: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ فكادوا ليوسف، وكان كيدهم ذلك كيداً ليوسف لا عليه؛ لأن تخليصه من ظلمهم وكيدهم أصلح له، ولو بقي عندهم لكان ظلمهم له مستمراً، أو لدبروا لقتله فكان غمه عند ظلم إخوته له وإنزاله في الجب وما تبعه أقل مما يناله لو بقي عندهم؛ فلذلك كان كيدهم ذلك كيداً له لا عليه.

وكذلك كيد العزيز وامرأته حين بدا لهم ليسجننه كان له لا عليه؛ لأنه قد اختار السجن ليتخلص من كيد النساء وبقاؤه في السجن لا يهمه مع سلامة دينه، وكونهِ سجناً خالياً عن التعذيب، ولم يفوّت عليه العمل بطاعة الله والدعوة إلى الله، وسلم من محنة مراودة امرأة العزيز مع شبابه، وكمال قوته.

فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا

فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ دبّرنا له تلك الحيلة التي بها أخذ أخاه، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ تعليل للحيلة التي تمكّن بها من أخذ أخيه أي لم يأخذه بغير حيلة ولا بحيلة يعرفها الملك؛ لأنه ما كان ذلك ممكناً؛ لأن الدولة تمنع من ذلك فاحتاج إلى الحيلة وقد هانت على إخوته؛ لأنها انتهت ببراءتهم من السرقة ولا يبالون بنسبتها إلى أخيهم، وأخوهم لا يبالي لمعرفته المراد بها، هذا في الإحتيال بجعل السقاية في رحل أخيه، فأما رميهم بالسرقة فهو قول المؤذن، ولعله بدون أمر يوسف، إنما أمر بالسؤال عن السقاية والبحث عنها إن كانت معهم، فظن المؤذن أنهم سرقوها، فلم يصدر الكذب من يوسف، والمؤذن مخطئ غير متعمد، وكذا قوله: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ مع أنه صدق في حق المؤذن ومن معه، ولعل يوسف لم يكن حاضراً في تلك الحال، إنما خرج إلى إخوته حين رجعوا وبلغه رجوعهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء لحالة تقتضي الرخصة ليوسف في أخذ أخيه بحق.

وقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ فهو إشارة إلى رفع درجة يوسف وأخيه لأبيه وأمه، وقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فقد كان يوسف ـ صلى الله عليه ـ يعلم من الوجه والحجة لأخذ أخيه ما لا يعلم الملك، ويعلم من الله بالوحي ما لا يعلم الملك ولا إخوته.

﴿٧٧﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾

أي إخوة يوسف لأبيه ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ أي أخوه لأبيه وأمه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ لأبيه وأمه أي نحن لا نسرق وليس من شأننا ولا يليق بنا؛ وإنما سرق هذا؛ لأنه على أمٍّ وحده غير أمّنا، وقد ﴿سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾ من أبيه وأمه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي لأنه كذلك ليس منا وإن شاركنا في الأب، كأنهم يعللون السرقة بانفرادهما بأم، لأن الإخوة قد يختلفون في الصلاح تبعاً لاختلاف أمهاتهم كما يُشاهد في بعض الناس.

وقد كان يكفيهم ظهور براءتهم من سرقة السقاية، ولم يكونوا محتاجين إلى هذا؛ لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى ولكنهم ما زالوا ظالمين ليوسف وأخيه، وهذا يؤكد استحقاقهم لما لحقهم من الغم لأجل الحيلة لأخذ أخيهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ أي أسر كلمتهم هذه ﴿فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ من بعد لحلمه وكرمه بل سكت عنها ولم يعاتبهم عليها مع أنها كذب على يوسف وبدون ضرورة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي قال يوسف رداً لكلام إخوته وإظهاراً لعدم تصديقهم فيما نسبوا إليه وإلى أخيه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي أن حالتكم وما أنتم عليه من الفقر والعناء ومتابعة الأسفار لطلب القوت قد تحمل صاحبها على السرقة، أما أخوكم هذا فلم يشارككم في السفر إلا هذه المرة وكان في رعاية أبيه، فهو أبعد عن الحاجة إلى السرقة، وكذا أخوه لم يشارككم في حالتكم المذكورة، ولم تظهر منه الحاجة إلى أن يسرق، فأنتم شر منهما مكاناً ومنزلة وحالة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وتدعون لأنفسكم وضد أخويكم أنتم فيه صادقون أم كاذبون.

مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ هذا يفيد أن بنيامين كان صغيراً بحيث يكون أبوه شفيقاً عليه ويصعب عليه فراقه لصغره، فكان قولهم: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا﴾ كافياً في استعطاف العزيز؛ لأنه يرى أخاهم ولا يحتاج إلى أن يصفوه بالصغر وهذا يدل على أن المدة لم تطل في غياب يوسف عن أبيه كما قيل إنها كانت أربعين سنة؛ ولعلها لا تزيد على أربع عشرة سنة على أقل تقدير؛ لأن بنيامين كان موجوداً قبل غياب يوسف فلو كان غياب يوسف أربعين سنة لكان بنيامين قد صار كهلاً.

﴿٧٩﴾ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف، فالراجح: أنهم أرادوه وهو على خزائن الأرض بقولهم: ﴿يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ ولو أرادوا الملك لقالوا يا أيها الملك ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله من ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي السقاية ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ لو أخذنا غيره ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ لمن أخذناه لأنه بريء ويأتي ما يدل على أنهم يقولون ليوسف: ﴿يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ لأنهم لما يعرفوه.

﴿٨٠﴾ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ

إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ

ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ ﴿ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾ من العزيز الذي هو في الواقع يوسف أيسوا منه أن يرسل بنيامين معهم؛ لأنه لم يقبل منهم استعطافاً لأبيهم ولا فدية بواحد منهم ولعل فائدة زيادة [السين، والتاء المثناة من فوق] ولم يقل: فلما أيسوا، الدلالة على أنهم غلبهم اليأس واستسلموا لـه بعد مدافعته.

وقوله تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ خلصوا من بين الناس وانفردوا ﴿نَجِيّٗا﴾ متناجين أي متسارّين يخفون ما يقولون عن العزيز وغيره ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ لإخوته ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو قوله: ﴿حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَنِي بِهِ﴾ وقال كبيرهم لهم: ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ﴾ أي وتفريطكم في يوسف من قبل، فكيف يصدقكم أبوكم ولا يتهمكم بالتفريط في بنيامين كما فرطتم في يوسف.

وقوله: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي لن أفارق قرار الأرض أي أني أبقى ولا أعود إلى أبي على هذه الحالة، وقوله: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تعبير عن عدم العودة، من حيث هو تعبير عن ترك ركوب البعير، فكأنه قال: لا أركب إلى أبي ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بالعودة ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ بوحي إلى أبي أن أرجع ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ فهو يعلم براءتي في هذه المرة.

﴿٨١﴾ ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ﴾ أي قال كبيرهم لإخوته ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ صواع الملك فغلبنا

﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ

عليه ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ أنه سرق ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ولم يكونوا عالمين أنه سرق؛ لاحتمال أن الصواع وضعه في رحل أخيهم غيرُه، أو أنهم كالوا الحب به ونسوه بين الحب، أو جعله الكيَّال فيه غلطاً أو غير ذلك، فهم لم يعلموا إلا أنه كان في رحل أخيه وأنهم هم الذين حكموا بأخذ من وجد في رحله ولم يقولوا: من سرقه؟

وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي أن سرقته للصواع خفيت علينا وغابت ولم نعلم بها إلا حين أخذه العزيز من متاع بنيامين فكيف نحفظ ما هو غيب ونحن لا نعلم الغيب، فلا إثم علينا بسبب العهد ولا بأخذ العزيز لبنيامين.

﴿٨٢﴾ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي قولوا لأبيكم: ﴿وَسْـَٔلِ﴾ أهل ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ فهم يعلمون أن ابنك سرق، وأهل العير ﴿ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي أهل الإبل الذين صحبناهم في العودة إليك ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ لم نكذب في قولنا: إنه سرق.

﴿٨٣﴾ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي قال أبوهم حين رجعوا إليه وقالوا له من القول ما أمرهم أخوهم الذي تخلّف قال لهم أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي ليس الواقع ما قلتم فابني لم يسرق بل سولت لكم أنفسكم أمراً سهلته وزينته لكم.

يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

وهذا صحيح فإنهم غلطوا في حكمهم ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ ثم أتْبَعوه التسليم بأن بنيامين سرق الصواع استمراراً في الغلط وكان هذا مطابقاً لهوى أنفسهم في بنيامين الذي ما زالوا يحسدونه على حبّ أبيهم، ولولا هوى نفوسهم لكان ينبغي لهم أن يحيلوا حكم من سرقه إلى العزيز، فيقولوا: جزاؤه ما حكم به العزيز عليه، ولا يحكموا بعبودية أحدهم وأخذ العزيز له، وهم يعلمون أن تخلف أحدهم لا يُرضِي أباهم، ولكن سولت لهم أنفسهم التظاهر بكراهة الظلم وبحب العدالة والرغبة في زجر الظالم ادعاءً منهم لأنفسهم مالا يحتاجون إليه في الإنصاف في مسألة الصواع، فقد صدق أبوهم في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فشأني أو فالذي يكون مني في هذه الحالة وعند هذه المصيبة صبر جميل، وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أرجوا الله أن يأتيني بالثلاثة قريباً ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين غير مفترقين وهم يوسف وبنيامين وكبيرهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو العليم بأحوالنا كلنا وبما أنا فيه من الحزن وهو الحكيم في تركنا مفرقين وابتلائنا بذلك، والحكيم في جمعنا بعد التفرق وانتهاء البلوى.

﴿٨٤﴾ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أبوهم ﴿عَنْهُمْ﴾ لانتهاء الكلام بينه وبينهم في هذا الموضوع، وقال ﴿يَٰأَسَفَىٰ﴾ أسفاً ـ بالألف ـ بدلاً من ـ الياء ـ في (أسفي).

قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ

في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «والأسف: أشد الحزن» انتهى، وقوله: ﴿يَٰٓأَ﴾ مثل قولك: (وا) في قولك: (واراساه) ومنه قول الشاعر:

حُمّلتَ أمراً عظيماً فاصطبرتَ له وقمتَ فيه بأمر الله يا عُمرا

وفائدة قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ حين تولى عنهم وهم يسمعون: أن يعلموا مدى جريمتهم وأنه لم ينسَ يوسف بسبب فراق بنيامين وكبيرهم، بل لا زال الأسف عليه باقياً في شدته أشد من بنيامين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ أي ذهب سوادهما وبَصَرهما من حزنه ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ مملوءٌ بالحزن، ولا حاجة إلى أن نقول: ابيضت عيناه من البكاء؛ لأن الحزن نفسه يضر البصر كما أن السرور يقوّيه.

﴿٨٥﴾ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي أبناؤه الحاضرون عنده يتظاهرون بأنهم يريدون من أبيهم أن يُبْقيَ على نفسه ويحافظ على حياته وقوّته ﴿تَٱللَّهِ﴾ قسم مثل بالله، وفيه معنى التعجب من أبيهم واستمراره على ذكر يوسف أي تذكّره ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ أي لا تفتؤ أي لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي حتى تضعف وتَبلَى وتشفي على الهلاك أو تهلك حقيقة كسائر الهالكين.

وفي (تفسير الإمام زيد عليهما السلام): «فالحرض: هو البالي الفاني، ويقال: الحَرَض الذي أذَابَهُ الحُزن والشوق، والهالكون: الميتون» انتهى.

﴿٨٦﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ أبوهم جواباً عنهم: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ قال في (الصحاح): «البثّ: الحال والحزن» انتهى المراد، وقال فيه: «بَثّ الخبر وأبثّه، بمعنى أي نشره» انتهى.

لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ

وقال الراغب: وقوله ـ عزّ وجل ـ : «﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ﴾ أي غمي الذي يبثه [كذا] عن كتمان» انتهى، وقال في (الكشاف): «والبَثّ أصعب الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس» انتهى، وفي (لسان العرب): «والبَثُّ: الحزنُ والغمّ الذي تُفضي به إلى صاحبك» انتهى المراد.

فقد اتفق كلام (صاحب لسان العرب) والراغب، ولم يعارض كلام صاحب (الصحاح) لأن الغمّ حال فهو أقوى في التفسير لهذه الآية، وكان يعقوب عليه السلام مظنة الغم لشدة شوقه إلى يوسف؛ لأنه يعلم أنه ما زال حيّاً، والشوق يؤدي إلى الغم من الحال الذي فيه المشتاق، أي من فُقْدِ ما هو إليه مشتاق، فاجتمع الغم والحزن.

وحاصل جواب أبيهم: إنما أشكو غمي أو حالي وحزني الذي أبثّه بقولي ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ إلى الله لا إليكم، وليس كلامي موجهاً إليكم حتى تجيبوه ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فلذلك أشكو إلى الله ليفرج عني ما أنا فيه من الحال، وأنتم بجهلكم تنكرون علي؛ وذلك لأنه بسبب علمه ببقاء يوسف، وقد طال غيابه اشتد حزنه عليه لشدة حبه له.

﴿٨٧﴾ ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يقول نبي الله يعقوب ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ أي إلى مصر ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: تخبّروا» انتهى، أي اطلبوا خبراً عنهما.

وقال الشرفي في (المصابيح): «والتحسس: طلب الشيء بالحاسة، وهو شبه التسمُّع والتبصر، والمعنى: تعرّفوا وابحثوا عنهما» انتهى.

وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠

وقوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تزالوا راجين لروح الله وفرجه، وقال الراغب: أي من فرجه ورحمته ـ وهو صحيح ـ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأنهم أساءوا الظن بالله ونسوا كرمه وفضله؛ لأنهم كفروا نعمته التي ستكون وجحدوها بناء على سوء ظنهم بربهم.

وقد مر قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود:٩] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:٤٨] ويحتمل: أن كفره هو كفر النعمة الماضية؛ لأنه نسيها وصيرها كأن لم تكن؛ لأنه لو اعترف بها في نفسه، وذكر أنها نعمة من الله لما نفى أن يكون مثلها في المستقبل برحمة الله وكرمه.

ولعل هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ فيظهر: أن ذلك كفره لما أذاقه ربه من رحمته، فنبي الله يعقوب ينهى بَنِيه عن اليأس من رَوح الله لكونه كفراً، مع أن اليأس يثبط عن طلب الشيء المأيوس منه، كما أن رجاء تحصيله يقوي إرادة طلبه.

﴿٨٨﴾ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أرسلهم أبوهم للبحث عن يوسف وأخيه فذهبوا للميرة وكلاهما مراد لأبيهم أمّا هم فكأنه قد غلب عليهم اليأس مع قلة رغبتهم في وجدان يوسف أو عدم الرغبة؛ لأنهم قد أساءوا إليه في الماضي؛ ولأنهم يغارون منه، وفي كلامهم هذا الإعتراف بضعف الحال، والتذلل بطلب الصدقة.

وقولهم: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ هي البضاعة التي أرجعها يوسف، وكأنهم ظنوا أنه أرجعها احتقاراً لها، والمزجاة المدفوعة التي يدفعها الذي تعرض عليه لعدم رغبته فيها.

وقولهم: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي لا تنقص الْحَبَّ لحقارة البضاعة، والمراد بالكيل هنا الحب، أرادوا أن يوفي أحمال الإبل وإن كانت البضاعة لا تساويه، قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي بما زاد على ما تساويه البضاعة، وليس المراد أن لا يغشهم في كيل الحب، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ترغيب له في أن يتصدق عليهم ولا يقتصر على ما تساويه البضاعة.

(٨٩) ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ﴾ ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ ذنبكم هذا وعِظَمَ ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ فالسؤال عن علمهم بما فعلوا من حيث أنه جريمة عظيمة؛ لأنهم قد علموا ما فعلوا لكنه يسألهم هل علموا حقيقة ما فعلوا ومعناه من حيث هو ظلم ليوسف وأخيه وعقوق لأبيهم، وليس المعنى هل تذكرون؛ لأن ﴿عَلِمْتُم﴾ فعل ماض ولأن من يقدّر أنه قد نسي يقال له: هل تذكر.

ومثل هذا قول كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ يريد تذكيرهم بحكم العهد وقبح النكث، وأن أباهم يحملهم عليه؛ لأنهم قد فرطوا في يوسف من قبل، وليس يريد مجرد تذكيرهم بالعهد، وأما قول يوسف: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ﴾ فهو يعني: وأنتم يوم فعلتم ذلك في سن الجهالة لم تبلغوا رجاحة العقل، وهو بهذا يؤمنهم ليأملوا منه أنه لا يعاقبهم.

يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا

﴿٩٠﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ قد أنعم علينا بخير الدنيا والآخرة أي بخير الدنيا والدين ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿مَن يَتَّقِ﴾ الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على تقواه وعلى ما ابتلاه به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي فإن الله لا يضيع أجره؛ لأنه محسن، وكأن هذا تنبيهٌ لهم أنهم لو اتقوا الله وصبروا ما نالهم من سوء الحال والذلة ما نالهم.

﴿٩١﴾ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ لقد خصك بما لم يجعل لنا من النعمة والشرف والعزّ، وقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ اعتراف بالجريمة فهو جواب جملي عن قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف ـ صلى الله عليه ـ لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ قال (في تفسير الإمام زيد عليه السلام): «أي لا لوم عليكم».

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لعله يعني: أنه لا حاجة اليوم إلى اللّوم لكم فلا ألومكم؛ لأنه قد كفاهم ما شهدوا في أنفسهم من سوء الحال وما شهدوا في يوسف من العز والشرف مع أنهم في الأصل يحسدونه فلم يستفيدوا من الحسد إلا سوء الحال والذنوب، ولم يستطيعوا رد فضل الله على يوسف،

وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ

فحق لهم أن يلوموا أنفسهم، مع أن الحلم عنهم والإحسان إليهم أقرب لهم إلى التوبة والصلاح، وهذا غرض نبي الله يوسف، ولا غرض له في التشفِّي منهم؛ لِحِلْمه وكرمه، ورغبته في ثواب العفو.

وقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دعاء لهم بالمغفرة وتنبيهٌ لهم على حق الله عليهم وأنه لا يكفيهم عفو يوسف بل هم محتاجون إلى مغفرة الله، فعليهم أن يتوبوا إن لم يكونوا في تلك الحال قد تابوا، ولا بأس بالدعاء بالمغفرة للحي الذي يرجى صلاحه وتوبته على معنى الدعاء بالتوفيق والهداية للتوبة لا على معنى طلب المغفرة بدون توبة.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ترغيب لهم في رحمة الله العظمى التي هي قبول التوبة وصرف عذاب جهنم وإدخال التائب الجنة خالداً فيها أبداً فهي رحمة لا تعادلها رحمة ولا تُدانيها.

﴿٩٣﴾ ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال يوسف لإخوته ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ قوله: ﴿هَٰذَا﴾ يشير إلى قميص معيّن؛ لأن له غيره، ولعله اختار الذي هو حديث عهد بلبسه وقد لبسه كثيراً ففيه ريح يوسف.

وقوله: ﴿فَأَلْقُوهُ﴾ أي القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ﴾ إلى مصر إلَيَّ في حال كونه ﴿بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتسكنوا هنا في مصر حيث تتوفر لكم أسباب المعيشة، وتتخلصون من الضر الذي شكوتموه، وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لتأكيد العموم، ولعله لئلا يتوهموا أنه أراد إخوته وأولادهم لأجل الرحامة دون نسائهم الأجنبيات.

﴿ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾

۝٩٤ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ ﴿فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ خرجت من القرية وانفصلت عنها وهي في أول سفرها إلى أبيهم ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لأجد رائحة يوسف ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ لولا أن تخطّئون.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ أي قطعت القرية وانفصلت منها وخرجت الإبل من المدينة وبانت عنها أهبّ الله الرياح برائحة يوسف إلى أبيه، ونقلت أجزاء [في نسخة (المصابيح) أخزاء، ولعل الأصل أجزاء] من قميص ولده إليه فقال حينئذ ـ صلوات الله عليه ـ لمن حضره ومن كان معه من بنيه ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تخطّئون [في الأم من (المصابيح) تحيطون وهو غلط واضح] في ذلك وتجهّلون، والفَنَد: هو الخطأ والجهل، قال الشاعر:

إلا سليمان إذ قال المليك له ... قم في البريّة فاحددها عن الفند»

انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «وجدها من مسيرة عشرة أيام» انتهى.

۝٩٥ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ قال الموجودون من بنيه: ﴿تَٱللَّهِ﴾ قسماً فيه معنى التعجب من أبيهم واستمراره على تذكر يوسف كما أنكروا عليه في قولهم: ﴿تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾.

ومعنى ﴿لَفِي ضَلَٰلِكَ﴾ أي ضعف الإدراك الناتج عن كبر السن كقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقولهم: ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾ لعلهم يريدون تذكره منذ فارقه حين ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه ﴿فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾.

ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ

﴿٩٦﴾ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ بيوسف وقرب لقائه ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي القى القميص على وجه يعقوب ـ صلى الله عليه ـ ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ بعد العمى ﴿بَصِيرًا﴾ ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام لبنيه الحاضرين ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ سابقاً ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقد كنت أعلم أن يوسف ما زال حياً وذلك بإعلام الله لي.

﴿٩٧ـ٩٨﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ عند انكشاف الحقيقة لهم بوجود يوسف وإيثار الله له، وقوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بان كذبهم في قولهم: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وبان أنهم كادوه وعقُّوا أباهم فيه، لم يبق لهم مجال إلا أن يتوبوا ويتركوا الحسد والكيد، فقالوا توصُّلاً إلى التوبة الصادقة النصوح: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا..﴾ الخ.

وعلى هذا: فمعنى استغفار أبيهم لهم: طلب هداية قلوبهم حتى تساعدهم على التوبة النصوح بصدق الندم لأجل قبح المعصية وحق الله عليهم، وبصدق الإقلاع عن الحسد وتوابعه، والعزم على تقوى الله في كل شيء، أو توصلاً إلى قبولها ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ أي اطلب المغفرة لنا إنا كنا مذنبين، فنحن محتاجون إلى مغفرة ذنوبنا.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ لعله يعني وقت السحر وبظهر الغيب عناية منه لقبول استغفاره لهم ورحلوا إلى يوسف.

إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞رَبِّ

﴿٩٩﴾ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ تلقّاهم يوسف خارج مصر ونزل خيمةً أو منزلاً أو نحو ذلك لاستقبال أبويه ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ أي أبواه وإخوته عليه ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ أي ضم إليه ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ فهما عنده أقرب إليه من غيرهما.

وما يقال: إن أبويه هما أبوه وزوجة أبيه وليست أم يوسف غير مسلّم؛ لأنه خلاف ظاهر القرآن ولا وجه للعدول عن الظاهر بلا دليل، مع أنها الصغيرة فيما نعتقد؛ لأن ابنيها هما الصغيران فهي مظنة أنها الباقية إلى ذلك الحين دون أمّ إخوة يوسف ﴿وَقَالَ﴾ يوسف لأبويه وإخوته: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وهذا يشير إلى أنهم كانوا قبل ذلك مكروهين عند دولة مصر بسبب اختلاف الدين سابقاً، لكنها قد تبدلت الحال بنصر الله ليوسف وحسن سياسته، فصاروا غير معادين ليعقوب وبنيه لأجل مكانة يوسف، وقال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأنه مستقبل، ولو شاء الله لجعل سبباً لخوفهم.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ﴿وَرَفَعَ﴾ يوسف ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ أباه وأمه ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ على السرير ولعله رفعهما عنده، كقوله تعالى: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾.

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ ﴿خَرُّواْ﴾ هـووا إلى الأرض ﴿سُجَّدًا﴾ لـه، إما بمعنى من أجله، أي شكراً لله على أن أوصلهم إليه بعد طول غيابه وهذا هو الذي رجحه الشرفي في تفسيره، والمشكل هو سجود أبويه، فأما سجود إخوته لا على معنى العبادة فغير بعيد، وقد مر الكلام فيه، وإما بمعنى: تشريف يوسف، وإقرار رئاسته جرياً على عرف البلد، واتقاء لإنكار الناس عليهم لو خالفوا العرف لا بمعنى العبادة، ووقوعه من أبيه لضرورة الحال مع اختياره للتواضع، مع كونه أعلم من غيره بفضل ابنه واستحقاقه للتعظيم.

ومن الجائز أن الله أمره بالسجود ليتواضع وعلى هذا لا ينكر سجوده لابنه ﴿وَقَالَ﴾ أي يوسف ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا﴾ أي السجود ﴿تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ يقرّب إلى أن سجودهم له كان بأمر الله تعالى ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ إما أحسن إلي وإما مضمن أحسن لطف.

وقد قيل: إنه يقال: أحسن به كما يقال: أحسن إليه في اللغة، وقوله: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ لعله يعني إنعام الله عليه حين أخرجه من السجن مشرفاً مبرأً من العيب لا مجرد إخراجه من السجن.

وقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ جعله من إحسان الله به، والبدو: سكان البادية أهل الأنعام الذين يتبعون بها مواضع المرعى والماء وهم خلاف أهل القرى والمدن ولعله أراد نعمة صلاح مصر لسكناهم فيها وسقوط وجوب الهجرة عنها بمصيرها دار إسلام فلم يبقَ موجب لبقائهم في البدو.

قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي جمع الله بيننا هنا ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي تفرقنا بسبب أن نزغ الشيطان ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي من بعد كيد إخوتي الذي سبَّب الفراق الطويل وخفاء مكاني على أبي، وقال: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ فراراً من التثريب عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي بصير به ولو بتسبيب خفي غامض ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه تسبيب الأسباب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو يهيء ما تقتضيه حكمته وأفعاله كلها محكمة.

﴿١٠١﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ شكراً للنعمة وتقدمة للدعاء، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ لأن ملِك مصر شركه في الملك بجعله على خزائن الأرض.

وقوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ شكر على تعليم نفعه في السجن وسبَّب لإخراجه من السجن ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يا فاطر السموات والأرض الذي خلقها ابتداء ﴿أَنتَ﴾ يا الله ﴿وَلِىِّۦ﴾ ولي أموري ومصالحي ورعايتي أو مالكي المدبر لأموري ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ بريئاً من الشرك مسلماً لك وجهي ونفسي ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في درجات الآخرة.

وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى

ولعله عليه السلام بدأ بذكر نعمة الملك وتأويل الأحاديث لئلا يكون الكلام في صورة التضجر من حالته التي هو فيها والإحتقار لنعمة الله عليه بما آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث، ولو كان السياق لذكر نعم الله عليه لكان ذِكْرُ نعمة الهداية والعصمة أهم من غيره.

﴿١٠٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ القصص بالحق ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فهو دليل على أنك نبي يوحَى إليك وأن هذا القرآن من الله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ سراً بينهم ودبروا مكيدتهم أو عزموا عليها ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يكيدون ليوسف وأبيه فما علمت هذا القصص الكامل المفصل المشتمل على خفي الحوادث المكتومة ما علمته وأنت لم تكن تقرأ كتاباً ولا تخطه بيمينك، إنما نشأت بين الأميين ما علمت ذلك القصص إلا بوحي الله إليك.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ قال الشرفي في تفسيره: «أي أحكموه» وقال الراغب: «وأجمعت كذا، أكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوصل إليه بالفكرة نحو: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس:٧١] قال الشاعر:

هل أغزوَنْ يوماً وأمري مُجْمَع

وقال تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾» [طه:٦٤]» انتهى.

وقال في (الصحاح): «ويقال: أجمع أمرك ولا تدعه منتشراً، قال الشاعر:

تُهِلُّ وتسعى بالمصابيح وسْطها ... لها أمـر حـزمٍ لا يفـرَّقُ مُجْمَع

ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ

وقال آخر:

ياليت شعـري والمنى لا تنفـع هـل أغدون يوماً وأمري مُجْمَعُ»

انتهى المراد، وفي (الصحاح): «قال الكسائي: يقال: أجمعت الأمرَ، وعلى الأمر: إذا عزمت عليه» انتهى.

وفي الرواية عن النبي ﷺ: «لا صيام لمن لم يجمع الصيام من الليل» والراوي عربي اللسان، والمعنيان متقاربان، ولعل جعله بمعنى العزم خاص بالفرد من الناس، كما في تعبير الكسائي ولفظ الرواية، أما إذا نسب إلى الجمع، فالظاهر: ما ذكره الشرفي بمعنى ما ذكره الراغب و(صاحب الصحاح).

فحاصل المعنى: وما كنت يا محمد لدى إخوة يوسف إذ أبرموا كيدهم عند تشاورهم، وأجمعَ رأيُهم على إنزال يوسف ﴿فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾ وكان ذلك سراً فيما بينهم، فما علمته يا محمد إلا بوحي الله إليك.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن آيات الله قد دلت على رسالتك وأكثر الناس لا يؤمنون، وإن تَبيَّنَ أنك رسول الله ولو حرصت على إيمانهم فلا تتعب نفسك بالحرص على إيمانهم.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ فهذه زيادة حجة عليهم أنهم لا يخافون من اتباعك مغرماً يثقلهم ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ تذكير ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ لينتبهوا من غفلتهم ويتفكروا فيؤمنوا.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ وكم من آية ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾

مما يدل على قدرة الله تعالى وسعة علمه وإحاطته بكل شيء كالشمس والقمر وسيرهما في بروجهما على نظام مستمر محدد كتحديد الساعة تقطعها الشمس في سنة وتقطعها القمر في شهر، وفي انتقال الشمس في منازل تأتي لأهل الأرض الفصول الأربعة صيف، وخريف، وشتاء، وربيع.

وكم من آية في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ كتجهيزها للإنسان بجعلها صالحة للسير على ظهرها والأسفار الطويلة، والبناء للمساكن والحرث، وجعل الماء فيها للناس وأنعامهم والحرث لينبت لهم الزرع وغيرهم، وغير الحرث ليكون فيه المرعى لأنعامهم، وقد نبَّه القرآن على هذا، وكشف العلم الحديث عن آيات، وكل ذلك نِعَم للإنسان، وتيسير لأسباب معيشته.

فكم من آية ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يشاهدونها في حال غفلتهم وهم معرضون عنها، ومعنى المرور عليها إما مجموع مشاهدتها مع ترك التفكر فيها والإنتقال عن مشاهدتها كمن يسير في طريق فيرى شيئاً عن يمينه أو شماله ولا يقف ليتأمله، بل يمضي كأنه لم يرَه حتى يخلفه وراءه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] ويحتمل في قوله تعالى: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أنه سير حقيقي يشاهدون فيه آيات كثيرة فيخلفونها وراءهم كأنهم لم يروها، والأول أقرب عندي من أجل آيات السموات فالمرور عليها معنوي ـ والله أعلم.

(١٠٦) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر الناس ﴿بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بالله فهم يعلمون أن الله الذي خلقهم ورزقهم، وأنه ربهم المالك لهم، وأنه قادر على كل شيء، وعالم بكل شيء إلى آخر أسمائه الحسنى جملة أو تفصيلاً ولكن مع هذا يجعل لله شريكاً في إلاهيته أو في حكمه فيعبد غيره.

ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «هم قوم شبّهوا الله بخلقه فأشركوا من حيث لا يعلمون» انتهى.

ومعنى هذا: أنهم يعبدون صورة يتوهمون أنها هي الله، وإيمان المؤمنين بالله حجة عليهم، وقد تكرر في القرآن الكريم الإحتجاج عليهم [انظر الآيات في سورة المؤمنين من آية ٤٧ إلى غاية آية ٨٨] وفي (سورة الزخرف): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [آية:٩] وإيمانهم قد دلّت الآية على أنه قاصر عن الإيمان الذي يَبْعَثُ صاحبَه على العمل بما يدعو إليه فهو مجازي، بمعنى التصديق والإقرار بالله بقلوبهم وألسنتهم.

﴿١٠٧﴾ ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ أي المشركون مع إيمانهم بالله أن تأتيهم غاشية تغشاهم وتعمهم، وهي عذاب من عذاب الله العاجل في الدنيا ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة فلا تُقبل منهم توبة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بقربها لم يشعروا إلا بمفاجأتها.

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ التي أسلكها وأمضي عليها لا أنحرف عنها ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ عبادَ الله ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليؤمنوا به وينزهوه عن الشريك ويعبدوه وحده لا شريك له ويتّقوه ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عما يصف المشركون ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل أنا بريء منهم.

ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا

وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أي اتبعني في ديني الذي أدعو إليه فهم يدعون إلى الله، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على علم يقين بأني على الحق؛ لأني على بينة من ربي وكذلك من اتبعني في ديني الذي هو دين الله فهو على بصيرة من ربه؛ لأنه على بينة من ربه وهي هذا القرآن، فهم في دعوتهم إلى الله على بصيرة، وهي مستمرة بعد وفاة الرسول ﷺ ممن اتبعه، وعملوا بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

﴿١٠٩﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لم نرسل إلى الأمم ملائكة كما يقترح الكفار ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ لا يعلمون الغيب بل صحت رسالتهم وأمكنت بالوحي ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ليكونوا معروفين بين أهل القرى، أما البدو فقد يكونون مجهولين لا يعرفهم إلا القليل من الناس.

وأما نبي الله يعقوب إن كان رسولاً فلعله كان من أهل القرية، ثم هاجر عنها لما لم يؤمنوا به كما هاجر إبراهيم عليه السلام وكذلك يوسف عليه السلام أرسل إلى أهل مصر بعد أن صار منهم، وأما إخوته فلم يثبت أنهم من الرسل، وإن صح أنهم صاروا أنبياء بعد توبتهم فلم يصح أنهم رسل، والله أصدق القائلين، قد أخبر بأنه لم يرسل إلا من أهل القرى.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

أفلم يسرِ المكذبون بك يا رسول الله في الأرض فيروا آثار الذين من قبلهم حيث كانوا ساكنين فينظروا كيف كان عاقبتهم بسبب تكذيبهم لرسلهم ففيهم

ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

عبرة لهم لو اعتبروا بهم لأنقذوا أنفسهم من عذاب الله ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهي الجنة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ لأنها مأواهم فهي خير من الدنيا وأغراضها وما شغل به المكذبون من متاعها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حيث لم تطلبوا ما هو خير لكم وتتقوا سبب عذابكم، بل أنهم يعقلون ولكنهم أهملوا عقولهم، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تبكيت لهم واحتجاج عليهم بالعقول.

﴿١١٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنْجِيْ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال الشرفي ﵀ في (المصابيح): «﴿حَتَّىٰٓ﴾ متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام، كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استيأس الرسل» انتهى المراد.

قلت: الأولى أنها كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤] فالمعنى: وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً تحملوا الرسالة وصبروا عليها حتى إذا استيأسوا وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي أيسوا، وكأن زيادة الصيغة بصيغة استفعلُوا للدلالة على أنه لم يكن من شأنهم اليأس، وإنما أوقعه بهم سببٌ موجِبٌ لليأس فاستسلموا له، وذلك مثل نزول الوحي على الرسول منهم ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ﴾ فلعله ظنهم أن قومهم قد صرحوا برميهم بالكذب على الله؛ لأنهم كانوا من قبل يستحيون من الجزم

بكذبهم، ويكتفون بمثل قولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود:٢٧] ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣] ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء:١٨٦] ونحو هذا فلما طالت المدة تجرؤوا على الجزم بكذب رسلهم.

ألا ترى إلى قوله تعالى في رسوله نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:٢٦] ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ وقوله تعالى في رسوله هود عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء:١٣٩] وفي رسوله شعيب: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء:١٨٩] وغير هذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُواْ﴾ يؤخذ منه أنه يجيء نصرهم عند ذلك؛ لأن قومهم قد كذبوهم وإن لم يسمعوه إلا من بعضهم أو وإن لم يسمعوه أصلاً وقد سمعه الله.

فإن قيل: فكيف بقوله تعالى حاكياً عن نوح عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ..﴾ [الشعراء:١١٧] إلى آخر الآيات؟

قلت: يحمل على أنهم كذبوه قبل أن يسمع منهم التكذيب وجاءته عند ذلك مبادئُ النصر وأوائلُه، وأن دعاءه عليهم كان بعد ذلك حين سمع التكذيب ـ والله أعلم.

وقال الشرفي في (المصابيح): «ومن رواية القاسم بن إبراهيم عليه السلام عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: فهو استيئاسهم من إيمان قومهم، وظنُّهم فهو ظنهم لمن أعطاهم الرضى في العلانية أنه قد كذّبهم في السر وذلك لطول البلاء عليهم ولم يستيئس الرسل من نصر الله، ولم يظنوا أن الله قد أخلفهم ما وعدهم» انتهى.

لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٖ وَهُدٗى وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

وقوله تعالى: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي جاء الرسلَ نصرُنا بتعذيب المكذبين لهم، وقوله تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ أي من نشاء أن ننجيه، ولعله هنا بمعنى الرسل ومن آمن بهم أنجاهم؛ لأنه قادر على إنجائهم في حال إهلاك قومهم فأنجاهم بمشيئته بأي وسيلة شاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولم ينجَ المجرمون من العذاب عند نزوله عليهم لا بقولهم: ﴿آمَنَّا﴾ حين رأوه ولا بأي وسيلة؛ لأنه ﴿لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿١١١﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٖ وَهُدٗى وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي﴾ قصص الرسل المذكور في القرآن عبرة لأولي الألباب أي لأهل العقول نافعة لمن استعمل عقله فاعتبر بها ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما كان القصص ذلك ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ بل هو الحق ففيه العبرة.

ولكن ذلك القصص ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتاب الذي هو التوراة أو التوراة والإنجيل؛ لأن فيه ما يصدق قصصاً فيها فذلك دليل على أنه من الله أنزله على رسوله محمد ﷺ لأنه لم يكن يتلو من قبل القرآنَ كتاباً ولا يخطه بيمينه، وهو نشأ أمّيّاً في أمّة أمّيّين، فلا يُعقَل أن يعلم قصص القرآن إلا بوحي من الله.

والأقرب: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ بمعنى ما كان القرآن الذي فيه القصص حديثاً يُفترى، بدليل بقية الآية قوله تعالى:

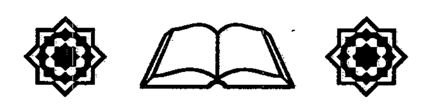
﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي وتفصيل بيان كل شيء أي جعله مفصلاً لتُفهم بتفاصيله دلالاتُه.

وقوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كقوله تعالى في (التوراة): ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] وقوله تعالى في مَلِكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣] وهي عبارة تُستَعْمَل للدلالة على الكثرة وكثرة الأنواع، والمراد تفصيل كل شيء من علوم الدين التي تحتاج الأمة إلى جعلها في القرآن مفصلة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان:٣] فهم الذين يهتدون ويرحمون بالقرآن؛ لأنه ينقذهم من النار، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير (سورة يوسف) بعون الله

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم



فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

محتويات الجزء الثالث

